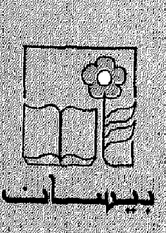
أحمد شومان









الزمن الرديء



أحمد شومان

الزّمن الرّديء



* الزمن الرديء

* تأليف: أحمد شومان

* الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع

□ ص.ب ٥٢٦١ ـ ١٣ بيروت ـ لبنان

□ هاتف ٣٥١٢٩١ ـ فاكس ٧٤٧٠٨٩ ٩٦١١

مقدمة بقلم يوسف الأشقر

الزّمنُ الرديءُ يُطارِدُنا حتى السَّاعة.

من قال إنّ الزَّمنَ الرديءَ مات؟ إنَّه حيٌّ يُرزَق. ورِزقُهُ وفيرٌ، إلى عمره المديد.

الزَّمنُ الرديءُ، بطبيعتِهِ، يُطارِدُ مَنْ لا يُسَلِّمُ بالرَّداءة ولها. فالرَّداءةُ إعتداءٌ. كان أحمد شومان ضحيةً لاعتداءاتِ الزَّمنِ الرديءِ ورِجالاتِهِ. طاردوه وكِتابَه في السِّتِّينات حتى بيعَ الكتابُ بالكيلو في السُّوقِ ذاتِها التي بيعَتْ فيها كراماتُهم بالأطنان.

هذا وجهٌ في القضيّة، حيث يبدو أحمد شومان ضحيَّةً بريئة. أمَّا الوجهُ الآخرُ، الحقيقيُّ، فهو أنَّ أحمد شومان لم يكنْ بريئاً، ولم يكنْ، في الغالِب، ضحيَّةً. كان جلاّداً للزَّمنِ الرديءِ ورِجالاتِهِ. طارَدَهم وجَلَدَهم مع كلّ طلْعَةِ شمس، واحداً واحداً، وفِعْلَةً فِعْلَةً، وهو يُواصِلُ ذلك، الآنَ، بعد ثلاثةِ عقودٍ، بإعادةِ نَشْر كتابِهِ «الزَّمنُ الرديء». فكأنّي به قد قرَّرَ أنْ يدفعَ عنه صورةَ الضحيّةِ البريئةِ التي تَوَهَّمَهُ الناسُ عليها، وربما أَلِفَها هو، ويبدو غير هيَّابٍ لمنازلاتِ الصراعِ، الجديدة. تغيَّرتِ الأسماءُ والأحداثُ والرُّموزُ الرديئةُ، لكنَّ الرَّداءةَ باقيةٌ. وهي مستفحلةٌ، وطاغيةٌ، برجالاتها ورموزِها المُتَجَدِّدة، وقد تتربَّصُ بأحمد شومان من جديدٍ، لكنَّها، بالتأكيدِ، ستكون في موقع المتجمّع والمتربِّص أنْ يُصفَعَ مِنْ

جديدٍ باليدِ إيَّاها، على أقسى.

نحن الآنَ أشدُّ حاجةً مِنَّا بالأمس إلى مواجهة الرّداءَة ومُطاردتِها. قِصَّتُنا الجديدةُ معها أصبحت مزودجةً: نحصُدُ ما زَرَعْتُهُ في الماضي، ونشهدُ ما تَبْذُرُهُ الآنَ لأجيال المستقبل. ففي الصَّعيد اللبناني، عانينا في السَّبعينات والثمانينات ويلاتٍ هي من مفاعيل الزَّمنِ الرَّديءِ الذي طارَدَه أحمد شومان في السِّتِّينات وقَبْلها. وأواخر التسعينات تتكشّفُ عن صولاتٍ جديدة للرداءة تتمخّضُ عن ويلاتٍ لأبنائنا وأحفادنا في القرن الحادي والعشرين. وفي الصَّعيدين القومي والعربي عانينا، في رُبْعِ القرن الأخير، كوارثَ تصدَّى أحمد شومان لأسبابها ومؤشراتها وعوارضها في السِّتينات، وهي إيَّاها، على تجدّدٍ وتنوّعٍ، تُهيِّىءُ لكوارثَ جديدةٍ. من هنا كانت الحاجةُ مزدوجةً ومضاعفةً لإعادة نشرِ كتاب «الزَّمن الرديء».

شَرَفُ الصحافة أنْ تكشفَ عن الحاضر بأمانةٍ وشجاعة. وشَرَفُ أحمد شومان وفضلُهُ أنَّه، إلى أمانته وشجاعته، استطاع أن يَسْتشرفَ. ولعلّ رؤيَتَهُ النافذة تعود إلى ثوابتَ المدرسةِ الفكريةِ والأخلاقيةِ التي هي دليلُهُ منذ نصف قرن.

يوسف الأشقر

ضهور الشوير ١٥/ ٩/ ١٩٩٧

مقدمة الطبعة الثانية

عودٌ على بدء

يعودُ «الزَّمن الرديءُ» في طبعةٍ ثانيةٍ بعد الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ وكلماتُهُ أقوى من الزَّمن.

وبعد أن نام الكتابُ في مطبعة «هايدلبرغ» في الأشرفية، زمناً رديئاً دام خمسٍ سنواتٍ بعد الحرب المعلنة والتعتيم الذي فُرِضَ على الكتاب، لإخراج الطبعة الأولى وأحمد شومان لا يملك حيلة ولا جواباً، حتى يئسَ النّاشِرُ فبيع الكتابُ... بالكيلو.

و «الزَّمنُ الرديءُ» الذي نَضَّدَتْ حروفَهُ مطابعَ اللينوتيب في السّتينات، تلقَّفَتْهُ أجهزة الكمبيوتر حروفاً رقمية في طبعةٍ ثانيةٍ على مشارف القرن الحادي والعشرين.

الطبعةُ الجديدةُ غيرَ منقحةٍ ولا جديدة. فالجديدُ في لبنان والعالمِ العربيّ اليوم قديمٌ جديدٌ في «الزَّمن الرديء». والكلمة الصادقة لا عُمْرَ لها ولا زمن، فهي وليدة الحقيقة التي لا تموت.

الماضي في «الزمن الرديء» أمامنا. والرؤيا في السياسة والزعامة والاجتماع والفن في المشرق العربي يكتبها أحمد شومان ساخنةً بأسلوب الصحافي الجزّار.

أحمد شومان في الطبعة الثانية كما في الطبعة الأولى، وفي كل الطبعات، يغلبُ فيه الطَّبْعُ على التطبُّع. ويبدو الكاتبُ المتطيِّرُ الماسخِ وهو يقبِّحُ الناسَ والأحداثَ في كل زمنٍ رديء... طفلاً يختبىء بين الكلمات ببراءة الصدق والصراحة، وسيفاً مسلطاً بعنفوان الشجاعة في وجه القباحات والطغاة!

«الناشر»

مقدمة الطبعة الأولى

الزمن الرديء

كما يجمع المرء حواسّه ويضبط قواه ، وقد صدّعته الكارثةُ وروّعته النكبةُ ومزّقه العار ، ثم يعرض لنفسه برَهْبَةٍ أهوالَ النوازل التي توالت على رأسه فافقدته توازنه ، ثم يستعيد أشتاتَ ذاكرته مُعانداً فيها مَغالقَها مُتقصياً شواردَ دقائقها ، ثم يبدأ تركيزَ نظره فيها ، وهو بَعْدُ فازعٌ مُلتاع ، محاولاً ترتيبَ احداثها وتنسيقَ تواريخها واستكشافَ عواملها وتمحيصَ نتائجها واستشرافَ ذيولها ، ثم يتنبهُ ليشهدَ أمامَه ، بأم عينه ، الضحايا والآثمين والغانمين والمهزومين والشُرّدَ والجرحى والجياعَ والأيتامَ والثكالى والشامتين واللئام واللامبالين ، ثم يلتفتُ خلفَه ليلمحَ مدناً مقدّسةً مُرّغتْ ، وقرى مهدّمةً استُبيحتْ ، واكوامَ جثثٍ ، وبِركَ دماءٍ ، وأقدامَ

سفَلة . . . أقول ، كما يجمع المرءُ نفسهُ من أردامِ أيامه ، حريصاً على كوالِحِها ونوافِلِها وبقايا نوازعها حرِصَةُ على لوامِعِها ونفائِسِها وخوالِدِ مآثرها ، هكذا كنتُ استرجعُ نفسي من السنوات العشرِ السالفة إذ كنتُ أراجعُ مقالات أحمد شومان وأحقِّقُ فيها ، وأُصنِّفها ، لأدفع بها في كتابٍ إلى قرائه .

الحقَّ نقول ، ما عرفنا في كتاب صحافتنا مَنْ أنشأ مع الناس علاقةً كتلك التي بين شومان وقرائِه ، منزّهة عن التملق والإسترضاء ، خالصةً من التدليس والتكلف ، قوامُها متابعةُ الايضاحِ والنقدِ والتصدي ، ورائدُها ملاحقةُ الحقيقةِ والوعيِ والحقِ ، ومنحاها التحامٌ مصيريٌّ بالأحداثْ ، ومواجهةٌ في ما يُعلَن منها أو يُبطَن ، تدقيقاً في ما يخفى أو يبين من مسالك الساسة والقادة والحكام .

. . . علاقةُ حبٍ ويقين قامت على تشارُكِ التفكير

والقلق والغضب والتعنيف والسخرية والأسى ، في مسيرةِ خطرٍ مديدة ، وَهَنتْ فيها اعصابٌ ، وهانَتْ أنَفَةٌ ، أمام سلطان الرشوة والدسيسة والغيلة .

علاقةٌ أسَرَتْ صاحبَها ، فما يَكادُ يُحجِمُ حتى يَنْبريَ الناسُ له مفتقدين : إنْ يُصْبِحْ يستنطقوه شعورَهم وتساؤلَهم ونقمتَهم ، وإنْ يَنْبُ النهار فما يتأولون هم في ما طرأ ، وهو أقصى ما يصيبُهُ صحافيٌّ من غنى ونجاح .

وضحايا شومان هم من أخطأ في منحهم حق الموت بقلمه . ولقد يُعزى الى الأدب السياسي أنه يُنيل زعانفَ السياسةِ حظاً من حدائقِ الأدب : إكليلاً لنعشٍ أو غاراً لعرش . ولا ضير ، فالأدب هنا لغةُ فارسٍ انطلق في حومةٍ . فالدنيا صدامٌ او فرار . لغةُ صارمٍ مئناف لا يَرتدُّ في قراع الباطل عن مقاصدهِ حتى يرتدَّ ذوو الباطل في ذلّةٍ ، أو يكونَ إقدامُهم دناءةً أسوأ من جبانة .

فارسٌ لم تُعمِه جحافل الجيوش والجماهير ، كما أعمَتْ بصائر المبصرين ، عن خداع وعد بالنصر . لقد كان قتالُ الدجّالين أوجبَ للنصر من قتال الأعداء فكان أولى ، وكان دورٌ للصحافة تمثّله شومان ، وألّقه بعناده وشرفه وقلمه .

حَسْبُهُ أنه تفرّدَ دوننا أديباً تفرُّدَهُ فارساً ، فما داني صغارةً ، على كَرَه ، إلا بفخامة بيان وقوة منطق ، فهو يُبلغُ سُخريته التقريعَ يصنعُهُ رفيعاً يَلزَمُ مستوى قلمه وفكرته وغرضه ، فيأتي رشيقاً شائقاً ممتعاً ، على حزمه وقسوته ونفاذه .

المقالةُ هنا صناعةُ رقابة ومناقشة وجزاء . وهي بعضٌ من رواية او مقامة أو رسالة . وهي مبادرةٌ ومعالجةٌ ومحاورة . وهي صرخةُ تأنيب في وجه دعيٍّ ، استخزاءً ، أو صرخةُ ثناءٍ في وجه أصيل ، انتصاراً . وهي تسجيلٌ لموقفٍ يثبِّتُ قيمةً ، ويُسقطُ لغواً ،

ويضيء مَنقبةً ؛ ويفضحُ مَثلبةً . وهي ، أحياناً ، مَحْضُ عاطفة ، وبثُّ رجاءٍ ، ورفعُ دعاء .

والمقالةُ طُرْفةٌ بذاتها ، فهي ذاتُ بناءٍ متماسكٍ تامٍ ، لا أخلاط فيها ولا تناقض ، بل توجُّهٌ واعٍ في خطةٍ واضحةٍ تجعلُ السياقَ امامَكَ أفُقاً بائنَ النواحي .

لا يتردَّدُ شومان ، ولا يتقلَّب ، ولا يضطرب . بل يُقدم ذاتَه بصفاءٍ ومِنعةٍ وعفويةٍ . ولئن قررتُ تبويبَ مقالاتِه وِفقَ موضوعاتها ، على تباعدها زمناً ، أحياناً ، دون أن أخشى النَسْخَ — وهو لعنةُ كتّاب المقالاتِ عموماً — فلأني استوثَقْتُ وَحدَةَ رؤياهُ وثَباتَهُ فيها ، فما حُرْتُ طويلاً .

لقد أخصب شومان حقل الصحافة ، واستثمره ، وآتانا ثمارهُ : المقالةُ اكثر من إنشاء في الأدب والسياسة ، واكثر من فنٍّ في الصحافة ، واكثر من ذلك الترجيع

المحبَّبِ الذي يُوثق الكاتبَ إلى الآخرين ويلحُمُه برسالته . . . إنها صورة إنسانٍ يكشف ذاته في ميدان النضال الأوسع ، كل صباح ، شهادةً لنا ، وشهادةً علينا .

وحسب أحمد شومان أنه هذه المقالة .

« الناشر »

لبنان



عندما كتبت اقول لا جدوى من مناقشات النواب ، اللهم الا تمرين الفكين وتسليك الحناجر وايهام الرأي العام بأنهم حريصون على المصلحة العامة بما ينثرون من اتهامات ويسددون من ضربات للحكومة الثمانعشرية . وان المسرحية التي طال تردادها ، والتي تمثل دائماً وابداً قبل واثناء وبعد منح الثقة ، اصبحت مملة الى درجة القرف والاشمئزاز . . .

اقول ، عندما كتبت هذا وتنبأت بأن اشد الاصوات معارضة للحكومة هي الاصوات التي ستمنحها الثقة : لم اكن اعدو الحقيقة .

ولكنني ، واعترف صراحة ، لم اكن انتظر هذه النتيجة التي خرجت بها المعارضة ، لا من حيث المبدأ ، بل من حيث العدد .

صحيح ان فوز الحكومة بثقة نفسها ، اعني بثقة اعضائها ومن يلوذون بهم ، لم يكن حدثاً مفاجئاً لي وللناس . ولكن الحدث المفاجىء هو في هذا الانقلاب العجيب الغريب والسريع الذي انقلبته جبهة جنبلاط على نفسها ، اذ لحست كلامها لحساً ، وتنكرت لاقوالها تنكراً معيباً ، وبلعت سيل الاتهامات والتجريحات التي صبتها على رأس الحكومة قبيل جلسة الثقة بساعات معدودات !

فالصوت الصارخ المجلجل الذي دوى في جلسة ما قبل الثقة ، صوت النائب الخطيب الشيخ بهيج تقي الدين ، ما زال يرن في جنبات المجلس ويتردد صداه في آذان الناس . . .

لقد وقف ممثل كتلة جنبلاط يحمل بعنف ما بعده عنف على الحكومة مطالباً رئيسها بالاستقالة فوراً .

وقام في أذهان النواب معارضين ومؤيدين ، ان كتلة جنبلاط سوف تحجب ثقتها بالحكومة لا محالة ، ان لم يكن انسجاماً مع ما أخذته على نفسها من تعهدات امام مجلس النواب ، فانسجاماً على الاقل مع طبيعة المعارضة المتأصلة في نفس صاحبها ، صاحب الكتلة الوزير المؤيد المعارض ، القائم القاعد ، الغاضب الراضي ، القانع الطامع ، الضاحك الباكي ! . . .

اللهم لا « حسيدة ولا ضيقة عين » فثقة جنبلاط وكتلة جنبلاط اولى بها حكومة كحكومة الثمانية عشر كوكباً ، لا سيما وان الوزير ضالع في هذه الحكومة يتحمل اوزارها ولا يعفيه من المسؤولية قوله انه لا يشترك في قطف ثمارها . . .

اما وقد نالت الحكومة ثقة نفسها بنفسها والدائرين في فلكها ، فلتهنأ ، ولتقر عيناً ولتهدأ بالا ، ولتنم على حرير بأمان وسلام . ولكن ، وعلى ذكر الثقة ، اذكر والشيء بالشيء يذكر ، ان المرحوم سعدالله الجابري قد تعرض يوماً في مجلس النواب السوري لهجوم نائب واحد ، فاعتبر الجابري ان كرامته قد مست ، فطرح الثقة لفوره ، وكان رئيساً للحكومة ففاز بما يشبه الاجماع

وعلى اثر فوزه الكاسح وقف رحمه الله يعلن استقالته من الحكم . واستقال بالفعل ، وغادر قاعة المجلس لتوه بين دهشة النواب واسفهم !

لقد اعتبر سعدالله الجابري ان كرامته قد مست لان نائباً مهوساً قد اتهمه اتهاماً كاذباً فآثر الخروج من الحكم انفة وكبراً رغم نيله ثقة الاكثرية المطلقة في المجلس . . .

وبضددها تتميز الاشياء !

وبعد . ليس لنا الا ان نردد مع الشيخ بهيج تقي الدين القول المعروف :

« ابقاش بدها قوموا تنهني » !

اشخاص

لست ادري لماذا تخيلت المير مجيد ، وهو يشد الرحال الى دمشق ، يتمتم العبارة التقليدية المشهورة : « ابقاش بدها قوموا تنهني » !

والحق . ان الصور الزاهية التي نشرتها « النهار » امس للمير مجيد في دمشق ، وهو ينعم بالاستقبال الفخيم الذي اقيم على شرفه ، كانت تنطق بافصح الالسنة وتردد مع المير « ابقاش بدها قوموا تنهني » .

وصحيح ان طلعة وطلة وزير دفاعنا المجيد ، كان لهما اثر في تزيين الاستقبال ، واضفاء المزيد من الرونق والسحر الحلال ، ولكن الصحيح ايضاً ان سادة العهد الجديد — القديم في في الشام ، قد بالغوا في الحفاوة والترحاب بالوفد اللبناني عامة وبرئيسه المير مجيد خاصة ، والفضل في كل حال يعرفه ذووه ، وليس كسادة دمشق ، ولا سيما في هذه الايام ، علماء خبراء . وسادة نجباء في معرفة كيف ومتى ولماذا يقدرون الفضل واصحابه !

ولقد تجلت فرحة دمشق وحفاوتها بالوفد اللبناني ، الذي زارها مهنئاً مباركاً ، تجلت في الكرم السوري المعهود ، فلم تكتف بالموسيقى والاعلام وكوكبة الفرسان ، والضباط والاناشيد الحماسية التي حفت بمقدم وفد لبنان ، بل تعدى كرمها الى اغداقها الهدايا الثمينة ، تدليلاً على مزيد حبها وعرفانها ، وتوكيداً لصدق عاطفتها وولائها ، فكان نصيب المير مجيد من الهدايا حصة الاسد ، ولا عجب فالعظائم كفؤها العظماء . . . وهكذا كان ، وظفر المير ببندقية حديثة مع ذخيرتها ، ومع البندقية سيف ، ومع السيف جواد عربي أصيل .

ولا غرابة في الهدايا ، فالهدية على قدر مهديها ، ولقد جاءت والحق يقال ، آية في الذوق والكياسة وحسن الاختيار ، فالمير مجيد رب السيف وراعي الحصان ، وحامي حومة الوغى والميدان .

ولست أدري أي شيطان خبيث همس في أذني هذا السؤال : « ما هو نصيب وزير الداخلية الاستاذ كمال جنبلاط من الهدايا ؟ » .

هل تراهم في دمشق حمّلوا المير مجيد هدية تناسب المقام ، مقام الوزير جنبلاط ؟

وهل يجوز ان يسهو عن بال سادة دمشق ، وهم السادة النجب الاذكياء الخبراء ، فلا يرسلوا « حلوانة » الصلحة والتهنئة لمعالي الوزير كمال جنبلاط ؟

حقاً ما عساها تكون الهدية التي حملها معه المير مجيد الى صديقه وزميله ؟

نحن نعلم ان المير مجيد رجل طيب منصف ، لا يحب ان يتعدى على اختصاص غيره كما لا يحب ان يتعدى أحد على اختصاصه ، وله في ذلك قوله الذي يردده انما « انا رب السيف وكمال جنبلاط رب القلم » .

ولقد ظفر المير بالسيف والبندقية والحصان . فهل تراه حمل معه من دمشق الى كمال بك حصته ؟

قلم او كتاب مثلاً ؟

واذا كان قلماً فما هو نوعه ؟

او كتاباً فما هو شكله ؟

ام ان سادة دمشق لا يسلمون الهدايا الا باليد ؟

واذن فهل يقوم الوزير جنبلاط بزيارة دمشق ليتسلم الهدية بيده . . .

انها لن تكلفه كثيراً . يكفي ان يردد العبارة التقليدية المشهورة :

« أبقاش بدها قوموا تنهني » !

حياد اللاشيء !

غداً عندما يؤرخ مؤرخو الحكومة ، بعد عمر طويل ، سجل الاعمال المجيدة الباهرة التي اقدمت عليها وتمت في عهدها الميمون الزاهر ، سوف يسجلون بمداد من الفخر انه قد تم في عهدها الى جانب ما تم اضافة لقب جديد وصفة جديدة للبنان . . .

فمنذ عهد بعيد ولبنان يدعى بلد العلم والنور والحرية والاشعاع . حتى جاءت هذه الحكومة الزاهية الالوان ، فاضافت اليه لقباً جديداً واصبح لبنان بلد الحياد واي حياد !

وحكاية الحياد اللبناني تعتبر بيضة الحكومة الكبرى التي فقستها والتي فاقت كل بيضة باضتها منذ ان حملتها كراسي الحكم !

كان الحياد ومفهوم الحياد في اذهان اللبنانيين شيئاً غامضاً بشأن كل امر من الامور التي تتولاه الحكومة « الحرزانة » وترعاه بعين عنايتها . ولكن من حق الحكومة علينا ان نعترف بأنها وللمرة الاولى كانت صريحة واضحة في مفهومها للحياد تجاه نفسها اولاً وتجاه اللبنانيين ثانياً .

فالحياد في رأي المسؤولين ان لا يكون لبنان مع الشرق ولا مع الغرب . او ان يكون مع احد الفريقين سراً ودون ان يعرف حتى الفريق الذي ينحاز اليه ، زيادة في الاحتياط والاحتراز والسرية . سرية الحياد .

وقال بعضهم ان حيادنا هو حياد لبناني وليس حياداً ايجابياً ناصرياً . . . وصفق الفريقان وهللا فرحاً كما صفق كولومبوس وهلل عندما اكتشف امريكا !

وفجأة وعلى غير موعد . او في ليلة ليس فيها ضوء قمر : سقط القناع عن هذا الحياد اللبناني كما تسقط الكوفية عن رأس الاقرع وظهر الحياد على حقيقته بعد ان انحسر عنه الغطاء !

لقد دعا الرئيس جمال عبد الناصر والماريشال تيتو لعقد مؤتمر ذروة تشترك فيه ٢٠ دولة محايدة ، ووجهت الدعوات اليهم . . . وانتظر لبنان ، وهو البلد المحايد ، ان تصله دعوة اسوة بسائر الدول المحايدة ولكن تبين ان اسم لبنان غير وارد . . .

والاطرف — كيلا نقول الانكى — انه قد تم الاتفاق على ان يقتصر عقد مؤتمر حيادي على دول حيادية فلا يسمح لكوبا ان تشترك فيه بعد ان اعلنت نفسها بلداً اشتراكياً ، ولا لليبيريا لانها خاضعة لنفوذ الولايات المتحدة .

فما هو حياد لبنان ؟ ما هو مفهومه ؟ واين مكانه ومقامه اليوم بين الدول ؟
لماذا لم توجه الدعوة للبنان ؟
هل يشكون به ؟ هل هو غير اهل للائتمان على أسرار المؤتمر الحيادي ؟
وما معنى حياد لبنـان اذاً ؟

يبدو انه حياد تام عن اهل الحياد وعن دول الحياد . او ان الدول المحايدة قد صدقت حياد لبنـان وان اللبنانيين محايدون فتركوهم على حيادهم . . .

حقاً انه حياد عجيب غريب ، وحيد فريد !

كل دولة تستطيع ان تجد رفيقة لها بين الدول الا لبنـان . . .

لقد تحول لبنـان بفضل النخبة الخيرة ، الفهيمة الممتازة من حكامه الى لا شيء . . . لقد سقط حتى في . . الحياد !!

من خلال الازمة الوزارية الناشبة ، ومن ثنايا التحركات والمناورات السرية والعلنية ، برزت الى السوق اشاعة تقول إن وزير الاشغال العامة سوف يصرف من الوزارة بعد حركة التنسيقات الوزارية المنوي اجراؤها في الايام القليلة المقبلة .

وقد ارتفعت هذه الاشاعة حتى أوشكت ان تصبح حقيقة لا شك فيها ولا ريب .

فاذا صح العزم على التعديل والتنسيق ، والاستغناء عن بعض الوزراء ، فان من حق الرأي العام ان يقف على اسباب صرف هؤلاء الوزراء وفي جملتهم وزير النافعة والاشغال العامة الاستاذ عثمان الدنا .

ومن حق هذا الوزير ان يطلع الشعب على اسباب اقصائه والاستغناء عن خدماته . فما ينبغي لهذا الوزير ولغيره من الوزراء ان يكونوا « طراطير » او اصفاراً على الشمال لا يؤبه لهم ولا يقام لهم اي حساب .

اجل من حق الشعب الذي رفع الى سدة النيابة من ينوب عنه ، ان يقاضيه الحساب حتى لو اسقطته الحكومة من حسابها في خضم مناوراتها ومداوراتها . . . فليس النائب — الوزير متاعاً او سلعة حكومية تستعملها حين قضاء حاجتها ثم تطرحه جانباً بعد قضاء الحاجة بلا اسف ولا شكر ولا احترام .

كلنا نعلم ان الفشل الذريع الذي اصاب الحكومة لم تعرف البلاد نظيراً له بين جميع انواع الفشل او «الفشولات» — اذا صح الجمع — الذي منيت به سائر الحكومات الماضية . . . انه فشل عبقري نادر ، ائتلف وانسجم مع هذه الحكومة حتى بات وكأنه جزء متمم لها ، وباتت وهي قطعة متممة له !

نعلم هذا جيداً ولا نستغرب لهذا ابداً للظروف التي احاطت بولادة هذه الحكومة الثمانية عشر رأساً . . . فليس غريباً ولا عجيباً ان يتوجها الفشل ، وليس عجيباً ولا غريباً ان يكون هذا الفشل فريداً اوحدياً عبقرياً !

لقد وضح لكل ذي عينين ، بل وضح حتى لمكفوف البصر ، ان الحكومة « السلامية » ، حكومة الفتنة والخنادق والمتاريس ، ما جاءت الى الحكم الا لتنعم بمغانم الحكم .

حقيقه نزلت في عقول المواطنين منزلة الايمان واليقين ، وباتت وهي اشبه ما تكون بالبديهيا ت المسلم بها . . .

فماذا عدا مما بدا كي تنشق الحكومة على نفسها ؟

ولماذا استيقظت اليوم بعد اغفاءة عشرة اشهر لتقص من اطراف ثوبها الفضفاض ، الذي

طال تعثرها و تعثر البلاد به ؟!

هل هو الزهد والتقشف ؟

هل هي الرغبة بالتوفير والاقتصاد ؟

ام هي يقظة الضمير استبدت فجأة بالقلوب المغلقة ؟!

ام لا هذا ولا ذاك ، ولكنه الحرص على البقاء ، حتى ولو على حساب بعض الزملاء الوزراء !

أياً كان السبب ، فالوزراء المفصولون ، او الذين سيفصلون عن جسد الحكومة ، مدعوون لبيان اسباب فصلهم . فالفشل العبقري الاوحدي الذي منيت به الحكومة ليسوا وحدهم بالمسؤولين عنه ، فمسؤوليته تقع على رأس الحكومة مجتمعة ولا متفرقة ، ولا تصيب واحداً بمعزل عن زملائه الضالعين المشتركين القاعدين في دست الحكم !

لنبدأ بوزير الاشغال العامة ، وهو المرشح الاوفر حظاً الذي ترشحه الاشاعة بالخروج من الحكم والاستغناء عن اشغاله العامة !

فهل يتكلم معالي الوزير ؟

هل ما يزال مصراً على « كشف الحقائق » في المؤتمر الصحفي الذي ينوي عقده . . . ام انه تراجع عن عقد المؤتمر وبالتالي عن « كشف الحقائق » ؟ !

ما هي الاسباب الحقيقية التي ستبعد وزير الاشغال عن منصبه ؟

هل هي اسباب خاصة سداها ولحمتها النكايات والوشايات والاحقاد . . . ؟

ام ان المصلحة العليا للبلاد تقضي بخروج هذا الوزير الى جانب من سيخرج معه من الوزراء ؟

ترى هل يتكلم معالي الوزير ؟!

الى خنادق الحكم

اما وقد استقالت حكومة الفشل العبقري ، او هي في حكم المستقيلة ، فلنمسك اللسان ولنوقف القلم عن الطعن فيها وتجريحها ، وعن الخوض في مثالبها ومآتيها . . .

لنرحها ، او على الاصح لنرح انفسنا منها ، لا لان « الضرب في الميت حرام » بل إيثاراً من الانتظار والتربص ، لعل وعسى يغير الله حالاً بحال وخيراً بشر ، ونحن على يقين اننا ما عرفنا حالا ولا شراً أسوأ من هذه الحال وهذا الشر !

ومن حق الحكومة المستقيلة ان نكف عن ذكر معايبها وسيئاتها لا طمعاً برضاها وموالاتها ،

وهي التي لم ترض الله والوطن في جميع اعمالها التي أقدمت عليها جملة وتفصيلاً ، ولكن ، ولنصارحها القول ، وقد عودناها دائماً ان نكون صريحين معها . . . لقد أعيتنا السبل في نقدها وتوجيه اللوم اليها على ما اقترفت بحق البلاد والمواطنين ، حتى كدنا لفرط « سماكة » جلدها ، وفرط صممها او تصاممها عن سماع نداء الحق والواجب ، كدنا ان نسأم معارضتها ونفقد اللذة في محاربتها والعمل على الخلاص منها .

لقد تسلحت الحكومة منذ ان تمترست بمقاعد الحكم بقوة الجهل الذي دفع بها ورفعها من خنادق الشوارع الى خنادق الحكم ، وعرفت انها الفرصة الوحيدة التي يتاح لها البقاء ، فعضت بالنواجز والانياب على الكراسي والتصقت بها كما تلتصق اللزقة الاميركانية . . . وجعلت اذناً من طين واذناً من عجين . وتسلحت كذلك الى جانب جلدها السميك بصدغ نحاسي فأصبحت على رأي المثل : « كلام زي الرصاص في صدغ زي النحاس » !

تقرأ أنباء فضائحها في الصحف ، وتسمع أخبار عيوبها وسيئاتها . على أفواه الناس ، فتضحك ملء شدقيها وكأنها لا تقيم وزناً لرأي الصحافة والناس فيها .

لقد كانت تبدو نهمة دائماً عطشى أبداً ، لا تشبع ولو أكلت قمح الدنيا وزؤانه ، ولا ترتوي ولو شربت الانهار والاوقيانوسات . . .

انها بدت وهي أشبه ما تكون بثري الحرب ، او بثري الثورة ، الثورة التي انبثقت عنها ، والتي باضت وفرخت ؛ طبقة كاريكاتورية مضحكة من الاثرياء والوجهاء والزعماء والحكام !

واليوم ، والبلاد تمني النفس بالخلاص من آثار هذا الكابوس المزعج الذي طال منذ بداية حوادث الفتنة عام ١٩٥٨ حتى ايامنا هذه .

اليوم يتلفت الناس صوب السماء رافعين الاكف ضارعين متوسلين ان يمن عليهم رب السماء بحكومة جديدة . . .

جديدة بروحها ونفسيتها وعقليتها .

جديدة باستعدادها للعمل الخير المثمر البناء .

جديدة ببعدها عن المتاجرة بالاديان والمشاغبات .

جديدة بأيثار المصلحة العامة .

جديدة ، باحساسها ورقة جلدها . . .

جديدة ، بفسخ الشراكة الرهيبة التي عقدت عام ١٩٥٨ بين فريقين على اقتسام المناصب والمغانم تحت شعارات مزورة دعية كاذبة !

حكومة جديدة ؟

نعم ولم لا ؟

لقد سئمنا فشل الحكومة الثمانعشرية فلم لا نجرب ، على الأقل من باب التجربة — فشلاً جديداً آخر ، ونحن على يقين كما قلنا اننا لن نعثر على فشل عبقري كفشل الحكومة التي استقالت على امل ان تعود !

لنجرب فشلاً آخر على أسوأ الإفتراضات . . .

ولكن ان نجرب المجرب فليس معنى هذا الا ان عقلنا مخرب ! !

المشكلة الكبرى !

حصيلة الاستشارات التي اجريت حتى مساء امس ، اثبتت ان ثمانية وثمانين نائباً من اصل ٩٩ ، طلبوا دخول الوزارة العتيدة ، التي ما زالت جنيناً يحور ويدور في بطن الاستشارات والمناورات والتطبيقات . . . لقد أفصح « طرابين الحبق » الذين استشيروا ، عن رغبتهم بالركوب على الكرسي الوزاري أسوة بغيرهم ممن ركب . . . و « ما حدن أحسن من حدن » وغير لائق بسمعتهم وكرامتهم ان يكونوا هم أبناء الجارية وغيرهم أبناء الست . . . فالنواب سواسية ، ولا فضل لأحد على آخر طالما أنهم جميعاً تمتعوا بثقة الشعب !

إذاً فالعقبات الطارئة التي يواجهها الرئيس المكلف قد ازدادت بالاضافة الى العقبات الاصيلة والحوازيق القائمة . . . ذلك أن الكتل النيابية الحزبية منها وغير الحزبية تطمع أن تمثل في التشكيلة القادمة ، وما يرضي فئة قد يغضب أخرى ، وما يسر كتلة قد يغضب الثانية ، وهلم جرا . . . فكيف السبيل للخروج من هذه المآزق المتعددة بتعدد الخوازيق والرغبات والاهواء ؟ !

إن العدد ، عدد الوزراء ، لا يعني بنظر الرئيس المكلف إلا شيئاً واحداً هو تأمين الاصوات الكافية للحصول على الثقة . وصحيح ان تجربة الرقم ١٨ قد نجحت في هذا الصدد اذ استطاع اعضاء الحكومة بجهد بسيط ان يضمنوا اكثرية ظاهرة لدى التصويت على طرح الثقة .

هذا صحيح . ولكن تجربة عدد أقل من ١٨ وزيراً تستدعي تفكيراً عميقاً وحساباً دقيقاً من الرئيس المكلف لكي يضمن الثقة المطلوبة امام مجلس النواب .

من هنا ان الاستشارات ليست سهلة وبالتالي ليست نتائجها — إذا أدت الى نتائج — مضمونة مائة بالمائة .

أما التجانس بين أعضاء الحكومة العتيدة ، وأما التوافق وتأمين الجو الهادىء البعيد عن المماحكات والخناقات لاقرار المشاريع المعطلة والعمل المثمر . . . اما كل هذه الامور فأمرها

يهون ، فالكوارث التي حلت بالبلاد سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وخلقياً ليست بذات بال أمام المشكلة الكبرى التي تواجه الحكومة العتيدة . . . وهي مشكلة تهون امامها كل ما عرفته البلاد من مشاكل وكوارث . . .

ما هو عدد اعضائها ؟

ممن تؤلف ؟

من يبقى من يذهب ؟

من يدخل من لا يدخل ؟

من يغضب من يرضى ؟

من يوالي من يعارض ؟

حقاً إنها مشكلة فاقت كل المشاكل . . .

كان الله في عون الرئيس المكلف على حل هذه المشكلة لتظفر البلاد بمزيد من الازدهار والرقي والتقدم ويسعد الناس بالعز والرفاهية والامن والسلام !

اشخاص

الاستاذ « شوكت المنلا » رئيس هيأة التفتيش لا أعرفه . لا أعرف له صورة وجه . . . ومع هذا باستطاعتي أن اتخيّله ، خاصة بعد فضيحة إقصائه عن وظيفته ، وشكر رئيس الحكومة له والثناء على كفاءته ونزاهته وتجرده و . . . الى آخر الاسطوانة التي شيعه بها الرئيس رشيد كرامي .

نعم ، باستطاعتي أن أتبين ملامح هذا الموظف الكبير . . . فهو كما يخيل إلي رقيق البدن ناحل الجسم ، شديد الحساسية ، متوتر الأعصاب ، حنبلي بطبعه ومزاجه ، شديد الوطأة على نفسه وعلى الآخرين ، يضع نظارة — كيلا أقول منظاراً — على عينيه يدقق ويحقق في كل شيء ، لا يراعي ولا يرائي ، مستقيم الخلق ، وقور السمت والسمعة قليل الاختلاط بالناس ، لا يحسن « الحوش بوش » مع معظم النواب والوزراء وأصحاب الحاجات والصفقات . . . وما أكثر أصحاب الحاجات والصفقات وطلاب المغانم والوساطات في لبنان !

ترى ، هل هو كذلك ؟

لست أدري تماماً إذا كان شوكت المنلا هذا ، ولكن الذي أدريه انه ينبغي أن يكون هكذا في إستقامته ونزاهته وأمانته وتجرده وفي بعده عن مراعاة الخواطر والخضوع لسياسة « الخاطرشن » المرعية الإجراء في معظم مصالح ومرافق الدولة اللبنانية . . . ولو لم يكن هكذا لما استحق من الدولة

أن يبعد عن وظيفته الحساسة على النحو الذي تم به إبعاده وإقصاؤه عن رئاسة هيأة التفتيش !

وبكلمة أفصح وأوضح :

لو كان شوكت المنلا مطواعاً سهل الانقياد ، يحسن مسح الجوخ والتملق للسادة الامجاد من وزراء ووجهاء ونواب . فيسهل لهم « المعاملات » ويغض الطرف عن « المخالفات » ويقضي الحاجات . . .

أقول لو كان هذا الموظف يتحلى بهذه « الصفات » لما أقصي عن وظيفته ، بهذا الشكل الذي يثير الشبهات ، ويدفع الناس الى المزيد من التساؤلات !

وأذن فلماذا أبعد شوكت المنلا عن رئاسة هيأة التفتيش طالما أن رئيس الحكومة قد أعلن على صفحات الجرائد بأنه نزيه وكفء ومتجرد ؟

أليس معنى ذلك بداهة أن هذه الصفات التي يتحلى بها هذا الموظف هي سبب اقصائه عن وظيفته ؟

وهل ينبغي للبناني حتى العادي أن يكون ذكياً فهلوياً كيما يدرك هذه البديهيات ؟

هل أساء المنلا إلى وظيفته ؟

هل تمرد على قوانين الدولة ونظمها ؟

هل مد يده ليقبض رشوة ؟

هل أعان نائباً أو وزيراً أو وجيهاً أو متنفذاً على خرق حرمة القانون ؟

هل أغضى الطرف عن فضيحة ما أو مخالفة ما ؟

إذا كان الامر كذلك فلتتفضل الحكومة ولتذكر للرأي العام الاسباب او لتدعُ الاستاذ شوكت المنلا في مقابلة تليفزيونية تطرح فيها الأسئلة على هذا الموظف لتتلقى ويتلقى معها الشعب اللبناني الإجابة والايضاح عن الاسباب والمسببات في ابعاده عن وظيفته .

* * *

نحن نعلم جيداً أن رأسمال رشيد كرامي ليس ذكاءه الخارق ولا عبقريته الفذة ولا براعته في أفانين السياسة وألاعيبها . . . ولكن رأسماله نزاهته ونظافة يده وسمعته ، ولو تم إقصاء رئيس هيئة تفتيش الدولة في عهد رئيس حكومة غير رشيد كرامي لما أعرنا هذا الأمر كثير التفات واهتمام .

ولكن أخشى ما نخشاه على رشيد كرامي وعلى رأسمال رشيد كرامي أن يخرج من الحكم وهو صفر اليدين حتى من هذا الرأسمال الذي يعتز به ويفاخر .

ولا شيء أدعى لاعتزاز رشيد كرامي كأعتزازه بنزاهته ونظافة يده وسمعته !

ما من زمن كثر فيه الحديث عن الاختصاص والاختصاصيين ، كهذا الزمن .

وما من أزمات حفلت بحديث الاختصاص والاختصاصيين ، كالأزمات الوزارية التي عرفنا في الحقبة الأخيرة من تاريخ لبنان .

فلان إختصاصي ، ادخلوه الوزارة !

فلان غير إختصاصي ، أبعدوه عن الوزارة !

والحقيقة انني لم أعد أفهم معنى كلمة إختصاص هذه إلى حد ما ، ولم يعد يروق لي هذا الكلام الذي يبدو أنه ما زال يروق لبعض الناس . . .

أصبحت أسأل نفسي :

ما لهم يتحدثون ويكثرون عن الاختصاص والاختصاصيين ؟

ألا يعرفون أن الإختصاص ولله الحمد موفور وعام وشامل ؟

أوليس الذين ولوا الحكم كلهم من ذوي الإختصاص ؟

وهل من يتهم ساستنا بنقص في إختصاصهم ؟

أليس بينهم الاختصاصي الذي لا يضاهى ولا يجارى في إختصاصه في تحويل الدولة إلى مزرعة ؟

أليس بينهم الاختصاصي الذي لا يرقى إلى إختصاصه شك في جمع المال وتكديس الثروات وقنص الصفقات ؟

أليس بينهم الاختصاصي الذي لا يعلو على إختصاصه اختصاص في فن تحكيم الاتباع وتسليط الأذناب والاوغاد ، وتحريض السفلة والجهلة . . . ؟

أليس بينهم الاختصاصي بنصرة القاتل على القتل ، وصاحب البيت على اللص ، والباغي الظالم على المظلوم المحروم . . . ؟

أليس بينهم الاختصاصي العالي الكعب والجنبات في الخطب الفارغة والتصريحات غير المسؤولة ، والبيانات المنفوشة ؟

اليس بينهم الاختصاصي بالتعصب الطائفي و « التجليط » الشارعي ؟

أليس بينهم الإختصاصي باثارة البغضاء والشحناء وتذكية الأحقاد والعنعنات ؟

أليس بينهم الإختصاصي بالتفاهة والسطحية والفراغ ؟

أليس بينهم الاختصاصي بالرقاعة والصفاقة والغلظة في الطلة وفي السريرة ؟

أليس بينهم الاختصاصي باساءة العلاقات الخارجية والعربية والمحلية ؟

أليس بينهم الاختصاصي بكل ما هو عكس القانون ، وبكل ما هو ضد العرف والنظام ؟

دلوني على من هم أكثر إختصاصاً من هؤلاء لاوافقكم على إننا بحاجة إلى إختصاصيين وذوي إختصاص !

أما وهؤلاء كما أعرفهم وكما يعرفهم كل مواطن ، وكما يعرفهم رئيس الدولة ذاته ، فلنكف عن حديث النقص في الإختصاص .

العلة ، المرض ، الداء ، المصيبة ، الكارثة ، النكبة ، انما تكمن كلها في قوة إختصاص هؤلاء لا في ضعفه ، في غزارته لا في شحه ، في كماله وشموله لا في نقصه وجزئيته !

لا نريد إختصاصيين . يكفينا في الوقت الحاضر ، وحتى يفرجها الرحمن الرحيم ، يكفينا أن تأتونا يا من تملكون الحل والربط ، بأصحاب إختصاص نصفي أو جزئي أو ناقص في هذه الأمور ، ونحن راضون شاكرون !

كل ما نطمح اليه أن لا تسلموا البلد للاقطاب الأرهاط في هذه الاختصاصات كلها !

لا نطلب منكم أن تأتوا بغير ذوي الإختصاص أو بغير ذوي الخبرة ، بل نطلب منكم أن لا تختاروا في هذه الاختصاصات التي بلونا منها ما بلونا ، الكاملين الذين لا كمال بعد كمالهم ، والمتمكنين الذين لا تمكن بعد تمكنهم . . .

نريد ضعفاء في هذا الإختصاص الذي نكب البلاد واوقفها على شفير الهاوية ، ولكم جزيل الفضل والأجر والثواب !

غياب المعارضة

من حق « النهار » على صائب سلام أن تطالبه بعرفان الجميل والشكر الجزيل على ما أسدته اليه من جليل المنفعة وعظيم الأثر ، بانهاء الأزمة الكبرى التي تعرض لها ، طيلة محاولاته لتأليف الحكومة ، تلك المحاولات التي منيت بما هو أشد وأقسى وأمر من الخيبة والفشل والخذلان . . .

وجاءت « النهار » على أهون سبيل تحل له الأزمة الناشبة التي بلغ من حدتها أن أقرب المقربين إلى صائب سلام من الموالين وغير الموالين ، فقدوا كل أمل بامكانية تشكيل الوزارة على وفرة المستوزرين الطامحين الطامعين . . . ولقد بلغ من حدة الأزمة وتهافت الرئيس المكلف على تشكيل الحكومة بأي ثمن ، أن أشد الناس معارضة لصائب سلام ورهطه أدركته الشفقة على المصير البائس المحزن الذي وضح من ثنايا الاستشارات وما رافقها من مهازل واضاحيك ليس فيها شيء مما تثيره الأضاحيك من الفكاهة والتسلية !

وأقولها صراحة :

لقد أحسست ، ساعة انفض الحلفاء من حول صائب سلام ، بشيء هو أعمق من الشفقة على المصير الذي أنتهى اليه ساعة تخلى عنه حلفاؤه وأعلنوا انهم لن يتعاونوا معه .

لم أقل :

اللهم لا شماتة ولم أقل : « بيستاهل » وهي العبارات التي تقال في مثل هذه الأحوال . ولكنني رثيت لصائب سلام الرجل كما رثيت للحالة المزرية التي تردت فيها أوضاع البلاد السياسية .

لم أفاجأ إطلاقاً عندما أنفض حلفاء صائب سلام من حوله .

لم أفاجأ أبداً وأنا أسمع وأقرأ التغيير المفاجيء السريع الذي طرأ على « لهجات » الاصدقاء « الانتيم » الضاربين بسيف سلام المسبحين بحمده آناء الليل وأطراف النهار . . .

ولم أفاجأ أيضاً عندما عاد الحلفاء إلى حليفهم : والاصدقاء إلى صديقهم. . . فـ« وحدة الصفوف » و « مصلحة البلاد » و « كرامة لبنان » و « الوحدة الوطنية » وغيرها مما نعرف من الكليشيهات التي أصبحت لا تثير في المواطنين أكثر ما تثيره النكت البايخة من الغثيان . . . وهي ذريعتهم واسطواناتهم التي يديرونها كلما أحسوا بدنو آجالهم . !

ولقد دنت الساعة بالفعل وأوشكت عقاربها أن تتلاقى وتطلع الناس يتلمسون من يملاء الفراغ بعد ذهاب الحاضرين . . . فاذا بالفراغ يملاء المقاعد الشاغرة الفارغة إلى حين !

تطلع المواطنون ، أول ما تطلعوا صوب المعارضة ورجال المعارضة فلم يجدوا أحداً في الساحة . لم يجدوا حتى تشكيلة أو شبه تشكيلة من التشكيلات التي تكاثرت ساعة الأزمة . . .

غابت المعارضة فكان لا بد أن يجيء صائب سلام وحلفاء صائب سلام ليملأوا الفراغ بأية تشكيلة كانت . . . و « الحي أفضل من الميت » كما يقول الناس !

* * *

لقد أسهمت المعارضة إلى حد بعيد بانقاذ الحكومة الجديدة وبتأليفها . . . وذلك في غيابها العجيب الذي يوازي في عجبه نتيجة الولادة القيصرية التي تمخضت منها الاستشارات الأخيرة فولدت حكومة الثمانية وزراء : تشكيلة فيها القديم ــ الجديد والجديد ــ القديم ! !

ولكن اذا استحقت المعارضة شكر رئيس الحكومة فمن حق « النهار » على صائب سلام أن تطالبه بشكر مضاعف . . . فلولا « النهار » ما طلعت شمس الحكومة !

ماذا فعلت « النهار » ؟

لقد أعلنت « انهيار حلف سلام – الجميل » وقالت انه « يمهد لاخراج أهل الثورتين » !
وكان مساء فما طلع الصباح الا وتنادى أهل الثورتين لجمع الشمل ورأب الصدع . . .
يا لثارات الثورتين يا لكرامة المتراسين !؟
وتعانق صائب سلام وبيار الجميل وتبادلا القبلات . . . وتألفت الحكومة ! !

حكومة الطرح

اليوم ينعقد مجلس الـ٩٩ ليستمع الى بيان حكومة الـ١٨ وزيراً التي أختصرت وأصبح عددها ثمانية . . .

وسوف تفتتح الجلسة في غير الموعد المحدد بل سيتأخر التئام الشمل أكثر من العادة المألوفة ، ولا عجب فالجلسة المخصصة للبيان الوزاري وطرح الثقة على أساسه – كما يقولون – تستدعي مزيداً من الحذر والمراقبة وتتبع تحركات النواب الموالين والمعارضين ، وأنصاف الموالين والمعارضين على السواء .

وعندما يكتمل العقد الفريد النضيد ، عقد الحكومة ، ويستوي الثمانية وزراء على ارائكهم ، يحيطون برئيسهم إحاطة الهالة بالقمر تحف بهم الأنظار من فوق ومن تحت ، ثم تتوالى ضربات مطرقة الرئاسة معلنة أن الكلمة لرئيس الحكومة . فيقف على الأثر ليعتلي المنبر ، باناقته المشهودة وقرنفلته المعهودة ، وطلعته المضيئة ، ووقفته الجريئة . فينشر أمامه البيان الوزاري المطبوع الواحد بعد المائة أو الألف – لا أدري – من البيانات – الكليشيهات المعهودة التي تلقى في مثل هذه المناسبات ، والتي حفظها الشعب اللبناني عن ظهر قلب لفرط ترددادها وتعاقب اصحابها على منبر المجلس لتلاوتها وترديدها في كل حفلة افتتاح حكومية تطرح الثقة فيها !

هكذا تقضي اللعبة البرلمانية إلى جانب ما تقضيه من ألعاب أخرى بتنا نعرفها جميعا !

أما ما عسى رئيس الحكومة أن يقول ؟ وما عسى البيان الوزاري أن يتضمن ويحتوي من وعود وعهود ؟ وما عساه يمني اللبنانيين ؟ وعلى أي أساس يطلب ثقتهم ؟ فهنا السؤال ، بل هنا أحجية الأحاجي التي أستعصت على العقول وقصر عنها كل خيال !

ترى هل يتضمن البيان الوزاري احصاء دقيقاً أميناً لكل المشاكل العالقة والقضايا المعقدة والأزمات الحادة التي تخبطت فيها البلاد وما زالت تتخبط منذ أن ذر قرن الحكومة الثمانعشرية التي

تحولت الى حكومة من ثمانية بعد أن اختصرت واجتزئت وأصبحت مقصوصة محفوفة . . . على نحو ما وصفنا في العدد الماضي ؟!

* * *

البيان الوزاري الذي سيلقى مساء اليوم سيكون طرفة الطرف وآية الآيات إذا جاء – وهو سيجيء حتماً – على صورة حكومة الجمع والطرح . . .

* * *

سينتحل الأعذار لتقصير حكومة الجمع – هذا إذا اعترف البيان بالتقصير – سيمني اللبنانيين بالمن والسلوى وأطايب الوعود : بانتظار ما ستفعله حكومة الطرح . . .

وما ستفعله حكومة الطرح ليس بالقليل !

أمام رئيس الحكومة فرصة طيبة لكلمة يقولها في جلسة اليوم .

يقف صائب سلام على قدميه ، ويقول بالجرأة المعهودة فيه :

« لقد أخطأنا سواء السبيل في الحكم ، ولم نستطع أن نحل أزمة واحدة من الأزمات الطارقة والتليدة . بل ازدادت الأزمات حدة ، وازدادت القضايا تعقيداً على تعقيد » .

وفي الحالين ، سواء نالت الحكومة الثقة أم لم تنلها ، سيسجل اللبنانيون لصائب سلام موقفاً جريئاً لم يسبقه اليه رئيس حكومة من قبل .

سيقول اللبنانيون :

أنه أول رئيس حكومة يصارح مواطنيه ويواجههم بالحق حتّى ولو كان طعم الحق مرّاً ! !

أبداً مش صحيح !

قلت للنائب ناظم القادري حين التقيته في باب البرلمان ، وقبيل التصويت على الثقة بنصف ساعة :

« هل تعلم ماذا يقول عنك بعض المعارضين» ؟

ورد القادري : ماذا يقولون ؟

فأجبته : يقولون انك لن تتقيد بوعدك الذي وعدته و إمضائك الذي وقعته . . . فهل صحيح إنك لن تحجب الثقة ؟

وصاح القادري بصوت جازم حاسم :

أبداً مش صحيح !

قلت : والصحيح ؟

وعاد الصوت الجازم يؤكد :

لا ثقة . . . على سن الرمح !

وطرحت الثقة فنالت الحكومة ٤٦ صوتاً بمن فيها صوت رئيس الحكومة وصوت رئيس المجلس النيابي ... ونالت المعارضة ٤٤ صوتاً . . .

وسألت أول من سألت ريمون اده وهو يغادر المجلس «الى جانب من صوت ناظم القادري»؟

وأجاب عميد المعارضة :

« لقد هرب القادري وصوت صبري إلى جانب الحكومة فنالت الأكثرية بهروب الاول وتصويت الثاني » !

وضحكت . . . فقد كان الحديث يدور حول ناظم القادري بعد منتصف ليلة أول أمس . وكان ريمون إده وجان عزيز ورينيه معوض يتولون إحصاء النواب المعارضين والموالين .

وراح ريمون اده يؤكد بأن القادري سيحجب الثقة وانه وقع مع نواب البقاع في منزله على التعهد بأنه سيحجب الثقة .

وقلت :

أنا لا أستطيع أن أصدق بأن القادري سيقف في المجلس ويقول : « لا ثقة » !

وقال ريمون اده :

وماذا تريد أن أصنع ؟ لقد وقع بأمضائه ولا أستطيع أن أربط النواب بالسلاسل ليتقيدوا بوعودهم ويشرفوا امضاءاتهم » !

ذكرت هذا الكلام بعد أن عرفت نتيجة التصويت على درج المجلس النيابي ... ورحت أتفحص الوجوه وجوه أعضاء الحكومة التي فازت بصوت رئيس المجلس النيابي وهروب النائب القادري . . .

كانت الألوان الصفراء والخضراء والحمراء تمتزج ويتداخل بعضها ببعض لتأتلق على صفحة كل وجه من الوجوه التي نالت هذه الثقة . . . فقد أرتسمت معانيها وتجلت بوضوح ما بعده وضوح ، على وجوه أهل الثقة المسحوقة . . .

وحاولت أن أتبين فيليب تقلا ذا الوجه الحيي الخجول ، من خلال الوجوه التي برزت في أشكالها وألوانها المتعددة المتداخلة ، فلم أعثر على وجه وزير الخارجية . . .

لقد أختفى . . . لعل حياءه كان سبب اختفائه !

وهربت بدوري من عرس الثقة الذي تحول إلى مأتم . . . هربت لكي لا أسمع حشرجة التهاني يصعدها ازلام الحكومة « بدنا نحكم بصوت واحد »
« بدنا نفيد اللي معنا ونضر اللي ضدنا »
« بدنا . . نعمل مثل ما بنريد . . »
هربت خوفاً من الاصفرار الذي علا وجوه « أهل الثقة » والشحوب الذي ارتسم في كل سمة من سماتهم . . .
هربت خجلاً من الخجل الذي دعا فيليب تقلا كي يتوارى عن الأنظار لكيلا يرى الانتصار المجلل بأكليل . . . الغار . ويا له من انتصار ويا له من إكليل غار ؟!
تهانينا للحكومة والف مبروك بهذه الثقة التي نالتها وهي أهل لها . . .
بقيت بطاقات الدعوة التي ستوزع غداً لتقبل التهاني ، وأغلب الظن إنها ستكون على الوجه التالي :
في اليوم الاول تقبل التهاني في منزل ناظم القادري
وفي اليوم الثاني في منزل صبري حماده
وفي اليوم الثالث في بيت الكتائب . . .
وكل ثقة والحكومة بخير !!

أشخاص

أكثر ما يثير الضحك ويبعث على التسلية والفكاهة ، ولا أقول السخرية والشماتة ، منظر بعض السياسيين عندما ينبرون أمام المواطنين وهم يفتلون عضلاتهم ، سواء في ساحة البرلمان ، أم في مجلس الوزراء ، أم على صفحات الجرائد ، كما تفتل المانيكان في ساحة العرض او المصارع في حلبة المصارعة . . .

فقد أعلنت امس إحدى الصحف الصباحية بأن الرئيس السابق كان قد التزم موقف المتريث أمام الحكومة الكرامية ، فلم يبد معارضة صريحة لها . ولكن فتح دفاتر حكومته السابقة والحملات التي بدأت توجه اليها والى أعمالها ، خاصة بعد إثارة فضيحة توزيع ٤٠٠ الف ليرة على الصحفيين الازلام في مجلس الوزراء ، وهي إحدى الفضائح البسيطة والتي لا تعتبر شيئاً مذكوراً أمام غيرها من الفضائح الضخمة — كل هذا او بعض هذا دفع رئيس الحكومة السابق لان ينتقل الى العلنية في معارضته لحكومة خلفه الاستاذ رشيد كرامي .

ولقد عرض في مجلس الوزراء وزير الانباء الاستاذ فيليب بولس على زملائه الوزراء ؛ لوائح تتضمن اسماء الذين وزعت عليهم في عهد الحكومة السلامية مبلغ الـ ٤٠٠ الف ليرة . وفوجىء الوزراء بأن عدداً من الذين وزعت عليهم هذه المبالغ كانوا يقبضون من الدولة رواتب شهرية ، وان بعضهم لا يحمل اسماً كاملاً . . .

وقد طالب وزير الداخلية الاستاذ كمال جنبلاط بفتح تحقيق في هذه الفضيحة .

وهذه كما قلنا إحدى الفضائح الصغيرة التي تعتبر ، عفيفة خفيفة لطيفة ، إذا ما قيست بغيرها والعياذ بالله العظيم . . .

ومن حق الوزير جنبلاط الذي طالب بفتح تحقيق في هذه الفضيحة ، من حقه علينا ان نعترف له بفضيلة النزاهة التي سبق أن ذكرناها له في بدء حملاتنا ونقدنا المستمر لتصرفاته ومنهجه في العمل السياسي .

بقي على الوزير كمال جنبلاط أن يثبت — ولو في مجال هذه الفضيحة الصغيرة — صحة الاتهام ، ولا سيما وانه قد سبق له الفضل ، وقذف بسيل من الاتهامات الخطيرة الكبيرة التي يكفي واحدة منها لأن تقلب حكومة بأسرها وأن ترسل إلى السجن اشخاصاً كثيرين مسؤولين وغير مسؤولين !

فهل يقرن الوزير القول بالعمل ، أم يظل الاتهام اتهاماً وتسلية يتندر بها الناس في مجالسهم ؟

ترى هل يفعل الوزير جنبلاط شيئاً آخر غير إرسال التهم ، وغير « فتح التحقيق » الباب الذي عرفنا اسراره وخفاياه والذي تتبخر منه الفضائح وكأنها لم تكن . . . بل وتتحول في بعض الاحيان الى مكرمات ومجال مباهاة وافتخار بدل أن تكون مسبة ذل وعار ؟!

العمل والانتاج !

« . . . حكومة سببت بعدم كفاءاتها ولا مبالاتها واستهتارها وتسويفها المشاكل التي تتخبط بها البلاد .

« لم تتمكن الحكومة من ايجاد اي حل سليم لهذه المشاكل .

« البيان الوزاري الذي أدلى به رئيس الحكومة كان أهزل وأفرغ البيانات التي سمعها مجلس نيابي في لبنان .

« الرئيس سلام سيضطر عما قريب إلى إعادة النظر في الوضع الوزاري .

« الحكومة الجديدة ضعيفة للغاية وضعفها جعلها تتهرب من إجراء الانتخابات البلدية

أو الإختيارية لأنها حكومة عاجزة . . .

« هذه الحكومة ليست جديرة باجراء الانتخابات البلدية والاختيارية وما عليها إلا أن تؤجل هذه الانتخابات حتى تذهب ، وهذا هو الحل الوحيد لها لأنها عاجزة عن القيام بأي عمل جدي .

« حكومة الانسجام فيها . . . وزير المال يرفض ، ووزير التربية يتمنع ، ورئيس الحكومة يوافق . . . هذه تمثيلية معناها انهم جميعاً لا يرغبون باجراء الانتخابات البلدية ، ولو أرادوا لرصدوا الاعتمادات اللازمة .

« رئيس الحكومة وبعض الوزراء غير واثقين من فوز لوائحهم في بيروت والمناطق ولذلك عمدوا إلى تأجيل الانتخابات البلدية !

هذه باقة غير مختارة لاقوال بعض النواب في الحكومة السلامية الثانية الثمانية والمرشحة لأن تصبح اربعتعشرنية !

فلقد دشنت عهدها الزاهر الميمون الغدوات المبارك الروحات ، بتأجيل انتخاب البلديات ، فأثبتت بحق وحقيق انها حكومة عمل وانتاج !

ولا أدري لماذا يعتب النواب ويغضبون من حكومتهم لاتباعها قاعدة التأجيل والتسويف في كل قضية تطرح وكل مشكلة تظهر وكل أزمة تنشب . . .

انها لم يمض على وجودها أكثر من عشرة أشهر . فعلام العجلة ولم لا تتأنى ؟ ففي العجلة الندامة وفي التأني السلامة !

صحيح إنها بقيت في كراسي الحكم ما يقارب العام . وصحيح ان المشاكل والازمات والقضايا العالقة المعقدة بقيت بلا حلول . وانها استطاعت طيلة تمرسها بالحكم ان تخلق من المشكلة مشكلتين ومن الازمة ازمتين ومن الحكومة حكومتين . . .

انها لو ارادت ان تكون منسجمة مع شعارها الذي رفعته في أوائل عهدها الميمون الزاهر شعار « لبنان واحد لا لبنانان » لاكتفت بعدم تشعب الازمات ومضاعفة المشكلات !

ثم لم هذه السرعة بمطالبتها حالاً باجراء الإنتخابات البلدية وهي . . . « ما صار لها بالقصر الا من مبارح العصر » ! انها لم تفرغ بعد من التلمظ بكأس النصر التي شربتها ولا من قرص الحلوى الذي أكلته . . . بل ان الفرحة لم تصل بعد إلى القرعة . . .

أوليس من اللائق الانتظار بعض الوقت ريثما تنتشي الحكومة مع محاسبيها وأنصارها بكأس النصر المترعة التي شربتها هنيئاً مريئاً ؟ !

أوليس من واجب المعارضة ــ مجاملة على الأقل ، أن تتريث ولو عشرة أشهر أخرى ريثما تفرغ حكومة «اللبنان الواحد لا اللبنانان» من مشاكلها وازماتها المتعددة السابقة ثم تعكف حكومة « العمل والانتاج » للانكباب على العمل والانتاج ولتنتج مزيداً من العمل والانتاج ؟! . .

حقاً . . . لقد زادتها المعارضة ! !

آن له أن يرى !

من أنباء الصحف أن رئيس الحكومة أدلى بتصريح قال فيه أن اجتماعه بسفير الجمهورية العربية المتحدة في لبنان السيد اللواء عبد الحميد غالب يوم الثلاثاء الماضي ، لا علاقة له البتة بأزمة اضراب المحامين وقال رئيس الحكومة : «ان هذه القضية حسب اعتقاده واعتقاد كل لبناني مخلص لهذا البلد ، هي قضية لبنانية داخلية تعالج في الوقت الحاضر على صعيد لبناني كما هو معروف .

وانني أعتقد أن اللجنة الوزارية المكلفة باجراء اتصالاتها لحل هذه القضية ، سوف تنهي هذه الاتصالات في القريب العاجل بايجاد الحل المنشود الذي يرضي جميع الفرقاء » .

* * *

هذا ما أدلى به حضرة ئيس الحكومة أمس بصدد قضية معهد الحقوق العربي واضراب المحامين الذي ما يزال مستمراً .

واعترف ، كقارىء عادي ، انني لم أفهم من كلام حضرة رئيس الحكومة سوى شيئاً واحداً هو محاولة التنصل والتبرؤ من تهمة إثارة هذا الموضوع مع سفير الجمهورية العربية المتحدة ، والتلطي وراء عبارات « قضية لبنانية داخلية » و « ان اللجنة الوزارية سوف تجري اتصالاتها . . . » و « انها سوف تنهي هذه الاتصالات في القريب العاجل . . . » و « انها سوف تصل إلى ايجاد الحل المنشود الذي يرضي جمع الفرقاء . . . » إلى آخرة إلى آخره !

لا أدري ما الذي يخيف رئيس الحكومة من معرفة الناس بأنه اجتمع إلى السيد السفير اللواء وبحث معه قضية معهد الحقوق العربي ؟ أو حتى بحث معه مسألة أخرى كسفره إلى القاهرة مثلاً ليفقأ حصرمة في عيون الحساد كما فعل عند سفره الى دمشق . . .

واذا لم يتحدث صائب سلام الى عبد الحميد غالب في قضية كقضية معهد الحقوق ، وهما من هما في صداقتهما ووفائهما ووداهما و « انتيميتهما » فالى أي سفير آخر عساه يتحدث ؟

بل ما عسى صائب بك يتحدث الى عبد الحميد به . . . ؟

وصحيح انهما لن يعدما حديثاً آخر يدردشان به في جلسة أنس وصفاء خارج السراي . ولكن أن « يتتع » السفير نفسه ويكلف خاطره في هذا الحر اللاهب ليذهب الى السراي ويمكث ساعتين في خلوة طويلة مع رئيس الحكومة وأمام الاعين الفضولية ، أعين الصحفيين . . . ثم يريدون أن نصدق بأن زيارة السفير لا علاقة لها بأزمة المحامين . . . ؟

فهذا ما يصعب على عقول المواطنين ولا أقول الصحفيين أن يصدقوه !

ولماذا لا يبحث رئيس الحكومة اللبنانية مع سفير الجمهورية العربية قضية سببت اضراب المحامين وعطلت العدالة في البلد ؟

هل تراهم يخشون أن يحلوا أزمة واحدة من الأزمات ؟

هل تراهم يريدون أن يحلوا الأزمات في ضربة واحدة ؟!

ما الذي يخيف صائب سلام من اجتماعه بصفيه وصديقه وبؤبؤ عينه السيد السفير اللواء . . . ؟

هل تراه يخشى من عتاب أو حساب زميله وشريكه في الحكم الشيخ بيار الجميل ؟

ولكن السيد السفير اللواء كان والشيخ بيار على أشهى وأصفى ما يكون الاصدقاء . وهل نسي صائب بك أن سفير الجمهورية العربية قد استحضر أوسمة رفيعة الشأن وخص بها الحكومة الكرامية الرباعية في لبنان ؟!

* * *

ترى لماذا ساءت العلاقات الآن بين الجمهورية العربية وبين لبنان ؟

ولماذا يعجز السيد السفير اللواء عن نصرة أعز الاصدقاء . . . ؟ أوليس هو السياسي اللبق الأنيق ، ذو الخبرة والفهم العميق ، والحكمة والرأي الوثيق ؟

أم أن الخرق قد أتسع على الراتق ؟ أم انهم حسبوا أن العين التي كانت غافلة هناك لا ترى ما جرى ويجري هنا ، ستظل غافلة دائماً وابداً ؟!

لقد آن له أن يرى . . . ويرى جيداً !!

هي نهاية محزنة حقاً وان لم تكن غير متوقعة . . .

نهاية محزنة أن يتنكر الاستاذ عبدالله المشنوق الكاتب الاديب الصحفي ، لمهنة الصحافة فيدير لها ظهره بعد أن وصل على ظهرها إلى النيابة فالوزارة . فقد صرح علناً وأمام الصحفيين بأنه يمثل الحكومة في هذه الوزارة ولا يمثل الصحافة .

ومن حق الوزير المشنوق أن يدافع عن الحكومة ما دام يتربع في صفوفها ، كما أن من حقه أيضاً أن ينقلب عليها عندما يصبح بعيداً عنها ، والتاريخ القريب والبعيد يثبت للوزير هذا الحق الذي أتاح له أن يدير الظهر للصحافة ويتبرأ منها .

ولو أن الاستاذ المربي والاديب الصحفي قد أكتفى بقوله هذا لهان الامر ؛ ولقال الناس انها النهاية المحتومة التي يصير اليها أكثر طلاب المناصب والكراسي .

ولكن أن يتفضل وزير الانباء ويفلسف لنا نظريته من أن بالامكان الاستغناء عن حرية الصحافة في سبيل الوحدة الوطنية فهنا ينحشر رأس البغل في الإبريق ويوشك أدبنا أن يتميز غيظاً وحنقاً . . .

ليسمح لنا الوزير المشنوق — ولا نقول الأديب المشنوق — ان لا نوافقه على هذا الرأي ليسمح لنا ان نقول له لا !

لا يا سيدي لا يمكننا ان نستغني عن حرية الصحافة الا اذا اردنا ان نستغني عن الوحدة الوطنية الحقيقية .

نحن نعلم جيداً ما هي الوحدة الوطنية كيف ومتى تكون ، وكيف ومتى لا تكون !

نعلم جيداً ان هذه العبارة — الكليشيه تحمل في جوفها كل معنى الا معنى الوحدة الوطنية الصحيحة المبرأة من كل عيب . انها تبطن غير ما تعلن وتخفي غير ما تظهر .

الوحدة الوطنية ليست بحاجة إلى مزيد من المزايدين المدافعين عنها ، بقدر ما تحتاج إلى الاقلال من المتاجرين بها الغارقين في نعمائها وافضالها !

« الوحدة الوطنية » !

هذه اليافطة الخام أو الجنفيص التي ما تزال ترفعها بعض الأيدي تهلهلت وباخت ألوانها واصبحت خرقة ممزقة بالية لا تثير في نفوس المواطنين حتى شعور العطف الذي تثيرها في نفوسهم المناديل التي ينشرها المتسولون على أبواب الجوامع والكنائس !

لم يعد أحد من المواطنين يستسيغ طعم هذه الاكلة العفنة ، ولا يطرب لهذه الاسطوانة المشروخة ، ولا يأنس الى من يروج لها او يدعو اليها !

لقد باتت « الوحدة الوطنية » طعماً على صنارة يصطاد بها كل صائد في كل ماء . . .
اضحت « الوحدة الوطنية » بفضل متعهديها سطلا كبيراً يعب منه من يشاء ويبقى السطل فارغاً ولا ماء !
تريدون مزيداً من تردادها ؟ . .
ليكن ما تريدون .
اما الحرية التي تدعون الى الاقلال منها او الاستغناء عنها فدونها خرط القتاد ، وليس باستطاعة احد ان يمسها بسوء او ينال منها قلامة ظفر !
للوزير المشنوق أن يتنكر للصحافة .
له أن يدير ظهره للصحفيين وأن يدير بالتالي اسطوانة « الوحدة الوطنية » متى شاء . ولكن أن يدعو الى الاستغناء عن الحرية الصحفية في لبنان فهذا ما لا يقبل به احد حتى لو كان قائله وزيراً يتربع على وزارتين !

الشراب السري !

في التصريح الرسمي الصادر أمس عن مقام وزير الداخلية كمال بك جنبلاط ، رداً على زميله السابق في الحكم ، الاستاذ عبدالله المشنوق ، الذي اتهمه في جريدته بالانحراف لاشتراكه باستقبال الوفد السوري ، وتناول الغداء ، وشرب عصير رب البندورة ، وعدم التلبس بوجه البربارة . . . الى آخر ما ورد في تصريح الوزير المنشور في غير هذا المكان ، رداً على اتهامات المشنوق .
في نهاية هذا التصريح العلني يقول كمال بك :
« واننا على كل حال اكتفينا بشرب رب البندورة ، لاسباب صحية ، عوض ذاك الشراب الذي يستسيغه ويتذوقه ويطرب له زميلنا السابق في الحكم ، والحالي في مجال الصحافة ، والذي لا يجوز أن نبوح بسره ، صوناً لبعض العلاقات الطيبة » .

* * *

ونحن الذين نعرف صراحة كمال جنبلاط ، ومدى حرصه على تسمية الأشياء بأسمائها ، ووضع النقاط على الحروف ، استغربنا لجوءه للغموض والتستر واعتماد السرية ، في عدم ذكره اسم ونوع الشراب السري الذي تعود أن يشربه المشنوق زميله السابق في الحكم ، والذي كان يستسيغه ويتذوقه ويطرب وينتشي له . . . على حد قول ووصف الوزير جنبلاط !

ما هو هذا الشراب ؟

ولماذا يستحي شخص مثل كمال جنبلاط أن يذكره ؟

بل لماذا لا يجوز أن يبوح الوزير بسره ؟

وهل هو سر ؟

وما عسى يكون هذا السر . . . ولماذا يكون سراً ؟

إن الوزير جنبلاط يؤكد بأنه لا يريد أن يبوح باسم الشراب « صوناً لبعض العلاقات الطيبة » !

أية علاقات يعني الوزير ؟

بين من ومن ؟

بينه وبين المشنوق ؟

أم بين المشنوق وصاحب العلاقة ؟

ولكن من هو صاحب العلاقة ؟ وما علاقة اسم الشراب السري بأسماء او اسم صاحب او أصحاب العلاقة ؟

قد يكون الوزير جنبلاط على حق في حرصه على « صون العلاقة » بين شخصين وعلى وجوب التزام السرية في هذا الأمر الذي نجهله ويجهله معنا القراء ، فالوزير جنبلاط يحب السرية في بعض الأمور ويؤثر كتمانها . . .

ولكن من حقنا على الوزير ، ومن حق القراء عليه ، أن نسأله عن حقيقة ذاك الشراب السري الذي اتهم المشنوق بأنه كان يتذوقه ويستسيغه ويطرب له و . . . إلى آخره !

هل هو شراب الليمون ام شراب الزنجبيل أم شراب التفاح أم شراب الجزر ؟

ولكن أين هو العيب في هذه الانواع من الشرابات التي تلذ وتبهج وتطرب وتسر الخاطر والبدن ؟

وأين هو سبب السرية في عدم ذكره ؟

هل تراه يكون من المشروبات الروحية التي حرمها الله ورسوله . . . ؟

عرق ، ويسكي ، شمبانيا ، روم ، فرموت ، والعياذ بالله العظيم ؟

استغفر الله ثم استغفر الله ، إن المشنوق الوزير المسلم باني مساجد الله ومعمر الخلايا الاجتماعية الاسلامية ، لا يمكن ان يتعاطى اي نوع من المشروبات الروحية المحرمة !

واذن ؟

اذن ماذا ؟

لا بد أن كمال جنبلاط يعني شراباً آخر غير ما ذكرنا وشرحنا وسمينا وفصلنا ؟

انه ليس حليب السباع ولا غير السباع . . .

ولا شك أن الوزير الأديب يمسكه أدبه عن أن يذكر لا تصريحاً ولا تلميحاً عن سر أسرار الشراب السري ، « صوناً منه لبعض العلاقات » وتمشياً وانسجاماً منه مع الرياضة الروحية اليوغية التي تؤثر الصمت والكتمان ، والتي تتلذذ بشرب عصير رب البندورة كمان !

فهل لمعالي الوزير الكبير الشان ، وهو الذي عودنا على الاعلان ، أن يتبع تصريحه ببيان ، يذكر فيه بلا لف ولا دوران ، اسم ذاك الشراب ، الذي أخجل منه اللسان ، وأعياه عن البيان ، ليطلع عليه كل مسؤول وغير مسؤول في لبنان ؟!

دهشة الوزير

يخيل لمن استمع الى حديث وزير الأشغال العامة ، الذي أدلى به أمس إلى إحدى وكالات الاخبار . . . ان الوزير قادم لتوه من الجمهورية السعيدة او المدينة الفاضلة التي تخيلها الفارابي والتي تقوم على أنظف وأكمل القواعد الاخلاقية . لقد تحدث وزير الأشغال عن أوضاع الوزارة فقال : « أنه رغم رغبته بالمرور على الكثير مما شاهده ولمسه وخبره منذ أن تسلم مهام الوزارة فأنه يمكنه القول رغم ذلك أنه فوجيء كثيراً بأن وضع الوزارة كان يتميز بفقدان الانتظام في العمل ، وبعدم تفهم عدد كبير من الموظفين للقوانين والتشريعات رغم أن بينهم رؤساء مصالح ، وبعدم وضع المراسيم والمقررات التي حددت بموجبها صلاحيات المديرين وغيرهم من كبار الموظفين وبأطالة المعاملات على نحو عجيب غريب ، لم يكن ثمة مبرر له .

ويهون كل ذلك إلى جانب تناحر الموظفين منذ التبديلات التي أجريت بعد صدور المراسيم الاشتراعية فرقي فلان وخفض غيره لاعتبارات طائفية دون أي اهتمام بوجوب اعتماد الكفاءة والى اصرار بعضهم على العمل على اساس سياسي وحزبي ، والى مجالات خاصة .

ولا يمكن تصور ما أحدثه العهد السابق من تخريب وافساد للادارة حين جعل الرشوة نظاماً أساسياً للدولة وقاعدة للتصرف العام الا حين يدرك ذلك عن كثب في وزارة الاشغال . يضاف الى ذلك أن عدداً من نخبة المهندسين قد نقل إلى التفتيش المركزي والفني فحرمت الوزارة من خبرتهم . . .

ان الدوائر محشوة بالموظفين المؤقتين الذين عينوا لغايات محض انتخابية ، فهناك وكيل ورشة عين رساماً . . . وعشياً عين معاون مهندس وهكذا . . . كل ذلك بالاضافة الى ان الوزارة كانت تشكو عدم وجود برنامج متناسق متتابع يمكن بواسطته معرفة مصير أي مشروع ، وأسباب تأخر العمل فيه ، وكان أصحاب المصالح بدورهم يؤخرون ويعرقلون سير المشاريع بنسبة لا تقل عن خمسين بالمائة بمراجعاتهم المتكررة .

وختم الوزير حديثه قائلا :

« لقد اتخذنا عدة تدابير إصلاحية ، ونحن بصدد اتخاذ المزيد من هذه التدابير ، واننا لنأمل أخيراً في أن نوفق إلى إصلاح هذه الوزارة والى جعلها أهلاً للقيام بما يترتب عليها من تبعات حيال الوطن »

ألا يحسب من يقرأ هذه المطالعة القيمة أن صاحبها غريب عن هذا البلد أو أنه على الأقل غريب عن السياسة اللبنانية ، كيف تقوم وعلى أي قواعد تستند ، ماذا رأى وزير الأشغال كيما يفاجأ هذه المفاجأة التي جعلته مدهوشاً متذهلاً ؟

الطائفية ، المصلحة الانتخابية ، المحسوبية ، الاهمال ، الفوضى ، عدم الكفاءة ، عدم الاختصاص ؟ . او ليست هذه هي القواعد الاساسية التي يقوم عليها التوظيف واسناد الوظائف في الدولة . . ؟

فما الذي أدهش الوزير . . .

إذا كان وزير الأشغال يعتزم هدم الأسس القديمة واقامة قواعد جديدة للتوظيف في دوائر الحكومة وخاصة في وزارة الأشغال فأهلاً به ومرحباً . أما إذا كان يبتغي من وراء حديثه الضافي الاصلاحي النظري الذي وزعه على الصحف امس الانتقام من الموظفين الذين عينوا في عهد غيره ، فنصيحتنا اليه أن لا يركب هذه المركب الخشن ، فالدنيا وفاء ودين كما يقول المثل وبالكيل الذي سوف يكيله وزير الأشغال اليوم ، سوف يكيله وزير الاشغال الذي سيخلفه . . .

معنى ذلك بصريح العبارة أن سياسة الانتقام لا تجدي أحداً مهما كانت الوسائل التي يتذرع بها صاحبها منطقية ومعقولة . . . .

فليبحث وزير الأشغال إذا شاء عن وسيلة أخرى وقواعد إصلاحية ثابتة ونحن أول من يهلل ويهتف له !

الهواء الأصفر !

« أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام »

* * *

أستطاع الاستاذ كمال جنبلاط وزير الداخلية ، ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ، وأحد كبار أصحاب المتاريس عام ١٩٥٨ ، أن يحقق نصراً عربياً لبنانياً تقدمياً اشتراكياً بشطحة قلم وبتصريح واحد .

فقد أعلن الوزير رفضه السماح بالترخيص لحزب البعث الذي قدمته قيادة الحزب في لبنان بصورة رسمية . واورد الوزير حيثيات الرفض ، فكانت والحق يقال ، مقنعة مفحمة مثلجة لصدر كل لبناني يخاف على بلده وكل عربي يغار على لبنان ويحرص ان يبقى واحة العرب وشاطىء الامان وسط الاعاصير والرياح التي تهب من كل مكان .

ولكن الوزير الحصيف الحريص على « منع تحويل الاراضي اللبنانية الى ميدان للصراع بين الفئات العقائدية المتنازعة في العالم العربي » — كما جاء في حيثيات المنع — لم يشأ أن يلصق التهمة صراحة ويوجهها مباشرة إلى حزب البعث ، بل أكتفى بالاشارة اليها ليوقع في أذهان الناس أن مجرد إعطاء الترخيص للبعث من شأنه ان يحول الاراضي اللبنانية إلى ميدان للصراع والاقتتال . . .

من حق الوزير جنبلاط علينا أن نعترف له بفطنته وبراعته في صياغة قرار المنع ، ذلك أنه حدد نوعية الصراع غير المرغوب فيه في لبنان اذ أسماه « الصراع بين الفئات العقائدية المتنازعة في العالم العربي » . فحق المنع والحظر على حزب البعث ، وكأنه هو المقصود — وهو المقصود فعلاً — دون غيره من الفئات والتشكيلات و « اللملمات » التي تواجهه في الصراع القائم في هذه الايام !

وليس لنا أن نعترض على قرار رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يحظر فيه العمل على حزب البعث العربي الاشتراكي ، فلعله يؤمن بأن الصراع بالبعكور والنبوت أجدى من صراع العقائد وأسلم . وان القتال بالبازوكا خلف المتاريس أكسب وأضمن . . . لسلامة لبنان وأضمن لحرية أبنائه وأرواحهم وأموالهم !

أجل قد يكون لوزير الشؤون الداخلية اللبنانية وجهة نظر في هذا الموضوع اليوم ، وقد تختلف غداً كما اختلفت بالامس . فليس هذا مهماً وقد تعود اللبنانيون على « فولكلورية » آراء

الاستاذ كمال جنبلاط المعروفة المشهورة .

نعم ليس مهماً كل هذا ولا بعضه ، لولا أن صاحبه رجل مسؤول ينطق باسم حكومة ودولة وعهد ، ويحمل بين يديه أمانة المحافظة على أرواح وأموال شعب بأسره !

أو ليس يفهم من قرار وزير الداخلية أن منع حزب البعث من مزاولة نشاطه في لبنان ، لم يكن إلا ترضية وتطميناً للفئات التي تحارب البعث في هذه الايام ؟

أوليس يفهم من هذا القرار ، إنه شجب للعمل العقائدي الصحيح ، وتحريض سافر للانتقاض عليه . وإنه تعطيل لضمانة كبرى من ضمانات العقل والمنطق والوعي تقف في وجه السخف والرعونة والغوغائية ؟

أما كان الأجدر بوزير لبناني مسؤول ، مدعو لان يمثل وجه هذا العهد الذي أوقف الفتنة والتذابح بين اللبنانيين ، أن يتناسى ميوله وعواطفه ومصالحه من أجل مصلحة هذا العهد المؤتمن على أرواح اللبنانيين وسلامتهم من أن تكون نهباً لتجربة أخرى ؟

أما كان الأليق والأنبل برئيس حزب يدعي العلمانية والتقدمية والاشتراكية والتحررية ، أن يستصدر قراراً يحظر فيه إثارة النعرات الدينية ويحذر من مغبة التجارة بالاوطان والأديان ، بدلاً من تعطيل العمل العقائدي وتهديم الضمانة الكبرى التي تقف في وجه الفتنة ؟

إن الأحزاب العقائدية ليست بحاجة إلى رخصة عمل لتعمل . فما هي صفقة ولا سلعة ، ولا هي شهادة وطنية يدفع صاحبها الثمن ليظفر بها ولتكون مبرراً لعدم الاعتداء عليه وطعنه بشرفه ووطنيته كما كان الأمر عام ١٩٥٨ .

* * *

إمنعوا حزب البعث إذا شئتم ، ولكن قبل أن تقفلوا هذه النافذة أوصدوا سائر الأبواب المشرعة التي حملت الينا رياحاً أين منها الرياح السموم والهواء الأصفر !

سامح الله العراق !

« السفارة العراقية في بيروت تقوم بأعمال من شأنها أن تشكل تدخلاً في شؤون لبنان الداخلية وذلك عن طريق المساعدات التي تقدم إلى البعثيين في لبنان، وهي مساعدات تختلف باختلاف الظروف التي تقدم فيها » .

بهذه الحيثيات الوجيهة أعربت حكومتنا الجليلة عن حرصها البالغ على كرامة لبنان ، ومنع الايدي الطويلة من التدخل في شؤونه والعبث بمقدراته .

فما على اللبنانيين بعد اليوم إلا أن يناموا على حرير ويطمئنوا إلى سهر الحكومة ويقظتها وحراستها لأمن لبنان واستقلاله وعزه وكرامته .

وما على الشعب اللبناني إلا أن يتنادى بكافة طوائفه وأحزابه ليقيم مهرجاناً كبيراً يكرم فيه سادته المسؤولين ويعلق فوق صدورهم أوسمة الفخار ونياشين العز والاكبار ، على أنغام الدفوف وقرع الطبول وبضعة طلقات من مدافع البازوكا ، تجلة واعترافاً بعظيم فضلهم وجميل صنعهم ... ولم لا ؟

وهل قليل أن تفطن حكومة ، ما قامت وما قدر لها أن تقوم وأن تستمر في قيامها حتى اليوم ، إلا لأنها بقية من « جرجرة » الحكومات التي تعاقبت بفضل المتاريس والخنادق التي حفرت في صدور وجماجم اللبنانيين عام ١٩٥٨ ؟

هل قليل أن تستيقظ حكومة كهذه هكذا فجأة ، لتضع يدها على الداء وتصف الدواء بمثل هذه الصراحة والشجاعة — صراحة المتاريس وشجاعة الخنادق — ولتقول لنا بلسان عربي فصيح لا لعثمة فيه ولا ارتجاج ، بانها عازمة عزماً أكيداً شديداً على منع التدخل بشؤون لبنان الداخلية ، وانها لن تضعف ولن تتهاون ولن تساوم ، حفاظاً على شرف لبنان وسمعته كرامته ؟

فمن للبنان وللبنانيين غير هذه الحكومة القوية الشكيمة المعقوفة الشنب العالية الكعب العزيزة الخاطر المرهوبة الجانب ، تقيم الدليل على انها سيدة حرة مستقلة ، ليست تبعاً ولا ذيلاً ولا أمعة ؟

من للبنان غير هؤلاء الفرسان الابطال الاشاوس المغاوير ، يفهمون القريب والبعيد بأن عهد الانتداب والوصاية والحماية والمسكنة والتزلف قد مضى وانقضى ، وإن ليس بعد اليوم من كلمة تعلو على كلمة لبنان الحر واللبنانيين الأحرار في بلادهم السادة في تصريف شؤونهم ؟

* * *

سامح الله العراق الشقيق ، وسامح معه السفارة العراقية في بيروت ، التي تجرأت على تقديم بعض المساعدات إلى البعثيين . فلم ترع للبنان حرمة ولا كرامة ، بل تجرأت عليه أيما تجرؤ واستهانت بعزته وسيادته أيما استهانة !

لقد اشترى العراق الشقيق الذمم والضمائر في لبنان . واستباح الحرمات ومرغ الكرامات وسود الأمعات ، وشطر لبنان شطرين وقسمه متراسين ووزع الاسلحة والرواتب لكل حسب وجاهته ومن كل حسب طاقته وقدرته على زرع الاحقاد وتفسيخ الصفوف والولوغ في الاعراض !

سامح الله العراق وسامح السفارة العراقية في بيروت ، لقد أقدمت على ما لم تتجرأ سفارة عربية ولا غربية الإقدام عليه . . .

لقد أقدمت على تقديم بعض المساعدات إلى بعض البعثيين في لبنان !

الدورة الخطرة !

لست أعرف من شرور هذا البلد السياسية ، شراً أكبر من هذه الدورة القاسية المشؤومة التي تتألف منها حياة أكثر السياسيين في لبنان .

إنها الدورة التي تدور دائماً وأبداً على وتيرة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل .

يبدأ السياسي حياته السياسية ، متطرفاً عنيفاً ، فيجمع بفضل هذا التطرف العنيف ، عصبية له في الشارع ، ثم ينتقل بعد أن يتمكن من هذا الشارع ، الى كرسي الحكم . وهناك يجنح نحو الاعتدال الذي يبقيه في الحكم فترة من الزمن ، ولكنه يفقده في الوقت ذاته ، قوته في الشارع التي ينتزعها منه متطرف عنيف ناشىء ، ينعي عليه اعتداله .

هذه الدورة التي تكاد تكون سيرة حياة كل سياسي عندنا ، هي دورة خطرة مجرمة ، تذهب ضحيتها عادة ، لا مصلحة الشعب وحسب ، بل وسمعة الكثير من السياسيين وأكثر من مجرد السمعة أيضاً .

إن العاقبة فيها سيئة دائماً ، وهي أسوأ بكثير من مصير أي سياسي بدأ معتدلاً وسار دائماً على طريق الاعتدال .

تذكرت أمام مظاهرات النجادة وذيولها المؤلمة ، كل مراحل الحياة السياسية التي مر بها صائب سلام وعبدالله المشنوق !

« زعيمان » تمخضت عنهما ثورة عنيفة متطرفة .

وكانا من قادتها بفضل تطرفهما ، يصلان الى الحكم فيضطران إضطراراً لان يقمعا بالعنف مظاهرة تحمل نفس الشعارات التي كانت تحملها المظاهرات الزاحفة بالأمس تحت لوائهما ، فتنفتح الطريق سهلة معبدة بوجه « زعيم » آخر اختار الطريق نفسه ، وللغرض نفسه .

ولقد تساءلت وأنا أفكر في مصير السياسيين عندنا :

ترى أما كانت النقمة على سلام والمشنوق أقل مما هي عليه اليوم لو ان الرجلين لم يكونا في السابق متطرفين عنيفين كما كانا ؟

ترى ، أما كان الناس يقدرون سلام والمشنوق أكثر مما يفعلون اليوم ، لو انهما لم يرتبطا منذ البدء بالمواقف الجامحة ، التي نراهما مضطرين اليوم ، لمحاربتها والقضاء عليها عند غيرهما ؟

ان القسط الأوفر من نقمة بعض الاوساط على رئيس الحكومة ووزير داخليتها، انما يقوم لا على انهما قمعا مظاهرة ، بقدر ما يقوم على انهما ، قد تنكرا للسبيل الذي سارا عليه في الماضي ، والسلم الذي عليه ارتقيا ووصلا إلى حيث هما !

* * *

عبرة الحوادث الاخيرة ، أن حالة لبنان السياسية ، ستبقى على ما هي عليه من سوء وتدهور ، وان الحكم سيظل محرقة الرجال ، ما دامت الدورة الخطرة المشؤومة هي التي ترسم لهم حياتهم ، فاذا هم ، وقد اختاروا التطرف والعنف منذ البدء ، يذهبون في النهاية ضحية تطرف سواهم !

ترى هل يطول بنا الانتظار ، حتى نشهد السلم ، سلم المجد ، يسلم نفسه لصنف من الرجال جديد ، ينتهي على ما بدأ به ، ويبدأ بما سينتهي عليه ، ولا يكون في آخرته غير ما كان عليه في مطلع حياته ؟

لقد دارت الدورة المجرمة - بما فيه الكفاية ، على مصلحة هذا البلد ، وعلى مصائر سياسييه. وآن لها أن تقف بعد اليوم عن الدوران !

أشخاص

لم أكن أعلم أن رئيس الحكومة السابق السيد صائب سلام ، كان ينوي الدعوة إلى مؤتمر صحفي ، ثم عدل عن ذلك ، لولا إنني قرأت أمس تصريح وزير التصميم العام في هذا الشأن إذ قال :

« إننا نشكره (يشكر صائب سلام) على هذه البادرة نحو الحكومة ، إذا كان المقصود منها إقراره بحسن معالجتها لقضايا البلاد الخارجية والداخلية . وأعتقد انه خيراً فعل بصرف النظر عن هذا المؤتمر الصحفي ، باعتبار إنه كرجل دولة وكبرلماني ممتاز ، يقرنا بأن البرلمان هو المكان الصالح لمناقشة الحكومة الحساب الذي لن يكون إلا يسيراً بالنسبة لها » .

هذا ما ذكره الوزير الاستاذ عثمان الدنا .

والواقع . . . إنني لم أفهم تماماً ما قصد اليه وزير التصميم .

إنه يشكر صائب سلام إذا كان المقصود إقراره بحسن معالجة الحكومة قضايا البلاد الخارجية والداخلية . . .

وصائب سلام قد عبر عن رأيه بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية عبر تصريحاته الطنانة الرنانة من القاهرة ومن صوت العرب ، والتي يتهم فيها الحكومة — لكيلا نقول الدولة — بالرضوخ لارادة « الاجنبي » !

هذه واحدة .

والثانية ، قول وزير التصميم أن صائب سلام فعل خيراً بصرف النظر عن مؤتمره الصحفي .

ولست أدري ما هو الضرر في أن يعقد صائب سلام مؤتمراً صحفياً بل مؤتمرات عديدة . . . ؟

والثالثة ، أن الاستاذ الدنا يعتبر أن على صائب بك « كرجل دولة وكبرلماني ممتاز » عليه أن يعلم بأن البرلمان هو المكان الصالح لمناقشة الحكومة الحساب . . .

وما من لبناني في آخر قرية من قرى لبنان ، يجهل بأن مناقشة الحكومات الحساب لا تتم في البرلمان بقدر ما تتم خارج البرلمان . . .

وتاريخ لبنان ولا سيما الحديث شاهد صدق على ما نقول .

والرابعة والاخيرة .

قول وزير التصميم بما يشبه التأكيد والعزم والتصميم بأن « الحساب لن يكون الا يسيراً بالنسبة للحكومة » !

والمعنى الظاهر الواضح الذي لا يخفى على اللبيب ولا على غير اللبيب ، أن الحساب سيكون عسيراً بالنسبة لصائب سلام !.

وليتفضل وزير التصميم ولينف صحة ما أراد قوله حقيقة وجعله جوازاً بدل أن يجعله وجوباً ومستتراً عوض أن يكون ظاهراً !

كل هذا ليس مهماً ، فصائب سلام الرجل المقدام ، بغير حاجة إلى إثارته ودفعه الى الكلام . وليس يضيره التحدي ولا يقعده الملام . وما عليه إلا أن يرد على الكلام بكلام وعلى الإتهام باتهام . . . ثم ما عليه لوم ولا حرج ، بل عليه الامان والسلام .

لا سيما وانه عاد حديثاً من القاهرة ولا بد أنه سيعود مرة ثانية إن لم يكن قد عاد ونحن لا نعلم !

ثم منذ متى كان الكلام في لبنان يخضع لرسوم الجمرك ؟

* * *

تكلم يا صائب بك . . .

سافرت أم لم تسافر . عدت أم لم تعد .

عقدت مؤتمراً صحفياً أم لم تعقد مؤتمراً صحفياً .

اجتمعت بعبد الحميد السراج أم اجتمعت بغير عبد الحميد السراج . . .

تكلم بالله عليك يا صائب بك !

تكلم إن لم يكن إكراماً لنا ولحق قرائك علينا . . . فعلى الاقل اكراماً لصديقك اللدود الحميم ، وزير التصميم . . !

زعيم لا زعيمان !

على عكس ما يوحي به التضخم الظاهر في الوفد الذي ألفته الحكومة الى مؤتمر بلغراد ، وترأسه السيد صائب سلام .

على عكس ما يوحي به هذا التضخم فان نتائج مؤتمر بلغراد لم تأت في صالح لبنان ولا الدول العربية ، في أكبر قضية من قضاياهم ، وأعني بها قضية فلسطين .

فقد أقصيت قضية فلسطين من مقررات المؤتمر الرئيسية ، وبان تراجع دول الحياد عما سبق وقررته في باندونغ ، حيث ناشدت الدول الاسيوية — الافريقية الامم المتحدة بتطبيق مبادىء العدل ، وروح ميثاق الامم المتحدة في موضوع فلسطين .

والمؤلم أن نكون قد ضربنا من بيت أبينا كما يقول المثل . فالذي رفض اعطاء مقام رئيسي لقضية فلسطين ، هو بورما وسيلان والهند ، وكلها دول حرص العرب دائماً على حسن العلاقة بها .

وفيما يخص الهند بالذات ، يعلم القاصي والداني ، أن هذه الدولة كانت منذ مدة بعيدة من الزمن ، صديقة العرب المدللة الاولى .

فمن أجل الهند ضرب العرب بعرض الحائط بصداقتهم للباكستان ، الدولة التي يشهد الله انها لم تقف مرة واحدة إلا الموقف الذي يقفه العرب في أكثر القضايا العربية ولا سيما قضية فلسطين بالذات .

فمن أجل الهند نسي العرب كل رابطة تربطهم بالباكستان ، ونسوا أن الباكستانيين هم أكثر شعوب الارض احتراماً للتراث العربي وتعلقاً بمآثر العرب القديم منها والحديث .

وبدلاً من أن تقدر الهند للعرب هذا الامتياز الذي آثروه إياها ، وقفت الهند تناصب العرب العداء في أقدس قضية من قضاياهم ، متجاوزة حقوق الصداقة ، متجاهلة جميع المبادىء السلمية والانسانية التي تدعي الهند نصرتها على الصعيد الدولي .

ولكم حز في قلوبنا أن يقف الرئيس نهرو ، نهرو الذي نحب ونقدر ، في مؤتمر بلغراد نفس الموقف الذي يقفه من فلسطين أعداء العرب وأعداء الهند من دول الاستعمار . ولكم حز في نفوسنا اكثر وأكثر ، أن يكون نهرو هذا هو الذي من أجله خاصمنا ظفرالله خان وزير خارجية الباكستان الشهير ، الذي تحدث وقائع جلسات الامم المتحدة أنه أفصح من نافح عن القضية الفلسطينية ، وأبلغ من شرح خفاياها وأظهر الحق الصراح فيها .

* * *

إننا نعتبر ما جرى في مؤتمر بلغراد فشلاً عربياً ذريعاً جديراً بأن يجعلنا نفكر ملياً في هذه

الصداقات الدولية ، التي نقبل عليها بعفوية وسذاجة ، ويقبل عليها غيرنا بأنانية ولا مبالاة ! لقد أعطينا بعض الدول الاسيوية والافريقية أكثر مما أعطتنا ، في حين أن العدل يقضي بأن نأخذ مثلما أعطينا . . .

* * *

طبعاً ليس هذا الكلام موجهاً لصائب بك . فهو مشغول بتطبيق « عالم واحد لا عالمان » على المسكونة بأسرها . . . وفقه الله وأيده بنصر من عنده .

ولكننا نتوجه بكلامنا هذا الى الرئيس عبد الناصر ، الذي يحمل وحده في المؤتمرات الدولية أعباء القضايا العربية ، وحيث تسود عادة نظرية زعيم واحد لا زعيمان !

عودة البطل !

الضجة الكبرى التي أقامتها المعارضة في اليومين الاخيرين ، حول استقبال رئيس الحكومة العائد من بلغراد ، لست أفهمها ، وما أحسب أن أحداً من اللبنانيين يفهمها أو يقبل باعتراضاتها ..

فكلنا في الاستقبالات والوداعات والمهرجانات والعراضات لبنانيون . لبنانيون اقحاح يتقنون الاصول المتبعة والقواعد المرعية في مثل هذه المناسبات . . . فاذا تزوج أحدنا وجب أن تصدح موسيقى السيارات بزماميرها المتنوعة والمنغمة ، وهي تجوب الشوارع في « البرمة » التقليدية المشهورة ، والتي يسمونها « برمة العروس » أو « برمة بيروت » . واذا أحتفل أحد المواطنين بعيد ميلاده أو عيد ميلاد طفله ، أقام الدنيا وأقعدها احتفاء واحتفالاً بالعيد السعيد . واذا اراد زعيم حزب من الاحزاب ان ينتقل من زاروب الطمليس الى زاروب الحرامية مثلاً ، رفعت له اقواس النصر في الشوارع العامة وانتشرت يافطات الخام الترحيبية تغطي سماء العاصمة ، أما الاسهم النارية وطلقات الرصاص المدوية . فحدث عنها ولا تسكت . . . انها بمثابة الشرابات والحلويات التي توزع في الافراح . ولكل من الزعماء ، طلقات المدافع والرصاص ، حسب زعامته ووجاهته . . . و « الشاطر ما يموت » !

سنة الله في لبنان . وسنة المواطنين في أهل السياسة من المسترعمين والمستوجهين . ولن تجد لسنة الله في لبنان تبد يلاً ولا تغييراً .

فماذا بدا مما عدا حتى تقوم قيامة المعارضة والمعارضين لشجب الاستقبال العظيم الذي « يوضبه » أنصار الحكومة لرئيس الحكومة ؟ وأية مناسبة اشرف وأكرم وأبهج وأمتع ، من هذه

المناسبة الكريمة الشريفة ، مناسبة عودة الرئيس المظفر من مؤتمر بلغراد المفتخر المعتبر ؟

وهل هناك مناسبة تدعو إلى المباهاة والاعتزاز اسمى وارفع من مناسبة عودة بطل السلام صائب سلام ؟

واذا لم « يوضب » انصار الحكومة الاستقبال الكبير لرئيس حكومتهم ، فمن عساه يتولى هذه المهمة غيرهم ؟ وهل أقفرت بيروت من الانصار والاتباع ، من الذين لهم في كل عرس قرص ، خاصة اذا كان العرس فخيماً عظيماً والاقراص كثيرة ومتوفرة ، متنوعة الاشكال والانواع ؟!

وهل قليل أن يذهب صائب سلام إلى مؤتمر بلغراد بل ويترأس المؤتمر ؟

وهل قليل أن يسعى الرئيس الى توطيد دعائم السلام في العالم ، فيجمع رأسين بالحلال ، رأس خروتشوف ورأس كنيدي ، يذهب اليهما فيعانقهما ويقبلهما وينصحهما بأحلال الوئام بدل الخصام ، فيستجيب القطبان الكبيران ، قطبي العالم بأسره ، للنصيحة الكبرى والموعظة الحسنة ، فتروق الاحوال ، وتصفو الايام وتنتشر الوية السلام خفاقة لتعم الارض ولتصل الى السماء !

وماذا يعني عدم استتباب الامن والسلام في لبنان ؟

ماذا يعني لو تزعزعت دعائمه وفقد أبناؤه كل ثقة مأمولة وكل أمل مرتجى ؟

بل ماذا يعني لو تهدم لبنان وتبخر وطار ؟

ان صائب سلام أضحى ملكاً للعالم ، العالم بأسره ولم يعد ملك لبنان وحده . فهل ينبغي للرئيس العالمي أن ينصرف الى توافه الامور ؟

ومن قبل صائب سلام رفع رأس لبنان عالياً في المؤتمرات الدولية المثمرة ؟ بل من بعده قادر على أن يطيل عنق لبنان أكثر مما أطاله صائب سلام ؟

أهذا هو جزاء الابطال العظام يلقونه من معارضيهم . يقيمون الدنيا ويقعدونها وينادون بالويل والثبور وعظائم الامور احتجاجاً على « ترتيب » و « توضيب » و « تهيئة » الاستقبال الشعبي العفوي للقاء الرئيس العائد ؟!

لقد أجتمع صائب سلام الى نهرو وتيتو وعبدالناصر وسوكارنو وناكروما ووو . . . اجتمع الى رؤساء ثلث الكرة الارضية ، وجلس عليهم رئيساً . . . فهل قليل عليه أن « يوضب » له احتفال يليق به ؟

ولقد قبّله عبد الناصر أيضاً ، نعم قبّله قبلة طبعت ونشرت ووزعت في جميع الاحياء

البيروتية ، ولا سيما الاحياء الغربية إبتداء من الباشورة وطلوعاً حتى الطريق الجديدة وزاروب صبرا . . .

أفبعد هذا تضيق عين المعارضة ويضيق صدرها بتهيئة استقبال لصائب سلام ، وهو الذي قابله وقبّله جمال عبد الناصر ؟!

* * *

ايها السادة عيب . . .

والله العظيم عيب !!

التلميذ النجيب !

« الله الله يا دنيا » . . .

عبارة كم كان سامي الصلح يحب ترددها .

وما أحرانا اليوم أن نرددها : « الله الله يا دنيا » . . .

من يراقب تصرفات رئيس الحكومة الحاضرة — الذاهبة ، السيد صائب سلام ، يخيل اليه ان صاحب هذه التصرفات هو سامي بك نفسه ، مع حفظ حق السبق لدولة أبي الفقراء !

ألم يكن سامي بك ، هو الذي كان يقول في كل أزمة وزارية تهدد حكومته : أنا باق أنا باق ، سأقاتل سأقاتل ، لوحدي لوحدي ؟

ألم يكن هو صاحب التعبير المشهور : « رجلي ورجلك ، سوا سوا ، جوا سوا برا سوا كلنا سوا سوا » !

ألم يكن هو الذي دعاه الفرد نقاش للاستقالة يوم كان النقاش رئيساً للجمهورية ، وكان سامي بك رئيساً للحكومة ، فكان جوابه « رجلي ورجلك » ؟

ألم يكن هو الذي طلب منه الشيخ بشارة الخوري مغادرة كرسي الرئاسة الثالثة فرفض أن يذهب قبل أن يأخذ معه الشيخ بشارة الخوري من الرئاسة الاولى ؟

ألم يكن هو الذي طلب منه بعضهم أن يستقيل أثناء الثورة — الفتنة فكان جوابه « استقالة ؟ استقالة ؟ أنا بستقيل ؟ استقالة يوق » !

يومذاك ، وعلى الرغم من أن الناس كانت تسرها مثل هذه المواقف الطريفة ، لما فيها من من غرابة وما فيها من اعتداد و[illegible] ، كان صائب بك ومن كان في صفه ينتقد تصرفات

سامي الصلح ، بل يحمل عليه ويتهمه فيها بالرعونة ، وحب الكرسي ، وفرط الانانية ، وعدم تقدير العواقب .

فاين مواقف صائب بك اليوم مما كان ينتقده بالامس ؟

إنه اليوم قد « دوبل » على سامي الصلح نفسه بتشبثه بالبقاء في كرسي الحكم ، و « دوبل » عليه في الشكل أيضاً وليس في الاساس وحسب ! فهو يقول إنه سيذهب إلى المجلس ولو ذهب اليه وحده .

وهو يقول إنه لن يستقيل لن يستقيل لن يستقيل ، وإنه باق باق باق !

وهو يقول بالعربي غير الفصيح ما كان يقوله سامي بك بالتركي الفصيح « استقالة يوق إستقالة يوق ! »

لا بل ان صائب بك يقول في هذا الموضوع أموراً أكثر غرابة مما كان يقول أبو الفقراء . . . فاذا كانت الناس تستطرف في السابق كلمة « رجلي ورجلك » و « أجينا سوا بنروح سوا » فانها اليوم تستنكر مثل هذا الكلام تقوله بعض الاوساط التي تعتقد انها تفيد رئيس الحكومة وهي في الحقيقة تسيء اليه أشد الاساءة !

* * *

اننا مستعدون أن نفهم الضرورات التي جعلت صائب سلام يسير بالسياسة الداخلية والخارجية على نفس الطريق التي سار عليها سامي الصلح ونفهم الضرورات التي جعلته يطبق في الحكم عكس ما كان ينادي به وهو خارج الحكم .

نفهم كل هذا جيداً . ولكننا لا نستطيع أن نفهم ، ان يتبع صائب بك نفس الاسلوب ونفس العبارات ونفس الحركات والاشارات التي كان يتبعها سامي بك !

فلولا التركية الفصيحة لما كان من فرق على الاطلاق بين ما نسمعه اليوم من صائب سلام ، وما كنا نسمعه بالامس من سامي الصلح . لا فرق ، لا فرق أبداً . . . فرق يوك !

ترى هل يريد صائب بك أن يثبت للبنانيين في آخر أيامه في الحكم ، إنه تلميذ نجيب لسامي بك ؟

إذا كان هذا قصده ، فلقد أثبت حقاً بأنه تلميذ نجيب !

الفرصة التي ضاعت !

إن من راقب الاستشارات النيابية التي قام بها رئيس الجمهورية ، واطلع على التوصيات والتمنيات التي صدرت عن الغالبية العظمى من اعضاء المجلس ، مضطر لان يشهد للمرة الاولى من تاريخ هذا البرلمان ، شهادة حسنة به .

فالمجلس قد قال صراحة بالشيء الذي تقول به البلاد ، منذ نهاية الفتنة الشمطاء ، التي يدعونها تجاوزاً بل كذباً وافتراء « ثورة » !

كان رأي المجلس صريحاً في أنه لا يريد حكم المتراسين . فهو لا يريد صائب سلام ؛ وهو لا يريد بيار الجميل ، وهو لا يريد كمال جنبلاط . وانما يريد حكومة لا يدخلها أحد من الذين أريقت دماء اللبنانيين تحت شعاراتهم وألويتهم وسناجقهم !

وليس مهماً على الاطلاق أن يكون النواب قد قالوا بما قالوا به ، لانهم يبغون أن يفتحوا أمام أنفسهم أكبر عدد ممكن من الابواب الوزارية . فالمهم انهم قالوا ما تقول به البلاد ، ووضعوا لها الدواء الذي تعتقد انه شافيها من أمراضها .

نعم ، لقد كانت الاستشارات الاخيرة هزيمة أدبية وعددية ، معنوية ومادية ، للزعامات الفارغة التي ما زالت تتحكم بالبلاد منذ نهاية الفتنة ، وتتقاسم الحكم ، من دون الشعب .

ولو ان رئيس الجمهورية احصى الذين استشارهم احصاء دقيقاً ، وتقيد بأحكام هذا الاحصاء تقيداً تاماً ، لما كان على ارائك الحكم احد من الذين رأى فيهم الناس ، السبب الرئيسي لشكاواهم .

ولكن الرئيس كان ازحم بهؤلاء من أبناء البلاد ، وكان أرحم بهم من النواب ، فلم يقبل بالاجهاز عليهم اجهازاً نهائياً ، وابقى لهم شيئاً مما فقدوا ومما يستحقون أن يفقدوا ، فجاء بعضهم على حساب الرئيس بعد أن عجز أن يأتي على حسابه الخاص .

انها فرصة ضاعت مع الاسف الشديد ، وكنا نريدها ان لا تضيع ، فيستقيم الوضع في لبنان استقامة صحيحة ، ويتخلص هذا الوطن المسكين من اسطورة « لا غالب ولا مغلوب » ومهزلة « ثمار الثورة » وتجارة « لبنان لا لبنانان » !

انها فرصة لم نحسن الاستفادة منها ، بالرغم من ان هذه الاستفادة كانت ميسورة سهلة ، لا تكلف الوطن متاعب او صعوبات ما .

واذا قابلنا المتاعب والصعوبات والثورات والانقلابات التي تجري في البلاد العربية من أجل تغيير الاوضاع وتبديل الاحوال بالمتاعب البسيطة ، والصعوبات الصغيرة ، التي تنتج من جراء ابقاء كمال جنبلاط او بيار الجميل او غيرهما خارج الحكم ، لعجبنا كيف لا تقبل الخير

يجيء بهذا الثمن القليل والاصلاح يأتي عن هذا السبيل القريب .

ماذا نريد أكثر من أن يأتي مجلس النواب فيقول لا نريد أحداً منهم ، حتى نجد من ذلك مناسبة سانحة لاخراجهم جميعاً والتخلص منهم ومن اساليبهم ، ومن النظرية الخطرة المدمرة التي جاءت بهم الى الحكم !

ماذا نريد أكثر من أن ينتشر في طول البلاد وعرضها رأي عام يقول بابعاد هؤلاء عن كراسي الحكم ، واعادة التنفس الطبيعي الى الحياة السياسية ، بعد أن خنقها وجود أبطال المتاريس والخنادق ، دعاة التنازع بالدم والتفاهم على حساب هذا الدم !

كانت البلاد تحب أن ترى عند رئيس الجمهورية الشدة المطلقة بحق هؤلاء ، وكانت تحب أن ترى عند رئيس الجمهورية القسوة على هؤلاء الذين ما رحموا البلاد ، لا يوم دعوا الى المذابح ولا يوم جلسوا على طاولة الاحكام !

لقد كان المجلس النيابي في الاستشارات الاخيرة يريد هو الآخر أن يكون الرئيس شديداً وقاسياً مع هؤلاء .

فالى متى يبقى هؤلاء ، أبطال المتاريس والخنادق ، يتمتعون بما لا ينبغي ولا يجوز أن يتمتعوا به ، من مكان في قيادة البلاد وهم الذين لا يقودونها ولا يمكن أن يقودوها الى غير الدمار ! !

اللغم الثالث

الصعوبات التي لاقاها الرئيس المكلف الاستاذ رشيد كرامي بتشكيل الوزارة ، ليست تعد شيئاً أمام الصعوبات الاخرى التي سوف يصطدم بها اذا ما تم تشكيل الحكومة على النحو الذي قيل انها ستشكل عليه أثناء المشاورات . فالطريق ليست سهلة ، والاختيار ليس ميسوراً ولا مأمون العواقب . ذلك أن الاستاذ رشيد كرامي الذي فرغ من مشكلة إختيار أعضاء حكومته العتيدة ، أصطدم بالشروط التي وضعها بعضهم ، وأولها وأقساها فرض إختيار الحقائب الوزارية ، بشكل يجعل من الرئيس الشاب طرطوراً لا حول له ولا سلطان !

فبعد إجماع الرأي على وجوب الاتيان بحكومة لا تتمثل فيها الخنادق والمتاريس . وبعد الرضوخ مجدداً لاهل الخنادق والمتاريس ، وضمهم في التشكيلة الجديدة . بعد هذا وبالرغم من هذا ، أبى أهل المتاريس الا أن يفرضوا ويختاروا المقاعد الوزارية التي كانوا الى عهد قريب يتمترسون بها ، وكأن شيئاً لم يحدث ولم يتغير .

ولاهل المتاريس عذرهم . فأي شيء قد حدث ؟

وأي شيء قد تغير كيما تتغير حقائبهم وتتبدل مقاعدهم ؟

كان كمال جنبلاط وزيراً للاشغال العامة .

وكان بيار الجميل وزيراً للمالية .

فلم لا يعود كمال جنبلاط الى مقعده في وزارة الاشغال ؟

ولم لا يعود بيار الجميل الى كرسيه في وزارة المال ؟

وماذا عدا مما بدا كيما تتغير المقاعد وتتبدل الحقائب ؟

هذه مشكلة . ولكنها ليست كل شيء . انها واحدة من المشكلة الأم التي تفرعت عنها سائر المشاكل التي اعترضت سبيل الرئيس المكلف . فلقد قام في أذهان الـ٩٩ نائباً أن كل فحل منهم مؤهل لان يكون وزيراً ، إن لم يكن رئيساً ، حتى لو كان نائباً من الدرجة التيرسو المخفضة ، فما بالك بالنائب البريمو الذي ينتمي إلى كتلة نيابية لها وزنها ولها رأيها ولها مرشحيها ؟

ولقد جنت الوزارة الثمانعشرية جناية كبرى على أسلوب الحكم في لبنان . ذلك انها أطمعت كل طامع في الكرسي الوزاري ، ليس من صفوف النواب وحسب ، بل من كل هب ودب ، حتى بات المنصب الوزاري أرخص من حزمة الفجل في سوق الخضار ، أو الثياب القديمة في سوق الدلالين !

نحن نعتقد أن تأليف الوزارات في لبنان سيظل مشكلة طيلة هذا العهد ، لان المجلس قد ولد والى جنبه ثلاثة الغام من النوع الذي ينسف الحياة البرلمانية .

أما اللغم الاول فهو لغم الانتخابات المهووسة التي جاءت الى المجلس بجماعة الخنادق والمتاريس ، ممن تعودوا أن ينظروا إلى أنفسهم وكأنهم حكومات قائمة بذاتها ، وشعارهم « ما دمت قد كنت حكومة أثناء الثورة فلماذا لا أستمر حكومة مستقلة بعد الثورة » !

أما اللغم الثاني فهو عدد النواب الذي يشكل بالنسبة لاتساعه غير المتناسب مع لبنان عقبة كأداء في وجه كل حكومة !

وأما اللغم الثالث ، فهو البداية السيئة التي بدأها الرئيس السابق صائب سلام عمر هذا المجلس بتأليف حكومة من ثمانية عشر وزيراً ، مما كان له النتائج التي ذكرنا .

انه لغم وضعه صائب سلام ، فأنفجر للمرة الاولى بحكومة صائب سلام نفسه ، وها هو اليوم ينفجر أمام رشيد كرامي ، ولسنا ندري بوجه من سينفجر في الغد !

رحم الله أحمد الاسعد ما كان أظرفه بين رجال السياسة واطرف أسلوبه في الكلام .

في كل مرة أقرأ فيها تصريحاً لكمال جنبلاط او اتأمل في موقف من مواقفه ، أتذكر عبارة اسرها لي يوماً سيد الطيبة : « يا أحمد افندي شايفلك هالكمال بيك مثل المنام المخربط » !
وأشهد انني ما ضحكت لعبارة كما ضحكت في ذلك اليوم لتلك العبارة .

فقد صورت لي ما كنت اعتقده بالفعل في الزعيم الجنبلاطي .

بالامس قرأت مقالاً في جريدته المعارضة « الانباء » يقول فيها :

« نحن نعلم ان أخطاء بعض الحكام أكبر بكثير مما يتصوره بعض اعضاء المعارضة . ولو تكلمنا لكنا نخطو امام المعارضين الحاليين عدة فراسخ إلى الامام ، ولا يستطيعون اللحاق بنا في حقل النقد والتجريح » .

وما انتهيت من هذا الكلام الذي شعرت معه بما يشبه الدوار في رأسي ، حتى رحت اتساءل :

أحقاً ان قائل هذا الكلام وزير ؟

أحقاً ان كمال جنبلاط يعني هذا الذي يقوله ؟

واذا كان يعني ما يقول فما الذي يمنعه من أن ينضم الى المعارضة ، حيث يتقدم صفوفها بفراسخ على حد تعبيره . اما اذا لم يكن يعني ما يقول فما هو تفسير مثل هذا الكلام ؟

اننا نعلم ان كمال بك هو من حيتان المجد والزعامة ، يريد ان يبتلع كل ما في بحر الوجاهة من صيد ، ثم هو بعد ذلك « يتنشف » بالامجاد السماوية والروحية ، فيلتهم قداسة غاندي ، وعلم أفلاطون ، وعقل أرسطو ، وأرقام كارل ماركس ، وجمبازية اليوغا ، ناهيك عن الصوم والتعبد والتهجد والتوحد والكشف والتواجد والاشراق . وهو يريد ان يبتلع ما تعطيه المناصب الحكوميه من القاب ورتب ونياشين واوشحة ، وهو يريد كذلك أن يبتلع امجاد المعارضة والمعارضين ، وهو يريد أن يبتلع الشعبية والشعبيين ويبتلع الشارع بل الرصيف اذا اقتضت الوجاهة !

مثل هذه الحيتان ، قد أخرت حياتنا السياسية وجعلتها مهزلة .

نحن نعلم كل ذلك ، ونعلم ان لكمال بك معدة مستعدة لطحن وهضم كل شيء ، ما عدا الرشوة المالية .

ولكننا مع ذلك ، ومع اعترافنا بنزاهة كمال جنبلاط ، نرى أن مثل هذه الحيتان ، قد أخرت حياتنا السياسية وجعلتها مهزلة بين سياسات الامم .

فالسياسة اللبنانية بطابعها الحاضر ، أصبحت شيئاً لا يطاق ، لقد انهارت منها كل قيمة من القيم المألوفة ، فلم يعد فيها محلل ومحرم ، ولم يعد فيها أبيض وأسود ، ولم يعد فيها حس

بالمسؤولية بل لم يعد فيها أبسط معنى من معاني الادب .

فالوزير يتكلم كالمعارض ، والموظف يتحدث كالفوضوي ، ورجل الامن كرجل للعصابات .

ولم يبق أحد يحترم صفته العامة ودوره ووظيفته .

بل أصبح الجميع يتحدثون باللغة عينها منتقدين الاشياء ذاتها ، مثيرين الاوضاع نفسها ، ناقمين على أمور هم صانعوها وهم خالقوها في أحيان كثيرة .

من هو المسؤول ومن هو غير المسؤول ؟

من هو الحاكم ومن هو المحكوم ؟

من هو الموالي ، ومن هو المعارض ؟

من هو الذي « مع » ومن هو الذي « ضد » ؟

من هو الذي فوق ومن هو الذي تحت ؟

من هو المتهم ومن هو صاحب الدعوى ؟

لقد أصبح لبنان في هذه الايام كله على ما يظهر ، على صورة كمال جنبلاط ومثاله «منام مخربط » . . . والف رحمة على أحمد الاسعد !

الأزمة في « ويك أند » !

اللغم الذي تحدثنا عنه أمس وقلنا انه انفجر امام الرئيس المكلف الاستاذ رشيد كرامي ، كما انفجر في الماضي بحكومة صائب سلام .

هذا اللغم يبدو انه لم يكن أكثر من « فرقيعة » صغيرة او فتيشة غايتها استلفات الانظار والاسماع .

فقد تبين ان الازمة التي خيل لنا انها ازمة مستعصية الحل ، كما خيل كذلك للرئيس المكلف ، لم تكن الا مزحة من المزحات التي تسبق عادة المشاورات قبل تشكيل الحكومات . وليست في واقع الحال الا بمثابة الديكور للفيلم ، والملابس للتمثيلية المسرحية . . .

وكان ينبغي ان تطول الازمة — أزمة التكليف والمشاورات والمناورات — كيما يقوم في روع النظارة من المواطنين ، بان الرواية جدية لا هزل فيها .

والمواطنون ، جميع المواطنين ، يعلمون حق العلم انها رواية هزلية لا أثر فيها للجد والرصانة !

ذلك أن تكليف الرئيس الشاب رشيد كرامي تشكيل الحكومة قد صدر مساء الاربعاء ،

وكان مقدراً ان تتم نهاية الرواية كما بدأت فصولها الاولى ، على أثر انتهاء الاستشارات التي قام بها رئيس الجمهورية ، وختمت بشكل سريع حاسم . ولكن تبخر يوم الخميس على لا شيء ، وجرجرت ازمة المشاورات والمناورات اذيالها الى يوم الجمعة . وقيل انها ستنتهي قطعاً في المساء ...

وذهب المساء وأقبل الصباح ، وكان يوم السبت ، والازمة إياها ، ازمة الاستشارات والمناورات والمداورات ، تدور في حلقة مفرغة . . .

الكتل النيابية تريد الاشتراك في الحكومة العتيدة . وكل كتلة لها شروط ولها طلبات ينبغي ان تنفذ والا . . .

والوزراء ، موضوع « كفشلة » الحكومة السلامية يبغون العودة والاشتراك مجدداً في الحكم ، ولكن على ان يحتفظوا بحقائبهم الوزارية الماضية . . .

ورئيس الحكومة الكرامية العتيدة يصر على عدم الرضوخ لمطالبهم . . .

وقيل ان الاستاذ كرامي اعتذر لرئيس الجمهورية عن عدم تمكنه من تشكيل الحكومة ، والتمس منه تشكيلها من خارج المجلس . ولكن رئيس الجمهورية رفض اعتذار الرئيس المكلف .

وفهم في النهاية أن تشكيل الحكومة قد بات أمراً مفروغاً منه . وان الوزراء الذين تعنتوا وتشبثوا بكراسيهم القديمة مستعدون للعودة عن تشبثهم وعنادهم .

واذا ، وما دام الامر كذلك فما هو مبرر ضياع الوقت وقتله في المناورات المكشوفة والمداورات المفضوحة ؟

اذا كانت الغاية منها هز العصا في وجوه النواب وارهابهم ، باللجوء الى حل المجلس — قرة عيونهم ومنتهى آمالهم وامجادهم — فلقد نجحت مناورة التخويف بمجيء حكومة من خارج المجلس ، ورضخ النواب كتلاً وافراداً . ذلك ان المعنى الظاهر ، لا المستتر ، من تشكيل حكومة من خارج المجلس ، معناه استعجال حكم الاعدام على المجلس قبل أوانه . . . وما من احد من النواب ، ولو كان أزهد الزاهدين ، يقبل بقصف عمر المجلس قبل الاجهاز على قطف ثماره حتى آخر دقيقة بل آخر نسمة من حياة المجلس .

ولو ان جرجرة الازمة واستمرارها امر فيه شيء من الفكاهة والتسلية يدفع السأم عن المواطنين ويدخل البهجة الى نفوسهم ، لكنا اول المطالبين باستمرارها الى الابد ، لا الى ما يشاء المسؤولون وحسب .

فليس أحب على نفوس اللبنانيين ، من ان يروحوا عن أنفسهم بمشاهدة الطرائف والفكاهات التي تنسيهم ما عانوه ويعانونه من هموم وآلام ومنغصات !

جميل أن تصبح الازمة في « ويك اند »

وأجمل من ذلك ان يتمتع اللبنانيون انفسهم بقضاء « ويك اند » بعيداً عن هذه الازمة التي لا تحمل معنى واحداً من معاني الفكاهة والتسلية ، بعد أن فقدت كل معنى من معاني الجد والرصانة !

الفصل الأول لرواية
الحكومة القديمة - الجديدة !

وكما تتم اعسر الولادات ، تمت أخيراً ولادة الحكومة . ففي اليوم التاسع — لا الشهر التاسع — تمخضت المشاورات والمناورات والمداورات عن تشكيلة حكومية ضمت ١٤ وزيراً « تناتش » اعضاؤها الحقائب الوزارية وتركز « التناتش » على حقيبتي المال والاشغال ، موضوع الازمة الاستشارية التي طالت والتي قيل حتى مساء امس وقبيل اعلان التشكيلة بساعات بل بدقائق معدودات ، ان الرئيس المكلف قد أعلن عجزه عن تأليف الحكومة وانه اعتذر او سيعتذر نهائياً !

وفجأة وكما يحدث في الحكايات حدثت المعجزة ، وجاء البطل فأنقذ الموقف ، وتعالى الهتاف والتصفيق ولعلعت الزغاريد فرحاً وابتهاجاً بالنصر العظيم الذي احرزه الابطال في تغلبهم على الازمة الناشبة وتغليبهم المصلحة العامة على المصالح غير العامة !

لقد تركز الصراع بين الرئيس المكلف وبين رئيس الكتائب على وزارة المالية . فرئيس الكتائب اشترط لاشتراكه في الحكم ان يكون وزيراً للمال . واشترط الرئيس المكلف بدوره ان يكون هو دون سواه وزيراً للمال .

واشترط كمال جنبلاط رئيس الحزب التقدمي العربي اللبناني الاشتراكي ، ان يحتفظ بوزارته القديمة « النافعة والاشغال العامة » وقال ما معناه « يا فيها يا بلاها » !

وأعلن منذ البداية رئيس الكتلة الوطنية الاستاذ ريمون اده ، انه لن يشترك في حكومة تضم احداً من أهل المتاريس والخنادق . واشترط لاشتراكه في الحكم ان لا يتمثل أحد منهم في الحكومة العتيدة . واشترط . . واشترط . . واشترط الى آخر الشروطات التي وضعها كل رئيس حزب او كتلة ، بل كل نائب دعي او لم يدع للاشتراك في الحكومة .

فماذا كانت النتيجة ؟

كانت النتيجة ان تواضع كمال جنبلاط وتنازل عن وزارة الاشغال ليشغل وزارة الداخلية .

ومن يدري فلعله آنس في نفسه الخبرة والدراية بالشؤون الداخلية ، إن لم تكن أكثر فلا أقل من خبرته ودرايته بشؤون النافعة والاشغال العامة .

واسندت وزارة الاشغال الى رئيس الكتائب بالاضافة الى منصب وزير دولة لشؤون السياسة المالية .

والمعنى الذي لا يخفى على اللبيب من اسناد هذا المنصب للشيخ بيار الجميل ، اعطاؤه حق المناكفة الدائمة والمشاجرة المستمرة مع رئيس الحكومة – وزير المالية !

هكذا انتهت أزمة الاستشارات وهكذا تم تأليف الحكومة . أما سائر الحقائب الوزارية فكان توزيعها أشبه بالعمل الروتيني الذي لا يدور بسببه خلاف او خصام .

واما قبول الكتلة الوطنية بالاشتراك في الحكم ، فهو أيضاً يدخل في باب الاعمال الروتينية التي لا تقدم ولا تؤخر شيئاً من واقع الحال ، بالرغم من التصاريح السابقة التي اعلنها رئيس الكتلة الاستاذ ريمون اده من انه « لم ولن يشترك في حكومة يدخلها أهل المتاريس » وبالفعل فان رئيس الكتلة الوطنية لم يشترك في الحكم ولكن احد اعضاء حزبه اشترك ومثل الكتلة في الحكومة !

* * *

وبعد ، هذه هي الخاتمة لمقدمة الفصل الاول من رواية الحكومة الجديدة التي سوف « تكر » فصولها في الايام القادمة .

ومن يدري ، فقد تتوقف في المشهد الاول للفصل الثاني من الرواية ، وقد لا تتوقف وتستمر ...

المهم ان نتساءل من هو الغالب ومن هو المغلوب في هذه التشكيلة الجديدة ؟

أغلب الظن ان شرعة « لا غالب ولا مغلوب » قد تمثلت أصدق تمثيل في تشكيل هذه الحكومة . فلقد تمثلت المعارضة كما تمثلت الحكومة القديمة سواء بسواء . ولا عبرة لخروج صائب بك من الحكم طالما ان شركاءه في المتاريس ممثلون في الحكم ، ففيهم البركة وفيهم الواجب . . .

فيهم البركة التي ستحل على البلاد بوجودهم في الحكم .

وفيهم الواجب بتمثيل المتاريس التي رفعتهم الى كراسي الحكم . . .

وكل حكومة والمتاريس بخير !

الصورة الكاريكاتورية
في الحكومة الكرامية .

اذا كان من حق الرئيس كرامي علينا ان نصدقه القول ، لما نعرفه فيه من استقامة ونزاهة ، فان من حقنا عليه ان نطالبه بالقراءة والمطالعة . فليس أضر برئيس حكومة مسؤول ، من اغفال ما يكتب عنه سواء اكان مدحاً أم ذماً ، وسواء اكان الكاتب محباً مؤيداً او معارضاً كارهاً .

واذا كان يجوز لرشيد كرامي خارج الحكم ، ان يغفل عن قراءة الصحف ومتابعة ما يجري حوله ، فانه لا يجوز ، ولا ينبغي ان يجوز لرئيس حكومة يريد أن يحكم ، ولا سيما اذا كان هذا الرئيس في مثل استقامة ونزاهة رشيد كرامي !

نحن نعلم ان الارث الضخم ، الذي خلفه وراءه ، رجل الكرامة والترفع والكبر ، عبد الحميد – عبد الحميد كرامي طبعاً – لا يمكن ان يذهب هباء ، ولا بد انه قد ترك أثراً ورصيداً في حساب رشيد كرامي. اننا لا نطالبه بان ينهج المنهج الذي اتبعه والده الطيب الذكر في الحكم ، يوم كان الحكم يسعى اليه سعياً ويفر منه عبد الحميد فراراً . فلكل زمان دولة ورجال .

ولكننا نطالب رشيد كرامي ، وهو من نعرف ، ان يفتح عينيه على ما يجري حوله ، وان يفتح بالتالي أذنيه لكل ما يقال ويذاع ويملاء الاسماع .

وأبسط ما يقال في هذه الحكومة الجديدة ، انها ليست الا استمرار ، بل نسخة طبق الاصل عن الحكومة القديمة .

ويعلم رشيد كرامي جيداً رأي الناس جميعاً في الحكومة الماضية ، لان الناس ، جميع الناس ، يعلمون أيضاً رأيه فيها . فما زالت كلماته وتصاريحه وبياناته في معارضتها ، تدوي في جنبات المجلس ، وفي الصحف ، يوم كان يحمل لواء المعارضة ، الى جانب من حملوه الحكم ، ثم ابتعدوا عنه وانضموا الى من كان يعارض ويعارضون !

وهل ثمة من صورة كاريكاتورية أعجب وأغرب من هذه الصورة ؟

ان الذين تخلى عنهم والذين تخلوا عنه انما يعبرون في تخليهم وفي تخليه ابلغ تعبير عن هذا الواقع المحزن المضحك الذي تتقلب فيه الحكومة اليوم !

وليس يوازي هذه الصورة الكاريكاتورية في غرابتها ، ولا أقول في طرافتها ، غير الصورة الهزلية المضحكة التي بدا من خلالها الوزيران – موضوع الازمة في الماضي والحاضر والمستقبل –

في كتاب استقالتهما الصوري وهذا هو بنصه وفصه :

حضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية المعظم

باطلاع وبواسطة دولة رئيس مجلس الوزراء الافخم

تذكرون ولا ريب اننا قبلنا الاشتراك في الحكومة الجديدة تسهيلا لمهمتكم وتعاوناً مع دولة رئيس الحكومة وزملائنا الوزراء ورضينا بتعييننا وزراء دولة مكلفين بمهام معينة ، لكننا لا نرى من مصلحة الحكومة ولا من كرامتنا ان تثار مناقشة وتستمر على مسألة انطباق هذا التعيين على الاعراف البرلمانية مع العلم اننا لا نعير هذا التعيين اهمية شخصية . لذلك ، ورغم اعتقادنا بان هذا التعيين لا ينطوي على أية مخالفة وحسماً للجدل حول هذه المسألة الشكلية ، فاننا نتقدم باستقالتنا من مناصبنا كوزراء دولة تاركين لكم اجراء ما ترونه ملائماً .

وتفضلوا يا فخامة الرئيس بقبول اسمى عواطف احترامنا .

٤ تشرين الثاني ١٩٦١ بيار الجميل كمال جنبلاط .

وأشد ما يثير الضحك والعجب في هذه الاستقالة عبارة :

« مع العلم اننا لا نعير هذا التعيين اهمية شخصية » !

ولقد بلغ الوزيران ذروة الدروة في قولهما :

« ورغم اعتقادنا بان هذا التعيين لا ينطوي على أية مخالفة . . . » !

واذاً من أجل ماذا كانت الازمة ؟ ومن أجل أي شيء كانت الاستقالة ؟

وهل يحسب الوزيران — موضوع الازمة في الماضي والحاضر ، وموضوع كل أزمة في المستقبل — هل يحسبان ان الناس فقدت عقولها ، أو هي من البساطة الى درجة تصدقهما في قولهما :

« اننا لا نعير هذا التعيين اهمية شخصية » ! سبحان الله العظيم . . . أإلى هذا الحد بلغ استخفاف الوزيرين القطبين ، القطب المتجمد الشمالي والقطب المتجمد الجنوبي ، في تلاقيهما باستخفاف عقول الناس ؟

وهل تحسب يا رئيس الحكومة يا رشيد كرامي ، انك اذا صدقتهما انت ، سيصدقهما الناس ؟

* * *

رحمة بنفسك يا ابن عبد الحميد كرامي . واعلم ان من حقنا عليك ان نصدقك القول ، أكثر مما نصدق قولك !

أمس شاهدت الجامعة العربية – طبعة حديثة منقحة ومزيدة بعد اجتماعات شتورا –
شاهدتها أمام مقهى « الدولتشه فيتا » في شخص الشاعر البيروتي الظريف الاستاذ شفيق ستيتيه . فقد أقبل صاحبنا كعادته عندما يقبل على الناس في افراحهم واحزانهم ، ينهال عليهم باشعاره المنتقاة حسب المناسبات ويظل صوته يلعلع حتى يظفر بحاجته المعهودة : الضرب والدفيش . . . ثم خمس ليرات وهذا أضعف الايمان . . .

وراحت عينا الشاعر تفحص وجوه الجالسين من رواد المقهى حتى استقرت على النائب الاستاذ أحمد اسبر ، فحط عليه كما يحط الطائر على الغصن . . وغاص ناظم العكاري في مقعده ، وكان يجلس وسط افراد عائلته ، وهو يدعو الله ان لا تقع عليه عين الشاعر . ولاحظت أن صوت صاحبنا كان خافتاً هادئاً على غير عادته فحسبت انه قادم من حفلة مأتم او عرس ، ولكنني لم ألبث طويلاً حتى علمت منه أن صديقنا النائب اسبر قد اتفق مع ستيتيه على أن يعطيه كل سنة مائة ليرة ويكف لسانه واشعاره عنه .

وانطلق الشاعر العاقل الذي يحسبه الناس مجنوناً – انطلق يتحدث عن كل شيء ويعطي رأيه برجال السياسة فصائب سلام رجل عال لانه يضربه ثم ينقده الضريبة المعهودة . أما رشيد كرامي فانه لا يعطيه ولا يضربه ويقول ستيتيه متحسراً « يا ريت رشيد بك بيضربني » !

وفجأة صاح شفيق ستيتيه « هالدولة ما عاجبتني » ولم نكن بحاجة لان نسأله السبب ، فقد قال انهم القوا عليه في السراي سطل ماء ساخن عندما ذهب لمقابلة المسؤولين ومطالبتهم بانصافه ومعاملتهم له أسوة بحامل الصليب « ادمون خياط » . وقال شفيق ستيتيه انه معلم المرحوم بطرس عيد الديب وان ادمون خياط كان صانعاً عنده . وان فكرة البحث عن الضمير فكرة سخيفة باعتبار ان الضمير شيء غير محسوس وغير موجود فكيف يمكن البحث عن شيء غير موجود ؟ وتابع ستيتيه يقول ان الدكتور محمد خالد اقترح عليه ان يحمل خشبة يرفع فوقها هلالاً اسوة بصاحبه الذي يرفع الصليب واقترح عليه احدهم ان يحمل الصليب والهلال ، ولكنه استدرك قائلاً انها فكرة غير مثمرة وان فكرة الدكتور خالد أجدى وانفع باعتبار ان المادة ٦ و٦ مكرر تتيح له الافادة بشكل رسمي مشروع .

وانبسطت اساريره وقرر ان ينفذ الفكرة من الصباح الباكر خاصة بعد ان فشلت روايته القديمة و نمرته التقليدية التي ظل يرددها سنوات طويلة وهي المطالبة برخصة دخان !

وما ان ابتعد ستيتيه قليلاً ، ونحن وناظم بك نحمد الله على بعاده ، حتى لعلع صوته يردد أبياتاً من الشعر في تقريظ لبنان والعدالة في لبنان . . . واقبل شرطي يحاول اخماد صوته ، ولكن

صوته زاد في اللعلعة وراح يهدد الشرطي قائلاً بأنه صديق شخصي لمدير البوليس الجديد.. ويعيش مدير البوليس وانطلق ستيتيه يرص كيفما اتفق بضعة أبيات من الشعر في تحية المدير . . .

وما ان ابتعد الشرطي عنه قليلاً حتى عاد صاحبنا الى الصراخ :

« هالدولة ما عاجبتني » !

لقد تذكر على ما يبدو سطل الماء الساخن الذي القي عليه صباحاً في سراي الحكومة !

* * *

حقاً ، لست أدري لماذا تذكرت الجامعة العربية عندما شاهدت شاعرنا هذا . فقد رحت اعقد الشبه بينها وبينه ، فلم أجد كثير فرق . . .

انها تحمل الحجج والذرائع التي يحملها شفيق ستيتيه . وهي ترفع من حيث تدري اولا تدري ذات الشعارات التي يرفعها الشاعر البيروتي . . .

بل انها اداة اكثر طواعية من أداة الشعر الذي يتذرع به ستيتيه للوصول الى مبتغاه :

الحمد والشكر والتقريظ تارة . والصراخ والعتاب والتقريع والهجاء تارة أخرى .

وهي — أعني الجامعة — في جميع حالاتها كمسمار جحا ، او على الاصح الادق كشعر شفيق ستيتيه سواء بسواء . . .

بل انها أصبحت في الاونة الاخيرة على صورة الشاعر شفيق ستيتيه تماماً. ساعة بطربوش وساعة من غير طربوش .

مرة تهنيء ، ومرات تعزي . أحياناً تبتهج وأغلب الاحيان تبتئس وتشكو . . . فسبحان من ليس له شبيه !

شيء جديد !

سينسى الناس في لبنان كل ما رافق ولادة هذه الحكومة الجديدة ، وسينسون انها حكومة جديدة ، وما هي في الحقيقة بجديدة ، ليتذكروا منها شيئاً واحداً ، هو طريقة ادوار حنين في ترك الكرسي الوزاري .

وبالفعل اذا كنا نشكر رشيد كرامي على أمر في هذه المرة ، فهو انه أعطى الحكم ، ولو ليومين ، لشخص عنده من الادب السياسي ، ما يجعل الكرسي الوزاري ، يهون ويرخص ، عندما يكون هو في جانب ، والادب السياسي في جانب آخر .

سنشكره على الاربع وعشرين ساعة التي أمضاها ادوار حنين ، أكثر مما نشكره على جميع الشهور التي سيقضيها جميع الوزراء الآخرين على كراسيهم طيلة مدة ولاية الاستاذ رشيد كرامي .

ان معرفتي بادوار حنين ، معرفة سطحية . واعترف بانني لم أكن أكن لهذا السياسي ؛ الذي أحترم ثقافته وقلمه اي عاطفة خاصة ، اذ انني كنت ولا ازال أشعر ، انني من حيث الاتجاه السياسي والرأي الوطني في واد ، وادوار حنين في واد آخر .

ولكن ادوار حنين قد استحق عندي باستقالته الاخيرة ، ما ندر ان استحقه سياسي آخر ، من طلاب الكراسي والمغانم !

لم يستقل ادوار حنين ، لانه خاف حزبه . فالكتلة الوطنية ، ليست تلك الكتلة السياسية ذات الانضباط الرهيب المخيف . والخروج منها ، لا يعني بالضرورة ، خروجاً من الوجود السياسي الى العدم . ولا يعدم ادوار حنين ، اذا هو ترك الكتلة الوطنية ، ان يؤمن كرسيه النيابي ومركزه السياسي عن طريق أخرى .

ولم يستقل ادوار حنين ، لانه احتقر حصته في الحكم . فالوزارة التي اسندت اليه ، وزارة محترمة ، وفيها من امكانيات النجاح والشهرة ، وفيها من الموارد المالية ، ووسائل « تنفيع » الناس ، ما يجعلها وزارة مرغوبة مطلوبة . خصوصاً اذا عرفنا انها الوزارة المثالية بالنسبة لمن يدخل الحكم مزوداً بالزاد الثقافي الذي يتزود به ادوار حنين .

ولم يستقل ادوار حنين خضوعاً لتيار طائفي — خندقي متراسي ، من النوع الذي يغري رجال السياسة اللبنانية بركوبه ، تأميناً للزعامات الفارغة ، والوجاهات الضحلة ، وضماناً للمنافع التي يضمنها مثل هذا التيار ، لكل من يركبه .

لم يستقل ادوار حنين ، لا لهذا السبب ولا لذاك ، ولا لذلك من الاسباب . انما استقال لسبب واحد لا ثان له . هو انه رأى في البقاء في الحكم ، على الرغم من اجتهاد اخوانه ، مجافاة للاداب السياسية الراقية .

فضل ادوار حنين ان يعيش السياسة بالمعنى الراقي ، ولو ان ذلك لا يعني شيئاً عملياً في لبنان ، على ان يكون صاحب معالي . طائل اليد في المنافع « والتنفيع » ، متوجهاً مستوجهاً ، متمتعاً بكل ما للوزارة من امتيازات .

ولهذا استقال ادوار حنين ، ضارباً المثل لطبعه سياسية برمتها ، طاعناً في الصميم تلك القاعدة السياسية البالية الرخيصة ، التي تقول بالوصول بأي ثمن وبأي شكل !

* * *

غداً ، إذا اراد ادوار حنين ان يقول لرئيس الحكومة مثلاً ، لماذا تركت زملاءك في المعارضة ،

واتفقت مع بيار الجميل وكمال جنبلاط وغيرهم من اعضاء الحكومة الخندقية المتراسية السابقة .

اذا اراد ادوار حنين ، ان يوجه مثل هذا القول لرئيس الحكومة او لاحد الوزراء ، سيكون لكلام ادوار حنين وزن ليس لكلام غيره ، لانه يكون مطالباً غيره بأن يفعلوا ما فعله هو ، وان يتقيدوا بما تقيد به هو !

عند ذاك ، وعند ذاك فقط ، يكون قد دخل في البرلمان اللبناني شيء اسمه السياسة الراقية التي لا ترفع كلمة الحق الا لتعني القصد الحق !

الله يا دنيا !

« أبغض عدوك هوناً ما ،
عساه يكون حبيبك يوماً ما .
وأحبب حبيبك هوناً ما ،
عساه يكون عدوك يوماً ما » !

* * *

الله الله يا دنيا . . .

كمال جنبلاط يتولى مهمة رسمية تجاه سورية . . . وما هي هذه المهمة ؟ انها إعادة العلاقات « الاخوية الودية الطبيعية بين الشقيقين العزيزين لبنان وسورية . »

لم أصدق وانا أقرأ الخبر !

كمال جنبلاط ، كمال جنبلاط قائد قوات الثورة ، ورئيس دولة الشوف ، والرجل الذي قال لعبد الناصر في آخر زيارة له لدمشق « لو استطاعت جبال لبنان وانهاره ووديانه وارزه ، ان تزحف اليك لزحفت » .

كمال جنبلاط هذا يقوم اليوم بتكليف من حكومة لبنان بتحسين العلاقة وشد الاواصر مع الحركة الرجعية الانفصالية الكزبرية النحلاوية العصاصية الاستعمارية !

الله الله يا دنيا !

أصحيح أن العالم يتغير بهذا الشكل وبهذه السرعة !؟

أصحيح أن التغير بلغ في لبنان هذه الدرجة من البساطة ، وهذه الدرجة من الآلية وهذه الدرجة من المقبولية ؟!

أصحيح أن مثل هذا التغير ظاهرة طبيعية وعرف غير معترض عليه في هذا البلد ؟

الله الله يا دنيا !

أحقاً ان الصوت الذي قال بالامس : « يجب ان تبقى علاقاتنا مع دمشق الحالية كما كانت علاقاتنا معها في السابق . . وكأن شيئاً لم يكن . » هو هو صوت كمال جنبلاط ؟

صوت كمال جنبلاط الذي كان يزأر في وجه خصوم عبد الناصر والذي كان يتحول الى قيثارة حنون عندما كان يمدح عبد الناصر ؟

الله الله يا دنيا !

أهذا هو كمال جنبلاط ؟

كمال جنبلاط المثالي . كمال جنبلاط الزاهد . كمال جنبلاط المتقشف . كمال جنبلاط اليوغي . كمال جنبلاط صاحب المبدأ الذي أشاع عن نفسه اثناء الثورة الماضية وبعدها ، انه هو وحده الذي لا يتغير ولا يتبدل ؟

الله الله يا دنيا !

أليس هو الذي قال اول امس في تصريح ان سلطان باشا الاطرش قد كلفه ان يشجب الحركة الانفصالية الكزبرية الاستعارية الرجعية ؟ ثم أليس هو الذي كتب في جريدته « الانباء » ما كتب في مدح عبدالناصر ومدح السراج ما لم يكتب مثله لا محمد حسنين هيكل ولا غيره ؟

الله الله يا دنيا !

لقد أصبحنا في هذا البلد ، ونحن لا ندري ما الذي يجوز وما الذي لا يجوز ، ما هو الممكن وما هو غير الممكن ، ما هو المبدأ وما هو التقلب ، من هم المثاليون ، ومن هم غير المثاليين ، من هم الثابتون ، ومن هم الزئبقيون !

الله الله يا دنيا !

أهذا الناصري الكبير ومن هم مثله يتّركون عبد الناصر ؟

عبد الناصر الذي أيدهم يوم لم يكن لهم مؤيد ، ونصرهم يوم لم يكن لهم نصير ، ومكنهم من ان يعودوا عمالقة ، بعد أن حولهم شمعون الى أشخاص عاديين ، وأمدهم بكل ما يمكن ان يمد انسان انساناً ليكبر ويتعاظم ، وينمو ويتضخم ؟!

الله الله يا دنيا !

لقد كنا نحسب كمال جنبلاط تاركاً عبد الناصر ، ولكننا لم نكن نحسبه اول التاركين !

وكنا نقول ان الدهرية ستتغلب في كمال جنبلاط على السماوية ، فيذعن لنداء المصالح والمنافع ، ولكننا لم نكن نظن ان هذا سيتم بهذه السرعة وبلا مقدمات ، وقبل ان تتقدم الحكومة بالثقة الى المجلس .

الله الله يا دنيا !

اليوم كمال جنبلاط ، وغداً صائب سلام ، وبعد غد عبدالله المشنوق ، وتكر المسبحة . . . ناصرياً بعد ناصري وثائراً بعد ثائر ، وبطلاً بعد بطل ، ومتراساً بعد متراس . . الى ان يعود الى دمشق جميع من استوردوا الوطنية والثورية والمصلحة العامة من دمشق ! !

الله الله يا دنيا !

بل الله الله يا لبنان . يا بلد العجائب . كم فيك من المبادىء المزورة ، والعقائد الملفقة ، والزعماء المرتجلين . يا بلد الصلح بعد الخصام والورد بعد الشوك والعناق بعد الخناق ، والوصل بعد الهجر . . . ويا حكم المصالح الخاصة من قبل ومن بعد !

« على عينك يا تاجر » ! !

للمرة الاولى منذ انتهاء « الثورة – الفتنة » في لبنان ، يدرس النواب بصراحة وجرأة تلك الجريمة القومية التي ما زال اللبنانيون يعيشون أثارها حتى يومنا هذا .

ان معالم الصورة البشعة لثورة ١٩٥٨ قد اتضحت في أذهان اللبنانيين وقلوبهم من زمن بعيد . ولكن هذه الصورة لم تنعكس تحت قبة البرلمان الا في جلسة الثقة الاخيرة .

والحق يقضي علينا بأن نعترف بأن بين النواب الذين عالجوا هذا الموضوع ، من وفاه حقه كاملاً ، فلم يترك فيه زيادة لمستزيد .

وقد عومل قادة الثورة – الفتنة في جلسة الثقة من قبل النواب معاملة المسؤولين الذين وضعتهم اعمالهم أثناء الثورة في قفص الاتهام ، لا أمام البرلمان وحسب ، ولا أمام الرأي العام ، بل أمام التاريخ .

وكان من المشاهد المشرفة للحياة البرلمانية في لبنان أن يشهد اللبنانيون نائباً مرموقاً كالاستاذ كاظم الصلح يقف على منبر المجلس ليدعو قادة الثورة – الفتنة الى التواري في الظل بعد ان فشلت ثورتهم وقادت البلاد إلى أقبح مصير ، وكذبت امام العالم سمعة لبنان القائلة بأنه بلد الحضارة والرقي والتقدم !

فكمال جنبلاط ، أحد قواد الثورة – الفتنة اتهمه فضل الله تلحوق بان اسمه قد ورد في لائحة القابضين من بلد شقيق !

وقال البير مخيبر : ان كمال جنبلاط قد ارتكب من الذنوب ما يكفي لوضعه في السجون الى ابد الابدين . . . وانه أخذ من دولة شقيقة خمسة آلاف بندقية لم يسلم بندقية واحدة منها ،

بعد أن أدت هذه البنادق واجباتها . . .

لم ينف كمال جنبلاط تهمة واحدة من سيل التهم الصريحة الواضحة والمرقمة التي وجهت اليه ، بل حاول ان يشرك غيره في المسؤولية ويتهمه بالتخلف عن القيام بها . . . وكأنها واجب !

ثم كانت منه تلك الكلمة الفلسفية الحلزونية التي لم يفهم احد ممن سمعوها ماذا يقصد من ورائها . . . وتساءل الناس ترى هل هي جواب على اتهامات المتهمين ، ام هل هي مجرد تغزل عاطفي روحي يوغي بالشيخ بيار الجميل وبمتراسه الذي انجذب فجأة فاندمج فتلاشى في متراس كمال جنبلاط ، ليقوم المتراسان بالحرب ضد « الاستعمار والاقطاعية » !

وحسناً فعل قادة الثورة ــ الفتنة بسكوتهم حين لزموا السكوت ، وبغموضهم حين تكلموا . اذ ما عساهم ان يقولوا ، ونتائج اعمالهم واضحة والثورة موضع كراهية اللبنانيين جميعاً ، فضلاً عن تغير مواقف هؤلاء القادة بين ليلة وضحاها ، وكأن لا ثورة وقعت ولا أرواح زهقت ولا شعارات رفعت ، ولا وطن نكب !

فالمهم ان المصالح تأمنت والكراسي استقرت والسناجق ارتفعت ، والموائد صفت ليأكل منها أعداء الامس اصدقاء اليوم !

* * *

الشيء الجديد الذي ظهر في جلسة الثقة الاخيرة : ان قادة الثورة ــ الفتنة ، كانوا يأكلون بالامس على مائدة ثمار الثورة بمعزل عن أعين الناس . . . فأصبحوا اليوم يأكلون وليس في البلاد عين واحدة لا تراهم !

دولة المتاريس الى زوال !

لعل أجل خدمة قدمتها المعارضة البرلمانية الى الحكومة كحكومة ، هي انها وجهت هجومها المركز على الجناحين (المتراس الشوفي والمتراس الكتائبي) مما حمل هذين المتراسين في ليلة الثقة على التظاهر بتناسي ما بينهما من بغضاء لدودة ، والتجمع معاً في متراس واحد وقف فيه كمال جنبلاط وزير الداخلية يدافع عن بيار الجميل ، وزير الاشغال العامة ، والعكس بالعكس .

والواقع هو ان هذا التجمع الفجائي في جلسة الثقة ، الذي لم يكن منتظراً لا عند رئيس الحكومة ولا عند أعضائها الآخرين ، انما هو محاولة الدفاع عن النفس من ناحيتين :

الناحية الاولى هي الوقوف قدر المستطاع في وجه شدة الهجمات وبراعتها .

والناحية الثانية هي أن المتراس الكتائبي بحاجة ماسة في الظرف الحالي الى وزير الداخلية ، وان وزير الداخلية في الوقت نفسه بحاجة ماسة لتقوية حزبيته الى سكوت المتراس الكتائبي عنه ، خاصة وان الاعتدة في المتراسين ، تفرض بطبيعة وجودها ومستودعاتها ، على المتراسين ان يتظاهرا بروح المحبة والولاء والتفاهم . . .

غير ان ليلة الثقة جعلت المتراسين بعد الثقة بالنسبة لعمل الحكومة ، ناحية الضعف فيها ، وتركت ولا شك لرئيس الحكومة الذي امتدح في جلسة الثقة هذا الولاء الكتائبي — الجنبلاطي ، مسيطراً على الجناحين ، باعتبار انهما في مجلس الوزراء وجلساته ، وكأنهما متراس واحد سهل على رئيس الحكومة القضاء عليه او التخلص منه ساعة يشاء . وذلك لان دفاع كمال جنبلاط عن بيار الجميل والعكس بالعكس ، يضعف كل منهما ويكوّن منهما معاً في متراس واحد نقطة الضعف في معركة ، او بالاحرى في معارك مجلس الوزراء القادمة قريباً .

اذ انه من اشهر خطط المعارك حتى الحربية منها ، هي أن لا يقاتل الجيش الواحد على على جبهتين في آن واحد !

أما وقد التقى العدوان في متراس واحد ، في خندق واحد في خط واحد ، فقد أصبح بطبيعة الحال سهلا على رشيد كرامي خصمهما المعروف ، أن ينتصر عليهما اذا شاء فيحرجهما ويخرجهما اذا استطاع كأنهما متراس واحد ، فلا تتصدع الحكومة ولا تكون كما كانت حكومة صائب سلام ارجوحة بين كمال جنبلاط وبيار الجميل صاحبي الدولة ، دولة الشوف ودولة المتن ! !

لقد فتح هذان الوزيران في عهد الحكومة السلامية السابقة دولتين على حسابهما الخاص ، بمعزل عن الدولة اللبنانية ، فجاءت المعارضة تقفل الدولتين وتنتزع منهما حتى اللقب ، فلما قدما استقالتهما من وزارة الدولة ، وهي غير موجودة دستورياً ، لم يقدما الا من حساب نفوذهما على الدولة ، وهكذا جردتهما المعارضة من وهمين كبيرين الاول اعتقاد كل منهما انه دولة ، والثاني اعتقاد كل منهما انه متراس قائم بذاته يفتحه متى شاء ويغلقه متى شاء !

وفضل المعارضة ، انها مزقت القناع قبل الجلسة وبعدها ولم يكن رئيس الوزراء بغريب عن هذا التمزيق . فلما وقع ما وقع تسلم زمام المبادرة منهما ، وهو الخبير بالمتاريس واعتدتها ، ووقف يصرح ان لا خلاف في مجلس الوزراء ، بل هناك انسجام تام، وكأنا به يسمع المتراسين انهما اذا عادا الى المتاريس اعاد الانسجام الى وزارته بدونهما . والمثل العامي يقول « ما مت ما شفت غيرك كيف مات » ؟!

أما المثل الفصيح فيقول أيضاً « العاقل من اتعظ بغيره » !

ولقد كانت امثولة الوفاء الامثل التي اعطاها كمال جنبلاط في موقفه من رئيسه السابق وزميله في المتراس ، أبلغ امثولة يتخذها رئيس وزراء في لبنان من رئيس وزراء في لبنان !

أشخاص

من حق اللبنانيين الذين آلمهم وأذهلهم الاعتداء على النائب الاستاذ نسيم مجدلاني ، وأفرحهم وأسعدهم اعتقال الجناة الآثمين . . .

من حقهم على الدولة أن يسألوها : وغارو متى يتم القبض عليه ؟

فاللبنانيون جميعهم ، لم يشكوا لحظة واحدة بقدرة الدولة على فرض هيبتها عندما تشاء ، وزرع الرعب في قلوب الخارجين على ارادتها ساعة تشاء . فما من كبير الا والدولة أكبر منه . وما من مجرم عات بالغاً ما بلغ من السطوة والقوة الا والدولة أعز منه شأناً وأقوى منه سلطاناً .

حقيقة بديهية لا يشك فيها اثنان في لبنان . وليس أدل على ذلك الا السرعة التي تم فيها القبض على الجناة في حادث الاستاذ مجدلاني . فقد استطاعت الدولة عندما حزمت أمرها ان تكتشف الجاني والذين اشتركوا معه بساعات معدودات .

ومن هنا يبرز السؤال الذي يرتسم على شفاه اللبنانيين ، ويحوم فوق رأس الحكومة عامة ووزارة الداخلية خاصة وهو :

لماذا لم يعتقل غارو حتى الآن ؟

وهل كان ينبغي ان يقتل وزيراً أو نائباً او رئيساً كيما يتم اعتقاله بالسرعة التي اعتقل بها خلفه ؟

ان جريمة غارو هي جريمة مضاعفة مزدوجة ، لا لانه قتل رجال الشرطة اللبنانية وحماة الامن ، بل لأنه أتاح الفرصة لغيره أن يقتدوا به ، فكان القدوة لهم باستخفافه برجال الامن وبالتالي بالامن والطمأنينة التي ظفر ويظفر بها ، الى حد استقباله رجال الصحافة واعطاء التصريحات واملاء الشروطات !

ولو ان الحكومة القت القبض على غارو لما تجرأ أحد أن يعتدي على الاستاذ نسيم مجدلاني وعلى هيبة الدولة بأسرها ، فليس الاعتداء على النائب الا اعتداء صارخاً فاضحاً وقحاً على كرامة النواب والوزراء والمواطنين مجتمعين ومتفرقين ! و « جوزيف عون » الشرطي المسكين الذي جندله غارو برصاصه ، لم يكن ليقتل لو ان الحكومة حزمت أمرها وكانت جادة في اعتقاله فور

ارتكابه جرائمه الاولى ، ولم يكن مصرع الشرطي جوزيف عون بأولى جرائم غارو ، بل كان السلسلة الذهبية التي تزين بها وتباهى ، والحبل الطويل الذي ترك له على غاربه يسرح ويمرح وكأنه دولة ضمن الدولة ! . . .

ويتساءل اللبنانيون ، ومن حقهم ان يتساءلوا وغارو ما يزال حراً طليقاً آمناً مطمئناً :

من يكون هذا الغارو ؟

ما شأنه ، ما قوته ، ما سلطانه ، ومن هي عصابته ، بل من هم حماته ؟

ألديه جيشاً أقوى من جيش الدولة ؟

أيملك مدافع وطائرات ؟

من يكون هذا الغارو كيما يعصى على الدولة ان تكتشفه ، ولا سيما دولة في حجم لبنان وعدد سكان لبنان ؟

هل تراه يحمل تعويذة من سحرة الهند تقيه الاذى ، وتغمض عين الحكومة عنه وكأن بها قذى ؟ !

أما من تعويذة مضادة تبطل سحر تعويذة غارو ومن هم وراء غارو ؟ !

عندما « يدقدق » النواب الكرام !

وقف النائب فضل الله تلحوق على منبر المجلس النيابي ليرد تهمة ألصقها به لسان الوزير كمال جنبلاط .

وما كاد فضل‌الله تلحوق يبدأ كلامه ليشرح أبسط وأعدل قضية ، هي قضية الأخيار العقلاء الفضلاء ، ذوي القلوب الرحيمة ، من الزعماء والوجهاء والمواطنين ، الذين رفضوا ان يجلسوا في الخنادق والمتاريس ويحاربوا أبناء وطنهم الواحد ، كما لو كانوا أعداء .

ما كاد فضل‌الله تلحوق يفتح فمه ، حتى ارتفعت من مقاعد بعض النواب ضجة من النوع المعروف في باب مقاطعة النواب أثناء كلامهم .

والتفت الى مقاعد النواب أتساءل : ترى من هي الايدي التي « تدقدق » ؟

هل هي الايدي التي لا تتقن من الكلام ومن الفنون البرلمانية ، غير استعمال الايدي في الضجيج عندما تريد ان تنبري لنجدة زعيم أو مستوجه او رئيس قائمة ؟

والحق أقول ، ما كان يخطر ببالي ان يكون النواب الذين عبروا عن آرائهم بايديهم ، هم النواب الذين رأيت . . .

الامير عبد العزيز شهاب . النائب والسياسي اللامع ، حفيد الامير بشير الكبير ، الرجل الذي يرى فيه الكثيرون الاهلية للكثير من المناصب الرفيعة .

الشيخ بهيج تقي الدين ، أبلغ البلغاء في المجلس وأفصح الفصحاء ، والوزير عدة مرات ، والمرشح دائماً وأبداً للمراكز التي رفعته اليها وترفعه كفاءاته .

عصام بك الحجار ، النائب الذي أجمع عليه الناخبون في منطقته ، سليل البيت الوجيه ، صاحب الشهادات الرفيعة ، الشاب المتميز في دنيا المروءة والاخلاق والذوق السليم .

هؤلاء ، هم الذين شاهدتهم « يدقدقون » بايديهم . . .

ولماذا « يدقدقون » ؟

هل لهم مع فضل‌الله تلحوق خصومة ما ؟ كلا !

هل لهم نحو الثورة التي يريد ان يتحدث عنها فضل‌الله تلحوق عطف ما ؟ كلا ، بل العكس تماماً ، فالامير عبد العزيز كان ضد الثورة ، بل كان مدير الداخلية المسؤول أيام الثورة !

والشيخ بهيج ، كان عضواً بارزاً في القوة الثالثة ، أي كان ضد الثورة !

وعصام بك ، كان هو الآخر ضد الثورة ، وآل الحجار بأجمعهم كانوا ضد التيار الجارف في منطقتهم والبلاد تسجل لهم موقفهم المشرف هذا !

اذن وما دام الحال بينهم وبين فضل الله تلحوق على أحسن ما يرام ، وما دام هذا هو رأيهم في الثورة ، فلماذا « الدقدقة » ؟

لا يمكن ان يفسر عملهم الا بتفسير واحد لا ثاني له ، وهو الولاء والطاعة لرئيس قائمتهم للشوفية كمال بك جنبلاط .

فهل هذا التفسير يليق بالبك والشيخ والامير ؟!

وهل من المواقف البرلمانية المشرقة لهم ان يقال انهم « دقدقوا » لمجرد ان هذه « الدقدقة » تشنف آذان كمال جنبلاط ؟

وهل يعتقد هؤلاء بحق وحقيق ، ان الناخبين في الشوف ، انما انتخبوهم لفضيلة واحده هي فضيلة « الدقدقة » والقرقعة والمقاطعة والممانعة ، كلما ارادهم كمال جنبلاط ان يدقدقوا ويقرقعوا ويمانعوا ويقاطعوا . . ؟ !

اذا كانوا يعتقدون ذلك ، فليسمحوا لنا ان نكون اكثر احتراماً منهم لابناء الشوف فنقول : لا ، ان ابناء الشوف لم ينتخبوهم لانهم مجرد دمى يحركها كمال جنبلاط !

ان ابناء الشوف انتخبوهم لانهم من رجالات البلاد القادرين على تمثيل مناطقهم بكل ما في التمثيل من معنى .

فلا عبد العزيز شهاب بالمجهول اليتيم ، لا في الشوف ولا في غيره . ولا بهيج تقي الدين بالغريب عن الشوف ، وهو الذي كان ينجح في الانتخابات ضد كمال جنبلاط !

ولا عصام الحجار بالنكرة في منطقة اقترعت لعمه وابيه وأقاربه من قبله .

اذن ما معنى هذا الضياع غير المقبول من اناس محترمين في موكب الجنبلاطية الاقطاعية القبلية الكاملة ؟

ما معنى هذه المبالغة التي لا تعرف حدوداً في الولاء ثم الفناء في الذات الجنبلاطية ؟

* * *

نحن لا نعتب على جنبلاط عندما يتقلب ويلبس لكل حالة لبوسها ، فهي شرعة الاقطاعيين عندما يشعرون ان أيام عزهم تسير الى زوال .

ولسنا نعتب على جوزيف شادر الذي وقف وسار الى المنبر لينزل فضل‌الله تلحوق عنه ، فهو يمثل الكتائب ، والكتائب وجنبلاط اليوم هما اليوم في متراس واحد ، وعلى مائدة واحدة !

انما عتبنا على النواب الذين ينسون في بعض الحالات لماذا ارسلهم الشعب الى المجلس النيابي ، فاذا بكرامهم وبلغائهم ومأموليهم يعطون لزملائهم النواب أسوأ قدوة ، ويصورون الحياة البرلمانية في لبنان ، أقبح صورة !

اللجنة الخارجية

اللجنة الخارجية في مجلس النواب غارقة في هذه الايام في بحث موضوع تعتبره خطيراً ، ولا ندري اذا كان أحد من المواطنين يوافقها على تقدير هذه الخطورة !

الموضوع هو ايجاد صيغة موحدة بشأن اقتراح قدمه النائب ريمون اده باستنكار أي مشروع وحدوي او اتحادي يمكن ان يعرض على لبنان في الحاضر او المستقبل .

ووجه المشكلة في الامر ، هو ان اقتراح الاستاذ اده ، قد جاء في وضوحه وصراحته فجاً على اسماع بعض النواب وفي قلوبهم ، فثارت على الفور ضد الاقتراح ، تقاليد نوابنا المعروفة في اختراع الصيغ وابتكار الاساليب واستنباط المصطلحات ، لايجاد مخارج لا يموت فيها الذئب ولا يفنى الغنم !

ان النواب يريدون ان يقولوا ما يقول به اقتراح ريمون اده . ولكنهم يريدون ان يقولوه على غير ما قاله !

انهم يريدون ان يقولوا ان لبنان متمسك بكيانه وحدوده . ولكنهم لا يريدون ان يقولوا انه يرفض الدخول في وحدة .

وهم يريدون ان يقولوا ان لبنان كان وسيبقى بلداً عزيزاً مستقلاً سيداً حراً . ولكنهم لا يريدون ان يقولوا انه لا يرغب في ان يفقد استقلاله في مشروع اتحادي او هلالي خصيبي !

ومن هنا بدأ السيل يتدفق : اقتراحات ، صيغ ، اجتهادات ، عبارات ، تفصيلات ، تخريجات ، تأويلات . . . الى آخره ، والنتيجة : اختلافات ، منازعات ، مشادات . . . تأجيلات !

وهكذا وجد اللبنانيون انفسهم في الصباح التالي لاجتماعات اللجنة الخارجية ، عاجزين عن فهم ماذا تريد اللجنة الخارجية ، وماذا تقترح ، وما رأيها بهذه المواضيع التي نراها مفلوشة في هذه الايام على أعمدة الصحف السبعة . . .

وانطلقت بين الناس الاسئلة :

لماذا لم يوافق النواب على اقتراح ريمون اده ؟

لماذا لم يوافقوا على اقتراح عبد العزيز شهاب المضاد ؟

لماذا لم يأخذوا برأي اميل البستاني ؟

لماذا لم يطرحوا هذه الاقتراحات جانباً ويستبدلوها باقتراح آخر ؟

ولقد ترك كل سؤال من هذه الاسئلة شيئاً من الغموض في نفس كل قارىء وكل متتبع للاخبار .

ولم يقلل من هذا الغموض تكرار الالفاظ المألوفة عنده أثناء رواية وقائع الجلسة : الميثاق الوطني ، الجامعة العربية ، المسلمون ، المسيحيون ، الوحدة الوطنية ، الاتفاق . . .

فقد تعود اللبناني ان يمر بسرعة على هذه الالفاظ ولا يقف امامها وقفة المتأمل المتفحص !

* * *

خطر لي وانا اطلع على ما دار في جلسة اللجنة الخارجية ، ان اكرس قلمي في هذه الفتره الاخيرة ، في موضوع واحد ، هو دعوة السياسيين على اختلافهم ، لان يتكلموا بلغة واضحة ، والفاظ مفهومة ، وعبارات صريحة ، وان يتركوا الغمغمة والجمجمة والهمهمة والدمدمة . فالبلاد في حاجة ماسة الى الوضوح والصراحة ، والبعد عن اللف والدوران ، والتلطي وراء الكلمات والعبارات ، التي تحتمل عشرات التأويلات !

وحين يكون الزمن ، زمن انقلابات ودسائس ومؤامرات وتحقيقات وعقوبات ، لا يبقى مجال لهذا الاسلوب . فأما الكلام وأما السكوت .

لقد قال كونفوشيوس رحمه الله رحمة واسعة « ان اصلاح العالم يبدأ بايجاد قاموس يحدد معاني الكلمات » .

ولعل كلام كونفوشيوس الصحيح في كل زمان ومكان ، هو أصح ما يكون الآن وفي لبنان !

اشخاص

« اسم السيد صبري حماده قد ادرج مع قوائم الاشخاص الممنوعين من دخول سوريا ...»

بهذه العبارة التي تحمل كل معاني الزراية والتحقير اعتذر وزير الخارجية السورية الدكتور أسعد محاسن ، عن احتجاز رئيس مجلس النواب اللبناني عطوفة الاستاذ صبري بك حمادة . . .

وبهذه الكلمات والالفاظ اعتبر الناس في سوريا وفي لبنان ، بأن المشكلة قد سويت وعفا الله عما مضى . . . وان ما جرى لم يكن اكثر من « مداعبة » أو « ولدنة » قام بها خفراء الحدود السورية ، عندما تصدوا لرئيس مجلس النواب اللبناني على الحدود ، وأفهموه بأن اسمه مدرج على اللائحة السوداء في جملة اسماء المشبوهين والممنوعين من اجتياز الحدود السورية الشقيقة !

والاطرف والاظرف ، أن وزير الخارجية السورية الدكتور أسعد محاسن لم يكتف بولدنة ومداعبة خفرائه على الحدود ، بل اتبعها بما هو أشد وأنكى فقد صرح بان اسم رئيس مجلس نوابنا قد أدرج في قوائم الاشخاص الممنوعين والمشبوهين في زمن الوحدة مع مصر . . . ولكن الوزير محاسن أحب ان يتوج عنق لبنان بحسنه ، فأمر ، حفظه الله وزاده حسناً على حسن ، بشطب اسم صبري حماده من قائمة المشبوهين ، وأصدر أمره بالغاء المنع والسماح له بدخول الاراضي السورية !

ومن يدري ، فلولا احسان الدكتور محاسن ولولا لطفه وتعطفه ، لظل رئيس مجلس النواب محتجزاً في أحد أكشاك المخافر السورية على الحدود ، ولحرم النواب من رئيسهم وحرم الشعب اللبناني من ثاني رئيس له . . .

ولكن الله سلم ، فقد اجتاز عطوفة صبري بك حدود سوريا بالسلامة ووصل العاصمة اللبنانية بالسلامة أيضاً . . .

والآن هل ترانا نعتبر أن الحادث الذي وقع حادثاً عادياً وان ما جرى قد جرى . . .

وهل ترانا نؤمن مع المؤمنين بان قرار مجلس النواب باستنكار ما وقع لرئيسه كافياً شافياً ؟

ان حضرات النواب المحترمين يطالبون بتقديم مذكرة احتجاج الى السلطات السورية . . وان هذا العمل لا يجوز . . . وانه غير مألوف . . . وانه الى آخره الى آخره !

وماذا يعني احتجاج كهذا والف احتجاج مثله ؟

وهل معنى هذا ان الحكاية قد انتهت عند هذا الحد . وان المخافر او على الاصح السلطات السورية قد اكتفت بهذا القدر من الانتقام . . . وبالتالي هل يقنع اللبنانيون بأن كرامتهم لم تمس ولم يخدشها تصرف الاشقاء السوريين ؟

أقل اللبنانيين حظاً من الذكاء ، وأقلهم خبرة بأمور السياسة وآفانينها ، يدرك تماماً بأن المسألة ليست رمانة ولكنها قلوب ملآنة . . . وان احتجاز رئيس مجلس النواب على الحدود السورية ليس خطأ أو سهواً عابراً ولكنه عمل مقصود ومبيت !

يبقى على الدولة ، وهي في صبيحة عيد الاستقلال ، ان تبحث جيداً وتفكر جيداً بمعزل عن كل تهويش وتهويل ، عن الاسباب الحقيقية التي دفعت الشقيقة سوريا لأن تحتجز رئيس مجلس النواب الشقيق ، وان تدع اسمه مسجلاً على القائمة السوداء !

وليس أجمل ولا أدعى للاعتزاز من ان تكتشف الدولة اسباب هذا الحادث وتعمل على ملافاته كي لا يتكرر في المستقبل القريب او البعيد ، وهي في هذه الصبيحة تحتفل بأعز وأغلى عيد ! !

ارحموا لبنان !

لا دفاعاً عن الكويت ، ولا نصرة للرأي القائل بتبادل التمثيل الديبلوماسي على مستوى سفارة مع امارة او مشيخة او قائمقامية الكويت . . . ولكن حرصاً على هذا البلد اللبناني الصغير ، الذي طمع فيه القريب قبل البعيد ، وأصبح مكسر عصا لكل حاكم عربي يحب « المرجلة » وتستهويه البهورة . . .

لقد هالني كل الهول ، واحزنني كل الحزن ، هذا الاستهتار العجيب الذي اظهره عبد الكريم قاسم نحو هذا البلد بسحبه السفير العراقي وتسفيره السفير اللبناني ، بنية تأديبه ، لا يصح ان يتحلى بها جار نحو جاره او اخ نحو أخيه .

هكذا وكأن ليس هناك بلد اسمه لبنان . وكأن ليس هناك شيء اسمه رابطة عربية . وكأن ليس هناك عرف او ذوق او لياقة !

الحادث بذاته فظيع ، وافظع ما فيه انه اصبح عادة عربية مألوفة في التعامل مع لبنان يمارسها عبد الكريم قاسم وغير عبد الكريم قاسم . وتمارسها بغداد كما تمارسها دمشق ، كما تمارسها القاهرة وعمان ، بسهولة وعفوية وبساطة تدعو الى الاستغراب الذي ما بعده استغراب .

هذا يسحب السفير من لبنان .

وذاك يغلق الحدود في وجه لبنان .

وآخر يمول المتآمرين الناقمين في لبنان .

وغيره يسلح بعض لبنان ضد بعض لبنان .

اليوم ، انتقام من المسافر اللبناني .

وقبل اليوم انتقام من التفاح اللبناني .

وقبلهما عدوان على المهاجر اللبناني ، وصاحب الشركة اللبناني . . .

وفي لبنان ، يشهر كل واحد منهم سلاحه ضد خصمه . . . تعال يافلان خذ مالاً واشتم عبد الناصر . وتعال يا علان خذ مالاً واشتم سعوداً او حسيناً . . .

اما الخاسر من ذلك كله فهو لبنان ، لبنان الذي كان وما زال يدفع من هناء شعبه وامنه وكرامة أهله ، وأحياناً من دمائه ثمن هذا الاستخفاف وهذا التعدي الذي يعامله به اخوانه .

ان البلاد العربية اتفقت فيما بينها على ان تقاطع اسرائيل واسرائيل وحدها . . . فما بال البعض يعامل لبنان بفكرة المقاطعة كلما عنّ لحاكم عربي ان يتبهور او يستعرض عضلاته او يشتم خصمه ؟

ماذا يريدون من لبنان أكثر مما يعمل لبنان ؟

منذ ان وجد لبنان المستقل ، ولبنان واضح السياسة ، لا يريد عداوة أحد ، ولا خصومة احد ، ولا يقف مع عربي ضد عربي ، ولا ينحاز الى جهة دون جهة .

سياسته ، السلم مع الجميع بلا استثناء .

اذا قال أحد الحكام العرب « نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا »

فان لبنان يقول : « نصادق من يصادقنا ولا نعادي من يعادينا » !

فهل هناك سلم أكثر من هذا السلم ؟

فهل هناك وداد أكثر من هذا الوداد ؟

ومع ذلك فلبنان ، في تعب دائم وهم مقيم ودفاع ودفع لاذى الاخوان ، الذين لا يحلو لهم ان يتقاتلوا ويتشاحنوا ويتشاتموا ويتماحكوا ويتنابذوا ويتنافروا ويكروا ويفروا . . . الا على ارض لبنان !

ماذا يريد عبد الكريم قاسم من لبنان ان يراعيه أكثر مما فعل ؟

اذا غضب او تعكر صفو مزاجه ، أرسلت وزارة الخارجية اللبنانية وراء سفيرها في بغداد وحملته الى عبد الكريم العواطف الصادقة والتمنيات العاطرة ، والتعابير الرقيقة .

واذا ارادت ان تخطو خطوة نحو الشرق او نحو الغرب ، ابلغت عبد الكريم قاسم . . .

واذا اعترفت الدول كلها بالكويت ، تريث لبنان ليبقى آخر المعترفين . . .

واذا تجرأ على الاعتراف ، فهو يعترف على مستوى قائم باعمال لا على مستوى سفير .

كل هذا ترضية ومراعاة واكراماً لعبد الكريم !

من أجله ضحينا بجزء من مصالح اللبنانيين في الكويت ، وهي أكثر من مصالح اللبنانيين في العراق !

من أجله جافينا الكويتيين الذين ينزلون ضيوفا في مصايفنا !

من أجله فعلنا كل ذلك ، وبقينا مع ذلك مقصرين متهمين ، بل مجرمين نستحق العقاب والتأديب !

اننا نطالب الحكومة اللبنانية ، تجاه هذا التصرف الشاذ الارعن من قبل عبد الكريم قاسم ، ان تضع حداً لهذا الاسلوب الشامل الجامع في معاملة الحكومات العربية للبنان .

فلعل وقفة كرامة واحدة ، تنقذ لبنان مرة واحدة ونهائياً مما يعانيه من بلاء هذه المعاملة العربية له . وفي انقاذه مصلحة عربية لجميع البلاد العربية بقدر ما فيه من مصلحة لبنانية !

لبنان بين حانا ومانا

غضبة اللواء عبد الكريم قاسم على الكويت مفهومة . . . فلقد تنكرت مشيخة الكويت للعراق الوطن الأم ، او هكذا على الاقل تقول العراق ، ومن حقها ان تقول ، لا نريد هنا ان نناقشها .

غضبة مفهومة أو « فيها ما فيها » كما نقول .

أما غضبته على لبنان فما هي اسبابها ومبرراتها ؟ انها غير مفهومة ، غير معقولة ، غير مقبولة . انها مرفوضة بالشكل وبالاساس .

والغضب الذي يحمل هذه الالوان من المعاني ، ليس يؤبه له كثيراً ولا يقام له كبير وزن ، ما دام في حيز الكلام ولم يخرج من الاقوال ليتعدى الاعمال .

وحتى اليوم ما يزال الامل معقود اللواء على حكمة وبصيرة ورجاحة عقل اللواء عبد الكريم

قاسم ، لتظل الغضبة في اطارها الباسم ، ودائرتها التي تبهج ولا تكدر ، وتفرح ولا تحزن . . .
بل تكون وسيلة للتسلية والترفيه عن نفوس الشعوب العربية لا عن شعب العراق وشعب الكويت
وحدهما . . .

نعم ، المهم ان تظل غضبة اللواء قاسم مزحة ، وان تحافظ على طابعها الكاريكاتوري
الكوميدي الخفيف ، وان لا تتحول الى غضب حقيقي دراماتيكي من النوع العنيف !

وليس يضير لبنان ويحزنه كالغضب والعتاب والضرب والسباب وشق الثياب بين الاخوة
الاشقاء الاحباب . . . ذلك لان لبنان هو الذي يدفع الثمن . يدفعه من امنه وراحته من ماله
وسمعته . ورأس مال لبنان وسمعته . هو حركة السياحة والاصطياف (الماء والهواء ، الساحل
والجبل ، العرق والحرية والكبة نية) .

ولكن الامر الذي نخشاه من هذه الحكاية ، حكاية العراق مع الكويت ، بعد ان دخل
لبنان فيها طرفاً ثالثاً . . . ان تتطور الحكاية ، فقد أثيرت علناً في الصحف وفي مجلس النواب
وفاحت روائحها ، وقد كانت مطمورة او شبه مطمورة في ضمير الديبلوماسية اللبنانية تعالجها
بقفازات حريرية اصحاب الانامل الحريرية !

ايضاً هذا ليس مهماً . . .

ثم ، فليخفف اللواء عبد الكريم قاسم من غلوائه ، وليقتنع بقلة جدوى الحرب الساخنة —
الباردة التي يشنها على الكويت . فحسب الكويت انه ، في الدفاع عن نفسه وتثبيت وجوده ،
يتوسل مثل الوسائل التي أشار اليها بعض النواب اللبنانيين في الجلسة الاخيرة تلميحاً وتصريحاً
عندما لفظوا اسم احد الموشوشين النمامين المتجوسيسين المتجولين في دنيا البلاد العربية، بعد ان
حط الرحال به في ارض الكويت .

ويبدو ان سوء طالع الكويت انها ابتليت به ، كما ابتليت به من قبلها بيروت ودمشق
والقاهرة وعمان وكل عاصمة حل فيها . . .

و « موشوش » الكويت اليوم ، هو هو موشوش الشيشكلي بالامس وهو هو موشوش السعودية
قبل الامس ، وهو هو موشوش القاهرة في الماضي القريب ولعله ما يزال حتى اليوم . . .

تراه يمشي كما يمشي الوباء انه يتحسس الارض مصروعاً مذهولاً كأنه ملاحق دائماً
وأبداً يخشى كل نظرة تقع عليه وكأنها ادانة او مشروع اتهام ينصب على رأسه . . . يستجدي
ويستضعف يلين ويستكين ، حتى اذا ظفر او خيل له بانه ظفر بأي شيء تنمر وأخرج مخالبه ،
وليست مخالبه الا الدس والحقد والوشوشة والوقيعة !

عرفه الشيشكلي فقربه وآمنه بعد خوف وأطعمه بعد جوع . . وما ان انقلبت الدنيا على

الشيشكلي ، حتى كان اول « بابوج » انهال على وجهه هو « البابوج » الذي انتعله طيلة حكمه في دمشق . فقد تطوع صديقه وسكرتيره وكاتم اسراره ، غداة خروجه من الحكم ، تطوع بأن نشر مقالاً يلعن فيه سنسفيل الشيشكلي !

انه لبناني سوري عراقي سعودي مصري اردني . . . وهو اليوم كويتي ! ولكنه في الحقيقة ليس لبنانياً ولا عراقياً ولا مصرياً ولا سورياً ولا كويتياً لانه ماأحس يوماً باحساس أي شعب حل ضيفاً عليه وما شعر بشعور أي بلد حماه وأكرمه . . .

* * *

وبعد ، للكويت ان تصطفي من تشاء وتقرب من تشاء وان تبتعد عمن تشاء . . .

ولعبد الكريم قاسم ان يضم الكويت بالسلم او بغير السلم ، بالاقناع او بغير الاقناع . . له ان يستنفر جيشه واساطيله ليسترد امارة الكويت اذا شاء . ولكن ما ذنب لبنان في هذه الحرب الساخنة – الباردة التي تدور رحاها ؟

وأي خير سيصيب العراق وشعب العراق من هذه العداوة السافرة التي تشهر في وجه لبنان ؟

مرة ثانية ، ما يزال الامل معقوداً على ان تتبدد الغيوم التي تلبدت في جو علاقات بغداد وبيروت ، والتي لم يكن للبنان يد فيها او رأي . .

وخير الف مرة ان تكون غضبة اللواء عبد الكريم قاسم على لبنان من النوع الذي لا يتعدى العتاب بين الاحباب ، وان تحافظ على طابعها الكاريكاتوري الخفيف الظريف فلا تتحول الى غضبة مضرية دراماتيكية من النوع العنيف . . .

كان الله في عون لبنان فقد أصبح بين الكويت والعراق على حد قول المثل « بين حانا ومانا ضاعت لحانا » ! .

سياسيون

اذا كنا لا نستطيع ان نهنيء الدولة ببعض اصدقائها ، فاننا نستطيع اليوم أن نهدي اليها أصدق التهاني على بعض خصومها .

فالدولة جديرة بأن تدفع الملايين لتقف هي في جانب ، ويقف هؤلاء الذين استطابوا أخيراً معارضتها في جانب آخر !

لقد كتب الاستاذ الكبير جورج نقاش ذات يوم يقول في معرض الحديث عن أحد رؤساء الوزراء :

« انني لا أعرف السيد عبد الحميد كرامي معرفة شخصية ، وليس لي به آية علاقة خاصة تخولني الحكم عليه . ولكنني أعتقد أن الرجل الذي يهاجمه « فلان » – وذكر اسم أحدهم – بمثل هذا العنف ، لا بد وان يكون رجلاً نبيلاً طيباً يستحق من الناس كل محبة واحترام »

هذا بالضبط ما خطر على بالي وأنا أقرأ أقوال بعض المعارضين الذين انطلقوا من غير مقدمات ، وعلى غير سابق موعد ، يتحدثون ويدافعون عن الحريات والكرامات والديمقراطيات والقانونيات والدستوريات والنزاهات والاستقامات . . .

قلت بيني وبين نفسي : حظ يفلق الصخر لهذه الدولة أن تظهر في عيون الناس وكأنها منقذتهم ومخلصتهم من هؤلاء الذين استحدثوا الحملة عليها ويعملون على تحطيم هيبتها .

ولكن هذا الشعور العفوي بالانحياز للدولة المهاجمة من قبل بعض المعارضين ، يجب ان لا يصرفنا عن مؤاخذة الدولة مؤاخذة شديدة لا هوادة فيها ، وفي هذا الموضوع بالذات .

ذلك اننا مع غيرنا من أصحاب الاقلام الحرة ، كنا ننبه الدولة الى انها لا يمكن ان تكون دولة ، ما دامت تضع الوزارات والنيابات بين أيدي هذه الفئة التي تنتقض عليها اليوم .

قلنا لها مراراً وتكراراً هناك طريقان لا ثالث لهما أما مزرعة وأما دولة . فاذا كان من بيدهم الامر يريدون ان ينشئوا مزرعة ، فما عليهم الا أن يأتوا بهؤلاء الزراع ، يزرعون في أرض هذا الوطن بذور الفساد والعدوان والاجرام .

واما اذا كان من بيدهم الامر يريدون ان يبنوا دولة ، فلبنان لا يعدم رجالاً كرماء لم يسبق لهم ان جعلوا من السياسة تجارة لهم ولانصارهم . . .

واليوم ماذا نرى ؟

نرى ان هؤلاء الذين جعلت منهم الدولة على غير رغبة المخلصين من ابناء البلاد ، وزراء ونواباً وأقطاباً وأعمدة وبطانة وحاشية ، ينقلبون عليها شر منقلب .

فهل نقول الآن :

اشربي أيتها الدولة فهذه هي الكأس التي ملأتها يمينك ؟

أم نستسلم لشعورنا العفوي بمساندة هذه الدولة الموفقة في الوقت الحاضر باخصامها ؟

ان الدولة يجب أن لا تبالغ في الاعتماد على هذا الامتياز الذي حصلت عليه ، بوقوف هؤلاء موقف الخصومة لها .

فهناك بعض المعارضين المخلصين الصالحين ، ممن لم يشتركوا في أوحال السياسة ولم ينغمسوا في خطيئاتها ، وهؤلاء كان على الدولة أن لا تزج بهم من حيث تريد أو لا تريد في طوابير الفساد وأصحاب السوابق في التخريب ! .

* * *

نهنىء الدولة ، موقتاً : باختصامها الجدد بانتظار اليوم الذي نتمكن فيه من تهنئتها بأصدقائها !

سياسيون

بالمتعة نفسها التي يحسها بعض الهواة امام مشهد صراع الديوك ، وبالحماس نفسه الذي يشعره أي جمهور تملكته شهوة الفرجة على كل غريب عجيب ، قابل اللبنانيون الجلسة النيابية الاخيرة التي وقف فيها رشيد كرامي وحكومته في جانب ومعارضوه في جانب آخر .

وكان اللبنانيون يتابعون الفرجة على نوابهم وأذهانهم خالية من أن هذا الذي يجري في برلمان مفروض فيه انه يمثلهم ، وان هؤلاء الذين يقفون على المسرح ، مفروض فيهم ان يكونوا زعماء ووجهاء ومتنفذين وقادة رأي ، فكأن الأمر لا يهمهم من قليل او كثير ، وان كان يثير فيهم شيئاً من الفضول والسلوى .

أما الحكمة الشعبية العريقة التي كانت وراء هذا الموقف من الجمهور ، فهي تلك الحكمة القائلة « اختلاف الائمة رحمة بالامة » !

ان شعور الناس في هذا الوقت هو أقرب الى التفاؤل منه الى التشاؤم ، اذ انه يتلخص في اعتقادهم بأن كل معركة من النوع الذي شهدنا بين الوزراء وبعض النواب من الموالين والمعارضين والراكبين والراجلين ، انما تؤدي في النهاية الى خير الا وهو ذهاب هذا الطقم السياسي المهترىء كله بتمثيلياته ومناوراته كره وفره واساليبه ومخططاته وأغراضه وشهوته ، وجهله ورعونته وفضائحه وصفقاته . . .

لقد عم الزيف هذا البلد الذي تكاثر فيه المزيفون حتى امتد هذا الزيف الى حملة الاقلام الذين تقع على عاتقهم مهمة كشف المزيفين ، واخذ كل منا يدهن قلمه بالعسل والسكر كلما تناول موضوعاً من المواضيع العامة . فغابت في غمرة النفاق والدجل حقيقة مشاعر الناس ، وهي انهم ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذي يذهب كل سياسي بال وكل برلماني مهرج ، وتحل فيه مكان الخفة والوصولية والانتهازية وحب الكراسي ، القيم السياسية الحقة ، والأسس الشعبية الصحيحة .

ان الناس في لبنان اصبحوا يكرهون البرلمانات التي تمثلهم بحسب الدساتير والانظمة . وهذه نتيجة سيئة لتاريخ طويل من اللعب السياسي غير المسؤول من جانب الحكوميين والمعارضين على حد سواء . ونخشى ان تنتحر البرلمانات اشنع انتحار اذا لم تتجدد في هذا البلد الواجهة السياسية فتأتي وجوه تغار حقاً على البلد ومصالح الشعب المقدسة وبراءة النظام الديمقراطي من كل المؤثرات من اي جهة اتت والى اي وجهة توجهت !

الى اولئك الذين يعتقدون انني ابالغ في عداوتي للطاقم السياسي المخضرم ، حتى ليتهمني بعضهم انني احترف عداوة الساسة اللبنانيين وغير اللبنانيين . . . .

الى اولئك من اهل الوعظ والارشاد ، اقول بأن الناس في لبنان وفي غير لبنان ، يكرهون هذا الطراز من السياسيين المحترفين المهترئين اضعاف اضعاف ما في قلبي من . . . الحب والاحترام !

اشخاص

عندما يتهم نائب محترم مثل ريمون اده وزير الداخلية الاستاذ كمال جنبلاط ، بأنه يحمي المجرم الفار «غارو» وعندما ينفي وزير الداخلية هذه التهمة عن نفسه ، هل يعني هذا أن المشكلة انتهت ، وان الحكومة استعادت كرامتها وردت اعتبارها ، وان الامن والطمأنينة والسلام يرفرف على لبنان ؟

لسنا نصدق ، ولا نحب لانفسنا أن نصدق ، بأن وزير الداخلية اللبنانية ، يقع في وزر هذه التهمة — البلية . وهل ثمة أدهى وأمر من أن يتهم وزير لداخلية بلد ، بحماية المجرمين وأعداء القانون ؟ أن أبسط الاثر الذي يخلفه مثل هذا الاتهام ، حتى لو كان غير صحيح ، استخفاف المجرمين بالعدالة ، واستقواؤهم على القانون ، وبالتالي استهتار المواطنين بالقيمين على العدالة والقوانين !

أو لم تكتب بعض الصحف أمس ، ويقرأ الناس أن البارون البروفسور « غارو » عقد أو سيعقد مؤتمراً صحفياً يشرح فيه وجهة نظره ويملي شروطه ، قبل أن يستسلم ؟ أو ليس خبراً كهذا ، أو حتى إشاعة كهذه ، من شأنها أن تنمي غرس الجريمة وتعلي من شأن المجرمين واقدارهم فتساوي بينهم وبين العلماء والكبراء الذين يعقدون المؤتمرات الصحفية ويبسطون آراءهم ويملون شروطهم ؟

وأي فرق بين البارون البروفسور « غارو » الذي جندل برصاصه رجال الشرطة اللبنانية ، وبين أي عالم او بروفسور يحاضر ويعقد مؤتمراً صحفياً ؟

بلى ، هناك فارق واضح بيّن . هو أن البارون غارو يحظى بأضعاف ما يحظى به أي عالم من الاعجاب والتقدير والاكبار .

ولم لا ؟ أو ليس البارون غارو يعتبر نفسه فريقاً ، والدولة اللبنانية فريقاً آخر ، يضع نفسه في كفة ميزان . ولا يجد غضاضة أن يضعها هي الاخرى في كفة ثانية ؟

فيا لتواضع البارون البروفسور غارو الذي أزرى وأخجل تواضع الاساتذة العلماء والسادة الكبراء .

* * *

بعد هذا نستغرب الاعتداء على النائب والوزير السابق الاستاذ نسيم مجدلاني ؟

بعد هذا نستفظع ونستهول ان يقدم مجرم في رائعة النهار وأمام البرلمان ، فينهال بالموسى على وجه حضرة النائب المحترم والوزير السابق ، وزير العدلية اللبنانية ؟

وهل نعجب غداً اذا سمعنا ان الاستاذ ضارب الموسى قد احتمى بأحد الكبراء النافذين ، أو عقد مؤتمراً صحفياً أملى فيه شروطه للاستسلام ؟

ان له قدوة بأستاذه وزميله البروفسور غارو .

سياسيون

هل يعلم رجال الحكم عندنا ، وهل يعلم أهل السياسة مدى العزلة التي تباعد اليوم ما بينهم وبين الناس ؟

هل يدركون ان هذه الهموم الصغيرة التي تحركهم باتجاه المعارضة او الموالاة ، أصبحت لا تعني المواطن العادي في قليل أو كثير ؟

ان صفة هؤلاء التمثيلية للشعب ، تسقط اكثر فأكثر كل يوم بل كل ساعة ، لتحل مكانها صفة أخرى طبقية بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الشعب أصبح يتحدث عن النواب لا على انهم ممثلون للشعب ، بل على انهم طبقة أهل السياسة التي لها أهدافها ومصالحها ومشاعرها واهواؤها المستقلة تماماً عن أهداف جماهير الناس ومصالحهم ومشاعرهم واهوائهم !

هذه الاشارة الى أهل السياسة عندنا كطبقة . هل يفهم رجال الحكم ورجال السياسة حقيقة معناها ؟

كل الدلائل تشير الى أن أحداً — مع الاسف الشديد — لا يفهم مغزى هذه النظرة الى السياسيين .

فالنواب عندنا يقومون ويقعدون ، يخطبون ويطبليون ، وكأنهم يحسبون أنفسهم فعلاً ممثلين للشعب . تماماً كما لو كانوا اعضاء مجلس العموم البريطاني مثلاً مع فارق المسؤولية والمستوى !

والحكومة ، هي الاخرى . بدلاً من أن تعمل على مخاطبة الناس مباشرة ، مهملة ضجيج الكلام المنمق وغير المنمق . المسؤول وغير المسؤول في المجلس النيابي ، نراها تشغل نفسها بالاصوات النيابية وتعدادها أكثر من اهتمامها بمطالب الناس وهمومهم !

ان كل شيء يدل في لبنان على ان الديمقراطية التي نحياها ، والتي زيفها اعداؤها ممن انتحلوا صفة تمثيلها — هذه الديمقراطية أصبحت بحاجة ماسة الى عملية تصححها شكلاً وموضوعاً ، نظاماً وأشخاصاً .

فليس من الطبيعي أن يستمر تشويه الديمقراطية على النحو الذي نشاهده ، ثم ندعي الحرص عليها والذود عن حياضها !

لم نأسف على زوال جمهورية بشارة الخوري ، ولا اسفنا على زوال جمهورية كميل شمعون ، ورحبنا بمجيء جمهورية فؤاد شهاب . وهي ثالث جمهورية لبنانية في عهد الاستقلال .

ولكن هذه الجمهورية الثالثة لا تكون جمهورية جديدة مائة بالمائة كما نريدها ، اذا هي استمرت مرتعاً لرجال الجمهوريتين السابقتين ، يجلسون على كراسي النيابة والوزارة ويأخذون ما يأخذون ، ويطالبون بالمزيد ولا يشبعون . . !

ان الشعب اللبناني يريد تعهد كل شيء جديد وصالح في جمهورية فؤاد شهاب ، بالسقيا والصيانة والمزيد من الرعاية ، ولا يريد أن يدع الساسة التقليديين يحاولون اقتلاع الجديد ووأد الاتجاهات التي تحمل الخير والاصلاح !

ولكن هل تعي الدولة حقاً هذه الارادة الشعبية .

وهل تعمل معها وبوحيها من أجل لبنان جديد ، وجمهورية جديدة برجال جدد ؟!



مِصْرُ



قال لي أمس أحد اخصاء الرئيس صائب سلام : هل عرفت ان قنصل مصر نقلوه من بيروت ؟

قالها بلهفة وجزع وراح يعدد مزايا وحسنات هذا الرجل ، والسمعة العاطرة الممتازة التي تمتع بها طيلة تمرسه بعمله في القنصلية واقامته في لبنان

ولم اعجب كثيراً فلقد تنبأت بنقل حفني محمدين قنصل مصر ، منذ أكثر من أربعة شهور ، يوم كتبت امتدح هذا الرجل وأثني على مروءته ونبل معدنه ، وتفانيه في خدمة الناس جميعاً ، خدمة خالصة مبرأة من كل غرض وافتعال .

واذكر انني كتبت يومها أقول بأن اخشى ما أخشاه أن ينقل هذا الموظف الامين الذي بيض صفحة التمثيل السياسي ، بأخلاقه الحميدة وسمعته النظيفة وباجماع آراء اللبنانيين وغير اللبنانيين على الاعجاب به والثناء عليه .

أجل ما زلت أذكر ذلك ، وأذكر أيضاً بانني كتبت أقول في نهاية المقال « أكتب هذا وأنا أضع يدي على قلبي خوفاً من أن يتم نقل هذا الموظف الامين الشريف ، بعد أن اشرت اليه ونوهت بمزاياه . »

ولم أكتب ذلك عبثاً ، فقد سبق « الفضل » وجيء قبل حفني محمدين في بداية الثورة المصرية بشاب اسمه سعيد الغمراوي كان مثلاً من أمثلة الرجولة والتفاني لمرء منصبه على أكمل وأنظف وجه وعرفه اللبنانيون فعرفوا فيه الخلق الكريم ، وعرفوا فيه البشاشة والاخلاص في خدمتهم وخدمة كل من يطلب قضاء أمر من القنصلية المصرية . . .

ولكن يظهر أن هذا البلد ليس له في « الطيب نصيب » فما كاد اللبنانيون يأنسون الى سعيد الغمراوي ، وما كادت السنتهم تلهج بالثناء عليه ، حتى تحركت الاصابع الخفية والتقارير الرسمية . . . وكان صباح وكان مساء ونقل سعيد الغمراوي فجأة ومن غير أن يعرف أحد من اللبنانيين اسباب نقله !

وخلف الغمراوي في القنصلية المصرية انسان يذوب رقة ونبلاً ، ويتلاشى في خدمة كل من يؤم القنصلية كبيراً كان أم صغيراً غنياً أم فقيراً .

وكانت الحشود التي تحتشد على باب القنصلية صباح كل يوم تدخل على حفني محمدين

فيستقبلهم جميعاً واحداً واحداً وكان واسع الصدر طويل الاناة ، لا يتبرم بأحد ولا يتأفف من أحد ، يستمع الى كل صاحب حاجة أو شكوى ، بهدوء عجيب وصبر أعجب . بل كان بعض أصحاب الحاجات — وصاحب الحاجة أرعن — يغضبون ويرفعون الصوت احتجاجاً — فيصطدم غضبهم دائماً وابداً بالصوت الرقيق الهادىء المهذب ، صوت حفني محمدين ، يهدىء من روعهم بتهذيب ابن العائلة الاصيل ، وديبلوماسية الموظف الحريص على سمعة وظيفته وسمعة بلده . . . فما خرج انسان كائناً من كان من القنصلية المصرية في بيروت ، ومن لدن حفني محمدين الا ولسانه يلهج بالثناء العاطر على رفيع خلقه وبالغ تهذيبه . . .

* * *

أما وقد تم نقل حفني محمدين من منصبه ، وهو الذي تمتع بحب اللبنانيين واحترامهم . اليوم يسمح لي أن أتساءل عن هذا السر المغلق الذي استعصى علي فهمه منذ زمن بعيد وما يزال مستعصياً .

ترى ما هو المقياس ، وما هي القاعدة المتبعة في اختيار الممثلين الديبلوماسيين .

ما هي الاسس المرعية الاجراء التي يتم على ضوئها وعلى اساسها نقلهم أو بقاؤهم ؟ ترقيتهم أو ابعادهم واهمالهم ؟

اللهم لا اعتراض ، فقد يكون حفني محمدين مقصراً في « واجبات » التمثيل الديبلوماسي . . . قد لا يكون أنيقاً ولا رشيقاً . . . وقد لا يكون بارعاً في الرقص ، او غير متقن أصول التفتل في الحفلات والكوكتيلات يا اكسلانس . . .

ولكن بالله ، هل انقلبت المقاييس رأساً على عقب ؟

هل أصبحت الفضيلة عيباً ؟

هل أصبح الدنس شرفاً ؟

هل بات الخلق الكريم مسبة ؟

هل بات الشرف عاراً ؟

هل أصبح الاخلاص جريمة يعاقب عليها المخلصون الشرفاء ؟

حقاً ما عدت أفهم شيئاً . . .

ولست وحدي ! !

الجمعية الماسونية الحديثة !

كنت أحسب ان الغربة عن الوطن هي أقسى أنواع الاغتراب ، حتى كانت زيارتي الاخيرة للقاهرة ، بعد غيبة طويلة مريرة . عرفت بعدها ان ثمة غربة أدهى وأمر ، هي غربة الشوق والحنين ، غربة الآمال العريضة الحلوة التي كانت كل الزاد طوال عشرة أعوام . . . فاذا بها تتبدد في الهواء ، واذا بي كمن يقبض على الريح !

حتى الشوق الى القاهرة ، استطاعت « الجمعية الماسونية الحديثة » التي تحكم سعيداً في مصر . أن تقضي عليه في نفسي . . .

فلقد كنت أحسب مخطئاً — وأنا على البعد — ان مصدر الشكوى والبلاء الذي طالما شكونا منه في لبنان ، ليس الاشواذاً ، وان القاعدة هناك غيرها هنا . فاذا بي أكتشف هول الخطأ الفادح الذي وقعت فيه . واذا بي أجد نفسي مرغماً وصادقاً على أن أتقدم بالاعتذار الشديد لسيادة السفير عبد الحميد !

أجل هنالك جمعية تشبه الى حد بعيد الجمعية الماسونية ، التي يتعارف اعضاؤها فيما بينهم بالاشارات والايماآت والرموز الخاصة ، بل هي أعلا كعباً وأرسخ قدماً من الماسونية نفسها . . ويكفي أن تنطلق كلمة السر هناك في القاهرة ضد أي انسان حتى تسري في جميع الاقطار ومن غير أسلاك ، لتعمم على سائر انصار ومريدي الجمعية إياها « الجمعية الماسونية الحديثة » التي تبرطع في مصر سيدة عزيزة غانمة سعيدة !

فأعضاؤها يتعارفون فيما بينهم بلا سابق معرفة لأنهم جميعهم معروفون . . . يتمتعون بأحاسيس واحدة وأمزجة واحدة ، وعادة واحدة . . . وقديماً قالوا « عادة في البدن لا يغيرها الا الكفن » !

تجد الواحد من هؤلاء اذا أصابه ضر وهو في القطب المتجمد الشمالي ، أحس به زملاؤه وهم في أقصى القطب المتجمد الجنوبي فيهرعون اليه بالأحضان وبشيء آخر غير الاحضان !

* * *

غربة الشوق ، غربة الآمال التي أطعمتها هناك وعلقت مرارتها وغصتها بالحلق ، عادت صباح أمس تتجسد أمامي في الخبر الذي نشرته الصحف حول الغاء مهرجان جمعية متخرجي المقاصد . فلقد اتصل الوزير المجاهد كمال جنبلاط باعضاء جمعية الخريجين وطلب اليهم الغاء المرجان الذي اقيم لمناسبة الوحدة ، وذلك حرصاً على الوحدة الوطنية اللبنانية .

ولا لوم على الوزير المجاهد — وهو الحريص الحريص على عدم احراج الحكومة — ولا لوم بالتالي على من يحرص على سلامة الوحدة الوطنية في لبنان !

غير أن اللوم وأكثر من اللوم انما يوجه الى القادة والزعمان الذين استغلوا صدق الطلاب وحماستهم الوطنية وطعنوهم في أعز ما يطعن به الشباب المؤمن المتوفز الوثاب ، طعنوهم بآمالهم وأمانيهم وأذاقوهم مرارة الخيبة وذل الهزيمة نتيجة الاساليب الغوغائية والاخطاء المتكررة المتشابهة ، وكأنها مقصودة وعن سابق تصور وتصميم . وأخيراً وآخراً : بالجمعية الماسونية الحديثة السيدة الآمرة الناهية ، المهيمنة المطاعة في مصر ، والمؤتمنة على القضية العربية والقومية العربية والوحدة العربية !

* * *

أيها الطلاب ،

لكم الله في آمالكم المفجوعة ، وعليكم العوض بأمانيكم العريضة التي كانت في الماضي لا تتسع لها صدر الارض ، والتي هزلت اليوم وأصبحت وهي أعجز من أن تقيم مهرجاناً !

الحاشية

كنت مشغوفا بكم اذ كنتموا
شجرا لا يبلغ الطير ذراها
لا اراني الله أرعى روضة
سهلة الأكناف من شاء رعاها

* * *

أمس اكتحلت عيناي برؤية الرعيل الفذ الذي واكب ويواكب الرئيس عبد الناصر . . . فقد شاهدت الشيخ عبد العزيز سيد الاهل ، الملحق الصحافي والثقافي للجمهورية العربية المتحدة في بيروت سابقاً .

وشاهدت عدلي بيه حشاد ، صنو الشيخ عبد العزيز . . . ولكن في دمشق — الاقليم الشمالي برضه سابقاً . . .

وشاهدت م. ح. هـ. الطبري الجديد في جريدة الاهرام ، وأعني به « محمد حسنين هيكل » .

وشاهدت أيضاً وأيضاً « م. ع. ق. ح» أي « محمد عبد القادر حاتم » دوقتور القومية العربية المتحدة ليمتد . . .

شاهدت هذه الباقة الفريدة أمس ، في حفلة السفير العراقي ، عندما التقيت بسيادة السفير الجنرال عبد الحميد بيه غالب .

ولقد كان — والحق يقال — قبلة الانظار ، ومحط العيون التي « تناتشته » من كل جانب . . .

فاناقته المفرطة وعطره الشذي الفواح ، بالاضافة الى قامته السمهرية الفارعة ، أضفت على حفلة السفير العراقي جواً من الانس والفرفشة والنعنشة . . .

كانت المرة الاولى التي تكتحل بها عيناي برؤية السفير الغالي منذ أكثر من أربع سنوات . . . وكان آخر عهدي بسيادته ، يوم بعثت الى أحد المسؤولين في القاهرة أهنئه بعيد الثورة المصرية ... فقد أرسلت برقية تحمل هذه الكلمات :

« كل عام وعبد الحميد غالب بخير »

وحملها المسؤول المصري الى جمال عبد الناصر ليبلغه تهنئتي بثورته المظفرة وما آلت اليه . . .

ولست أدري لماذا هجم علي طوفان من الشوق والحنين ، وطوفان آخر من اللوعة والحسرة على الاعوام التي ضاعت هباء ، والاحلام التي تبخرت سدى . . .

ولم يكن لي بد من الاقتراب من سيادة السفير ، فسحره غلاب ، وجاذبيته لا تقاوم . . ووجدت نفسي أقترب مع الاستاذ كاظم الصلح شيئاً فشيئاً صوب عبد الحميد بيه السفير الجنرال .

والتفت كاظم الصلح نحو السفير يقول له بأدبه الجم وديبلوماسيته الناعمة « يا سيادة السفير الا تعرف فلاناً . .؟ »

وانعطف عبد الحميد بيه يصوب نحوي نظرة حانية عاطفة تسأل المبادرة بالسلام والشوق والهيام . . . وتطلعت في وجه السفير فاذا بالصور تزدحم ويتراكم بعضها على بعض . . . صور « م . ح . ه » و « م . ع . ق . ح » وأخيراً الشيخ عبد العزيز سيد الاهل وصنوه عدلي بيه حشاد السابق في دمشق !

* * *

أمس شاهدت الجمهورية العربية المتحدة ممثلة في السفارة العراقية . . وكنت أمني النفس أن أراها هناك . . . على الحدود السورية — الاسرائيلية !

« م . ح . ه »
و« م . ع . ح » !

الاجتماع الذي تم بين الرئيسين العراقي والسوري على الحدود ، ومباحثاتهما لمواجهة الامر الراهن حيال اسرائيل ، أمر من البساطة والتفاهة بحيث لم يطرق مسامع الطبري الجديد في جريدة « الاهرام » وكاتب التاريخ (م . ح . هيكل)

وقد يكون للكاتب المؤرخ الطبري عذره في أن لا يعير خبر اجتماع رئيسي دولتين عربيتين اهتماماً خاصاً ، لا سيما في هذه الايام العصيبة الحرجة التي تواجه جميع البلاد العربية لا واحدة بالذات .

أجل قد يكون لكاتب التاريخ عذره اذا ما انصرف عن هذا الامر الجلل الى ما هو أجل وأعظم منه ، كأن يكتب عن فلسفة الدولة وفلسفة الثورة والتفريق بينهما مثلاً . . .

أو أن يحبّر صفحة كاملة يعالج فيها أفضلية « الهدف » على « الصف » وتقديم الثانية على الاخرى ، ووجوب الدعوة الى « عدم التضامن بين حكومات الدول العربية لسلامة الهدف » . . . الى آخره !

وقد يكون هذا الطبري الجديد الذي تمخضت عنه « الاهرام » في غفلة الزمان مشغولاً بتقييم الناس من عباد الله وتصنيفهم الى أذناب وأنصاف أذناب وعملاء وثلاثة أرباع عملاء ، توطئة وتمهيداً لمقال جديد ينشره في صفحة كاملة من صفحات « الاهرام » الحزين اللطيم !

من يدري ؟

كل شيء أصبح جائزاً ، حتى أبعد المستحيلات وأعظم المفارقات . . .

ولكن ، أما سمع كاتب التاريخ وطبري العصر والاوان بالمعركة التي نشبت بين الجيش السوري والقوات الاسرائيلية ؟

أما طرقت اذنيه الطويلتين وهو المحقق المدقق ، انباء القتلى والجرحى من أبناء سوريا البواسل الذين سقطوا في ساحة الشرف والجهاد ؟

أم تراه قد أسقطهم من الحساب بعد أن صنفهم الى عملاء وانصاف عملاء ، وأذناب وأنصاف أذناب ؟!

لست أدري ، وما أحسب أن أحداً في البلاد العربية قادر أن يسبر غور نظرات كاتب التاريخ في جريدة الاهرام ، وأن يغوص الى أعماق فكره النيّر الخير الثاقب العميق ، الذي دق ويدق على أفهام البسطاء أمثالنا . . .

ترى ، ما هو رأي دكتور القومية العربية (م . ع . حاتم) ؟

هل تراه على مذهب (م . ح . ه)

أم أن (م . ح . ه) على مذهب (م . ع . ح) ؟

منذ بضعة أعوام يوم كانت الثورة المصرية قبلة انظار الاحرار في العالم العربي بل في العالم باسره ، كتب الاستاذ احسان عبد القدوس مقالاً بعنوان « الجمعية السرية التي تحكم مصر » !

وكان ذلك ابان الفترة القصيرة التي أطلق فيها مجلس الثورة الحرية للأقلام ، وأعلن عن استجابته لرغبة الاحزاب والجمعيات والنقابات بعودة الجيش الى الثكنات وإطلاق الحريات . . . الى آخر المسرحية الشهيرة التي أنتهت كما هو معروف ومشهور !

في ذلك الحين ، ويوم لم يكن للثورة المصرية ولجمال عبد الناصر في هذا البلد ، غير هذا القلم ، يدافع وينافح ، دفاع المستميت . . . كتبت أرد على صديقي احسان عبد القدوس وأشتد في الرد والعتب . ولقد كوفىء الكاتب المصري الحر الذي كان قلمه الجريء في مجلة « روز اليوسف » بمثابة الشعلة الاولى للثورة المصرية . . . كوفىء احسان عبد القدوس بالسجن الانفرادي بضعة أشهر حتى كاد يهلك ، لو لم تتداركه رحمة التوبة والعفو والاذعان !

واليوم ، وبعد انقضاء عشرة أعوام على الوهم الكبير ، الذي عشنا في سرابه ، تفتح الاعين على الحقيقة التي كنا ننشدها وينشدها جيل كامل من الاحرار ، فاذا بها سراب يحسبه الظمآن ماء وما هو بماء .

اذا بأحلام اليقظة الهانئة المطمئنة المتفائلة المستبشرة ، تتحول الى كابوس قاتم يشد على الانفاس ولا خلاص . . .

فالمقاييس التي كانت في العهود الماضية مشوهة ، أصبحت اليوم مقلوبة .
والقيم التي كانت معطلة ، أصبحت ممسوخة . والاخلاق الفاضلة التي ما تجرأ أحد أن يدنسها او يعطلها أصبحت اليوم تهمة يعاقب عليها صاحبها أو من كانت له شبهة بها !
و « الامعات » التي كانت غاية مطامحها وأمجادها فيما مضى ، أن تكون أذناباً ، أصبحت اليوم رؤوساً كبيرة تطأطىء لها رؤوس الكرام رهبة وإجلالاً . . .
لم تصبح أذناباً وحسب ، بل أصبح لها أذناب وأذناب . . . اشارتها أمر ، وأمرها مطاع . رأيها لا يرد ولا ينزل الارض . حتى لكأن الثورة ما قامت الا من أجلها من أجل سعادتها وشهواتها وأمرها ونهيها ، والويل كل الويل للكريم الأبي الحر اذا أخطأ يوماً ورفع رأسه ليسأل « لماذا » ؟ و « من أجل ماذا » ؟ و « الى أين المصير » ؟

* * *

بعد عشرة أعوام .

استميح العذر من صديقي احسان عبد القدوس وأقول له بذلة الخاسيء المنكسر :

ليتها ظلت يا صديقي جمعية سرية ولم تتحول الى جمعية ماسونية حديثة ، يديرها من يديرها . . .

« هات لنا حلّ . . . ياسي رفول » !

سواء خف الضغط عن الشيوعيين في مصر أو اشتد الضغط عليهم .

وسواء أطلق سراحهم من المعتقلات والواحات تدريجياً أو دفعة واحدة ، فمما لا شك فيه ان الحديث الذي ظفر به مراسل « لوموند » من الرئيس عبد الناصر ، والذي يتحدث فيه عن مستقبل فلسطين ، يعتبر أخطر حديث تفوه به مسؤول عربي ، ليس بالنسبة للشيوعية والشيوعيين وتخفيف الضغط عنهم واطلاق سراحهم ، بل بالنسبة لموضوع فلسطين .

فالواضح الذي لا يقبل شكاً ولا ابهاماً ان حكاية الشيوعية والشيوعيين لم تثر في هذا الظرف بالذات الا لاحراج الحكومة العراقية ، سيان أكان الاحراج « شيوعياً » ام « كردياً » . . .

ولقد كان الحديث عن فلسطين مفاجئاً يدعو الى المزيد من العجب والذهول ، لا لأنه جاء يؤكد الرأي السابق بان لا حل لهذه القضية وانها متروكة على جانب الله وحسب ، بل لأن التأكيد في هذه المرة حظي بفذلكة تشرح وتفلسف الاسباب لضياع فلسطين ونفض اليدين منها نهائياً .

فقد جاء في الحديث الذي نشرته « لوموند » على لسان الرئيس عبد الناصر بأن ليست لدينا الآن مشاريع لحل مشكلة فلسطين عن طريق الحرب . . .

وان اسرائيل هي التي رفضت الحلول السلمية برفضها قرارات الامم المتحدة . . .

واذن ، لا حل ولا أمل بايجاد حل ، بعد أن تعذر الحرب وتعذر السلم ، وبقي على المسيو « اريك رولو » ان يجد حلاً لقضية فلسطين ، كما طلب منه ذلك الرئيس عبد الناصر وأعلن انه سيكون سعيداً لو وجد المسيو اريك الحل السعيد المنشود !

أما القول باننا « لسنا عنصريين ولا متعصبين ، وليس لدينا اية نوايا للربط بين الصهيونيين واليهود ، واننا نقدر ان أي تمييز عنصري او ديني سيهدد تهديداً خطيراً كيان جميع القيم الانسانية . . . الى آخره فهو كلام انساني لطيف اتفق جميع المسؤولين العرب عليه وأكدوه مراراً

وتكراراً قبل قيام دولة اسرائيل وبعد قيامها . فالعرب يقاسون الامرين في اسرائيل ، واليهود في جميع البلاد العربية يعيشون في أمن وطمأنينة وسلام .

واليهودية غير الصهيونية واليهود غير الصهاينة وو . . . كل هذه البديهيات يعرفها ويؤمن بها العرب جميعهم ، وأول المؤمنين المبشرين هم السادة المسؤولون . . .

فأي جديد اذن ظفر به مسيو « رولو » وأي نصر حققته « لوموند » ؟

الجديد في هذا الحديث انه تأكيد آخر لما سبق اعلانه من أن لا حل لقضية فلسطين .

والنصر المؤزر المبين الذي ظفرت به صحيفة « لوموند » الفرنسية ومن هم وراء « لوموند » سوف تنشر بشائره وترفع اعلامه غداً ، وسيتولى هذه المهمة ليس مسيو « رولو » وحده بل نفر معروف من أبناء فلسطين نفسها !

وغداً وان غداً لناظره قريب سوف نقرأ الشروح الضافية لما خفي واستتر على افهامنا من الحديث الذي ظفر به مسيو رولو وصحيفة لوموند !

لا نريد أن نسأل من هو مسيو « اريك رولو » . .

فقد لا يكون هو نفسه الخواجه « الياهو رفول » اليهودي المتمصر الذي عاش في مصر والذي يتقن اللغة العربية ، والذي هاجر من مصر أو أبعد عنها . . .

قد لا يكون « اريك رولو » هو هو « الياهو رفول » بل حتى لو كان هو بعينه فليس في ذلك بأس ولا ضير . . و« نحن لسنا عنصريين ولا متعصبين وليس لدينا أية نوايا للربط بين الصهيونيين واليهود . . . »

و « نحن ليست عندنا مشاريع لحل قضية فلسطين عن طريق الحرب » و « اليهود رفضوا الحلول السلمية لهذه القضية . . . » الى آخره الى آخره !

ولكن ، ثمة سؤال أبيض :

ترى هل هذا هو الوقت المناسب للتفوه بمثل هذا الكلام ؟

ثم ، لو ان احد المسؤولين العرب في الاردن او السعودية او الجزائر او سوريا او لبنان ، أو العراق أو تونس او ليبيا او حتى تركيا . . .

لو ان أحداً تفوه بمثل هذا الكلام الذي نقله « ايلياهو رفول » هل تراه كان يخلو من العتاب والملام ؟

ذكرى زغلول
تفسي وتزرق

يبدو ان الهتافة اللعوقين من ماسحي الجوخ المتزلفين ، لم يكفهم الاحياء من الناس ينهشونهم ويلغون في كراماتهم ، بل تحولوا الى القبور ينبشونها لينهشوا ما تبقى من رفات وعظام الاموات !

وتلك ظاهرة جديدة وخلة غير حميدة تضاف الى سلسلة « المآثر » التي اختصت بها وتفننت طائفة الهتافة من المرتزقة والمتاجرين باسم عبد الناصر . . .

فلقد كنا نفهم أن تلجأ الامعات لمهاجمة الاحياء ، تهافتاً ومداجاة لنيل الرضا والاجر والثواب .

وكنا نفهم أن يبرع هؤلاء وكلهم بارع وضليع ضليع ، يعرف جيداً من أين وكيف تؤكل الكتف ، حتى لو كانت جيفة او رمة تعافها الانوف وتتقزز منها النفوس .

اما ان يتحولوا الى هذا الميدان ، ميدان الجثث والرمم والعظام ينبشونها ويحاكموا اصحابها بعد أن أصبحوا في ذمة الله . . . فتلك التي تعجز عنها الافهام ، وتلك التي يضيق لها صدر الكرام ، ولا يرضى عنها غير اللئام !

لقد تطوع في الاونة الاخيرة من يدعى عبد اللطيف النشار او المنشار ، فكتب في احدى صحف القاهرة يهاجم سعد زغلول وينال من سمعته ووطنيته وجهاده الطويل في سبيل أمته .

ولو ان سعد زغلول — وهو من هو في وطنيته وعظمته وخلود اسمه — لو انه ما يزال حياً لامكننا أن نجد تفسيراً للحملة عليه في جملة ما نجد من تفسير وتعليل للحملة على الاحياء .

ولكن سعداً رحمه الله قد انتقل الى جوار ربه منذ أكثر من ثلاثين عاماً . . . ثم انه لم يترك ذرية من بعده كيما نقول ان الحملة عليه بعد الوفاة ، انما يقصد منها تجريح وطعن بذريته الاحياء .

وسعد زغلول الذي بلغ من حب المصريين له خاصة ، والعرب عامة ، مرتبة كادت تقارب مرتبة القديسين والانبياء ، لم يختلف على احترامه وتبجيله حتى ألد أعدائه . بل لم يجرؤ على مقاضاته ومحاكمته أحد وهو حي . . .

فما بالك وهو في ذمة الله ؟

بل ما بالك بمصري فدم نطع ، ينال منه في صحيفة مصرية . . . يتهمه ويحاكمه ، وهو بين يدي أحكم الحاكمين ؟!

* * *

ترى أأقفرت الميادين أمام الزواحف والامعات تسعى على بطونها للتزلف ونيل الرضى ، فلم تجد غير ميدان القبو والاموات ؟

أم ان ذكرى الاموات ـــ الاحياء تخيف وترهب وتقض المضاجع ؟
من يدري ؟
لعل لذاك الذي يسمى « النشار » ولمن هم على مثال النشار ، عذراً ونحن نلوم !
لعل ذكرى سعد زغلول الحية الخالدة في كل ذهن تضني وتؤرق . . .
ولعلها اذن أحق بالمحاربة والهجوم حتى لو كان من يهاجمها ويتصدى للنيل من جلال ذكراها أمعة تدعى . . . النشار ! ! .

حرية النقد

حرية القول والكتابة لا تخيف الدولة القادرة الواثقة من نفسها ، حتى لو أساء بعضهم استعمالها. وهي بالتالي لا ترهب الافراد الاقوياء الشرفاء مهما ولغ في اناء الحرية والغ .

ذلك أن الحرية كالمرآة تعكس صورة من يحسن او يسيء استعمالها على السواء . فحرية النقد مهما كان قاسياً لا ينقص من قدر الحاكم ـــ وكل حاكم غير معصوم عن الخطأ والزلل ـــ ولا هو بالتالي معصوم عن النقد .

انما يعيب الحاكم ، بالغاً ما بلغ من الشأو والسلطان ، أن يدافع عن حرية السفلة والاوغاد ، الذين ابتلي بهم وعرفهم ونعم باطايب سبابهم وشتائمهم ، ثم احتضنهم ليشتموا غيره كما كانوا يشتمونه في الماضي ـــ وهو واثق كل الثقة ـــ انهم سينقضون عليه مجدداً لينهشونه نهشاً عندما تحين الفرصة وتدق الساعة .

والحاكم المغرور الجاهل الذي يركب رأسه ، هو الحاكم الذي يضيق صدره بحرية من يصدقونه القول ، وينشرح صدره بحرية الزعانف والامعات التي تبصبص باذنابها له متملقة شعوره مستجدية عطفه واجره !

وأكثر الحكام غروراً وجهلاً وعناداً ، هو ذاك الذي يعتقد ان باستطاعته أن يرد عن نفسه سهام النقد لمجرد اطلاق اجرائه وصنائعه الموقوتين في أعقاب الرجال ، يهبهبون وينبحون ويشتمون ، ظناً منهم أن هبهباتهم ونباحهم وشتائمهم ستصرف الرجال عن نقد سيدهم !

وحرية الشتم ، حرية رخيصة مبتذلة يتقنها نوع معين من أشباه الرجال . . . أما حرية النقد فانها الصخرة العاتية التي تتحطم عليها الرؤوس بالغاً ما بلغت من القسوة والعناد !

* * *

عندما استتب الامر لاسماعيل صدقي باشا في مصر فعطل الدستور وحكم المصريين بالنار

والحديد وقال قولته المشهورة « سأجعل من مصر سجناً يتسع لجميع المصريين » في تلك الايام التي خيل فيها لاسماعيل صدقي انه خنق كل حرية وداس كل كرامة استطاعت الحرية رغم بطشه وعسفه . رغم حديده وناره ، ان ترتفع وان تهتف بسقوطه في قاعة المحكمة وعلى مشهد ومسمع من قضاة مصر . . .

فقد وقف رحمه الله مكرم عبيد – وغداً ذكرى وفاته الاولى – أمام المحكمة وكان سكرتيراً للوفد المصري عدو اسماعيل صدقي اللدود : وقف مكرم عبيد يقول للقضاة :

« ايها السادة ماذا أقول لكم ؟ اذا قلت كذباً صدقتموني واذا قلت صدقاً كذبتموني . . . اذن فليحيا كذبي و « ليسقط صدقي » !

ودوت صيحة مكرم عبيد في جنبات القاعة وعم صداها القطر المصري من اقصاه الى أقصاه !

ولم يلبث اسماعيل صدقي ان انهار حكمه وتقلص سلطانه بالرغم من السجن الكبير الذي هدد بوضع مصر وجميع المصريين داخله !

الدّفع الثوري
والدّفع الفَوري !

وكما تشح المياه في « الحنفيات » عندما يخف او يتضاءل الدفع – دفع الضغط في القساطل والانابيب – بدأت تشح النوبة العاطفية والتشنج التمثيلي في الانتصار لعبد الناصر عند بعضهم . . .

لقد صح ما توقعناه منذ أمد بعيد ، وصحت العبارة المشهورة التي رفعت على يافطة في احدى احياء بيروت الغربية ، والتي كتب عليها يومئذ « يا ناصر لا تناصر من يتاجر بعبد الناصر » .

وصح أيضاً ما كتبته منذ أيام قريبة ، عندما قلت بأن الفتور قد بدأ يحل عوض الحماسة ، والاحجام بدل الاقبال ، والادبار مكان الاقدام . وها هو أول الغيث ينهمر قطرة بعد قطرة ، وتاجراً بعد تاجر ، ومتظاهراً بعد متظاهر ، وكلهم يدعي الانتصار لعبد الناصر !

ففي الوقت الذي كان فيه بعضهم يقيم الدنيا ولا يقعدها ، أثر خطاب أو تصريح ، أو كلمة يلقيها عبد الناصر من القاهرة أو الاسكندرية أو أسيوط فينشطون بأيديهم وأقلامهم وألسنتهم ليملأوا الصفحات تعليقاً وتهليلاً وتكبيراً وتبجيلاً وينشرون الصور في مختلف البوزات للرئيس عبد الناصر مع ما تيسر من آيات المديح والاعجاب ، اذا بهم اليوم يتواضعون ولا يستحون ، من ان ينشروا وعلى عمود واحد في حجم لا يزيد على ستة سنتمرات ونصف السنتي – تلخيصاً للخطاب الكبير الذي القاه الرئيس عبد الناصر أول أمس ، والذي يقع في صفحتين كبيرتين .

وهكذا يكون الولاء لعبد الناصر وهكذا يكون الانتصار لعبد الناصر .

لسنا نقول للرجل الثائر اشرب فهذه هي الكأس التي ملأتها يمينك ويمين أعوانك ممن تعرف وتعرف .

لا ولا نقول انه الجزاء الوفاق لاهل النفاق ممن استبطنت من حاشية ورفاق ، فكل اناء بما فيه ينضح . ولقد شح الاناء على ما يبدو فشح معه المديح والثناء !

ومن يدري فلعل المتافة على حق ونحن نلوم . ولعلهم صادقون ونحن ملومون .

لعلهم قد فهموا من خطب عبد الناصر ما لم يفهمه أحد غيرهم .

فالدفع الثوري الذي طالما تحدث عنه عبد الناصر في خطبه وبياناته وتصريحاته ، قد فهموه على أنه دفع فوري (بالفاء لا بالتاء) وهو دفع معجل الاداء لا تسويف فيه ولا ابطاء ؛ والا فلا تهليل ولا ثناء ولا اعجاب ولا ولاء !

ولعلهم قد فهموا من المكاسب الذي طالما تحدث عنها عبد الناصر ، مكاسب الثورة ؛ ومكاسب الاشتراكية ، ومكاسب العمال ، ومكاسب الفلاحين الى آخر جردة حساب المكاسب . . . لعلهم عرفوا بثاقب فطنتهم وبعد نظرهم ، انها مكاسب وهمية ، وان المكاسب الحقيقية ليست سوى مكاسبهم الفورية الآنية المعجلة العطاء بلا تسويف ولا ابطاء !

ناصر والنظام الناصري

ليس يؤخذ على سياسة عبد الناصر انحراف خارجي خطير ، ولا يؤخذ عليها شطط وطني كبير . انما يؤخذ عليها هذا الرفض المستمر العجيب لكل عبرة وكل عظة من العبر والعظات والامثولات التي القتها وتلقيها صروف الايام والاحداث .

ليس عيباً أن يقع عبد الناصر في خطأ ما ، فهو ليس الهاً لا يخطىء . انما الامر الذي يؤسف له ، ان يتكرر الخطأ نفسه مدة طويلة من الزمن ، فلا يكون في الماضي رادعاً عن الحاضر ، ولا يكون اللاحق خيراً من السابق !

لم يعرف عبد الناصر كيف يختار الرجال الذين قربهم وحالفهم .

في الفترة الاولى كان النقص في الخبرة هو العذر . وكان الامل أن القائد الثائر لن يلبث ان يستفيد من التجارب فيميز الغث من السمين والصالح من الطالح .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ؛ فلقد بقي الرجال المعتمدون من قبل عبد الناصر هم انفسهم لا يتغيرون ولا يتبدلون ، وبقيت الاساليب هي نفسها لا تتغير ولا تتبدل !

أما من دفع ثمن هذا الاصرار العجيب على عدم الافادة من العبر والتجارب فهو عبد الناصر ورصيد عبد الناصر عند الشعوب العربية .

* * *

لم يقل أحد في جمال عبد الناصر ما يقوله اليوم فيه أكرم الحوراني . فلا الملك سعود ولا الملك حسين ولا نوري السعيد ولا عبد الكريم قاسم ولا الحبيب بورقيبة ولا امام اليمن ، اتهم الرجل الثائر بجزء يسير مما اتهمه به نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة أكرم الحوراني . . . ذلك ان أقل ما يقوله السياسي السوري منذ قيام العهد السوري الحاضر ، ان جمال عبد الناصر قد باع نفسه لاميركا وتخلى عن قضية فلسطين ، مما لم يسمعه عبد الناصر من أحد !

ووجه العجب ومكمن العبرة ، ان عبد الناصر لم يأتمن أحداً من الناس كما ائتمن اكرم الحوراني . فمنذ العهد السابق للوحدة اختار عبد الناصر أكرم الحوراني من دون زعماء سوريا جميعاً صديقاً له وحليفاً ، وعاون الرئيس الزعيم السوري على أن يتغلب على معظم خصومه السياسيين حتى كادت طبقة سياسية باسرها تنهار بقوة المعونة التي قدمها عبد الناصر لاكرم الحوراني .

وعندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا كان في طليعة الآمال التي علقها جمهور كبير من السوريين على الوحدة انها ستكون وسيلة للتخلص من أكرم الحوراني ، فكانت النتيجة ان أكرم الحوراني أصبح المعزز المدلل في أيام الوحدة ، فقد عينه عبد الناصر نائباً له ، وجعل له المقام الاول من بعده .

ولم يكتف عبد الناصر بذلك ، بل انه اتى الى الوزارة بزلم الحوراني ورفاقه وأصدقائه واقاربه ، فكان الحورانيون هم ممثلو سوريا في حكومة الجمهورية العربية المتحدة .

وأثناء عهد الوحدة وحتى بعد استقالة أكرم الحوراني وجماعته من الوزارة استمر عبد الحميد السراج ، رجل عبد الناصر في سوريا ، يراعي خاطر الحوراني ويسايره ويداريه ويتملق له كما لو كان هو الحاكم ، هذا بينما كان سائر الزعماء في سوريا يقاسون الامرين من الاضطهاد والظلم والقهر .

وفي العهد الذي تلى الوحدة ، قام أكثر من دليل على أن عبد الناصر استمر راغباً في صداقة أكرم الحوراني والمحالفة معه . ومهما يكن رأينا في اسباب شهرة الحوراني فمما لا شك فيه ، ان عبد الناصر كان من دعائم هذه الشهرة ومن اسسها وركائزها .

واليوم يضع أكرم الحوراني شهرته ومكانته في خدمة قضية واحدة ، هي تهديم عبد الناصر وزعامة عبد الناصر .

هل كان الحوراني يوم اصطفاه عبد الناصر غيره اليوم ؟
وهل التقلب شيء طارىء في طباع الحوراني ؟
ثم هل كان الحوراني بالامس غيره اليوم ؟
كلا .
بل ان الحوراني كان وما يزال هو هو لم يتغير ولم يتبدل .
لقد اختاره عبد الناصر رغم انف كل من نصحه وحذره ونبهه . ولكن عبد الناصر لم يعر كلام احد أذناً صاغية .
لقد قيل له ان السياسيين التقليديين الذين يماشونه اليوم سوف يغدرون به في الغد . وقيل له ان الذين يتصدرون موكب صداقته والدنيا مقبلة عليه ، سوف يتصدرون موكب عداوته في ساعة الشدة .
ولكن عبد الناصر مع ذلك اصر وصمم على اصراره . . فكان له ما اراد ، وهو اليوم يحصد ما زرعه بالامس !
شيئان ، في جملة الاشياء ، التي ما تغيرت ولا تبدلت :
الساسة القدامى ،
واصرار عبد الناصر على عدم الافادة من عبر الايام وعظاتها !
فالى متى يدوم هذا الاصرار ؟

هل ضاعت الآمال ؟

سواء انسحبت مصر من الجامعة او لم تنسحب ، فان شيئا واحدا لا يغير حقيقة اوضاع الجامعة المهلهلة .

وسواء عادت او اكتفت بالتهديد بالانسحاب ، فان الواقع المخزي الذي تقلبت فيه الجامعة ، سيظل هو هو لا يتغير ولا يتبدل ، ما دامت العقلية الراهنة هي التي تسيطر عليها وتعمل بهديها .

والحزن الممزوج باليأس الذي أصاب المواطن العربي لدى سماعه نبأ انسحاب مصر من الجامعة ، ليس في الواقع حزناً على الجامعة نفسها ، بل على ما صار اليه العرب من فرقة وتنابذ وتشاتم . ومما يزيد في الاسى والالم أن تأتي النكسة من الجانب الذي علق عليه العرب آمالهم زمناً طويلاً ، واحرز لهم الانتصارات المتوالية بسرعة اسطورية جعلت انظار العالم بأسره تتجه صوبه باعجاب واكبار .

تلك هي الفاجعة التي أحس بهولها وحزن من أجلها كل مواطن عربي حر .

فالاخطاء التي ارتكبها حكم عبد الناصر في سوريا واعترف بها عبد الناصر نفسه . . عقب الانفصال هذه الاخطاء التي خيل الينا انها ستكون درساً مفيداً للمستقبل ، عادت ترتكب مرة ثانية بلا تغيير ولا تبديل ولا تحوير !

والاساليب التي انتهجها حكم عبد الناصر أثناء الوحدة وبعد الوحدة ، عادت الى الممارسة بنصها وفصها بعد فك الوحدة !

و « الطقم » الفاسد الذي عرض في واجهة الوحدة أثناء عهد الوحدة ، جيء به من جديد ليمارس العمل من جديد لاعادة الوحدة .

وكبت الحرية ، وتسويد الاذناب ، وحكم الارهاب ، الذي أدى الى الانفجار في سوريا .

وكان واضحاً لكل ذي عينين انه المسؤول عما وقع في دمشق وما قد يقع في القاهرة ، لم يكن حافزاً للمسؤولين هناك لان يعتبروا ويتعظوا بمنطق الاحداث . بل كان حافزاً ومنشطاً ودافعاً لهم لان يمضوا في الطريق ذاتها والاساليب عينها والاشخاص انفسهم . حتى ليحسب المرء ان ثمة عقداً شيطانياً وحلفاً مقدساً بينهم وبين الاخطاء وأية اخطاء ؟

الاخطاء التي قادتهم نحو كل مصيبة وقعت وكارثة حلت .

فالظلم يداوى بالظلم .

والكبت يداوى بالكبت . والفساد يصلح بالفساد . والاعوجاج يقوم بالاعوجاج !

وأشد ما يذهل ويصعق أن أخطاء حكم عبد الناصر تتكرر بعينها دونما تحوير أو تعديل أو تجديد .

وقد يكون مرد ذلك الى جواسيس عبد الناصر وعملائه وبطانته ورجال مباحثه ، هؤلاء الذين يمدونه بالمعلومات المأجورة الكاذبة المغلوطة .

ولكن لكل شيء حداً ولكل أخطاء نهاية . فالى أين تنتهي هذه الحدود والى ماذا تؤدي النهاية ؟

* * *

لقد كتب عبد الناصر بيده أروع سطور المجد في سجل تاريخ العرب الحديث . وحرام على عبد الناصر ان يمسح هذه السطور باليد التي سجلتها !

لقد كان عبد الناصر يمثل آمال الشعوب العربية الطامحة الى المزيد من الرفعة والقوة والكرامة .

كان يجسد اماني جيل كامل .

وحرام الف حرام أن تتبدد الاماني وتضيع الامال .

لم يبق أحد في مصر ولا في لبنان ولا في سوريا ولا في السعودية ولا في الاردن ولا في العراق ، الا وناشد الرئيس عبد الناصر ان ينقذ نفسه وينقذ الجمهورية العربية من سفير الجمهورية العربية المتحدة في بيروت .

فسفير السفراء الذي يمثل عبد الناصر في هذه العواصم العربية كان منذ ولايته هذا المنصب . وما يزال موضع شكوى وتذمر البلاد العربية .

فالاردن اشتكى . والسعودية اشتكت . والعراق اشتكى . ولبنان اشتكى . وسوريا اشتكت .

ولو وصلت أيدي السفير الى الهند والسند ، لاشتكت الهند والسند وشاركت الجميع الشكوى والتذمر .

فما هي الحكمة الخافية التي دقت واستعصت على الافهام ؟

ما هي الحكمة البالغة التي جعلت الجمهورية العربية المتحدة تتمسك بسفيرها ؟

هل هي الخدمات الجلى التي أداها لرئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر ؟

ولكن ما هي هذه الخدمات بل أين هي ؟

أهي في مصر . وكل من في مصر حتى كبار المسؤولين فيها ولا سيما الضباط الاحرار ، يستغربون بقاء سيادة السفير ويستنكرون استمراره في منصبه ؟

أم هي في المكاسب التي جناها عبد الناصر في لبنان ؟

أم في الاردن أم في العراق أم في سوريا ؟

ما هو السر العجيب الذي حير الالباب ودوخ العقول ، في هذا التمسك والتشبث ببقاء السيد الاكسلانس ؟ قالوا منذ عشرة أعوام : انه سفير مصر . وقلنا اهلا بسفير مصر . قالوا وأصبح سفير الجمهورية العربية المتحدة . وقلنا أنعم وأكرم . وقالوا وهو ممثل الرئيس جمال عبد الناصر . وقلنا حباً وكرامة على الرأس والعين .

وكل من في مصر يعلم أن سيادة السفير لم يكن له حظ في مشاركة الضباط المصريين الاحرار في ثورتهم لا من قريب ولا من بعيد بل الكل يعلم ان الاكسلانس كان ضابطاً صغيراً في البعثة المصرية في واشنطن في عهد سيده ومولاه الملك فاروق . ويشهد الله والمصريون أن سيادته كان مخلصاً في خدمته متفانياً في كسب عطفه ومرضاته .

وجاءت الثورة المصرية وجيء به مع من جاؤوا تأييداً لقول الله تعالى « اذا جاء نصرالله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان ثواباً »

ولقد كانت الثورة بالفعل ثوّابة قبلت وما زالت تقبل توبة التائبين .

ومرت الاعوام على مصر في صعود وهبوط واقبال وادبار وانتصارات اونكسارات وتغييرات وتبديلات . وتغير كل شيء في مصر : الملكية والاقطاعية وأبناء الذوات وغير الذوات . .

كل شيء تغير في القاهرة حتّى أوشك النيل ان يتبدل والاهرام ان تتغير ، الا شيئاً واحداً ما استطاعت يد واحدة ان تمتد اليه بالتبديل والتغيير . . . ذلك الشيء هو سيادة السفير الجنتلمان الاكسلانس عبد الحميد بيه غالب ، الضابط الصغير في واشنطن عام كذا واربعين ، والذي أصبح بفضل الثورة المصرية سفيراً منذ قيامها حتّى عام كذا وستين . . . ومن يدري ؟ فقد يزول كل من في مصر ويظل سيادة الاكسلانس سفيراً قائماً قاعداً في لبنان يمثل الجمهورية العربية المتحدة الى أبد الآبدين ! قالوا ان بقاءه في لبنان ضرورة مصرية . قلنا آمناً . وقالوا وطنية . وقلنا صدقنا . وقالوا وعربية . وقلنا آمين آمين .

وغضب الاردن فهاجمنا الاردن . وغضب العراق فهاجمنا العراق . وغضبت السعودية ، فهاجمنا السعودية .

وكان الذي كان في لبنان وبقي سيادة الاكسلانس رغم انف لبنان .

وقلنا ان مصر معذورة وان الرئيس عبد الناصر معذور ، فما ينبغي ان ينقل سيادته تحت وطأة التهديد والضغط ، وينبغي أن يزول عهدشمعون اولاً ثم يتم نقل السفير بعدئذ .

فماذا كانت النتيجة ؟ ذهب شمعون وبقي سيادته . بل ذهب فاروق وبقي هو في منصبه . . استغفر الله بل رقي وأصبح جنرالاً .

وفي كل مرة يتساءل الناس سواء في مصر ام في سائر البلاد العربية : ما هو مبرر بقاء هذا السفير وما هي الحكمة الخافية التي تدعو رجلاً مثل جمال عبد الناصر لان يتمسك بسفير مثل عبد الحميد غالب؟ وترتفع الهمسات ويوشوش الموشوشون «هس اسكتوا اياكم ان تنتقدوا سيادة السفير . . . »

ونسكت على مضض ونحن نشاهد المصائب والويلات تنهال على رأس مصر والمصريين ، وتنال من سمعة عبد الناصر كل منال . . ولا رغبة ولا بصيص أمل يوحي بتغيير الاحوال !

* * *

بمثل الدهشة التي فغرت أفواه المخلصين والمحبين المعجبين بعبد الناصر ، سألني أمس أحد السفراء اللبنانيين وهو يقلب يديه وعينيه متسائلاً مندهشاً : « صحيح يا أخي شو القصة شو الحكاية شو السر . . ؟ » وقلت له : أتسألني أنا ؟ !

عدنا والعود أحمد . . .

أما العودة ، فهي الى رجل الساعة ، وبطل الساحة ، زين المعالي ، والكوكب المتلالي ، السيد السفير اللواء عبد الحميد غالب !

لقد ذكرنا « زغلول » برئيس زغلول .

ذكرتنا رحلة الملحق العسكري المصري ، بفطنة السفير الجنتلمان ، الذي طار الزغلول من بين يديه وأمام سمعه وبصره ، وهو غافل عنه .

واذا كنا لا نستطيع الادعاء بالعلم المسبق بنيات الزغلول ، فان حكمة السفير ويقظته والمعيته التي ظهرت في حادث فرار الملحق ، لم يكن فيها بالنسبة الينا أي شيء جديد !

لقد حذرنا من في القاهرة منذ أكثر من تسع سنوات ، ان التمثيل المصري في بيروت غير جدير بأن يخدم البلد الذي يمثله الخدمة الصحيحة السليمة الصادقة .

وكنا نقول ونردد مراراً وتكراراً ، ان السفير البورجوازي للدولة الاشتراكية ، غير قادر على افادة مصر لا في بيروت ولا في أي عاصمة أخرى من عواصم العالم .

ولكن القاهرة كانت لا تصغي لاي نقد يوجه لسيادة السفير الجنتلمان .

فكلما كانت كرسي السفارة تهتز من تحت السفير ، كان الموشوشون هنا وفي القاهرة يسرعون الى وشوشة أصحاب الاذن الصاغية في مصر ، بأن السفير الجنتلمان هو خير من تسعى به قدم ، وانه يجب أن يبقى في منصبه الى أبد الآبدين ! .

كنا نتحدث عن بورجوازية السفير ، فيدافع عنه الموشوشون بأنه سيد الاشتراكية والاشتراكيين ونصير العمال والكادحين .

وكنا نقول ان عين القاهرة في لبنان مغمضة لا ترى الا الاصدقاء الشخصيين والسهرات والساهرين ، فكان الموشوشون يقولون :

« ليس في الامكان ابدع مما كان » !

واستمر الامر على هذا المنوال تسع سنين طوال نقول الحق فلا نلقى الا الاذى والاتهام . ويقول غيرنا الباطل فيظفر بالحمد والثناء والانعام !

حتى جاءت حادثة طيران الزغلول ، فاذا بها تشهد بما لا يقبل المكابرة والشك ، بغفلة السفارة المصرية وسوء تدبيرها الذي فاق حد التصور .

فما عسى يا ترى يقول الموشوشون ؟

هل يقولون ان عبد الحميد غالب كان المعيا عندما لم ينبه القاهرة الى حقيقة نوايا الزغلول وهو

الذي يعيش معه ، والمفروض ان يسبر غوره ويكتشف سره ؟

هل يقولون ان السفير غالب كان يقظاً متنبهاً حين ترك الزغلول يجمع الاسرار ويطلع على الخفايا ليذهب بها جميعاً الى اعداء عبد الناصر في دمشق ؟

هل يقولون ان عبد الحميد غالب غير مسؤول عن طيران الزغلول ، وهو رئيسه والمسؤول الاول عنه وعن كل ما يجري في السفارة ؟

ان تصرفات الزغلول كانت من النوع المريب الذي لا يمكن ان يخفى على لبيب . ولكن ما عسى ان يقول مثل السفير غالب عن مثل الملحق زغلول ؟

هل يقول عنه انه يسهر ؟

هل يقول عنه انه لا تبدو عليه مظاهر الجد في عمله والولاء لوظيفته ؟

لقد سكت السفير عن الملحق العسكري ، فكان الذي دفع الثمن ، لا عبد الحميد غالب . بل من وثق بعبد الحميد غالب !

ولتصدقنا القاهرة ، انه ما دام تمثيلها الديبلوماسي في بيروت هو على ما هو عليه اليوم . فلن يكون طيران زغلول آخر المآسي . وليس بمستبعد أن يكون في السفارة زغلول او زغاليل أخر يعملون ضد مصر في أثواب ممثلي مصر !

واللبنانيون يعرفون جميعهم ان معظم من اعتمدت وتعتمد عليهم مصر بفضل سيادة السفير الالمعي وتوصياته وتوجيهاته ، هم زغاليل ينتظرون الفرصة السانحة ليصفقوا باجنحتهم ويطيروا !

وكل زغلول وسيادة السفير بخير !

اشخاص

يبدو ان سيادة السفير ، بيضة الثورة المصرية وحامي حمى القومية العربية ، فقد أعصابه وضاق صدره — وهو المعروف المشهور بسعة الصدر — بعد طيران الزغلول من بين يديه ووقوع اللائمة عليه .

لقد احس — ولعلها المرة الاولى التي يحس فيها ، ان الكرسي يهتز من تحته ، وقد كان والشهادة لله كجبل المقطم ، لا تهزه رياح ولا تحركه اعاصير ، بالنظر الى خدماته المنظورة المستورة المبرورة المشكورة ، التي قدمها سيادته الى بلده خاصة والى سائر البلدان العربية عامة طيلة عشرة أعوام ، تحدثت وما تزال تتحدث بآلائها الركبان وتطنب في تعداد مآثرها الانام !

غير أن زغلول السفارة في بيروت الذي خطفه الرجعيون الانفصاليون ، ثم تبين انه هو الذي

خطف نفسه الى هناك ، قد ضعضع سيادة السيد السفير وأوقعه في حيص بيص لا يعرف كيف يتصرف ولا كيف يداري الخيبة التي مني بها . فشعر كما يشعر النائم الذي يستيقظ من الحلم ، ان شمسه قد آذنت بالمغيب ، أو على الاصح الادق ان ليله الطويل قد أوشك ان ينصرم الى لا يعود الى لا يرجع !

فلجأ الى ما يلجأ اليه عادة أصحاب المواهب التمثيلية من نجوم السينما والمسارح ، اذ تولت صحفه نشر صوره المتعددة الاشكال المتنوعة البوزات وهي تحمل البسمة الرضية والنظرة السحرية ، وتتجلى فيها الاناقة والعبقرية .

وسكبت عليها الاقلام الوطنية النظيفة العفيفة ، ما لذ وطاب للسفير من آيات المدح والتقريظ والثناء ، على فرط المعيته وفرط سهره على مصالح الجمهورية العربية عامة والقومية العربية خاصة ، وغمست الاقلام الشريفة العفيفة النظيفة مدادها بضمائر اصحابها بعد أن استخارت الله والوطنية والوحدة العربية ، وتولت الدفاع عن سيدها وولي نعمتها وباني دورها وبيوتها ومالىء جيوبها وبطونها . . . « وكل اناء بما فيه ينضح » !

ولقد نضحت الاقلام ونضح الاناء ، وبان وجه السيد السفير ، سفير السفراء من خلال قلائد المديح والثناء التي غمرنا بها الزملاء انعم بهم وأكرم من زملاء !

ومن حق السفير العزيز علينا أن نصدقه القول بأننا بتنا ازهد الزاهدين في ابتعاده عن لبنان ، بل اننا نناشد سيادة الرئيس عبد الناصر بوجوب تجديد الولاية لسيادة السفير عشرة أعوام أخرى خاصة بعد المنافع التي أصابت الزملاء الاعزاء . . . فمنهم الجائع الذي لا يشبع ، والطامع الذي لا يقنع ، ومنهم اللاجىء المسكين الذي ركبته العائلة وما من معين الا اكف المحسنين . وكلهم والحق يقال يستحق كل الخير والمنفعة ، والسيد السفير كله منافع . . !

اشخاص

تهمة الخيانة أصبحت على السنة البعض وأفواههم كتحية الصباح او كعلكة الشيكلس . وليس أيسر من الصاقها بالناس بلا ترو ولا تدقيق ، تماماً كما يلصق أحدهم ورقة البول ولا تكلفه كثير عناء ولا مشقة .

والطريف ان أكثر المتحمسين المتشنجين لهذه الهواية او على الاصح لهذه المهنة — وقد أصبحت في هذه الايام مهنة — مهنة تقييم الناس وتخوينهم ، هم أكثر الناس التصاقاً بالخيانة والعمالة ، وأحق من غيرهم بالتقويم والاصلاح ، او الاهمال والازدراء والاطراح .

تجد الواحد من هؤلاء وأقصى طموحه ان يصل الى بعض ما وصل اليه سيده او صنوه في

الطباع والخلق ، عن طريق نهش الاعراض والاكتاف ، وافتعال التشهير والافتراءات ضد الناس بالكذب والتدجيل والخداع .

تجده في هم مقيم ونصب دائم يتمرغ في وحل الرذيلة ثم لا يتورع عن الصاقها بالناس تطميناً لنفسه وخداعاً لها بان أهل الفساد والكذب والخيانة كثير ون وانه ليس وحده في هذا الميدان !

شعور باطني يغلي في بطن كل واحد من هذه الفئة كما يغلي الزفت والقطران .

وأشد ما يثير الضحك ويسترعي الفرجة على هؤلاء المخاليق وتلاميذهم ، ان الواحد منهم لا يستقر على حال ولا على رأي — اللهم باستثناء الثبات على الاسترلام والثبات على المبدأ ، مبدأ من يدفع أكثر نقف الى جانبه أكثر ! فالشريف خائن ، والخائن شريف ، والحر عبد ، والعبد حر ، والابي ذليل ، والذليل أبي الى آخر المتناقضات والوجوه الكرتونية التي يلبسونها في في كل حالة ، حتى ليختلط عليك الامر ولا تستطيع ان تفرق بينهم وبين القردة والببغاوات !

فالمقدم زغلول عبد الرحمن — احد الضباط الاحرار الذين اشتركوا في ثورة ٢٣ يوليو قبل أن يصبح ملحقاً عسكرياً في سفارة أسد الله الغالب عبد الحميد غالب .

هذا المقدم الذي كانت يده ورجله في أفواه « الوطنيين الشرفاء » حماة الوطنية والعروبة والاخلاق ، قد أصبح بين ليلة وضحاها خائناً عميلاً مأجوراً مقامراً سكيراً مدمناً على شم الهيروين رقيعاً مبتذلا من رواد الكاباريهات وجليس الارتيستات ، غارقاً في الرذيلة والفساد والديون ، محتالاً نصاباً . . . وأخيراً وليس آخراً « قريب محمود أبو الفتح » !

ومعنى هذا ان المقدم زغلول عبد الرحمن الملحق العسكري في سفارة . . . الى آخره ، كان قبل هربه الى دمشق ، ضابطاً حراً نزيهاً عفيفاً شريفاً مخلصاً صادقاً أميناً وفياً نشيطاً مؤتمناً بطلا مناضلاً يصلي الاوقات الخمس ليس سهرجياً ولا كوكتلجياً ، لا يقامر ولا يراهن ولا يشرب الخمر ولا يتعاطى المنكر . . . وأخيراً وليس آخراً ليس قريباً لمحمود أبو الفتح !

وقد يكون الزغلول قبل طيرانه الى دمشق مثالاً للعفة والوطنية والاخلاص ثم انقلب فوراً الى مثل أعلى للخيانة والعمالة والمروق . فنحن لا نعرف بحمدالله الزغلول ولم نر له صورة وجه الا في الصحف التي تولت نشر صوره .

وأصحاب الزغلول وعملاء الزغلول وأصفياء الزغلول الذين كانوا يسهرون معه في خمارات بيروت حتى مطلع الفجر وقبيل طيرانه الى دمشق بايام قليلة . . .

نقول ان هؤلاء أدرى به منا وهو أدرى بهم ، فكلاهما يعرف الآخر معرفة جيدة ! .

ليس لنا اعتراض ان تنهال سيول التهم على رأس الزغلول خاصة بعد فراره الى دمشق .

اعتراضنا الوحيد — وليسمح لنا دعاة الوطنية والاخلاق ان نجرؤ على ابدائه . . .
اعتراضنا الوحيد ، هو هذا الاستلشاق بعقول الناس وذاكرتهم !
وقديماً قالوا :
« اذا كنت كذوباً فكن ذكوراً » !

عقيدة أم عقدة ؟

عندما أعلن الرئيس عبد الناصر في ذكرى ٢٣ يوليو قيام « الحركة العربية الموحدة » حسبنا انها نواة حزب جديد يريد أن يرسي قواعده على اسس جديدة واضحة ليواجه به حزب البعث . ولم نتمالك ونحن نستمع اليه لاول وهلة ، وهو يزف هذه البشرى السارة ، ان نهتف من الاعماق « الحمدالله » وقلنا لقد آن الاوان لمثل هذا العمل العظيم بالرغم من انقضاء احد عشر عاماً كان حكم عبد الناصر خلالها في أمس الحاجة اليه لتركيزه وتوطيده على أسس بعيدة عن الاعتباطية والغوغائية ، وبنجوة عن أيدي السوء والفساد .

ولكن الفرحة لم تدم طويلاً ، فقد تبين ان هذه الحركة التي يدعو اليها الرئيس عبد الناصر ليست حزباً ، وانما هي جبهة موحدة تشمل جميع الشعوب العربية ، أي انها على غرار « جامعة الشعوب العربية » التي ولدت في أعقاب مؤتمر شتورا المعلوم ، والتي لم يكتب لها البقاء الا ساعات معدودات ، اذ تولت الصحف والاذاعات الناصرية تكفينها ودفنها « الى لا يعود الى لا يرجع » !

واذن ، فالدعوة الى قيام « الحركة العربية الموحدة » لا تعني في حقيقة أمرها الا امراً واحداً هو استنفار جميع القوى الناصرية من المحيط الى الخليج وشحنها وتعبئتها « للعمل » في البلاد العربية عند تلقي الاشارة !

أما ماهية هذا « العمل » المرتجى للحركة العربية الموحدة العتيدة ، فهو ما لم يفصح عنه بعد ، ولعله يكون « تكتيكاً » لا يجوز الافصاح عنه ضناً بسرية وسلامة الحركة العربية التقدمية الصاعدة دائماً والضاربة أبداً في معارج الرقي والتقدم والفلاح !

ولندع جانباً ماهية العمل وطبيعته ، وان كنا قد خبرنا منه الكثير وبلونا منه العسير ، سواء في لبنان أم في سوريا ما لا تزال آثاره واضحة شاملة ماثلة للعيان .

ولكن كيف يتم فرز الناصريين وتوزيعهم لتولي المهام والاعمال التي ستوكل اليهم ؟

نحن نعلم ان ثمة فئة كبيرة من « الناصريين » الابرياء الذين لم يتاجروا ولم يسمسروا باسم عبد الناصر . فهل ستستنفر هذه الفئة البريئة وتكون على قدم المساواة مع الفئات الاخرى ؟

ان أسوأ ما في « الحركة العربية الموحدة » انها حركة جارفة شاملة تأخذ البريء بذنب المسيء وتجرف الصالح بجريرة الطالح ، وتشمل المؤمن المخلص الصادق ، بالمارق المخاتل الكاذب .

ولسنا نجد ضيراً لو ان التنظيم الجديد يعمد الى الفصل والتفريق بين هؤلاء وهؤلاء ، فيدع الناصريين من حسني النية ويستثنيهم من واجب « العمل » العتيد الذي خبرناه في الماضي والذي نرى آثاره اليوم في دمشق ، ولا سيما بعد حركة الانقلاب الفاشلة التي فجرت الدماء وازهقت مئات الارواح ظلماً وغدراً وعدواناً .

أما أصحاب الدكاكين الناصرية ممن خبرتهم سفارات البلاد العربية واحداً واحداً واسماً اسماً ، وممن يعرفهم عبد الناصر جيداً ويعرف مدى حبهم وولائهم له ، بعد أن خبر مدى عداوتهم ، فهؤلاء لا أسف عليهم ولا حسرة ، فبمثل البساطة والسهولة التي بها يوالون ويؤيدون ، هم يعادون ويعارضون .

واذا كان الحديد لا يفل الا الحديد كما يقول المثل ، فان الحكم القائم في سوريا والعراق سينام على حرير ، اذا كان « الحديد » الذي سيواجهونه من النوع الذي خبروه وابتلوا به وأجهزوا عليه . . .

تبقى عقدة الحزب ، الهاجس الكبير الذي يؤرق الجمهورية العربية المتحدة ، ولا تجد حلا لها الا في « لملمة » الفلول من الامعات والمرتزقة والاجراء والهلافيت والدلاديل والاذيال واللعوقين ، ممن عرفتهم البلاد العربية معرفة جيدة ، وما نحسب عبد الناصر انه غريب عن هذه المعرفة !

عقيدة الحزب ، صاحب العقيدة ، هي بالنسبة لهذا النفر من الناس عقدة ، وهيهات لهم ولامثالهم ان يحلوها !

حديث الوفر والتوفير !

هل صحيح ان مصر باتت تشكو عجزاً مالياً وانها تواجه أزمة اقتصادية كبرى ؟

وهل صحيح انها اتخذت الاهبة للوقوف في وجه الكارثة المقبلة ، فأقفلت الابواب في وجوه المصريين المسافرين ، الا من تجاوز الخامسة والسبعين او الخامسة والستين على ذمة « الاهرام » وأمرت بشد الاحزمة على البطون ، واتباع الزهد والتقشف وعدم الاسراف والتبذير ؟

منذ بضعة شهور ، تردد مثل هذا الحديث في الصحف القاهرية ، وكان حديثاً مصوراً نشرت فيه الصحيفة ، ولعلها « الاهرام » عدة صورا لدار احدى السفارات المصرية المعروفة ببذخها واسرافها ، ولعلها السفارة المصرية في بيروت ، ونددت الجريدة الرسمية بالسفارة التي

لم ترع حق الدولة الاشتراكية في عملها واسلوب انفاقها وتبذيرها ، الذي لا يتلاءم وروح الاشتراكية التي تتسمى بها مصر وتدعي تمثيلها ؟

وقد شمل التحقيق الصحفي الى جانب ما شمل ، من اثاث دار السفارة وسيارات السفير ، القرطاسية واوراق البول ، والفراش والحقيبة التي يتولى نقلها . وتكلف الخزينة عشرات الجنيهات ومئات القروش وآلاف الملاليم .. الى آخر « جردة » الحساب الدقيق ، التي تولت الصحيفة الامينة الحريصة على أموال الشعب المصري ، التحقيق فيها وسردها بأمانة تامة ودقة متناهية !

وفهم القراء يومئذ ان ثمة سياسة جديدة سوف تتبعها الجمهورية العربية المتحدة غايتها الحرص على اموال الخزينة ووضع حد للتبذير الذي أنهكها وجعلها تحقق وتدقق حتى في حسابات القرطاسية وأجور الفراشين وتنقلاتهم في السيارات والاوتوبيسات والتراموايات . . .

ولكن التوفير والتقتير لم يصب السفارة المدللة و « دلاديلها » المدللين ، بل أصاب الشعب المصري في صميم رزقه ومعاشه اليومي .

والاحزمة التي قيل بأنها سوف تشد على البطون ، لم تشد على بطن واحد من تلك التي ورمت من فرط التخمة والبلع والتبليع . . ولكنها شدت وما تزال تشد على البطون الضامرة الخاوية ، بطون الشعب المصري ، الصابر فضلاً عن الكبت والتضييق على الحرمان والاملاق !

اليوم يعود الحديث عن الضائقة المالية في مصر ، ولكنه يختلف عن المرة السابقة . ففيه من الجد والخطورة ما ينبغي أن تفتخر من أجله العيون والبصائر ،

العيون التي غفلت وتغافلت عن ملايين الجنيهات تهدر سفهاً وعن سابق قصد وتصميم ، على الحثالات والأمعات سواء في القاهرة او في غير القاهرة من عواصم البلاد العربية التي نكبت بهم ، فكانوا عملاء كل بلد واجراء كل سفارة وبرادع كل ظهر يمتطى ، كما هم اليوم عملاء واجراء وبرادع الجمهورية العربية المتحدة !

بمثل هذه الفئة ينبغي التضحية .

وبمثل هذه المبالغ الطائلة التي تهدر على أمثال هؤلاء كل عام بل كل شهر ، يكون الوفر والتوفير ، وتكون التقوى بالله وبمصر وشعب مصر وبالبلاد العربية جميعها !

٢٣ يوليو . . .

أنا لا أستطيع أن أنسى هذا اليوم ، ولا أستطيع أن أنسى ذكراه حتى ولو تخلى عن المعاني التي تحملها ذكراه على ممر الايام والاعوام ! ذلك لان الثالث والعشرين من يوليو لم يكن يعني بالنسبة إلي خلاص مصر من الملكية والاقطاعية وقيام حكم الضباط بدلاً من حكم فاروق

والباشوات وحسب . ولكن الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، كان يعني لي أولاً وقبل كل شيء الخلاص من أسلوب معين قاد العرب نحو الهزيمة النكراء في فلسطين ، بعد أن كرس حكم الفساد والميوعة والعبودية في أرض مصر ، فأذل أعناق المصريين وزين لهم طيب العيش ورغده في ظلال ذل الاستسلام والتسليم للمقادير .

ولست أنسى تلك الفرحة العظمى التي هزت كياني وأنا استقبل ولادة الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ انها فرحة من لا تكاد عيناه وأذناه ان تصدقان ما يرى ويسمع بولادة المولود الجديد الذي طال الانتظار اليه . فما كان يدور بخلد أحد ان مصر التي رزحت مئات الاعوام تحت نير العبودية والظلم ، ستستفيق من وهدة الظلم والعبودية وستفتح رئتيها لتتنشق عبير الحرية والعزة والكرامة ، وتخلق خلقاً جديداً ينسيها ما كابدته من ظلام الاعوام الماضية .

ولم يكن الثالث والعشرين من يوليو عيد الحرية والنصر لمصر وحدها كما قلت ، بقدر ما كان عيد النصر والحرية واسترداد الكرامة المضاعة لسائر البلاد العربية التي منيت بالهزيمة النكراء في فلسطين .

فالقاهرة بالنسبة للعرب قلب العروبة النابض وأملهم المرتجى ، ولا عجب اذا ما انتعشت الآمال وهفت القلوب بولادة اليوم المنشود ، يوم الثأر ، يوم النصر ، يوم العزة ، يوم الكرامة ، يوم ٢٣ يوليو !

وصحيح ان الثورة المصرية انبثقت من قلب القاهرة وتفجرت من أرض الكنانة ، ولكن الصحيح أيضاً انها جاءت تعبيراً لما تجيش به صدور العرب في جميع اقطارهم وليس في القطر المصري وحده . ذلك ان الضباط الاحرار الذين كانوا نواة الانقلاب المصري ، كان الدافع الاول والمحرك الاول لثورتهم وانتفاضتهم على حكم فاروق والباشوات ، هو الاسلحة الفاسدة التي ارسلت اليهم في خطوط النار في فلسطين ، يوم كانت تنفجر الاسلحة بين أيديهم لتفتك بهم قبل أن تصل اليهم أيدي الصهيونيين الاعداء .

وأذن ، فالثورة المصرية لم تقم من أجل دفع الظلم الذي حاق بالمصريين من حكم الملكية والاقطاعية والباشوات في مصر وحسب ، ولم تكن للخلاص من فاروق وحاشيته وسماسرته واستبدالها بآخرين لا يتقنون هذه الصناعة ، ولكنها كانت تعبيراً عربياً شاملاً جامعاً لما أصاب العرب في جميع بلادهم من ظلم وذل وعار لحق بهم جميعاً أثر هزيمتهم في فلسطين .

ولولا الاسلحة الفاسدة التي هزت ضمائر الضباط الاحرار في مصر ، ما كان لمصر أن تشهد ولادة الثالث والعشرين من يوليو ، ولظل محمد نجيب ضابطاً لا يختلف كثيراً عن غيره من الضباط ، ولبقي جمال عبد الناصر مدرساً في الكلية الحربية ، وأنور السادات شريداً هارباً من السجون

يؤلف العصابات ويقتال الجنود الانكليز في القنال والاسماعيلية . . . وكفى الله المؤمنين الجهاد !

ولكن الثالث والعشرين من يوليو كان بمثابة أمل مرتجى لرد الاعتبار للجيش المصري والشعب المصري ، بل لسائر الجيوش العربية والشعوب العربية التي منيت بالهزيمة على أيدي قادتها ورؤسائها وملوكها ، وما كانت الانقلابات التي توالت بعد الانقلاب المصري في سائر الاقطار العربية الا تعبيراً لهذه الآمال والالام ، والشوق العظيم لمحو العار عن الجباه !

وبدأ الثالث والعشرين من يوليو في سنواته الاولى ، نهضة قومية مصرية جبارة تعمل من أجل بعث مصر بعثاً جديداً ، وتهيئتها للدور الكبير الذي ينتظرها في العالم العربي .

وانصرفت مصر في عملية تطهير داخلي تقضي على آثار الملكية الفاسدة والاقطاعية الباغية ؛ وصاح عبد الناصر صيحته « ارفع رأسك ياأخي لقد مضى عهد الاستعباد » .

واستبشر المصريون بزوال عهد بغيض قام على الرشوة والمحسوبية ، وتفاءلوا بقيام عهد جديد يعيد الى النفوس كرامتها وعزتها وثقتها بالفضائل والقيم التي مسختها العهود الماضية وجعلت عاليها سافلها .

وراح العرب ينظرون الى الثالث والعشرين من يوليو بأعين وامقة وأنفس مبهورة ، لا يكاد ينتهي من نصر حتى يقفز الى نصر آخر ، وكأنه يحمل في يده عصا سحرية لا تلمس قضية أو مشكلة أو صفقة حتى يكتب له فيها النصر المبين .

وكانت الخطوط الاساسية للعمل الثوري الذي حتمه قيام الثالث والعشرين من يوليو واضحة جلية ، اثبتها جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » حين أكد على وجوب العمل لاعادة بناء مصر من الداخل ورفع الحيف عن شعب مصر الذي انهكه الجهل والفقر والمرض .

وكان ضباط الثورة يضعون هذه المهمة في المرتبة الاولى ، ويجعلونها حجر الزاوية في بنائهم الجديد . وقد صرح لي أحد كبار ضباط مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٤ في القاهرة لدى سؤال طرحته عليه حول القضية العربية فقال :

« لا يحسن ايماني بالعروبة ما لم يحسن ايماني بمصر فمصر أولاً وقبل كل شيء » !

ولكن للاسف ، لم يكتب لهذه القاعدة في العمل الجدي والتنظيم المثمر ، الحياة طويلاً الا في الكتب والنظريات ، بل انها استبعدت تماماً ، وانصرفت مصر عن مصرها الى شؤون العالم العربي وشجونه تغرق فيه وتغرقه حتى الاذقان !

ولو انصرفت الثورة المصرية الى بناء مصر واسعاد شعبها ، ووفرت له مئات الملايين من الجنيهات التي اهدرت هباء خارج مصر خلال الاحد عشر عاماً ، لكان الشعب المصري اليوم في طليعة الشعوب الراقية ، ولكانت مصر من القوة والمنعة بحيث تفرض رأيها فيما تراه حقاً لهذا

وللعالم العربي دون أن تلجأ الى المساومة والاغضاء والاطراح !

وأشد ما يحز في النفس ان تجيء ذكرى الثالث والعشرين من يوليو بعد انقضاء احد عشر عاماً من قيام الثورة المصرية ، من غير ان تتمكن قيادة الثورة من تشكيل نواة حزب ، يكون بديلاً عن جيوش المرتزقة والاذناب الذين زرعتهم في القاهرة ووزعتهم على سائر البلاد العربية ، ليكونوا عالة على الثورة وسمعتها وأسوأ دعاية لها !

* * *

في هذه الذكرى المجيدة التي هفت اليها قلوب وأرواح الملايين من العرب غداة الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، تتلفت القلوب والارواح بعد انقضاء احد عشر عاما لتتساءل : هل ضاعت الفرصة وهل فات الاوان ؟

كردستان لروسيا
ويهودستان لأميركا !

في زمن الغرائب والعجائب والمعجزات ، الذي نعيش فيه ، جاء الحديث عن معجزة حققتها الجمهورية العربية المتحدة في سياستها الخارجية ، وكأن ليس قبلها ولا بعدها معجزة !

هذه العجيبة التي ظهرت في أرض الكنانة ، هي المقدرة على الجمع بين بركة روسيا ورضوانها ، وعطف اميركا وخيراتها . . .

فقد استطاعت الجمهورية العربية المتحدة أن تسلك على الصعيد الدولي سياسة حيادية ايجابية عربية تقدمية ، تحظى في آن واحد بتأييد الرفيق خروتشوف ، وحماسة العم كنيدي . . .

معجزة ؟

اي والله معجزة ، كدت معها — لولا اننا لا نعيش في عصر المعجزات والكرامات — ان أسلم واؤمن بها !

ولكنني ، وبعد أن سألني سائل عن سر هذه المعجزة ، اكتشفت ان لها تفسيراً قد لا يبلغ مستوى الكرامات والمعجزات ، ولكنه يلقي عليها بعض الضوء وبعض الوضوح لمن يؤثرون الضوء والوضوح !

ان الجمهورية العربية المتحدة قد عرفت السبيل الى ارض الدولتين الكبيرتين ، وحلت القضية

على أبسط ما يكون الحل . فأعطت بيد الاتحاد السوفيتي موقفها المعروف من تمرد البرازاني شمالي العراق .

وأعطت بيد ثانية الولايات المتحدة الاميركية ، السياسة الهادئة المعتدلة القانعة بالامر الواقع في قضية فلسطين !

يا لها من قسمة عادلة . . .

كردستان لروسيا ويهودستان للولايات المتحدة ، وكفى الله العرب الابطال الاشاوس شر القتال والجهاد !

روسيا ؟

وماذا تريد روسيا أكثر من أن تتلاقى معها الجمهورية العربية المتحدة في أعز قضية لها في الشرق ، وهي قضية الاكراد .

أميركا ؟

وهل كانت تحلم اميركا على مر الزمن بمثل التصريحات التي حظيت بها بشأن قضية فلسطين ، فكانت قرة عينها بعد أن جاءت تطمئن اسرائيل عن انعدام وجود أية خطة حربية او غير حربية للقضاء عليها واسترجاع الحق السليب في فلسطين !

* * *

لقد كان الحل بسيطاً ، ولم يكن في الامر سر . . .

رضي الاكراد فرضيت روسيا .

ورضي اليهود فرضيت الولايات المتحدة . . .

أما العرب ، فأمرهم سهل أيضاً ، وليس اسهل من ارضائهم . . .

ما علينا الا ان نصمخ آذانهم بالاذاعات والمقالات والمحاضر والخطب والاغاني والاناشيد . . . واذا بهم راضين فرحين مستبشرين مطمئنين الى المعجزات والكرامات لعلها تلد لهم في المستقبل القريب او البعيد معجزة أخرى تزيدهم اطمئناناً وفرحاً واستبشاراً !

* * *

رحم الله زماناً كان فيه غضب الاجنبي أرفع وسام يتحلى به المجاهدون الابطال !

اهل الصراحة !

أهل الصراحة الغيارى على فلسطين ، ما لالسنتهم قد أصابها الخرس ؟

ما لافواههم قد أطبقت الفكين ولم تجرؤ على الكلام ، وقد عهدناها كأفواه القرب وكالبالوعات المسدودة التي تفتح في أيام الشتاء : لدى الحديث عن فلسطين ولاجئي فلسطين ؟

ما للغيارى قد لزموا جانب الصمت وآثروا السكوت عندما واجههم الخواجه الياهو رفول بواقعهم : واقع فلسطين ولاجئي فلسطين ، وقال لهم بلسان عربي مبين ان لا أمل لكم بالعودة الى بلادكم ، ولا أمل للاجئيكم بالخلاص من خيام الذل الذي بها يعيشون عيشة ولا كالسائمة والأنعام ؟

ما للاشداق الشاغرة والاعين البلقاء المفتوحة على وسعها ، قد آثرت الاغضاء والخرس على الرد والجواب الذي جابههم به الياهو روفائيل مندوب « لوموند » ولسان اسرائيل الناطق في الشرق الاوسط ؟

لم يتجرأ فم واحد أن يفتح فكيه بكلمة واحدة . .

لم يجرؤ لسان واحد أن يتحرك ليقول شيئاً أي شيء . . .

ذلك لان الناطقين باسم فلسطين ليسوا ولا واحداً من أهل فلسطين الذين يعيشون في خيام الذل والصدقات . . . ولكن الناطقين المتنطحين الزاعمين النطق باسم فلسطين ولاجئي فلسطين ، لا يهمهم شيئاً مما يصيب شعب فلسطين من ذل وظلم وفقر وحرمان !

وتلك آية الصمت التي اطبقت الافواه والجمت الالسن عن الكلام في الموضوع الخطير الذي أثاره حديث الياهو رفول في جريدة « لوموند » الفرنسية !

قد يتهامس جرذان الوطنية فيما بينهم انها منتهى الوطنية والصراحة ان نعلن بان لا حل لقضية فلسطين . . . وانه غاية القصد وبلوغ المراد من رب العباد ان يقف بيننا من يجرؤ على التصريح باننا لا نستطيع حل مشكلة فلسطين . . .

ولكن أياً كان الابرع والاوفق ان يقال لاهل فلسطين منذ البداية :

أن لا حل لقضيتكم ، وانه مكتوب عليكم ان تظلوا مشردين لاجئين ، بدلاً من السراب الذي طالما مناه به زعماء العروبة ورواد القومية العربية لاهل فلسطين ، بأن الفرج آت لا ريب فيه ، وان الجولة الثانية لا بد ان تقع وان يتحقق معها خلاص فلسطين ؟

هذا هو السؤال الذي بقي من غير جواب .

هذه هي الكلمة التي عجزت ان تتحرك لها الافواه المطبقة والالسنة الخرساء ، ولكن مع ذلك بقيت الاعين البلقاء مفتوحة على وسعها تنظر ولا حراك . . . وتتحرك كما تتحرك الاعين الزجاجية ولا حراكِ !

الحديث الخطير الذي أدلى به الرئيس عبد الناصر الى مندوب جريدة « لوموند » الفرنسية السيد الياهو رفول ، والذي ينفض فيه يديه من قضية فلسطين ، ويدخل في روع الشرق والغرب انها قضية أصبحت غير ذات موضوع ، وان العرب باتوا وهم يسلمون بالامر الواقع . .

هذا الحديث الشديد الخطورة البالغ الاهمية ، كيف يمكن للرأي العام العربي ان يتقبله ، على أي وجه وعلى أية صورة ؟

هل تراه يغمض العينين ويستسلم للامر المعقول ، ويردد مع أهل الظن الحسن بان الحديث ليس الا حديثاً وكلاماً ، وان المسألة لا تعدو ان تكون « تكتيكاً » وأسلوباً في العمل السياسي يبطن غير ما يعلن ويخفي غير ما يظهر ؟

ولكن أي تكتيك هو هذا التكتيك الذي يثبط الهمم والعزائم ويدعو الى الاستسلام والتسليم بقضية هي بمثابة القضية الام لجميع قضايا البلاد العربية ؟

وأي اسلوب هو هذا الاسلوب ـــ المعول ، الذي يهدم كل مبرر لكل ثورة وكل انقلاب وكل تمرد عرفتها الارض العربية منذ ضياع فلسطين وقيام دولة اسرائيل ؟

ماذا يبقى من الثورات والانقلابات المتتابعة التي شهدها العالم العربي والتي زلزلت العروش وأطاحت بالرؤوس وقلبت الاوضاع ، اذا هي تجاهلت السبب الحقيقي ، مبرر ثوراتها وانقلاباتها ، ثم دعت الى نسيانه والتسليم بالامر الواقع على انه لا مندوحة عنه ولا مفر عنه ؟

ولندع انقلاب حسني الزعيم في سوريا وسلسلة الانقلابات التي قامت في أعقابه ، والتي ما زالت مسبحتها تكر حتى ايامنا هذه .

لندع العراق والدماء التي سفكت في العراق . . .

لندع اللاجئين في خيام الذل والصدقات ، وطيوف مجازر دير ياسين ملء عيونهم وأذهانهم...

لندع كل هذا جانباً ، ولنسأل مع أهل الظن الحسن : من أجل أي شيء قامت الثورة المصرية ، وما هو الدافع الاول والمحرك الاصيل الذي دفع بضباطها الاحرار للانقلاب والثورة ؟

ألم تكن الاسلحة الفاسدة التي كانت ترسل اليهم وهم في خطوط النار في فلسطين ، هي العامل الاساسي لتفكيرهم بالثورة وتشكيلهم الخلايا التي كانت بمثابة النواة للثورة المصرية ؟

من أجل أي هدف ثار عبد الناصر ومحمد نجيب وأنور السادات ورشاد مهنا والبغدادي وزكريا محي الدين وخالد محيي الدين وصلاح سالم وجمال سالم وغيرهم من ضباط الجيش المصري الاحرار ، ان لم يكن هدفهم الثأر لكرامة الجيش المصري وكرامة العرب التي استبيحت في فلسطين ؟!

أمن أجل قطن طويل التيلة وقطن قصير التيلة ومشاريع الانماء وملايين الدولارات والروبلات التي تنهال على مصر معونات وصدقات وسلفات ؟

أمن أجل ابعاد كريم ثابت وعدلي اندراوس وانطون بوللي ، واستبدالهم بمن نعرف في لبنان وعرف السوريون في دمشق ويعرف المصريون في القاهرة ؟

من أجل أي أمر عظيم قامت القبضة المختارة من الضباط الاحرار في مصر بانقلابها ان لم يكن لرفع العار عن الجباه التي لطخها عار الهزيمة والغدر والخيانة في فلسطين !

من أجل اثقال مصر بالديون والمعونات التي تغل عنقها وتكم فمها فلا تملك أن تنطق — اذا ما نطقت بغير الحديث الذي ظفر به الخواجه ايلياهو رفول ؟

واذن ، ما هو مبرر الاطاحة بعرش فاروق في مصر ، وعرش فيصل في العراق ومقتل الملك عبدالله في الاردن ، واغتيال الزعماء في مصر وسوريا ولبنان وبغداد !

بل لماذا الاسلحة تشتريها وتقترضها الجمهورية العربية المتحدة ؟ لماذا الدبابات والمدافع والطائرات وقاذفات اللهب والصواريخ والسموم والجراثيم ومصانع الذرة ؟

لمن تدخرها وفي أي حرب سوف تخوض غمارها ؟ .

هل تدخرها للحرب ضد اميركا أم ضد روسيا أم ضد الصين أم ضد من من الدول. . . أم انها للزينة وللعرض في المتاحف الاثرية ؟

لسنا ندري ، وقد يجيبنا على ذلك مسيو « الياهو رفول » في حديث آخر يقتنصه من القاهرة وينشره في صحيفة « لوموند » بباريس !

تصفية نهائية ؟
وبيع نهائي ؟!

لم تنف أجهزة الاعلام في القاهرة الحديث الخطير الذي نسبه « اريك رولو » للرئيس عبد الناصر . وهذا يعني ان الحديث صحيح لا سيما وان وكالة الشرق الاوسط هي التي تولت توزيعه وأفردت له الصحف الناصرية دون استثناء مكان الصدارة في صفحاتها الاولى .

اذن فالحديث يمثل وجهة نظر الجمهورية العربية المتحدة الحقيقية في موضوع فلسطين . وهو لذلك يستحق ان نعود اليه مرة ثانية بل ثالثة ورابعة وخامسة . .

ان أول ما يستلفت النظر في هذا الحديث ، هو انه قد أعطي للمسيو « اريك رولو » بالذات ، ودون غيره من سائر الصحفيين .

واريك رولو كما ذكرنا اول أمس محرر في جريدة « الموند » الفرنسية حل مؤخراً مكان مسيو ادوار سابلييه في قسم شؤون الشرق الاوسط للصحيفة الفرنسية الكبرى . وهو كسلفه سابلييه يهودي ولكنه يتميز عليه بأمرين اولهما انه يهودي مصري عاش في مصر ولم يفارقها الا منذ منذ سنوات الى فرنسا ليصبح اسمه هناك « اريك رولو » بعد ان كان في مصر يدعى « الياهو رفول » .

والامر الثاني ، انه قد بز سلفه « سابلييه » في التعصب الصهيوني ، اذ كتب عن اسرائيل مقالات عديدة يقرظها ويدعو العالم الى نصرتها وتأييدها . وهو اليوم يحتضن القضية الكردية ويدعو لها مؤيداً مؤازراً ومؤلباً العالم على الحكومة العراقية . . .

ومع انه ما كان يجوز في رأينا لرئيس عربي ، لا سيما كالرئيس عبد الناصر ، أن يستقبل صحفياً من هذا اللون والاتجاه ، فيثير العتب والملام ، الا أن المهم ليس من أخذ الحديث بقدر ما احتواه الحديث من أمور هي غاية في الخطورة .

ما الذي جاء في حديث عبد الناصر لالياهو رفول ؟

قال عبد الناصر :

« ليست لدينا مشاريع لحل قضية فلسطين عن طريق الحرب » .

وقال :

« ان القضية الفلسطينية موجودة لان اسرائيل رفضت الحل السلمي »

وقال :

« هات لنا حلاً ونحن سنكون سعداء . . »

والخطير في هذا ، ان عبد الناصر يسجل على العرب ارتضاءهم بالأمر الواقع ، بل يصرح بما يوحي ان كل مشروع لحل القضية عن طريق الحرب هو مشروع غير وارد اطلاقاً !

فاذا علمنا ان البوليس الدولي حقيقة قائمة على الحدود ، تفصل اليوم مصر عن اسرائيل ، أدركنا ان هذا الكلام ليس مجرد « كلام جرائد » بل سياسة فعلية موجودة نافذة راهنة ، وليست التصريحات الا اعلاناً وتكريسا لها !

ولو انها المرة الاولى لهان الامر ، ولكنها مرة من مرات . . . وكلنا نذكر الخطاب الشهير الذي القي في وفد غزة ، والذي قيل فيه « انه ليست لدينا خطة لتحرير فلسطين . . . »

* * *

ترى ، هل هناك بيع نهائي وتصفية نهائية لقضية فلسطين ؟

ان أصحاب الظن الحسن والمتفائلين يفسرون هذا الحديث الذي أدلى به الرئيس عبد الناصر

بأنه « تكتيك » ليس الا !

وان القصد منه ومن ظهوره في هذا الظرف بالذات هو ضرب حصار دولي حول سوريا والعراق .

ولما كان الامر الوحيد الذي يرضي روسيا والغرب معاً ويكون محل عطفهما ، هو ابداء التساهل في قضية فلسطين ، فقد صدر هذا الحديث في صحيفة « الموند » ليصرف الشرق والغرب عن مجرد الحيرة والتردد في الاختيار ما بين القاهرة من جهة ودمشق وبغداد من جهة ثانية !

* * *

اذا كان هذا التفسير هو الذي ينهض في مقام التبرير ، فانه تبرير لا يجوز شكلاً وموضوعاً . مبدأ وعقيدة .

فما ينبغي ان يساء الى قضية فلسطين ، لمجرد الاساءة الى بعض الحاكمين . ولا يجوز ان تضرب هذه القضية ، تبريراً لضرب بعض من نعرف ويعرف العرب !

اجهزة البيه الدوقتور !

الصمت الجميل الذي لم يشأ ان يلوذ به دوقتور القومية العربية « م. ع . ق. حاتم بك » أثر حركة عصيان البرازاني في شمالي العراق ، وأعلن يومئذ تصريحه التاريخي المشهور من أن اذاعته لم تنشر برنامجاً كردياً يحرض على الثورة والعصيان ، وجابهه المسؤولون العراقيون في حينه ، قائلين بان لديهم نسخة عن البرنامج الذي أذيع من القاهرة . . . وسكت دوقتور القومية العربية ولاذ بالصمت . . .

هذا الصمت الجميل عاد اليوم بعد المحاولة الشيوعية الانتحارية التي قامت في معسكر الرشيد ببغداد .

ولأول مرة في تاريخ الانقلابات والثورات والتمردات تطبق أجهزة الاعلام الأم في القاهرة أفواهها وأبواقها وتحرص على فضيلة الصمت حيال المحاولة الفاشلة الاخيرة التي قامت في العراق . عملا بالقول الذي يبدو انه راق لها في هذا الظرف والقائل « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب » .

والذهب الذي آثرته أجهزة الاعلام الأم والذي يديرها الدوقتور المشهور « م. ع . ق. ح. بيه » حري بأن تحرص عليه الاجهزة المعروفة ، ذلك لاعتقادها بأن كل شر يقع في سوريا او في العراق — ولندع السعودية والاردن والمغرب وتونس وليبيا وو . . . الى آخره — انما يفيد عاجلاً

أو آجلاً الجمهورية العربية المتحدة ويدفع بعجلات التقدم العربي الاشتراكي صعداً الى الامام .

واذن ، واذا عرف السبب بطل العجب . . . لقد وضحت الاسباب التي حدت بأجهزة الاعلام الى إغفال ذكر محاولة الانقلاب الشيوعية التي قامت في العراق ، وأطبقت فمها وعينيها ، بعد أن أخذت العبرة من فضيحة تمرد الاكراد ، ولاذت بالصمت لعل وعسى يقوم انقلاب آخر وينجح حيث فشل الاول ، وحيث ضاعت الفرصة التي بدت في أذيال المتمرد الهارب الملا البرازاني !

تكتيك ثوري تحرري اشتراكي تقدمي وحدوي يعربي لا يأتيه الباطل من أمامه . . .

ولم لا او ليست المصائب التي تصيب سوريا أحق بالشماتة ؟

أو ليست الكوارث التي تحل بالعراق ولو على أيدي أذناب الشيوعية اجدر بالتأييد ان لم يكن صراحة فمداورة ، وان لم يكن جهراً فسراً ؟

نعم ، لقد خلت الوكالة الرسمية لاجهزة الاعلام من ذكر أي شيء عن محاولة الانقلاب الشيوعي ، فلم تذكر شيئاً عنها ، بل انها ، وللمرة الاولى ، تجاهلت تعليق الصحف المصرية التي تحرص دائماً وابداً على نقلها بأمانة ودقة متناهية !

نعم تجاهلت الحدث الاخير في العراق ، ولكنها لم تشأ ان يشاركها التجاهل والجهل سائر الابواق والطبول والصنوج التي تقرع على اسمها وتضرب بسيفها . . . فقد تناثرت أخبار محاولة الانقلاب هنا وهناك بشكل غير منظم ، وارتفعت الاصوات والانغام بموسيقى خليطة لا رأس لها ولا ذنب ولا أول ولا آخر لا ضابط ولا رقيب . . .

بعضها أكد محاولة الانقلاب وبعضها لم يؤكد .

بعضها قال : يقال أن محاولة جرت في بغداد . . . وبعضها قال انها حركة مزعومة . . .

وهكذا تركت أجهزة الاعلام الأم التي يديرها الدوقتور المشهور ، تركت أمر الانقلاب في العراق الى الابناء البررة يتصرفون ويستخرجون يطبلون ويرقصون يغنون ويهزجون يؤكدون وينفون حسب أهوائهم وأمزجتهم ومقدرتهم على اكتساب رضى الدوقتور الذي هو من رضى السلطان . . .

وهكذا بدت الاوركسترا أمس خليطاً من انغام والحان دون ضابط ايقاع او مايسترو يحمل العصا ويوجه أهل العزف والدق والنقر والدف والطبل !

ولم العجلة ؟

غداً أو بعد غد ستتوالى أجهزة الاعلام بابداء رأيها ، ونرجو ان يختلف في هذه المرة عن المرة الماضية الذي عرفناه بعد حركة العصيان في شمالي العراق !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السفير البرجوازي
للدولة الاشتراكية !

ضرب عبد الحميد غالب السفير البورجوازي للدولة الاشتراكية ، الرقم القياسي هذه المرة : في تسخير صفته كسفير للجمهورية العربية المتحدة ، من أجل صداقاته الخاصة ، التي جنت على لبنان ، وعلى الجمهورية العربية المتحدة ، أعظم الجنايات .

فالسفير البورجوازي ، الانيق الرشيق ، قد ساءه أن يتهم كمال جنبلاط صائب سلام : بما اتهمه به ، فاذا به ينسى « المعزة » التي لكمال جنبلاط في نفس جمال عبد الناصر ، ويتدخل عند كمال جنبلاط ليخفف من حملاته على صائب سلام ، وليضع جانباً القضايا موضوع الخصام !

ما دخل سيادة اللواء السفير الرشيق الرقيق الانيق في هذه القضية ؟

كيف أجاز هذا الرجل لنفسه أن يقحم الجمهورية العربية المتحدة في مسألة لا علاقة للجمهورية العربية بها على الاطلاق ؟

بأي شكل يمكنه ان يبرر عمله هذا تجاه المراجع المسؤولة هنا وهناك ؟

نحن نفهم أن يتدخل عبد الحميد غالب ليصالح بين شخصين اختلفا في سهرة ليلية على كأس من كؤوس السمر والبسط . عندئذ يكون سعيه مشكوراً وفضله مبروراً ، ويكون هو كما يجب ان يكون دائماً وسيط صفو وخير وراحة بال !

ونحن نفهم كذلك ان يتعدى قليلاً حدوده الملزمة له كسفير ، فيصالح بين رجلين اختلفا على قضية سياسية لها علاقة بصداقة لبنان للجمهورية العربية المتحدة .

وعندئذ نحن مستعدون ، ومعنا الرأي العام اللبناني ، لمعذرة السفير على تدخله الاضطراري الذي فرضته المصلحة العامة اللبنانية والمصرية .

أما أن يجشم السفير نفسه ، وهو الرقيق ويحمل شخصه ، وهو المرفه المترف ، مسؤولية المصالحة بين صائب سلام وكمال جنبلاط ، حباً بصائب سلام ليس الا ، ونصرة له من أزمته الحالية ، وعداوة ، محض عداوة ، لرشيد كرامي الذي كان للجمهورية العربية دائماً وأبداً نعم الصديق .

ماذا يضير مصر ، ان يذهب صائب سلام ويأتي رشيد كرامي مثلاً ؟

قطعاً لا شيء .

فمصر لن تجني من تغيير وزاري يحصل في لبنان ، الا الخير للصداقة اللبنانية المصرية التي لم يعكرها شيء كما عكرها وكدرها اسلوب عبد الحميد غالب السفير . . .

ان اللبنانيين تقليدياً وتاريخياً وثقافياً وفنياً وصحفياً ومزاجياً يحبون مصر ، لا فرق في هذا بين مسلمهم ومسيحيهم .

وليراجع عبد الناصر تاريخ العلاقات اللبنانية المصرية ، يجد ان هذه العلاقات كانت دائماً وابداً على مر الزمن ، مثالاً للصفاء والود والمحبة المتبادلة .

ولم تصب هذه العلاقات بأذى الا في عهد واحد ، هو عهد سفارة عبد الحميد غالب ، السفير البورجوازي للدولة الاشتراكية !

فهذا السفير قد دأب منذ دخل هذا البلد يخدم نفسه ، وشركاءه وأصدقاءه وسمراءه وندماءه ، ولا يلتفت على الاطلاق لشيء اسمه مصلحة مصر او مصلحة لبنان !

لقد ذهب سفير الجمهورية العربية الى مصر ثم عاد . وقيل يوم عاد ، انه غير من اساليبه ، وانه جاء يطبق في لبنان سياسة جديدة مبنية على تعليمات خيرة أعطاها له الرجل الكبير جمال عبد الناصر . وفرحنا وصدقنا ، فلما جربنا حزنا وترحمنا على سيرة عبد الحميد غالب الاولى ، ووجدنا انه كان معتدلاً في السابق بالنسبة لما ظهر عليه في اللاحق !

نحن لسنا ندري بأي حجة أو ذريعة أو مبرر ، يتدخل عبد الحميد غالب ليعقد صلحاً بين كمال جنبلاط وصائب سلام ضد رشيد كرامي ؟!

هل ارسلته الجمهورية العربية المتحدة مفوضاً سامياً لها في لبنان ، يفعل فيه ما يشاء ، كما لو كان ممثلاً لبريطانيا في كينيا ؟

هل انتخبه اللبنانيون وصياً عليهم ؟

هل عينوه مفتياً للديار اللبنانية ؟

هل هو حاكم صلح ؟

هل هو محامي املاك صائب سلام وأطيانه وفدادينه وغديره ؟

اذا لم يكن كذلك فما هو مبرره في فعلته الاخيرة ؟

ولماذا لا يتحمس ويدافع عن الحاج حسين العويني او عبدالله اليافي او كاظم الصلح او رشيد كرامي ؟

ان لبنان بلد حساس في موضوع الديمقراطية ورئيس جمهوريته نفسه ، يعلن ليل نهار وصباح مساء ، انه لا يتدخل في اللعبة السياسية والبرلمانية التي تدور بين السياسيين في لبنان .

* * *

فيا عبد الحميد غالب ، هل تعطي نفسك في لبنان من الحق في التدخل في صميم حزبياته الداخلية والشخصية ما لا يعطيه رئيس البلاد لنفسه ؟

اننا نطرح عليك هذا السؤال وسنظل نطرحه ، حتى يأتي هذا السؤال نفسه من القاهرة التي آن لها أن تدرك مبلغ الاذى الذي لحق في الماضي وما يزال يلحق بها في الحاضر ، من جراء تدخلك في ما لا يعنيك ، يا سيادة السفير البورجوازي للدولة الاشتراكية !

المصالحة المطلوبة !

المصالحة المطلوبة التي ترنو اليها العيون وتهفو القلوب ، ليست هي « المصالحة الوطنية » بين البعث الحاكم في دمشق وابطال الفتنة — المذبحة . فتلك قضية داخلية ليس لأحد من الحكام العرب ان يتدخل او يتوسط فيها ، والا كان مشجعاً لكل فتنة ودافعاً لكل مذبحة ومبرراً لكل انتقاض وخروج على طاعة المسؤولين ، سواء أكانوا في دمشق أم في بغداد أم في القاهرة .

المصالحة المطلوبة في هذه الايام وفي هذه الظروف بالذات ، ليست اعادة الحوار — المهزلة ، حوار الطرشان ، بين المسؤولين في دمشق والمسؤول في القاهرة .

لا ولا هي العودة مجدداً الى ميثاق ١٧ نيسان والدخول في ملاحاة طويلة ومهاترات شخصية وجدل عقيم ، سداه ولحمته قتل الوقت وتبديد الجهود ، واتاحة الفرصة للاعداء المتربصين للمزيد من التشفي والزراية بما صارت اليه أحوال العالم العربي من تفكك وضياع ، بفضل الصراع المجنون القائم بين قادته ومسؤوليه .

المصالحة المطلوبة ، ليست هذه التسلية الجديدة القديمة التي تفتقت عنها قرائح سادة الصالونات العربية ، القائلة بانتداب وفد عربي يمثل بعض البلدان العربية ليقوم باتصالات تكون تمهيداً لاجراء « صلحة » بين الفريقين المتخاصمين المتباعدين . . .

ولو ان الوقت يسمح بالتسلية والهزل ، والظرف يتسع للفكاهة والمنادمة ، لما كان في أمر الدعوة لمثل هذه المصالحة ما يسيء ويؤلم ، لانه لا يختلف في شيء عن « حديث المجالس والصالونات » وترويض الالسنة على الكلام الفارغ ، الذي ليس فية فائدة الا انه تمرين مفيد للفكين والرئتين !

المصالحة ليست في عناق عبد الناصر لميشال عفلق او صلاح البيطار او أمين الحافظ أو علي صالح السعدي . ولا هي في تقريب وجهات النظر بينه وبينهم ، فما نحسب أن فئة في

البلاد أقرب إلى عبد الناصر وما كان يمثله عبد الناصر من ثورية وتحررية وتقدمية ، من هؤلاء الذين يناصبهم العداء في هذه الايام !

واذن ، فما هي المصالحة التي ندعو إليها ؟

وبين من ومع من ينبغي أن تقوم ؟

بل لصالح من وضد من يجب أن تتم ؟

المصالحة المطلوبة ، التي تهفو اليها قلوب العرب من أقصى المحيط الى أقصى الخليج . والتي تشخص اليها أول ما تشخص ، عيون البعثيين أنفسهم ، هي المصالحة بين عبد الناصر وعبد الناصر نفسه !

عبد الناصر الثائر العملاق ، الذي اختصر في سنوات قليلة آماداً طويلة من النوم والتأخر والانحطاط ، فحرر مصر من الملكية والاقطاع والرجعية ، وأمم القناة وبنى المصانع وشرع في بناء سد أسوان ، وقفز قفزات خيالية في مجال العمل والاصلاح لمجد مصر وعزها . . .

عبد الناصر ، الثائر على حاشية فاروق ، والاسلحة الفاسدة ، والميوعة الخلقية ، والنفاق : والتبذل ، والاستهتار بالقيم ، وتسويد السفلة والاوغاد .

بين عبد الناصر هذا ، وبين عبد الناصر الذي أصر أخيراً على حمايته ورعايته وحضانته لهؤلاء ، الذين ثار عليهم بالامس ، وكانوا بعض مبرر ثورته في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ .

بين هذا وذاك يكمن سر الخلاف ، وتكمن سر المصالحة المرجوة التي ينبغي الدعوة اليها !



مِصْرُ وَسُورِيَا



« لم يحدث في حياة الوحدة بين مصر وسوريا شيء ملائم للرئيس جمال عبد الناصر أكثر من انتهاء هذه الوحدة » !

بهذه العبارة الجريئة التي تصدم النفس بواقعيتها وتجافيها عن التمويه والخداع ، كتبت مجلة « الايكونومست » الانكليزية تعلق على نهاية الوحدة بين مصر وسوريا .

وقد رأت « الايكونومست » ان موهبة عبد الناصر من تحويل الهزيمة الى نصر . قد أثارت الاعجاب المقرون بالحسد في بعض الاحيان كما ان جرأته وواقعيته في تقبل الانهزام العسكري والسياسي في سوريا بسرعة اكسباه نصراً شخصياً هللت له عدة أوساط بالموافقة المخلصة القلبية .

وتعترف « الايكونومست » ان عبد الناصر قد سحب بخفة ولباقة الكرسي من تحت اقدام معظم السياسيين وفي جملتهم « الايكونومست » نفسها ، وذلك حين أعلن عبد الناصر في ٥ تشرين الاول ان الوحدة الوطنية في سوريا يجب ان تقدم على كل شيء آخر .

أما الوحدة الوطنية في سوريا . فهي أولى بالاهتمام والتغليب على أي شيء آخر ، كما أكد ذلك عبد الناصر ، وكما هللت له حتى مجلة « الايكونومست » الانكليزية ، خاصة بعد النهاية التي شاهدناها لـ « كل شيء آخر » . . .

وما هذا « الشيء الآخر » سوى الوحدة بين مصر وسوريا .

وأياً كان الرأي في هذه النهاية الكئيبة المؤسفة ، التي ما كان أحد من المصريين ولا السوريين يتمنى وقوعها — اقول أياً كان الرأي فثمة حقيقة لا شك فيها ، وهي أن الجهل والغرور ، كانا اول الاسباب التي أدت الى وأد هذا الحلم الذي راود أذهان العرب منذ عهد بعيد .

لقد كانت « الوحدة » حلم جيل عربي بكامله . ولكنها ظلت في الخواطر والاذهان حلماً ؛ ولم تخرج الى حيز الامكان والواقع ؛ بل ظلت حبيسة الاماني . وما ان خيل لبعض الناس انها أصبحت حقيقة واقعة تجسدت في الوحدة بين سوريا ومصر ، حتى تفتحت أعينهم على الحقيقة المفجعة ، ووجدوا انهم انما كانوا يعيشون في أحلام اليقظة !

واذا كان الجهل والغرور — الجهل بأوضاع البلاد العربية المجاورة ، وباقدار الناس فيها والحكم عليهم أم لهم ؛ وبالتالي الغرور الذي ركب الرؤوس ، فأفسح للجهل ان يستشري ويستحكم حتى أدى مهمته على النحو الذي رأينا .

نعم اذا كان الجهل والغرور السبيل الذي سارت عليه « الوحدة » في طريقها نحو الهاوية ، فان هاوية أخرى قد طمرت او ينبغي أن تطمر — وأعني بها دكاكين المرتزقة التي فتحت على

اسم الوحدة وعلى اسم عبد الناصر ، فشرعت ابوابها وابواقها تنافق وتدجل ، تتاجر وتسمسر ، تصادق وتعادي . . . وهي في جميع حالاتها وأحوالها بالنسبة لعبد الناصر ألد الخصام !

لقد وضح لكل ذي عينين ان أدعياء مناصرة عبد الناصر ، هم أول الذين ينقلبون عليه . وكما بدأوا عداوتهم للرجل وهو في ابان ثورته ، سيكونوا كذلك في نهاية مطافهم معه . . . والايام بيننا !

أو ليس من المضحك والمخزي معاً ، ان يفتح المرء عينيه فلا يجد الى جانب عبد الناصر الا من اتهمهم عبد الناصر وممثلو عبد الناصر بعداوتهم لعبد الناصر ؟!

هرب السرّاج

حكاية « هروب » السلطان عبد الحميد السراج من سجن المزة ووصوله بالسلامة الى القاهرة ، ما تزال تجرر ذيولها في الصحف المصرية وتنسج حولها من فيض الخيال ما يرفعها الى مصاف الحكايات القديمة والقصص المثيرة ، حتّى باتت وهي اشبه ما تكون بحكايات عنترة بن شداد وسعد الزناتي خليفه . . . وأبو زيد الهلالي والزير سالم . . . بل ذهب بعضهم الى مقارنتها بحكاية هرب موسوليني من سجنه أيام الحرب العالمية الثانية ، حين انقض جنود هتلر من طائراتهم وهاجموا السجن الذي يقيم فيه موسوليني واختطفوه وطاروا به من حيث أتوا . . . كما هو معروف ومشهور ! . .

وليس يضيرنا أن يشبهوا عبد الحميد السراج بالمرحوم موسوليني ، فان العظائم كفؤها العظماء . . . ولا نحن نستكثر على ملك سوريا السابق غير المتوج ، ان يتخلص من سجنه ولا سيما اذا كان سجن المزة . . .

ولكن للخلط حدوداً ، وللقصص المثيرة والروايات الشهيرة قواعد حتّى في الاساطير الخيالية نسيجة الاوهام والخيالات . . . غير ان قصة هروب السلطان عبد الحميد قد فاقت كل حدود الخلط وتجاوزت كل قواعد التمثيل والتهريج المسرحي والسينمائي والتلفزيوني . .

فدمشق تزعم انه هرب من السجن وتزعم انها وضعت مكافأة ٢٠ الف ليرة لمن يرشد عنه ويرشد عن « رواشده » أيضاً . .

والقاهرة تزعم ان دمشق تبحث عن السراج . وتزعم أيضاً انها جادة فعلاً للقبض عليه . بل هي تذهب الى أبعد من هذا . . . تذهب الى تصديق الاشاعة التي أطلقتها دمشق حين زعمت ان السراج قد فر من السجن . . . وصحف القاهرة وغير القاهرة تسهب في ذكر

تفاصيل قصة الهرب . وتزعم أيضاً ان السلطان الفار قد ركب على ظهر غواصة فحملته هيلاهوب من بر الشام الى بر مصر فوصل بالامان والسلام . . .

وحكاية سفر عبد الحميد السراج الى القاهرة أصبحت معروفة . فدمشق هي التي أطلقت سراح السراج ، وهي التي تركته يجتاز الحدود اللبنانية ، ليصل الى بيروت وليطير منها الى القاهرة .

أما كيف ولماذا أطلقوا سراحه وقالوا له أذهب الى حيث تشاء فعلمه عند دمشق وأسياد دمشق .

وأما أن يتحول اطلاق سراح السراج الى قصة بطولة ، تنسج حولها أفانين الخيالات والاوهام . فلسنا نرى فيها من بطولة — اذا كان ثمة من بطولة — الا من جانب الذين أطلقوا سراحه وقالوا له أذهب حيث تشاء وأرنا ما عساك صانع . . تماماً مثلما صرفه جمال عبد الناصر من منصبه مع من صرفهم أيام الوحدة وقال لهم أذهبوا وأروني ما عساكم صانعون !

كل شيء معقول وكل شيء جائز . أما أن تتحول قصة السماح للرجل بالسفر بعد اطلاق سراحه الى أسطورة ، وأن تتحول السيارة التي أقلته صوب بيروت الى باخرة ، وتتحول الطائرة التي طار بها الى غواصة . . . فهنا ينحشر رأس البغل في الابريق ، وتخرج أفشل الروايات الهزلية ألسنتها هزءاً وسخرية لهذه المسرحية الكوميدية الفاشلة !

* * *

ذكرتني حكاية هروب عبد الحميد السراج من سجن المزة وسفره على ظهر غواصة الى القاهرة على النحو الذي نسجوه وحبكوه وفصلوه وكتبوه . . . ذكرتني بحكاية أخرى ، لا هي مصرية ولا سورية . . . حكاية بيروتية قديمة يعرفها البيروتيون وخاصة سكان رأس بيروت ، قالوا :

وقف اثنان أمام صخرة الروشة فقال الاول للثاني :

هل ترى هذا الطير الاسود الكبير على ظهر الروشة ؟

ورد الثاني هازئاً :

أبداً هذا ليس طيراً هذه عنزة سوداء !

واحتدم النقاش بينهما وطال الاخذ والرد . . . وفجأة طار الطائر الاسود ، وهتف صاحبنا الذي كان يصر على ان الطائر عنزة قائلاً :

« عنزة ولو طارت » !

* * *

شيء واحد يبعث على الاسف خلال هذه الحكاية التي تسلى بها القراء هنا وفي القاهرة وفي دمشق . . هو الاسلوب الرث الذي دأب أعداء عبد الناصر على ممارسته بعد أن ظهر زيفه وخداعه . . .

والسؤال الذي يحير الالباب هو الى متى تستمر هذه الاساليب ؟ !

الوحدة

خطر لي وأنا أقرأ بيان حزب البعث العربي الاشتراكي الذي أصدرته قيادة الحزب القومية ، حول اعادة الوحدة بين مصر وسوريا : ان استعرض مع القراء قصة كل مخلص تعاون في فترة ما مع القاهرة ، فكانت النتيجة ان القاهرة قد نفضت يدها منه ، بل فرضت عليه العداوة فرضاً .

فهذا الحزب الذي عمل الوحدة مع عبد الناصر ، وأعطى الوحدة اساسها الفكري ، ورفع لواء الدعوة لتأييدها في كل قطر من الاقطار العربية ، انتهى به الامر ، الى ان يكون مطروحاً مضطهداً محارباً في كل ميدان وبكل وسيلة .

الجامع الذي يجمع عبد الناصر مع البعثيين ، هو أقوى رباط يمكن ان ينشأ بين فريقين .

فعبد الناصر يدعو الى محاربة الاستعمار ، وحزب البعث يدعو الى ذلك .

وعبد الناصر يدعو الى الحرب على الملوك والامراء ، وحزب البعث يدعو الى الشيء نفسه .

وعبد الناصر يقول بالنظام الاشتراكي ، وحزب البعث يقول بالنظام الاشتراكي .

هو يردد في خطاباته : « وحدة ، حرية ، اشتراكية » وهم يعتبرون هذه الالفاظ شعاراتهم منذ أن وجدوا .

بل أن أمجاد عبد الناصر وأمجاد حزب البعث تكاد تكون واحدة ، فكلاهما يفتخر بسياسة الحياد الايجابي ، وبولادة الجمهورية العربية المتحدة ، وبـ ١٤ تموز والى آخره . . .

مع ذلك وبالرغم من ذلك وغصباً عن أنف كل منطق وكل رأي ، نجد البعثيين مضطرين في كل بيان يصدرونه الى انتقاد عبد الناصر ومهاجمة نظامه حتى في الوقت الذي يدعون فيه الى اعادة الوحدة بين مصر وسوريا ، باعتبارها وحدتهم كما هي وحدة عبد الناصر سواء بسواء !

فاذا كانت القاهرة مهاجمة ومنتقدة حتى من الذين ينادون بالتعاون معها ، وحتى بين الذين يحملون لواء الوحدة ، فمن هم اولئك الذين ينتظر منهم ، أن يكونوا حلفاء لعبد الناصر وسنداً للقاهرة ؟

اذا كان بيان حزب البعث الذي يطالب الحكومة السورية بفتح مفاوضات فورية مع القاهرة لاعادة الوحدة ، هو نفسه البيان الذي يتحدث عن أخطاء عبد الناصر وانحرافات سياسته ففي أي بيان تريد القاهرة اذن أن تسمع كلمة الخير فيها ؟

هل ان كل صديق للقاهرة ، وكل مخلص للشعارات التي ترفعها — مخلصة كانت أم غير مخلصة — مضطر لان يهاجمها وينتقدها حتى يصغي اليه الناس ، وحتى لا يصنفوه بين أصدقائها المعروفين الذين لم يعد للقاهرة غيرهم على ما يظهر !

حقاً انها لنهاية ما كنا نريدها لعبد الناصر ولثورة عبد الناصر التي هللنا لها وكبرنا ، ورفعنا لها وبها رؤوسنا ، وعلقنا عليها أكبر الآمال .

حقاً انها لنهاية مؤلمة ، أن نجد القاهرة في موقف المتهم لا من قبل خصومها واعدائها ، بل من قبل شركائها في بناء الوحدة ، وحلفائها في السياسة التحررية الاشتراكية .

ان عبد الناصر يستطيع ان يقول ان الاردن تهاجمه بسبب تحرريته . وان السعودية تحاربه لانه ثوروي ، وان السياسيين التقليديين يحملون عليه لانه حرب عليهم ، ولكن ماذا يمكن عبد الناصر ان يقول عن حلفائه في بناء الوحدة وعن الذين يعترف هو نفسه انهم فلاسفة الوحدة ومفكروا القومية العربية العقائديون ؟

ما عساه يقول في موقف البعثيين الذين يدعون الى عودة الوحدة ويؤمنون بالنظام الاشتراكي ويشكلون اليوم القوة الضاغطة على الحكومة السورية لمفاوضة حكومة مصر . . .

هل يقول عنهم انهم غير وحدويين ؟ هل يقول عنهم انهم أذناب الاستعمار ؟

هل يقول عنهم انهم رجعيون اقطاعيون ؟

ما عساه يقول ؟

نحن لا نحرض عبد الناصر على أحد فيكفيه ما عنده من محرضين !

ولكننا ندعوه مخلصين لان يفكر في الحال التي أوصله اليها أعوانه وكتابه وحاشيته وموشوشوه !

أغلب الظن أنه لو فكر ملياً ، لسعى من جديد لان يعيد الجسور المهدمة بينه وبين من يحمل نفس شعاراته على أقل تقدير . . .

ترى هل فات الاوان ؟

عام بعد انفراط الوحدة

في الذكرى الاولى لزوال الوحدة بين سوريا ومصر ، لم تستقبل الذكرى بالحرمة والجلال والجد الذي تستحق .

بل ان الطريقة التي جرى فيها الاحتفال بالذكرى لا تقل ايلاماً من حدث الانفصال نفسه . فاذا كان الانفصال دل ويدل على ان الوحدة كانت أكبر من أن تنهض بها أكتاف القادة العرب ، فان حفلات الذكرى قد دلت وتدل هي الاخرى على اننا ما نزال من حيث تفهمنا للمواقف حيث كنا و « كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا » !

كان يكفي لاحدنا ان يعيش ساعات الذكرى مع الاذاعات العربية حتى يدرك بوضوح ان الوحدة ، تلك الفكرة التي من أجلها جاهد من جاهد وضحى من ضحى وقضى من قضى ، قد تحولت في يوم ذكراها مهرجاناً للشتم يغرف فيه الشاتمون من بحر وينحتون من صخر ويبتكرون من فنون الاقوال وهجر الكلام ما لم يكن يدور في الحسبان !

فراديو القاهرة يشتم . وراديو دمشق يشتم . وراديو مكة يشتم . وراديو عمان يشتم . . الى آخره !

والشتم ليس موجهاً ضد اسرائيل ولا موجهاً ضد اجنبي ، وانما هو شتم العربي للعربي ، لا رحمة فيه ولا هوادة ، ولا مراعاة لحرمة من الحرمات .

« وكل يدعي وصلاً بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاكا »

باسم الوحدة شتم زيد بكرا . وباسم الوحدة شتم بكر عمروا . وباسم الوحدة شتم البعض بعضهم بعضاً . . . حتى كأن الوحدة هي رخصة في الشتم يأخذها كل من أحب هذا الفن الرفيع .

قل « وحدة » واشتم ولا حرج عليك !

ليس هنا مقام الشهادة بالتفوق في هذا الميدان لهذا او ذاك . وليس هنا مجال الاعتراف لسابق بالسبق ، فقد صفق غيرنا وهتف ، وطبل وزمر ، وشهد لمن يستحق الشهادة . . .

ولكننا نريد في يوم الوحدة هذا الذي تحول الى مهرجان للشتم ، ان نستل من أعماق ضمائر المخلصين المؤمنين الشرفاء في كل بلد عربي ، زفرة مرة ودمعة حرى على هذا المصير الزري بلغته أسمى فكرة وأجل ذكرى !

لقد كدت أسمع وسط ضجيج الشتائم المنهمرة من الاذاعات العربية السباب من كل صوب ، همسات المؤمنين الحقيقيين بالوحدة ؛ أحياء وأمواتا . . . فاذا بها همسات لوم وتقريع وتوبيخ لكل من نسي حرمة الوحدة في ذكرى الوحدة !

أيها الشاتمون في القاهرة ودمشق ، في مكة وعمان .

هل تظنون ان في الشتم تحقيق الاماني وعودة الوحدات ؟

خطة مصرية بعد الوحدة

بعد نكبة فلسطين ، استمر العرب على نفس الخطة التي درجوا عليها قبل النكبة وأثناء النكبة ، فكانت النتيجة ان اسرائيل ما تزال حتى هذه الساعة تسجل في كل يوم نصراً جديدا وتقدماً جديداً .

بعد انهيار الوحدة بين سوريا ومصر ، حصل الشيء ذاته . فبينما كان العرب في كل مكان يتطلعون بأمل الى سياسة جديدة تفيد من كارثة انهيار الوحدة ، اذ بالسياسة عينها تستمر وكأن حدثاً عظيماً كأنهيار دولة قائمة ، أحقر من أن يغير أشخاصاً أو يبدل اتجاها او يفتح عيوناً او ينبه نياما !

القاهرة ما تزال قلب العروبة ، وأفضل الحديث ما كان من القلب الى القلب كما يقال .

منذ مدة بعيدة من الزمن والقاهرة تخطط والشعب العربي في كل مكان يسير .

واليوم ، نحن كما كنا بالأمس ، على استعداد للسير مع القاهرة شرط ان نعرف ما هو تخطيط القاهرة الجديد ؟

كل منا قرأ مقالات م. ح. هيكل في جريدة الاهرام ، وعرف منها ان القاهرة تكره الملك سعود ، وتكره الملك حسين ، ولكن مع ذلك يبقى تخطيط القاهرة غامضاً .

فماذا تريد القاهرة ؟

هل تريد قلب سعود وقلب حسين ؟

أغلب الظن أن القاهرة نفسها ، تعرف ان هذا اذا كان في يوم من الايام ممكناً ، فان مثل هذه الامكانية قد زالت في هذه الايام !

اذن ماذا تريد ؟

هل تريد مجرد أخبار العرب حقائق الاوضاع في السعودية او في الاردن ؟

ان أي سوري أو لبناني أو عراقي ، يعتبر نفسه استاذاً جديراً بأن يعلم الناس، كل هذه الحقائق !

واذن فماذا تريد القاهرة ؟

* * *

أثناء زيارتي الاخيرة الى مصر ، تبين لي أمر مهم . وهذا الامر هو ان القاهرة معنية في هذه الايام بشيء واحد ، هو سوريا . وما الهجوم على سعود او الهجوم على الحسين الا من قبيل قول الشاعر :

« ادر طرف عينيــك اذا جئت حينـا

لكي يحسبوا ان الهوى حيث تنظر » !

ان القاهرة لا تفكر في الوقت الحاضر الا في دمشق وفي الطريق الى دمشق . . .

ان اصرار القاهرة على عدم الاعتراف بحكومة دمشق رغم ان الرئيس عبد الناصر قد صرح بأنه سيعيد هذه العلاقات بمجرد انتهاء الانتخابات النيابية .

ان اصرارها هذا يدل على ان القاهرة تبيت خطة ما في سوريا .

فما هي هذه الخطة ؟

وكيف السبيل الى تحقيقها ؟

وما هي الوسائل الكفيلة بانجاحها ؟

كل هذا ما يزال غامضاً بالنسبة للرأي العام العربي .

ثم هل هي ، بعد ذلك كله ، خطة معقولة مقبولة ؟

وهل هي حكيمة مأمونة ؟

وهل هي في مصلحة العرب ومصلحة سوريا ومصلحة مصر ومصلحة القومية العربية ، التي نال عليها سيادة الوزير الدكتور عبد القادر حاتم شهادة الدكتوراه العملية لا الفخرية ؟ !

ان الدراسة النقدية التحليلية للخطة المصرية في سوريا ، ضرورة وطنية قومية لا غنى لأي قلم مخلص من تناولها . وأعد القارىء بأنني سأقوم بنصيبي من هذا الواجب ، ولكنني اؤثر أن أؤجل هذا التحليل ، حتى تتكلم القاهرة وتنطق بحقيقة الخطة التي تعتمدها في سوريا ، فيكون عندئذ تحليلنا قائماً على ما نريده له من وثائق واسانيد !

اننا لا نصدق القاهرة عندما تحدثنا بأنها تطمح في السعودية مثلاً بتغيير ما .

ولكننا على استعداد ان نصدقها اذا كان لها رأي في تغيير ما يجري في سوريا !

فهل تلجأ القاهرة الى اللغة المفهومة في موضوع سوريا بالذات ؟

حوار الوحدة !

الحديث عن الوحدة ، ولا سيما في هذه الايام بالذات ، لا يختلف كثيراً عن حديث الطرشان .

والعودة الى هذا الحوار ، فضلاً عن كونه « حوار طرشان» يذكرنا بقصة أبريق الزيت تارة ، وبمسمار جحا تارة أخرى .

فالوحدة ، باتت للاسف الشديد ، كذلك المسمار الذي اشترط جحا ، على من جاء يستأجر منزله ، أن يكون ملكاً له ، ووافق المستأجر دون أن يقيم وزناً كبيراً لمسمار جحا . . . وتنتهي القصة بأن يهرب الرجل من المنزل بعد أيام قليلة وبعد أن دفع الايجار مقدماً . فقد استطاع « المسمار » أن يطفشه . . . ذلك أن جحا كان « يستنظف » يوماً بعد يوم جيفة ميتة ويعلقها في مسماره الخاص داخل المنزل ولا لوم ولا عتاب ، فالشرط نور كما يقولون ، وقد اشترط جحا على المستأجر أن يترك له حرية التصرف بمسماره وقبل . . .

والحق ، أن قصة الوحدة ، على الرغم من وضوحها في أذهان الناس ووضوح تفاصيلها وملابساتها ، تبدو وكأنها احدى الألغاز أو المعميات المثيرة المغلقة .

فما من عربي من أقصى الخليج الى أقصى المحيط ، الا ووضع كلتا يديه على الداء ، وعرف معرفة اليقين الاسباب التي تقف حجر عثرة في سبيل الوحدة بل أن الفريقين المتخاصمين المختلفين على تحقيق الوحدة قالا كل ما عندهما وأكثر ، وأوضحا رأيهما صراحة فوق المنابر وعلى صفحات الجرائد وموجات الاثير والتلفزيون ، ولم يتركا زيادة لمستزيد في الابانة عن موقفهما حيال الوحدة .

ومع ذلك وبالرغم من ذلك ، يقفز السؤال مجدداً من بعض الافواه :

« متى يعود حوار الوحدة ؟ »

كأن حوار طرشان الوحدة قد انقطع وانقطعت آثاره من الاذاعات والصحف والمنابر . وكأن حديث الوحدة يختلف كثيراً عن حديث قميص عثمان الذي طال الاتجار به وتوارثه الخلف عن السلف منذ الخلفاء الراشدين !

وإذن، فما هو مبرر العودة مجدداً الى التساؤل وقد وضحت الامور تمام الوضوح ؟

قالت مصر وقالت سوريا وقال العراق . . .

قال البعثيون وقال الوحدويون وقال المستقلون . . .

فهل من زيادة لمستزيد ؟ وهل ثمة من خافية خفيت على أصحاب العيون المبصرة والآذان التي ليس بها صمم ؟

نعم ، ثمة حكاية ثانية . يأبى أصحاب النوايا الطيبة والظنون الحسنة الا أن يتجاهلوها ويغلقوا آذانهم عن سماعها ، مع أنها قيلت مراراً وتكراراً حتى صمخت آذان الطرشان أنفسهم . . .

انها حكاية بعض « الناصريين » الذين أصرت الجمهورية العربية المتحدة على أن تضعهم في كفة ميزان وتضع الوحدة العربية الثلاثية في كفة ثانية . . .

فلا وحدة الا بهم : ولا ميثاق بدونهم . ولا أفراح ولا أعراس من غيرهم .

ولتبلط الوحدة البحر وليبلط الوحدويون الاوقيانوس اذا لم يعجبهم الامر !

نعم ليشرب السوريون والعراقيون مياه البحر وليشاركهم جميع أبناء العروبة من أقصى المحيط الى أقصى الخليج . . .

فسواد عيني عبد الحميد السراج أحلى من سواد عيون الوحدة العربية . وكرامة جاسم علوان فوق كرامة الامة العربية .

وخاطر الجراح أو المعري أو غيرهما من « الابطال المناضلين المجاهدين » أعز وأكرم وأغلى من كرامة السبعين مليوناً . . .

« أما الوحدة بهؤلاء ومع هؤلاء وأما لا وحدة على الاطلاق » !

أليس هذا هو مختصر الحديث عن الوحدة في هذه الايام ؟

فعلام أذن حديث الطرشان وحوار الطرشان ؟

لو أنه حديث فيه شيء من الفكاهة والتسلية ، لما مللناه وسئمناه ، ولقلنا انه لا يخلو من ظرف وفكاهة الطرشان في حوارهم المعروف :

— أنت تريد الوحدة ؟

— لا ، أنا أريد الوحدة !

— كنت أظنك تريد الوحدة !

أجل ليته كان كذلك وحسب ، ولكن حديث الوحدة بأصواته المعهودة ونغماته الرتيبة ، قد أخذتنا منه جشأة القيء ولعيان النفس ، لانه يذكرنا دوماً بمسمار جحا وقميص عثمان !

الوحدة التي احتفل السوريون بذكراها في الثاني والعشرين من شهر شباط من العام الماضي ، فأقاموا لها المهرجانات ونصبوا الزينات ، وأطلقوا الزغاريد وأنشدوا الاناشيد ، وتبادلوا التهاني والخطب والتبريك ، بذكرى العيد المبارك السعيد ، عيد الوحدة مع مصر واليمن السعيدة . . .

الوحدة هذه ، قرة عيونهم ومحط آمالهم وأحلام يقظتهم ، احتفلوا بذكراها أمس احتفالاً باكياً كئيباً يحمل كل معاني الاسى والمرارة .

وكما يحتفل أهل الفقيد بـ « فك الوحدة » في اليوم الثاني على وفاة العزيز الغالي ، احتفلت الحكومة السورية أمس باحياء ذكرى الوحدة مع مصر « في موكب من الاسى والمرارة والغصة » .

وقد وجه وزير الارشاد القومي الاستاذ فؤاد العادل بياناً الى الشعب السوري يدعوه فيه الى « حشد الجهود وتعبئة القوى في سبيل اعادة بناء الوحدة العربية على أسس سليمة قوية الدعائم » . كما تولى راديو دمشق اذاعة تعليق كان أشبه ما يكون بأقوال الندّابات اللواتي يلطمن الخدود ويمزقن الجيوب و « يعددن» مآثر الفقيد الغالي المسجى على فراش الموت . . .

وليس يهمنا في هذه الذكرى ، ذكرى « فك الوحدة » ما تقوله الندابات . فلقد كفانا ندباً ولطماً وبكاء وعويلاً .

أجل ليس يهمنا في قليل او كثير ، تعليق راديو دمشق . بل وحتى بيان الحكومة السورية ذاته ، لا يستأهل اهتماماً كبيراً ، لولا انه تضمن غموضاً وتناقضاً في معرض التبرير وغسل اليدين من آثار « فك الوحدة » والقاء التهم وتحميل المسؤوليات .

وليس يعفي السوريين من المسؤولية الكبرى أمام الرأي العام العربي ، تعليق يذاع او بيان يلقى او اتّهامات تكال بحساب وبلا حساب . فاذا أخطأت مصر مرة واحدة بقبولها الوحدة ، فان سوريا قد أخطأت الف مرة !

ان مصر بالنسبة للقضية العربية والعمل العربي ، تعتبر وليداً يحبو . فلم يسبق ان تمرست قبل هذه السنوات القليلة الاخيرة ، تمرس دمشق الطويل .

فرصيد الاخطاء لهذه الجهة ، ليس من مصلحة دمشق أن يثار ولا ان ينكشف عنه الغطاء ! مرة ثانية ،

كل هذا ليس يهمنا ، انما يهمنا اصرار الحكومة السورية على الدعوة الى « الوحدة العربية » . فلقد جاء في مطلع بيانها أمس العبارة التالية :

« حرصاً من المسؤولين على تطبيق المبدأ الدستوري المتضمن في نص المادة السادسة والاربعين من الدستور السوري لعام ١٩٥٠ والقاضي بالعمل للوحدة العربية ، هذا المبدأ الذي أقسم

عليه نواب الشعب ، واستجابة للرسالة التقليدية التي انتهجتها سوريا العربية في الدعوة الجدية المخلصة للوحدة العربية الصحيحة الكاملة والتي تضمنها نص المادة الاولى من الدستور الموقت للجمهورية العربية السورية » .

لقد خبرنا الاسس الفاسدة والدعائم غير القويمة التي قامت عليها الوحدة . فما هي « الاسس السليمة والدعائم القويمة » التي تبشرنا بها حكومة دمشق ، والتي تدعو الى « حشد الجهود وتعبئة القوى في سبيل اعادة بناء الوحدة العربية » ؟

ما هو « المبدأ التقليدي الذي أخذت سوريا نفسها به وجعلته مبدأ لنشاطها وأساساً لسياستها » ؟

ما هو « مفهوم الوحدة » وكيف يكون العمل في سبيل تركيز هذا المفهوم ؟

عبارات والفاظ عائمة سائبة لا تستأهل حتى ان نصفها بالغموض والابهام ونحن في مجال الحديث عن وحدة تجمع بلاداً وشعوباً وقادة .

لقد نعينا على القاهرة جهلها بأفانين السياسة العربية في البلاد العربية ، واستبطانها الاذناب و « الدلاديل » . فما عسانا نقول لدمشق وسادة دمشق وهم الاساتذة الجهابذة ، المعتقون المخضرمون في القضايا العربية والعمل العربي العام ؟

لئن قال العرب بالامس « أغفر للمصريين يا أبتاه فانهم لا يعلمون ما يصنعون »

فأغلب الظن انهم قائلون اليوم :

« لا تغفر لهم في دمشق يا أبتاه فأنهم يعلمون ما يصنعون » ! !

طلب الوحدة

الضباط الاحرار ، العمال ، الفلاحون ، الشباب الواعي ، ارباب المهن الحرة ، الكادحون ، المخلصون ، الاتقياء الانقياء ، الوطنيون . . .

جميع هؤلاء يطالبون بالوحدة العاجلة الفورية مع مصر .

والعملاء الجبناء ، الخونة المارقون ، الانتهازيون ، اذناب الاستعمار عبيد الدينار والدولار ، الرجعيون الاقطاعيون ، الفاسدون المفسدون الضالون المضللون . . .

هؤلاء لا يريدون العودة الى تجربة الوحدة مع مصر .

هذا هو التصنيف الرسمي « الواعي » للشباب الحر المثقف الواعي ، حيال قضية الوحدة التي برزت مجدداً من ثنايا الحوادث الاخيرة في سوريا .

ولو ان هذا التصنيف اكتفى بالظهور قبيل تجربة الوحدة ، لوجدنا بعض العذر لاتهامات المتهمين وصب جام غضبهم على أذناب الاستعمار ، عبيد الدولار ، الخونة المارقين . . . الى آخره !

ولكن التصنيف عاد وبشكل مسعور ، يؤكد الخيانة والعمالة لكل من لا يبارك العود مجدداً للوقوع في التجربة مرة ثانية !

ولو ان التجربة قد عفى عليها الزمن ونسيها الناس ، فأمحت من خواطرهم ، لقلنا سامح الله النسيان . ولكن جراح التجربة ما زالت طرية في العقول والارواح ، ماثلة في الخواطر والاذهان .

فالغصة التي اعترضت حلق عبد الناصر أثناء خطابه التاريخي عقب انفصال سوريا عن مصر ، هذه الغصة قد اعترضت كل حلق ما عدا حلوق القردة من الهتافة الراقصين اليوم في مأتم الوحدة ، كما كانوا بالامس الهازجين الآكلين الشاربين في عرسها . . .

والدموع التي ترقرت في عيني عبد الناصر ، هطلت من كل عين ، ما عدا الاعين الزجاجية التي تنثني أصلب المسامير فيها دون أن يرف لها جفن .

والحزن الدفين الذي اعتصر قلب عبد الناصر ، اعتصر قلب كل عربي ، باستثناء القلوب المصفحة التي تنادي اليوم بوجوب العودة مجدداً الى تجربة الوحدة . . . ويا لها من وحدة ويا لها من تجربة !

يقول بعض الناس ان واجب الثأر والانتقام ، يفرض على عبد الناصر العودة الى سوريا . وان الفشل الكبير الذي أصابه في تجربة الوحدة لا يغسله سوى النصر الكبير . وان هذا النصر لا يكون الا بالعودة الى دمشق .

ولست أجد مكيدة ولا مؤامرة على عبد الناصر شخصياً وعلى فكرة القومية العربية ، أدهى وأخطر من هذه المكيدة وهذه المؤامرة . فمواكب الخيبة ، ومهرجان الذل الذي شيعت به دمشق أبناء الشعب المصري على الحدود ما تزال ظلالها السوداء عالقة في كل ذهن ماثلة في كل خاطر .

والهزيمة المنكرة التي أصابت عبد الناصر أصابت الشعب المصري مباشرة في صميمه ، فلقد دفع الثمن وكان الثمن غالياً ، وأول من ينبغي أن يسأل عن رأيه في العودة الى تجربة الوحدة مع سوريا ، هو الشعب المصري الذي كان وما يزال آخر من يعلم . . . وآخر من يريد الوحدة !

* * *

ترى أما من ملهاة جديدة غير ملهاة الوحدة ؟

أما من « باب رزق » جديد للهتافة القردة الراقصين في كل عرس النادبين النائحين في كل مأتم غير هذا الباب من الرزق ؟

أم ان لعبد الناصر بعض الرصيد وان الواجب يقضي بالقضاء على ما تبقى لهذا الرجل من رصيد ؟ !

لست أدري . ولكن الذي أدريه أن ثمة مؤامرة كبيرة تحاك للايقاع بعبد الناصر . ولعلها أخطر . . . وآخر مؤامرة ! !

في ذكرى الوحدة

جميل أن نتحدث عن المبادىء والاهداف . ولكن الأجمل أن نعمل على تطبيقها ونسعى الى تحقيقها . فلا تلتوي بنا السبيل لبلوغها ونعمد الى الاساليب البالية ونتنكر للقيم الاخلاقية .

وجميل أن نتغنى بالتضامن ووحدة الصفوف ، ولكن الأجمل أن نقرن القول بالعمل فلا نزيد الخرق اتساعاً والهوة عمقاً والصفوف تفسخاً .

جميل أن نقف في ذكرى الوحدة ، التي تحولت الى عاشوراء جديدة — نشحذ الهمم ونستلهم الموعظة الحسنة ، ونستفيد من الدروس القاسية التي فرضتها الهزيمة المنكرة .

ولكن الاجمل والابرع من هذا أن نقلب النظر ملياً في الأخطاء المميتة التي أحاقت بالعمل العربي العام ، والتي أوصلتنا الى النكبة ، فنتجنبها ونعمل على ملافاتها ، أو على الأقل نستبدل الأخطاء بأخطاء أخرى ، لعلها تكون أخف وطأة وأقل شروراً . لا أن نكرر الأخطاء عينها والاساليب ذاتها التي أطعمتنا مرارة الهزيمة .

إن خطأً واحداً يقع فيه موظف واحد قد تدفع ثمنه دائرة بحالها . وغلطة يرتكبها مسؤول في الدولة قد تطيح بحكومة ، بل قد تطيح بالدولة نفسها وتقضي عليها . فما عسانا نقول أمام انهيار صرح الوحدة بين ثلاث دول عربية ، انهياراً ترك أعمق الأثر وأسوأه ليس في نفوس الشعوب العربية الثلاثة وحسب بل في نفوس جميع الشعوب العربية على الاطلاق .

أي أثر تركته الكارثة ، باستثناء الخطب والبيانات ومهرجان الشتم القائم في كل مذياع عربي ؟

أي درس أفدناه ؟

أي اعوجاج قومناه ؟

أية أساليب غيرناها أو أبدلناها ؟

بل أية أخطاء قديمة وأدوات رثة متآكلة لم نعد اليها ونعيد تجربتها مراراً وتكراراً ؟

شيء من التعديل ، شيء من التبديل .

هذا كل ما نبغيه !

لسنا نطمع بسياسة حكيمة رشيدة .

لسنا نريد العودة الى الوحدة .

لسنا نبتغي إنقاذ فلسطين و إعادة اللاجئين . . .

لسنا نطمح الى هدف واحد من هذه الاهداف التي فقدناها والامال التي أضعناها .

ولكننا نريد استبدال الاخطاء القديمة بأخطاء حديثة .

لا شيء غير هذا !

ان الدول الراقية في بلاد الناس ، تستغني عن أبطالها غداة النصر .

فهل ترانا نشتط في الطلب اذا قلنا بوجوب الاستغناء عن الاخطاء الماضية والأساليب الماضية والأدوات الماضية ؟ !

لو انها قادتنا صوب المجد وكتبت لنا النصر لآن الاوان كيما نستريح من أمجادها ، فكيف بنا وما بلونا منها الا الخسران والضلال ؟ !

* * *

لست أشبه الأخطاء التي أرتكبت على اسم الوحدة العربية إلا بأخطاء ذاك الطالب الذي وقف أمام مدرس التاريخ يقول له « الحسن والحسين بنات معاوية » وطلب من استاذه أن يصحح له الخطأ . . . فقال له :

ماذا تريد مني أن أصحح ؟

أولاً الحسن والحسين لا الحسن والحسين . ثانياً أولاد موش بنات . ثالثاً علي وليس معاوية !

مع اطلالة العام الجديد . وعلى أنغام فريد الأطرش ورقصة البطن و « التويست » المسموحة ــ الممنوعة ، وعلى أصداء أرجوزة امام اليمن ، وتفتق عبقرية الكاتب البحاثة مؤرخ العروبة والقضية العربية والامتداد الجغرافي للشعوب العربية . . . ينفتح الباب الكبير الذي كان الى الامس القريب ، وقبل توالي النكسات شبه مغلق ، وأعني به باب الحوانيت والبسطات التي شرعت على اسم المتاجرة بالعرب والعروبة والقضايا العربية . والتي كانت وما تزال فلسطين احدى هذه البسطات التي يتاجر ويسمسر باسمها تجار وسماسرة السياسات العربية .

مع اطلالة العام الجديد ، يتطلع المواطنون في كل وطن عربي الى هذا الباب الجهنمي الذي فتح على مصراعيه ، كما سبق له أن فتح قبل وبعد معركة فلسطين . يتطلعون اليه بأسف ولوعة وحرقة ومرارة . فلقد بلوا وخبروا الرياح التي هبت وتهب عادة من هذا الباب ، باب الكلام عن العروبة والوحدة العربية وجمع الشمل ، وفتح الفناجين ، وضرب المناديل ، وقراءة الكف ، واستخارة النجوم ومناجاة الارواح فيما إذا كان ينبغي أو لا ينبغي الدخول في الوحدة العربية . وكان آخرها حسابات عراف اليمن ثم تخطئتها وتصحيحها بأرجوزة الامام أحمد حميد الدين أمير المؤمنين !

ماذا جنى العالم العربي من الدعوات المبتسرة المرتجلة التي ينادي بها بعض أهل السياسة العربية ؟

أي خير جنى هذا العالم العربي من الصيحات والمناداة التي جرت على ألسنة بعض القادة والمتزعمين منذ أكثر من ربع قرن ، والتي تشبه أكثر ما تشبه ، نداءات الباعة المتجولين في الشوارع والميادين ؟ ! ماذا جنت مصر وسوريا واليمن والعراق والسعودية ولبنان وغيرها من البلدان العربية التي راجت فيها نداءات وصيحات وشعارات العروبة ؟ !

أي بلد من هذه البلدان ، وأي شعب من هذه الشعوب ظفر بمكسب واحد من جراء هذه التجارة التي قامت على رياضة تمرين الفكين وتسليك الحنجرة ، وافتعال أكبر ضجة ممكنة للالهاء والتمويه ، وصرف الانظار عن حقيقة الخسائر والكوارث التي تقع ؟ !

حديث الوحدة العربية ، الباب الكبير الذي أعيد فتحه مع اطلالة العام الجديد وتصرم العام الذي انقضى ، ماذا أفاد في الماضي وما عساه يفيد في المستقبل ؟

لقد قامت « الوحدة » بين مصر وسوريا واليمن ، فماذا أفادت مصر وماذا أفادت سوريا ، ودعونا من اليمن السعيدة ، انها سعيدة فلم تربح شيئاً ولم تخسر شيئاً !

لقد عادت سوريا الى ماضي عهدها بعد تجربة الوحدة وكأن شيئاً لم يكن . . . بلى حدث شيء هام ما عرفه قبل الوحدة لا السوريون ولا المصريون ، تلك الجفوة القاسية والعداوة اللاهبة التي أضرمت نيرانها « ثمار » الوحدة بين البلدين الشقيقين والشعبين العزيزين !

أما مصر وما ذاقت من طعوم الوحدة وخيرات الاتحاد فأمره متروك الى المؤرخ الطبري الحديث الذي ظهر في آخر الزمان على صفحات جريدة « الاهرام » لعله يعدد الثمرات والخيرات بسلسلة من المقالات على غرار مقالاته الأخيرة في الوحدة والاتحاد واللغة والتاريخ والامتداد الجغرافي للشعوب . . . وحكاية أرجوزة الامام وعراف اليمن !

مصر ماذا أفادت بعد تجربة الوحدة غير الضياع ، ضياع الأعوام الطويلة المريرة ، والجهد العظيم ، والأموال الطائلة التي تبددت جميعها في الهواء ، وتبدد معها ما هو أعز وأثمن من الاموال والجهود والأعوام !

أي انسان شريف غنم من ثمار الوحدة غير العضات والتأوهات والحسرات ؟ ومن هم الذين استفادوا وما زالو يستفيدون من هذا الحانوت الكبير الذي شرعت أبوابه على مصراعيها يدعون اليه وكأنهم ما شبعوا ولا ارتووا من مأدبة « العرب والعروبة » !

هؤلاء الذين يتسابقون اليوم في جعيرهم وفتح أشداقهم ، نعرفهم جيداً وواحداً واحداً هنا في لبنان وفي سوريا وهناك في القاهرة ، حيث انفتح الباب الكبير باب التجارة الكبرى باسم العرب والعروبة !

دلوني على مواطن شريف واحد ، — ولا أقول بلد واحد — ناله الخير من تجربة الضم والانضمام والوحدة والاتحاد .

أربعة أعوام طويلة طويلة ، شاهدنا فيها بأم العين كيف تكون التجارة بالشعارات ، وكيف يكون النصب والاحتيال على أحدث وأرفع القواعد !

أربعة أعوام طويلة والباب الكبير المشرع ، يلفح الوجوه والأرواح بسياط النقمة والذل والعذاب .

أي خير جنيناه ، وأي ريح طيبة حملتها الينا رياح هذا الباب المفتوح الذي يأبون أن يغلقوه ؟ !

* * *

مع إطلالة العام الجديد تتلفت العيون الدامعة والقلوب الواجفة في كل وطن عربي ، تسأل بضراعة المؤمن الصادق الشريف الخلاص من رياح الباب الكبير الذي فتح ، والذي فتحت وتفتح على أسمه حوانيت وبسطات سماسرة الوطنجية في كل بلد عربي !

الوحدة المقترحة من البعث

في كل صباح وكل مساء تأتينا من دمشق شهادة جديدة على النتائج السيئة التي ألحقها بفكرة الوحدة العربية وبعبد الناصر شخصياً ، نظام الحكم الذي اعتمده عبد الناصر أبان الوحدة .

آخر شهادة وردت من دمشق هي بيان القيادة القومية لحزب البعث الغربي ، حول مشروع الوحدة الاتحادية التي يقترحونها هناك أساساً جديداً لعلاقة جديدة بين سوريا ومصر .

ان هذا البيان الذي يمثل رأي جماعة عرفت عبد الناصر أكثر مما عرفه أي حزب أو أي فرد آخر . . . بل يمثل رأي جماعة شاركته الحكم والأخطاء الى حد بعيد ، جدير أن يدرس بعناية من قبل الفئات التي تتعامى عن كل خطأ وكل هفوة وكل زلل يقع فيه نظام عبد الناصر .

من الخطورة أن لا يتعظ عبد الناصر ، ولكن ما هو أشد خطورة أن لا يتعظ أنصار عبد الناصر وحواريوه هم الآخرون بالنقد أيضاً .

ان وجود حاكم يقع في الاخطاء ليس عجيباً ، ولكن العجيب أن لا يرى أتباعه ومريدوه هذه الاخطاء فيردوه عنها ويجنبوه إياها .

لقد اعتمد عبد الناصر على شعارات محببة الى نفوس الجماهير العربية ، وظن ان السحر الكامن في الالفاظ والنداءات ، كاف لان يغطي أخطاء نظام الحكم الناصري .

كان يعتقد انه بمجرد أن يقول « وحدة » او « اشتراكية » يتناسى الناس كل شيء ، ليتذكروا هذه الكلمات وحدها دون سواها ولا يلتفتوا إلى أي شيء آخر !

ولكن الأيام أثبتت أن هذا الاعتقاد في غير محله . فانهيار الوحدة بين سوريا ومصر قد فتح عيون الناس وقلوبهم ، ولم يعد بين ذوي العقول من يجرؤ على القول أن نظام عبد الناصر ، هو حكم الملائكة وحكم العمالقة ، بل حكم السماء ، الذي لا يعرف الزلل والخطأ !

واذا كان هنا بين السوريين من لا يزال يؤمن بالوحدة بين سوريا ومصر ، فان القلة من هؤلاء يريدون عودة الوحدة كما كانت في السابق . . .

ذلك ان الأغلبية من طلاب الوحدة بين سوريا ومصر تعرف جيداً مساوىء الحكم الماضي ونقاط ضعفه وارتجالية اساليبه ، وهي تصر على أن لا يكون في المستقبل ما يذكر بالماضي ، ذلك الماضي الذي أقترن في أذهان الناس بالحكم البوليسي وبالموشوشين وكتاب التقارير . وليس بالوحدة ولا بالاشتراكية وحدهما ، كما يريدنا أتباع عبد الناصر ، أن نصدق !

* * *

ان سوريا قد تريد الوحدة مع مصر ، وقد تسعى اليها : ولكنها قطعاً لا تريد نظام حكم عبد الناصر ، لا لان هذا النظام حافل بالأخطاء التي لا تطاق وحسب : بل لأن هذا النظام من شأنه أن يضر ضرراً بالغاً بفكرة الوحدة ذاتها وينفر منها حتى المؤمنين بها : ويدخل اليأس – وقد دخل فعلاً – إلى قلوب الكثيرين منهم !

ولعل هذا هو السر وراء المشاريع الاتحادية التي ظهرت مؤخراً في سوريا : فهي تنطلق من نقطتين لا من نقطة واحدة : الاولى الوحدة أو الاتحاد مع مصر . والثانية هي نقطة الانتقاد لنظام عبد الناصر وأسلوبه في الحكم .

والأخيرة هي الجديدة على التفكير العام في سوريا ، لأن السوريين لم يكونوا يفكرون عام ١٩٥٨ إلا بالوحدة والاتحاد وحدهما .

أما نظام الحكم فهذا ما لم يكونوا في الماضي يعطونه ما يستحق من الاهتمام !

* * *

حكاية الفراشة التي تتعشق الضوء فتلح عليه حتى تحترق بنوره سعيدة في عماها عمياء في سعادتها ، لن تتكرر – وينبغي أن لا تتكرر بعد اليوم في سوريا !

الوحدة وكراس الحوراني

الذين يكابرون في أخطاء حكم عبد الناصر ، ويرونه حسنات فوقها حسنات . ونعماً فوقها نعم ، وهدى دونه هدى . . .

الذين لا يجدون في أعمال الجمهورية العربية المتحدة الا المعجزات ، ولا في أقوالها الا الآيات البينات المنزلات . . . مدعوون اليوم لقراءة كراس صغير صدر عن دمشق بعنوان « رأي أكرم الحوراني بالوحدة العربية » .

أكرم الحوراني الذي آمن بعبد الناصر كما لم يؤمن به شخص – أو هكذا كان يبدو – والذي جره ايمانه هذا الى الايمان بالوحدة . . .

أكرم الحوراني ، الذي وقف أكثر من مرة على الشرفات والمنابر يتوجه الى عبد الناصر في كل خطاب او كلام بـ « يا سيدي ويا زعيمي » ثقة منه بالرجل ، واعترافاً بزعامته . . .

أكرم الحوراني هذا ، ما زال به عبد الناصر ، وحكم عبد الناصر ، وأنصار عبد الناصر ، حتى كفروه . . . ومن لا يكفر ؟

أخيراً وبعد الرحلة الطويلة البعيدة في عوالم الوحدة العربية ، والاشتراكية التقدمية والموجة

التحررية ، على نغمات الخليج الهادر والمحيط الثائر . . . عاد السياسي السوري المخدر زمناً مديداً بعبق الوحدة ، وشذى الاشتراكية ، ونسمات التحررية والتقدمية ، عاد الى دفاتره القديمة ينفض عنها الغبار ، ويستهدي منها الأنوار ، ويستلهم العبرة والاستعبار . . .

فهذا أكرم الحوراني يطلق بالثلاث الوحدة مع مصر ، قفزاً من فوق اسرائيل ، ووثباً عبر الفضاء ، ليتحدث عن بلاد الشام وخصائص بلاد الشام وظروف بلاد الشام كأن الأيام تمر ، والليالي لم تحبل بكل عجيب . . و

(كأن لم يكن بين المحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر)

سقى الله الأيام القديمة والمبادىء القويمة . . .

سقى الله أيام الشباب . فأكرم الحوراني الشاب في حماه . . . لم يكن يخطر على باله في وقت من الاوقات ، انه من الواقعية في شيء ، أو العملية في شيء ، أن تقوم بين سوريا ومصر وحدة حقيقية غير اعتباطية ، وطبيعية غير اصطناعية ، وقومية غير احلامية . . .

بل كان يريد لنفسه ولبلده تدرجاً غير هذا التدرج : من الضيق الى الواسع ، ومن الواسع الى الأوسع . . .

من الواقع الاقليمي ، الى الواقع القومي ، مروراً بمعطيات الممكن ومقتضيات المعقول . . .

كان أكرم الحوراني قريباً الى دروس الجغرافيا ، فلما تقدمت به السن بدا عليه وكأنه نسيها . غير أن العلم في الصغر كالنقش في الحجر ولا يمكن لذكي كأكرم أن ينسى درساً حفظه وأمثولة تلقاها .

أما الأمثولة الكبرى فقد كانت تجربة الوحدة التي عاشها أكرم فأخرجته عن ايمانه بها وكفرته بعد ثلاثة أعوام حافلة بما يضيم الكرام ويعز اللئام ، ويجعل الأسود أبيض والأبيض أسود ، والعالم جاهلاً ، والجاهل عالماً ، والسافل عالياً ، والعالي سافلاً . . .

والذي يريد أن يأخذ صورة صحيحة لما كانت عليه الوحدة بين مصر وسوريا ، فما عليه الا أن يعود الى كراس أكرم الحوراني ، ففيه الحنظل والعلقم والصبر والمر والصاب . . .

وما أحسبه كان متجنياً ولا مبالغاً لا في تصويره ولا في مرارته ولا في ردته !

فالمسؤول عن الردة ليس المرتد بقدر من جعل الناس يكفرون بعد ايمان وينفرون بعد إقبال ، ويدبرون بعد ألفة . . .

كراس أكرم الحوراني قصتان في قصة واحدة : قصة الوحدة بين سوريا ومصر . وقصة الاحراج فالاخراج الذي بلاه كل من مد يده الى القاهرة في وقت من الاوقات !

لكل بلد عربي حائط مبكى ، سواء أكان هذا الحائط من صنع الاجنبي أم من صنع أبنائه ، يلطمون عليه الخدود ويشقون الجيوب ويندبون ويعددون كما تندب وتعدد الندابات في المآتم .

وجاءت كارثة فلسطين فوحدت العرب وجمعتهم في حائط مبكى جديد ، لم يلبث طويلاً حتى تحول الى دكاكين ومنابر مختلفة متناثرة في طول البلاد العربية وعرضها ، أفاد منه من أفاد وراحت على من راح عليه من العباد . . .

وبالرغم من ذلك فقد ظل حائط مبكى فلسطين قائماً رغم فلسطين وأبناء فلسطين يهرع اليه قادة العرب وزعماؤهم في كل مرة يأنسون فيها الربح والفائدة من المزايدة في لطم الخدود وشق الجيوب على حائط فلسطين .

واستفاق السادة النجب ، سادة العرفان والادب والحسب والنسب ، استفاقوا في السنوات الأخيرة على مورد عذب وحائط مبكى جديد ، لم يحسن قبلهم من الزعماء والقادة الافادة منه ، عنينا به حائط مبكى الوحدة العربية كان الله في عونها . . .

فلقد كانت الوحدة في الماضي — وقبل هذا الزمن الرديء — تعتبر ترفاً يلجأ للمطالبة بها غلاة الوطنيين وفرسانهم ممن لم يكن يرضي زهوهم وكبرياءهم مجرد المطالبة باستقلال بلدهم ، بل كانوا يجنحون لما هو أعظم وأرفع وأشمل ، هو مطلب الوحدة العربية الشاملة الكاملة من هنا الى هناك ومن هناك الى هنا . . .

وهكذا وجد السادة القادة ، وعلى أهون سبيل ، حائطاً جديداً قديماً ، يعيدون اليه اعتباره ، ويردون في الوقت ذاته اعتبارهم الى أنفسهم في ميدان اللطم والندبِ والمضاربة والمزايدة ، الى جانب حائط مبكى فلسطين. لا سيما وان مغانم الحائطين القائمين تعود في النهاية اليهم مهما تعددت الوجوه والاساليب والمصادر والدعايات . . . خارجية كانت أم داخلية ، ظاهرة أم مستترة سيان . . . انها (أعني المغانم) كسحابة هارون الرشيد الذي قال لها : «أذهبي وامطري حيث شئت فسيأتي خراجك الي » !

ويبدو ان خراج الحائطين — حائط فلسطين وحائط الوحدة العربية — أصبح يغل كثيراً في هذا الزمن الرديء على أهل السياسة والكياسة ، السادة القادة ، سادة العرفان والادب والعلم والحسب . . .

غير ان الوحدة ، وكنا نحسبها بيضة الديك ، وقد باضت أكثر من بيضة فتعددت وأصبحت كل واحدة منها تحمل اسماً وشكلاً وهوية .

فهناك الوحدة العربية المصرية الناصرية عز نصرها ضربت في « الأهرام » لا في مطبعة بولاق . . .

ويحمل لواءها « م. ح. ه » و « د. م. ع. ق. ح » وغيرهما ممن نعرف ولا نعرف . . . وهي وحدة الاهداف لا وحدة الصفوف تارة وهي غير ذلك تارة أخرى . وهي متوجة ومطعمة بالاشتراكية طوراً ومنفصلة متحررة من الاشتراكية طوراً آخر !

والوحدة الاتحادية الفيدرالية (وحدة حزب البعث) التي يدعو اليها للجمع بين رأسين بالحلال يظلهما نظامين مختلفين متناقضين متشاكسين متباعدين !

والوحدة الكبرى (وحدة الدواليبي والكزبري) التي بلغت من الكبر الى درجة لم يسمح فيها بين سائر البلاد العربية الا للأردن بالدخول فيها !

والوحدة العظمية (اتحاد فيدرالي مع مصر) وهي وحدة العظم بلا لحم !

والوحدة الوطنية (وحدة الطوائف والاحزاب والفئات والعناصر المختلفة ابتداء من الاخوان المسلمين الى البعثيين الى الحورانيين الى العظميين لمقاومة الزحف الناصري (وهي وحدة التلاقي الاسلامي البورجوازي الشيوعي النيورجعي !)

والوحدة الجزئية مع مصر دون غيرها من البلاد العربية (وهي وحدة غلاة المتحررين الناصريين . . .)

والوحدة الكلية (وحدة المحيط الثائر الى الخليج الهادر وبالعكس) وهي أيضاً لها روادها وغلاتها وأنصارها ودعاتها . . .

والوحدة الفورية (وحدة اذاعة حلب وجاسم علوان) وقد ظهرت نتائجها الفورية بعد سكوت راديو حلب الذي أعلن بلسان حلبي مبين « هنا طنطا » !

والوحدة السامية (وحدة أكرم الحوراني) بلاد الشام وخصائص بلاد الشام وطبيعة بلاد الشام . . . وأمرها مشهور معروف ومدون في بطون الكتب !

* * *

وهناك الى جانب ما فصلنا وبينا من أسماء وأشكال وألوان بيض الوحدة التي فقست بيضاً (ويقال بيوضاً) كثيرة . . .

هناك الوحدة المشروطة وغير المشروطة . والوحدة الشعبية وغير الشعبية . والوحدة العاطفية وغير العاطفية . والعلمانية وغير العلمانية . . .

وأسماء كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان . . .

فتبارك الخلاق فيما خلق وأبدع . . . وتباركت عبقريات السادة القادة فيما تفننت وتفتقت فأخرجت من بيضة الوحدة الواحدة بيضاً كثيراً وأسماء كثيرة وأساليب كثيرة تهدف الى هدف واحد هيهات ثم هيهات لأي شعب عربي أن يقرهم عليه . . .

« وكل يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا ! »

كربلاء الجديدة !

الحديث عن الوحدة كالحديث عن كربلاء وذكرى عاشوراء سواء بسواء !

ومن عجيب المصادفات ان تحل هذه الذكرى الاليمة في الوقت الذي يبلغ فيه الكلام عن الوحدة ذروته فبالرغم من النكسة الكبرى التي أصابت عبد الناصر شخصياً ، والويلات التي ألمت بالشعب المصري . وبالرغم من الآثار الوبيلة التي جررت وما تزال تجرر أذيالها مآسي الوحدة والانفصال في دمشق ؛ حتى أصبحت وهي أشبه ما تكون بالسوسة التي تنخر عظام سوريا . . .

أقول بالرغم من كل هذا ، فان الحديث عن الوحدة وأشكال الوحدة و « روشتات » الوحدة ، ما يزال قائماً على قدم وساق و . . . لسان خصوصاً .

ولو ان الحديث والتسلي بهذا الموضوع ، يقتصر على ما نقرأ ونسمع من الصحف والاذاعات وما تلوكه الالسنة وتتبارى فيه الاقلام ، من كر وفر وسباب وشتائم وتوزيع اتهامات .

لو كان الامر كذلك لهان المصاب ولامكن القول انها فرصة مناسبة للسمسرة والتجارة وتبييض الوجوه ، تبدو لاصحاب السوابق ممن برعوا وتفننوا في هذا الميدان ، يتزاحمون ويتسابقون، يتصايحون ويزايدون في المؤاجرة في كل عراضة او مظاهرة !

ولكن الامر أدهى وأمر والخطب أجل وأعظم . فالبلاد العربية تسير من سيء الى أسوأ بفضل هذه الكربلاء الجديدة التي فتحت في صدر العالم العربي على اسم الوحدة العربية ؛ والتي زرعت الاحقاد والضغائن وعمقت الهوة وأشاعت اليأس ، واكثر من اليأس في نفوس أشد المؤمنين بفكرة الوحدة !

قد يقول قائل ان ثلاثة او أربعة أعوام في تجربة الوحدة ليست شيئاً كبيراً في حياة الشعوب

الطامحة الى المنعة والقوة والمجد .

وهو كلام صحيح لو ان تجربة الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا كانت مجرد تجربة يخرج منها الصادقون المخلصون ، بالدرس المفيد والعبرة النيرة التي تجنبهم اخطاء الماضي وعثراته . غير ان الامر على النقيض تماماً ، فما من خطأ ارتكب في تجربة الامس ، الا وعاد المخلصون الصادقون المنزهون لارتكابه مرة ثانية . وما من مركب خشن او وسيلة ضالة مضللة عرفتها تجربة الوحدة ، الا وعادت تطل برأسها في هذه الايام أكثر عناداً واشد تشبثاً ، حتى لكأن الوحدة ، على نبيل غاياتها ورفيع أهدافها وسابق مجدها ، ما وجدت الا لتكون ميداناً للطعن والضرب وتقطيع الاوصال ، ومختبراً كبيراً للاخطاء المكررة المعادة مع سبق الاصرار !

* * *

ترى هل الوحدة كمبيالة مستحقة الاداء في يوم محدد وساعة معينة ؟

هل هي طوق او سلسلة تعلق في الاعناق لمنع الطامحين اليها من الهروب منها ؟

هل هي الدواء السريع الناجع لشفاء البلدان العربية من اوصابها وأمراضها ؟

او ليست هناك امراض كثيرة تعشش في جسد كل بلد عربي تستحق التطبيب والدواء ؟ الفقر والجهل والمرض . . .

هل استطاع المخلصون الصادقون المنزهون ان يبرئوا مواطنيهم من آفاتهم ؟

البلهرسيا والتراخوما والانكلستوما هل شفيت منها العيون لتبصر ما تراه وتحكم على ما تراه وتتلمس الطريق الحق القويم ؟

الملايين التي أهدرت على اسم الوحدة ونجربة الوحدة وسماسرة الوحدة . . . أما كان أجدى لو انها صرفت من أجل اقالة عثار الشعب الطيب الصابر هناك ؟

الجهود الكبيرة التي بددت في الهواء . الاعوام المريرة التي ذاق مرارتها شعب مصر وشعب سوريا ابان التجربة — المحنة ، تجربة الوحدة . . . اما كان افضل واليق وأشرف ، لو صرفت تلك الجهود وتلك الاعوام من اجل البناء الداخلي لكل بلد عربي ، والتمهيد الحقيقي الصادق للوحدة المنشودة ؟

* * *

يا ويحهم ، يا ويلهم ، يا ضيعة للايام والاحلام التي تملیناها زمناً طويلاً ورعيناها بحشاشة القلب وبؤبؤ العين فاذا هي سراب في سراب يحسبه الظمآن ماء وما هو بماء . . . واذا بالاحلام اليقظة اضغاث احلام !

ماذا قالت سوريا لعبد الناصر ؟ وماذا قال عبد الناصر لسوريا ؟

مقارنة بسيطة بين ما قاله الدكتور بشير العظمة ، وما قاله « م. ح. ه » الاهرام ، عن لسان عبد الناصر ، كافية لان تضع أمامنا النقاط على حقيقة حروف المشكلة القائمة بين الطرفين .

قال بشير العظمة بوضوح وصراحة آخذوه عليها في سوريا :

« ان الانفصال كان عملاً رجعياً استعمارياً » و « ان الانفصاليين جماعة خارجة على العرب والعروبة والقومية العربية والتقدمية والتحررية . . . الى آخره »

و « ان المطالبين بالوحدة مع مصر هم الاكثرية ، وهم وحدهم الذين يمثلون وجه سوريا » !

هذا ما قاله الدكتور بشير العظمة . فماذا كان رد « م. ح. ه » الاهرام ؟

كان الرد في جملة ما كان ، الاصرار على اجراء تحقيق يتناول الاتهامات الباطلة التي وجهتها الفئات السورية الانفصالية الرجعية لحكم عبد الناصر .

ترفقت سوريا — او هكذا بدت على الاقل — فقالت عفا الله عما مضى وكل ما نريده ان يكون المستقبل جديداً بالفعل . واذا القاهرة تشتد وتقسو وتعنف وتقول : كل ما اتهمنا به من قبل سوريا ظلم في ظلم وباطل في باطل !

جهة ترضى « بتسكير » الحسابات القديمة وطي الدفاتر القديمة ، وجهة تتشبث ، — وهي الملومة — بفتح الحسابات ونشر الدفاتر !

فسبحان الله العظيم ثم سبحان الله العظيم ثم سبحان الله العظيم !

في بيان الدكتور العظمة انه في سبيل الوحدة مستعد لتناسي ما ارتكبه حكم عبد الناصر من أخطاء .

وفي بيان « الاهرام » ان لا شيء في الدنيا لا الوحدة ولا غير الوحدة يستحق من أجله ان تتناسى القاهرة تهمة او تهمتين او ثلاثاً خرجت من راديو دمشق جواباً على صوت العرب . . . وما ادراك ما صوت العرب !

في بيان الدكتور العظمة :

تعالوا نصنع لامتنا اتحاداً يكون فيه خير الجميع ويكون فيه لكم شخصياً رد الاعتبار والخروج من حكم التاريخ القاسي . . .

وفي بيان « م ح ه » الاهرام :

لا مفاوضة قبل الجلاء . فأنتم لا تمثلون الشعب السوري ولا يمكنكم ان تتكلموا باسمه !

رحابة يقابلها ضيق . اقبال يواجهه تحفظ . حماسة تصدمها عنجهية .

والغريب العجيب — ولم يعد ثمة من عجيب ولا غريب — ان يقولوا تعليقاً على بيان « الاهرام » ان عبد الناصر قد قبل ما عرضه بشير العظمة ، كأنما هذه الشروط جميعها هي حيثيات قبول لا حيثيات رفض . بل كأنما الناس قد باتت وهي تعتقد ان مجرد عدم الشتم من قبل القاهرة هو هشاشة وبشاشة ، وترحيب ورضى وتشجيع وتزكية . وانه غاية القصد وبلوغ المراد من رب العباد !

فسبحان الله العظيم ثم سبحان الله العظيم ثم سبحان الله العظيم . . .

أولسنا نسمع منذ ان لم يهاجم عبد الناصر بشير العظمة التهليل والتكبير والتسبيح والهتافات والزغاريد تنطلق لتحية رئيس الحكومة السورية :

طوبى لبشير العظمة لان عبد الناصر لم يهاجمه !

طوبى لبشير العظمة لان صوت العرب لم يتناوله بالقذف والتجريح ، وان تناوله بالتعريض والتلميح دون التصريح !

طوبى لبشير العظمة لان أبواق القاهرة لم تلحقه بالسابقين مع من الحقتهم بالاستعمار وأذناب الاستعمار !

لقد أصبح الناس يعتقدون ان عبد الناصر لن يتمكن ان يعيد الوحدة ولا حتى الاتحاد مع سوريا الا اذا رضيت القاهرة ان تتكلم مع الناس بغير اللغة التي تتكلم بها ، لغة التعنث والتشبث والاستعلاء ، والاستمرار في اعتماد المخططات والاساليب القديمة التي اوصلت عبد الناصر الى نكسة الانفصال .

حقاً من يسمع يصدق . . . يصدق كلام القاهرة وكلام دمشق . . . وكله كلام في كلام . . . والكلام ليس عليه جمرك لا هنا ولا في الشام على الأقل !

المعروف عن الدكتور بشير العظمة في دمشق وسوريا ، انه صاحب البق والطف استقالة قدمت الى الرئيس عبد الناصر ابان الوحدة .

ذات يوم دخل الدكتور بشير العظمة وكان وزيراً مركزياً للصحة في حكومة الجمهورية العربية المتحدة الى مكتب الرئيس عبد الناصر وقدم له كتاباً ضمنه استقالته من الوزارة .

ولما كان الكتاب خالياً من أي شرح ، سأل عبد الناصر الدكتور العظمة :

« هل لك اعتراض على سياسة الجمهورية أو خطتها العامة ؟ »

فأجاب الرجل : بالعكس يا سيادة الرئيس فانا موافق على كل شيء في سياسة الدولة الخارجية وخطتها العامة في التنمية والاقتصاد .

وقال الرئيس عبد الناصر :

اذن هل انت تشكو اي اضطهاد او أذى يلحق بك او بحزبك او جماعتك او عشيرتك ؟

أجاب العظمة : كلا يا سيادة الرئيس ، فليس لي حزبية او جماعة فأنا رجل مستقل واعتمادي على شهادة المواطن العادي بجهدي ونشاطي .

قال الرئيس : مم تشكو اذن ؟

ورد العظمة : كل ما في الامر يا سيدي هو انني كنت فيما مضى طبيباً في دمشق امارس واجبي في عيادة متواضعة في حي من أحياء بلدي وأصبحت بعد ذلك وزيراً . ويشهد الله يا سيادة الرئيس انني كنت أشعر وأنا أقوم بواجبي في العيادة انني أقدم لوطني من الخدمات ما لا أشعر انني أؤديه وأنا هنا في كرسي الحكم !

اليوم وبشير العظمة متربع في كرسي رئاسة الحكومة ، شهد الناس كلهم والقاهرة في طليعة الشاهدين انه إذا كان للوحدة بين سوريا ومصر حظ او نصيب ، فانما على يد هذا الرجل الكريم الذي يفهم الواجب حق الفهم ويغار على الكرامة كل الغيرة .

لو شهدت القاهرة لبشير العظمة وأمثاله بالفضائل التي بدأت تشهد لهم بها اليوم ، لما انهارت الوحدة بين سوريا ومصر ولظل علم الجمهورية العربية المتحدة يخفق في سماء دمشق كما يخفق في سماء القاهرة .

ولكن الفرصة قد ضاعت في زمن الوحدة فهل تفوت أيضاً في زمن الانفصال ؟

ان الدلائل لا تدل أبداً على ذلك . فالمتاجرون بعبد الناصر — وأتكلم عنهم في لبنان كما أتكلم عنهم في سوريا وفي مصر — هؤلاء ما زالوا هم هم أبعد ما يكونون عن الترفع والزهد واحترام النفس التي قدمنا عليها دليلا استقالة بشير العظمة من منصبه زمن الوحدة .

أجل انهم ما زالوا حيث كانوا يفهمون العلاقة بعبد الناصر لا على انها ايمان بالوحدة أو ولاء للاشتراكية أو حرص على الكفاح ضد الاجنبي . بل يفهمون هذه العلاقة على أنها مجرد ضمانة لمصالحهم الذاتية ونزعاتهم الخاصة ، وأبنيتهم التي ما قامت وما كان لها ان تقوم لولا استغلال اسم عبد الناصر وشعارات عبد الناصر !

فمن كان معهم في رخصهم وتبذلهم ودجلهم ونفاقهم ، فهو مع عبد الناصر . .

ومن كان ضدهم في أساليبهم وصغارهم ، فهو ضد عبد الناصر .

وهكذا هم يسيئون الى الرجل مرتين مرة في عدم الايمان به ومرة في تنفير الناس عنه !

* * *

ان عبد الناصر يستطيع أن يربح المعارك التي يواجهها اليوم بشرط واحد لا ثاني له :

أن يفتش في الناس عمن هم أمثال بشير العظمة في الخلق والكرامة والحس بالواجب والايمان الوطني ، فيضع يده في يدهم لمصلحة المبادىء التي يعمل من أجلها ، وأن يبعد عنه من أساءوا اليه وما زالوا يسيئون ، من المتاجرين المطبلين المزمرين الشاتمين الشامتين الذين يماشون عبد الناصر اليوم ليغدروا به في الغد ، وهم في كلا الحالين لا يعرفون الهاً الا شهواتهم ، ومصالحهم المادية ونزعاتهم الشخصية .

بدون الاعتماد على الاشراف وحدهم لم يستطع عبد الناصر أن يحمي الوحدة من أعداء الوحدة .

وبدون الاعتماد على الاشراف ، لن يستطيع عبد الناصر أن يزيل الانفصال ويعيد الاتحاد بين سوريا ومصر !

« امامك فانظر أي نهجيك تنهج

طريقان شتى مستقيم وأعوج » !

الوحدة !

في شمالي مدينة حلب ينبع نهر يسمونه نهر قويق ، وهو يمر بحلب الشهباء . ومعروف ان النهر يفيض مرة واحدة كل عام فيغرق كل ما حوله ، ثم يهدأ فجأة ولا يلبث أن تجف مياهه وتتحول الى مستنقع آسن تنقنق فيه الضفادع ، ومن أجل هذا اطلقوا عليه اسم نهر قويق . . .

وكما ينطلق نهر قويق مرة كل عام ، تنطلق ألسنة دعاة الوحدة ، في هذه الايام . في وقت واحد وأهداف واحدة . سداها ولحمتها السمسرة والمتاجرة والمزايدة بالدعوة للوحدة . . .

والشاطر ابن الشاطرة هو الذي يقتني صوتاً تنكياً وصدغاً نحاسياً وعيناً بلقاء مفتوحة على وسعها تنثني فيها المخارز والمسامير دون ان ترتعش او يرف لها جفن ! وهات صرخات وهات مزايدات على اسم الوحدة والدعوة الى الوحدة ، والوحدة براء مما يأفكون وينافقون ويدجلون ، براءة يوسف ابن يعقوب .

ومن عجب — ولم نعد نعجب من شيء — أن تتحول الدعوة الى الوحدة العربية من جوهرها الأصيل ومرتكزها الاساسي الذي قامت عليه ، بالتضحية والصدق والجهاد ، فتصبح بفضل العماوة التي خيمت على أعين الكثيرين — دكاكين منتثرة في طول البلاد العربية وعرضها ، من المحيط الثائر الى الخليج الهادر ، يسمسر فيها من يسمسر ويتاجر من يتاجر ويقبض من يقبض ، ويحظى قبل هذا وبعد هذا بالتمجيد والتدليل والتعظيم ، على انه الوطني الوحدوي الشريف الذي لا يأتيه العيب من بين يديه ولا من ظهره . . .

وكما نكبت الوحدة العربية والقومية العربية بدعاتها من أهل الحل لا الربط ، كذلك نكبت مصر العزيزة بالنكبة ذاتها . فقد كان المسلمون في سائر البلاد العربية ولا سيما في لبنان منذ عهد ابراهيم باشا وحتى عهد فؤاد الاول وفاروق الاول ، كان المسلمون في لبنان يدفعون من أموالهم ليقيموا الدليل على حبهم لمصر واعجابهم بمصر ومودتهم لاهل مصر . . .

كان هذا في الايام الخوالي ، أيام الملكية والرجعية والعبودية والاقطاعية والى آخر الاغنية .

وعشنا ورأينا كيف تنفق الاموال وتبدد ملايين الجنيهات من أجل من ولماذا وكيف . . .

عشنا ورأينا كيف تتدفق الملايين ليشترى بها العداوة والبغضاء وزرع الاحقاد .

عشنا ورأينا كيف اكتسبت مصر العداوة على أهون سبيل وبأبهظ الأثمان ، ولم تغنم في نهاية المطاف صوتاً واحداً من الأصوات التي كانت تجاهر وتتباهى بحبها ومودتها واكبارها . . .

* * *

حدثني أمس زميل صديق قال : ألم تلاحظ في الايام الأخيرة أن الفتور قد دب في بعض الاقلام الناصرية حاملة المباخر ؟ وان الأصوات التي كانت تزمجر وتشتد في المديح والتعلق قد أدركها شيء من الملل والخفوت ؟

ورحت أقص على صديقي حكاية نهر قويق . . .

النهر الذي يطوف مرة واحدة فيغرق كل ما حوله . ثم لا يلبث أن يهدأ ويغور وتجف مياهه فيتحول الى مستنقع آسن تنقنق فيه الضفادع

حروب طسم وجديث وداحس والغبراء ، الدائرة رحاها بين الدول العربية الاشقاء ، كيف ومتى تنتهي ؟

الى متى تستمر هذه المعارك الغبية الحمقاء ، التي لا يستفيد منها أحد إلا اسرائيل والاستعمار وأعوان الاستعمار ؟

القاهرة تعلن عن تأسيس « جبهة وطنية سعودية » لمناوءة السعودية العربية .

والسعودية تسترد قطعة أرض كانت قد أهدتها للجمهورية العربية المتحدة لاقامة مبنى لعرض منتوجاتها في جدة .

وسوريا تعلن عن قيام « لجنة مصر الحرة » في دمشق وتدعو لمؤازرتها للخلاص من حكم عبد الناصر .

والقاهرة ما تزال تصر على تسمية سوريا بالاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة . وتستمر في حربها للعهد القائم في دمشق .

ودمشق بدورها « تدوبل » على القاهرة ، وتمضي بعناد شديد في حملة شعواء لا نظير لها من الاتهامات والشتائم تكيلها بحساب وبلا حساب ، وكأنها قد فرغت من جميع القضايا ولم يبق أمامها الا قضية واحدة هي قضية الهجوم على عبد الناصر وحكم عبد الناصر .

واليمن ، اليمن السعيدة ، طوباها هي وحدها التي وقفت بعيداً عن الميدان بعد أن نفضت يديها من الوحدة مع مصر ، بقصيدة يتيمة نظمها الامام الراحل عليه الرحمة والرضوان وسكتت بعدها ، لا هجوم ولا اتهام لا رضى ولا عدوان ، قبل أن يسكت الى الابد وتنعيه مجلة « الايكونومست » تحت عنوان « وفاة شاعر » !

أجل : اليمن وحدها بقيت خارج الميدان دون سائر البلدان . . . من الشام لبغداد الى مصر فتطوان ، مروراً بالسعودية والاردن وسوريا ولبنان !

والآن ، ما هي الاهداف العربية السامية التي تستوجب قيام مثل هذه الحروب الحامية ؟
هل ان تأسيس « جبهة وطنية سعودية » في القاهرة من شأنه أن يطيح بحكم المملكة العربية السعودية ؟

وهل قيام « لجنة مصر الحرة » في دمشق ، قادر أن يزعزع حكم عبد الناصر في القاهرة ؟

وهل ان اصرار كاتب التاريخ والطبري الحديث في جريدة « الاهرام » على تسمية سوريا بالاقليم الشمالي ، يجعل منها حقاً اقليماً شمالياً تابعاً للجمهورية العربية المتحدة ؟

وهل ان الذين انتفضوا على حكم الوحدة من السوريين هم جميعهم كزبريين عصاصيين حورانيين نحلاويين انفصاليين رجعيين خونة مارقين ؟

أي خير أصاب مصر وسوريا والعرب جميعاً من تجربة الوحدة الفاشلة ، كيما نعود الى التفكير بها مرة ثانية والعمل لها بالاساليب ذاتها والاشخاص أنفسهم والعقلية اياها ؟

ثم أما آن الاوان لفلاسفة القومية العربية وعباقرة الوحدة العربية في القاهرة ، أن يستريحوا من عناء العمل بعد أن أدوا قسطهم للعلى وللامجاد العربية ؟

أما آن لعبد الناصر أن يفتح عينيه جيداً على حاشية السوء وبطانة المنافقين من الجهلة اللعوقين ، الذين كانوا وما زالوا وزره الاكبر وخطيئته العظمى في كل ما لاقى من خطوب ومكاره ؟

و « مصر الثورة » التي تفتحت براعمها منذ عشر سنوات لتنشر فوق كل سماء وعلى كل أرض شذى الحرية والعزة والكرامة .

مصر الثورة ، التي كانت قبلة الأحرار وكعبة الثوار . تتحول اليوم لتصبح هدفاً لكل طاعن وكل متهم !

مصر الثورة ، التي تمثلت في أحلام الاجداد وآمال الاحفاد . تتملاها القلوب والعيون وهي لا تصدق ، لانها فرصة العمر وفرحة العمر . . .

مصر الثورة ، من أجل من ولماذا قامت ؟

أمن أجل هذه المدرسة الحقيرة الصغيرة من السفلة والاوغاد ، التي زرعت نفسها في مصر وفي كل بلد عربي على اسم عبد الناصر تتاجر وتسمسر بأمجاد عبد الناصر ؟

أم ان مصر الثورة قامت لتؤكد صيحة عبد الناصر التي أطلقها يوم قال « أرفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد » ؟

وأي استعباد وأي ذل أشد وأدهى من هذا المصير الذي صارت اليه ثورة عبد الناصر ؟

بيان المجلس الوطني لقيادة الثورة في دمشق ، الذي أذاعه الدكتور سامي الجندي وزير الاعلام ، رداً على خطاب الرئيس عبد الناصر ، أثار الدهشة والفضول والغرابة في آن واحد . وقد كان بالامكان ان لا يثير شيئاً من هذا لو ان صاحب البيان هو الدكتور سامي الجندي شخصياً لا المجلس الوطني لقيادة الثورة في سوريا . ذلك ان العاطفة الشخصية والرأي الشخصي كانا ممثلين أصدق تمثيل في لهجة البيان الكتابية والخطابية ، اذ جاء وكأنه متمم للتصريح السابق الذي أدلى به الدكتور الجندي أول أمس ، والذي يشرح فيه عواطفه الناصرية قبل خطاب عبد الناصر وكيف اعتورها الوجوم والفتور و « التفكير مجدداً في الموضوع . . »

ومن حق الدكتور سامي الجندي أن يعبر عن عاطفته بصدق وحرارة وبلا كلفة أو تعمل ، فليس وحده الذي حمل لعبد الناصر عواطف الاعجاب والاكبار . وليس وحده الذي أحس بالألم والمرارة .

وليس وحده . ولا حتى حزب البعث الحاكم في دمشق وبغداد الذي اشتكى من « اجهزة الاعلام الناصرية » التي اساءت الى عبد الناصر أبلغ الاساءة . ففي هذا الميدان ، ميدان الشكوى والعتب والتذمر ، متسع لجميع البلدان العربية من أقصى المحيط الى أقصى الخليج . وما من دولة عربية وما من مسؤول أو غير مسؤول ، الا وبح صوته لفرط المناداة والتحذير ، من أجهزة السوء وبطانة السوء التي علقت بثياب عبد الناصر وأساءت اليه اساءات متكررة متشابهة متلاحقة ، هيهات لاشد الناس عداوة لعبد الناصر أن يقاربوها او يبلغوا بعضاً منها .

حكاية قديمة طالما رددناها منذ أكثر من ثمانية أعوام ، حتى أصبحت اعادتها مملة ساذجة لا تختلف في شيء عن من يطحن الهواء أو يدق الماء .

ومع ذلك فان الدكتور سامي الجندي لم يشأ الا أن يعود مجدداً الى التحذير والتنبيه ، والى طحن الهواء ودق الماء . . . وصحيح أن صوته الذبيح كان أصدق شاهد على حرارة عاطفته ومرارة ألمه ، ومدى خوفه على عبد الناصر — الرمز — أن يضيع وتضيع معه فرصة العمر بتحقيق حلم الوحدة . وليس في العالم العربي اليوم من هو مؤهل لهذا العمل العظيم غير الشباب المثقف النير الذي استطاع ان يوطد دعائم حكمه على أرض صلبة ، في عاصمتين عربيتين عرفتا منذ القدم بأنهما أكثر العواصم العربية جموحاً وتململاً وغلياناً .

كل هذا صحيح ، ولكن الصحيح أيضاً أن بيان المجلس الوطني لقيادة الثورة في دمشق ، قد أدخل في أذهان الجماهير العربية التي أخذت تراقب سير المعركة بحماس ورغبة ملحة لانتظار النتيجة النهائية التي تضع حداً فاصلاً لميوعة المعارك الخطابية والاعلامية .

أجل ، لقد جاء البيان ليزيد الناس غموضاً وابهاماً ، وليمد في أجل الملاحاة والمداورات والمناورات والقيل والقال والأخذ والرد ، هذه العدة الكسيحة التي كانت وما تزال أكثر العوامل في الهدم والتفسخ والالهاء ، وبالتالي دفع الجماهير العربية الى متاهات أيسرها يضلل ويبعد عن الهدف .

لقد أدخل البيان في روع المستمعين ، بأن حزب البعث بحاجة الى خطاب آخر من عبد الناصر يؤكد لهم فيه رأيه بهم « ويدوبل » مجدداً على جميع ما ذكرته أجهزة الاعلام بحقهم اذاعة وخطابة ، نشراً وصحافة . . .

نعم أجهزة الاعلام ، التي يشكو منها البعث ويحاول جاهداً الفصل بينها وبين عبد الناصر ، وعبد الناصر يأبى كل الاباء أن يفصل نفسه عنها !

واذن ما العمل ؟ ما العمل والخوف على عبد الناصر ، يدفع بحزب قوي حاكم في أعرق بلدين عربيين ، الى تكرار الدعوة للالتقاء بعبد الناصر — الرمز — ولو على حساب سمعته كحزب قوي حاكم ؟

الخوف على عبد الناصر ، هي الثغرة الوحيدة التي يخشى على البعث منها ، لأنها نقطة الضعف لا في أذهان البعثيين بل في نفوس الناصريين أنفسهم ، الناصريين الشرفاء ، لا الحقراء العملاء ، الناصريين الذين يخافون على عبد الناصر ، لأنهم ما تاجروا يوماً باسمه ، والذين بحت أصواتهم ، وكان الصوت الذبيح ، صوت الدكتور سامي الجندي المعبر الصادق عن خوفهم وحسراتهم ومراراتهم !

كافرٌ آخر !

هل صحيح ان حزب البعث حزب « فاشستي انفصالي رجعي طائفي عنصري اقليمي لا أخلاقي » ؟

وان البعثيين « غادرين ماكرين لا أخلاقيين مجرمين وحوش » ؟

وهل صحيح ان سوريا أصبحت في عهدهم تعيش في سجن كبير ، وان سجن المزة لم يشهد ما شهده في عهد البعث من قتل وجلد وتعذيب ؟

وهل صحيح ان حزب البعث مفتر معتد أثيم ، وانه كان البادىء بالشر في حركة الانقلاب الاخيرة ، فتجنى على المواطنين السوريين المناضلين المجاهدين الوحدويين الآمنين الوادعين المسالمين ، وساقهم الى السجون والمحاكم ونفذ بحقهم أحكام الاعدام ظلماً وزوراً

وبهتاناً ، لا لذنب اقترفوه أو جريمة أقدموا عليها ، بل لأنهم أبطال مجاهدين مناضلين وحدويين شرفاء لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم ؟

لنسلم جدلا ان حزب البعث فاشستي لا يؤمن بالقيادة الجماعية ، وانه انفصالي غير وحدوي ، وأنه رجعي لا تقدمي . وطائفي لا علماني ، وانحلالي لا أخلاقي .

وان قيادته الحزبية مجمع العاهات والعيوب والنقائص .

واذن ، فلماذا كانت المفاوضات والمحادثات معهم في سبيل اقامة الوحدة ؟ ؟

وكيف لم يفطن الشريك المفاوض الفطن الى حقيقة هذا الحزب الفاشستي الانفصالي اللا أخلاقي الذي وقع معه ميثاق ١٧ نيسان ؟

واذا تعذر قيام الوحدة مع حزب البعث ، فمع أي حزب أو هيئة أو تشكيلة في سوريا يتيسر أمر الوحدة ؟

هل تتم الوحدة مع أكرم الحوراني مثلاً أم مع عصام العطار أم مع رشدي الكيخيا أم مع خالد بكداش . . .

مع أي حزب من الأحزاب أو أي ذات من الذوات ؟

مع الاخوان المسلمين أم الشيوعيين أم الكتلويين أم الشعبيين . . . مع من ؟

من بقي غير هؤلاء في سوريا ؟

عفواً ، ثمة فئة وحدوية أخلاقية وطنية نسيناها . . . انها الفئة المسالمة الآمنة الوادعة التي حملت السلاح جهاراً نهاراً وهاجمت دور الحكومة وتسببت بمقتل المئات من السوريين الابرياء...

انها وحدها الفئة المؤهلة لبناء الوحدة العتيدة ، وترسيخ دعائمها على أسس وحدوية وطنية أخلاقية ، وليس لغيرها من الهيئات والاحزاب السورية ان تتصدى للعمل الوحدوي !

ويا لقلوب البعثيين القساة العتاة . . .

يا لافئدتهم الغليظة وأكبادهم القاسية ، كيف طاوعتهم قلوبهم أن يتصدوا لهم ، فيقمعوا فتنتهم ويقضوا عليها بمثل هذه السرعة غير اللائقة .

ثم يا للوحشية ويا للاسلوب الفاشستي النازي الفظيع . . . لقد ساقوهم الى سجن المزة نعم المزة التي كانت في عهد عبد الحميد السراج خميلة ولا كالخمائل واستراحة ولا كالاستراحات.

كانت المزة جنة عدن تجري من تحتها الأنهار فيها الحور العين والولدان المخلدون . . .

ثم انقلبت الجنة في عهد البعث الى سجن كبير ، الى جحيم لا يطاق . . . الى محكمة عادلة تخلي ساحة البريء وتأخذ بتلابيب المذنب المسيء !

فيا للهول ثم يا للهول ثم يا للهول . . .

يا لثارات « المزة » وقد كانت في طهارة المحراب أيام عبد الحميد السراج ، التي لم تشهد فيها تذويب فرج الله الحلو حياً في احدى حمامات الدم ، والتي لم تترك فناً أو وسيلة أو اختراعاً الا وبرعت فيه وحذقته وأدخلت عليه المزيد من التجديد في فنون التعذيب والقتل والتمزيق !

* * *

ولكن ما لنا ولهذا الكلام . . .

« وليس يصح في الافهام شيء

اذا احتاج النهار الى دليل »

أمامنا اليوم دليل آخر أشد سطوعاً من نور النهار . . . يكفي أن نقدمه لكل ذي عين وكل ذي قلب . انه التصريح الذي أدلى به الدكتور سامي الجندي ، الرجل الذي كان بعثياً حتى قيام الوحدة بين سوريا ومصر عام ١٩٥٨ ، ثم أصبح ناصرياً ، والذي سجن خمسة أشهر خلال عهد الانفصال بتهمة مساعدة العقيد السابق جاسم علوان على الهرب !

لنقرأه ولنعيد قراءته ملياً ولنتوقف أمام عبارته الأخيرة التي يقول فيها :

« كنت أعتقد انني سأبقى ناصرياً لأنني اؤمن بأن عبد الناصر قائد عربي وحدوي . ولكنني الآن بدأت أفكر وأعيد النظر في الموضوع » !

صندوق العجب !

رحم الله زماناً كنا نقبل فيه ونحن صبية صغار على صندوق الفرجة أو « صندوق العجب » كما كان يسميه صاحبه ، فنتدافع ليظفر كل منا بمكان على المقعد الخشبي ، ولنشاهد من خلال العين الزجاجية المكبرة الى عنتر عبس وسعد الزناتي خليفة والاسد الرهيص وعمرو بن ود العامري وجساس وسلاطين بني عثمان . . .

ويتولى صاحب الصندوق ادارة الفيلم المصور ، ويدور لسانه بشرح منغم ملحن لكل صورة نراها . . .

كدنا ننسى صندوق العجب وننسى معه البوق الذي ينفخ به صاحبه ليجمع الصبية حوله ؛ قبل أن يستوي واقفاً خلف آلته السينمائية ويردد بصوته المعهود : « شوف تفرج آه يا سلام شوف أحوالك عالتمام . . شوف قدامك عجايب ، شوف قدامك غرايب ، يا حبيبي لو بتشوف ، شوف أحوالك عالمكشوف » !

حتى كدنا ننسى صندوق زمان لولا أن قيض الله لنا صندوقاً آخر ، هو صندوق آخر زمان ، وأعني به هذه السلسلة العجيبة الفريدة من محاضر محادثات الوحدة وانعم بها من محاضر وأكرم بها من محادثات !

ولو ان هذه المحاضر حوت شيئاً يسيراً من التسلية والفكاهة بعد ان خلت من الجدية والرصانة ، لهان المصاب بها وبسلسلتها المخزية التي تحمل في ثناياها كل ما يؤلم ويعيب ويجلب الحسرة في القلب والدمع في العين .

ولكنها مع ذلك ، مع فرط تفاهتها وانصراف الناس عنها ، وهي التي ما رفع الستار عنها الا لتصرف أذهان الناس وعقولهم عما يدور حولهم ويحاك لهم في الخفاء من محن ومصائب أيسرها يدمي وأدناه يدمع . . .

أجل مع كل ذلك فانها ما تزال تنشر ويستمر عرضها على صفحات الصحف وفي الاذاعات ، كأنها أشهر التمثيليات وانجح الافلام التي تتباهى دور السينما والمسارح باعادة عرضها اسابيع وأشهر . . .

* * *

ترى أما من رجل رشيد في هذه الدنيا العربية يضع حداً لهذه المهازل والمآسي التي تحاول أكل العقول واماتة الضمائر ؟

أما من مسؤول في هذا العالم العربي يقنع أصحاب « صندوق فرجة » آخر زمان بأن الناس قد أدركهم الملل والسأم من هذه السلسلة المؤذية والمخزية التي تتولى نشر التفاهات على العالم ؟

صندوق فرجة ؟

وأية فرجة هي هذه الفرجة التي نعرض أنفسنا وبلادنا ومستقبلنا على الناس لنكون مسخرة وأضحوكة !

صندوق عجب ؟

وأي صندوق أعجب من هذا الصندوق الحديث ، صندوق محاضر الوحدة ومحادثات الوحدة وأبطال الوحدة وزعماء الوحدة . . .

« اللهم اننا لا نسألك رد القضاء ولكننا نسألك اللطف به » !

ما عرفت حزباً تسلح ببرودة الاعصاب وأوتي القدرة على ضبط النفس كحزب البعث .

برودة فاقت كل وصف ، وهزأت بأفخم وأشهر ثلاجات العالم ، حتى لتبدو في بعض المواقف والحالات ، وكأنها ضرب من الغباء العفوي أو السذاجة الفطرية المرسلة عن غير قصد ولا تعمد .

ولعل هذا البرود الذي أطمع الناس بالبعث ، هو المبرر لسلسلة الفصول المتعاقبة التي شهدناها وما نزال نشهدها لقصة الوحدة ، ابتداء من الوحدة الثنائية بين مصر وسوريا ، وانتهاء بالثلاثية مع العراق .

فعملية السحل السياسي الذي عاناها البعث زمن الوحدة الثنائية ، أكسبته المزيد من الصبر والمعاناة ، والمزيد من برود الاعصاب ، حتى اذا جاءت التجربة الثانية بمراحل الوحدة الثلاثية التي ما تزال فصولها تمثل في الصحف والاذاعات ، أكسبته بروداً على برود وصقيعاً على صقيع .

وعندما رفع الستار عن مسرحية المحاضر السرية ، حسب الناس ان البعث سوف ينبري للرد عليها وتكذيبها أو على الأقل تصحيحها .

وتدافعت المحاضر تلحق بعضها يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع وصحيفة بعد صحيفة ولساناً بعد لسان وإذاعة بعد إذاعة ، والبعث صامت لا يتكلم الا بمقدار ، هذا إذا تكلم !

ولمس الرأي العام العربي بما لا يدع مجالا للشك والابهام ، أن المحاضر التي تنشر هي أما مجتزأة أو ناقصة أو مختصرة أو مشوهة ، تبعاً للأنامل الرشيقة التي تناولتها بالشطب والتحريف والزيادة والتحوير . بل انها باتت في الآونة الأخيرة مثارا لتفكهة الناس وتندرهم لما حفلت به من طرائف العبث وأفانين المسخ والاختلاط . . فالاستاذ ميشيل عفلق تبين من المحاضر انه كان يتكلم باللهجة المصرية وعلي صالح السعدي يتحدث باللهجة السورية وفهد الشاعر يتكلم بلهجة أهالي بغداد .

بل ان المحاضر كانت تجري على لسان المفاوض السوري بجميع اللهجات الثلاثية المصرية والسورية والعراقية في آن واحد . . . مع العلم بأننا لم نعثر في كل المحاضر السرية التي نشرت ، على مقطع واحد أو جملة واحدة سليمة واضحة مفهومة كاملة المبنى والمعنى ،

نطق بها مفاوض واحد من المفاوضين السوريين والعراقيين . . .

وعبثاً يحاول من يفتش في خضم المحاضر وسيولها على جملة مفيدة غير مفككة نطق بها ميشيل عفلق أو صالح السعدي أو سواهما من المفاوضين . . .

ونحن نعلم كما يعلم الرأي العام العربي أن رأسمال البعث والبعثيين هو هذا الذي حرمته منهم المحاضر السرية ، ونعني به فن الكلام وتوضيح الأفكار ، خاصة وانهم ما زالوا يعيبون على ميشيل بأنه فيلسوف – ويا لها من سبة – ويتهمون البعثيين بأنهم تلامذة أمام أساتذتهم . . .

واذن ، فماذا يبقى من الفيلسوف اذا هو لم يتقن فن الكلام ؟

وماذا يبقى من الأساتذة – ولا نقول التلاميذ – اذا هم عجزوا كما أثبتت المحاضر عن الكلام الواضح المفيد ؟

وتكلم الناس ، جميع الناس ، وتندروا بهذه المفارقة التي حفلت بها سلسلة مفارقات ومتناقضات المحاضر ، وسكت البعث سكوتاً خيل الينا معه ان ما ورد في المحاضر وما دار على ألسنتهم حقيقة واقعة لا زيف بها ولا تزوير أو تحوير . . .

وأخيراً ، وبعد طول استخارة واستشارة قرر البعث المسؤول أن يفتح فمه ويتكلم . . .

فقد صرح أمس ناطق رسمي باسم المجلس الوطني لقيادة الثورة في سوريا بأن ما نشر من وقائع جلسات محادثات الوحدة الثلاثية في الأهرام ، وأذاعته عنها محطات الاذاعة في القاهرة هو تسجيل ناقص نزعت منه بعض المقاطع بشكل لا يبرز وجهة نظر الوفد السوري في بعض الاحيان ولا سيما بعض الوقائع التي حدثت أبان فترة الانفصال وجرى الحديث حولها وحول بعض الأشخاص .

وهنا ، يشعر البعث المسؤول إنه أفرط في الكلام ، وإنه خرج على البرود التقليدي فيسارع للاعتذار قائلاً :

« لقد كنا نريد أن لا نتناول الموضوع من قريب أو بعيد ولكن الواجب علينا أمام الرأي العام أن نشير إلى أن المباحثات التي جرت في القاهرة أثير فيها أكثر من موضوع لم تسجله المحاضر المنشورة والمذاعة ، مع العلم أن هذه المواضيع ليست عسكرية لتطوى من الاذاعة والنشر » !

في كل يوم يقترب فيه موعد الاستفتاء على الوحدة والدستور وانتخاب الرئيس ، ترتفع حمى المهاترات والشتائم ، وتوالي الصحف نشر المحاضر السرية وكأنها سلسلة من روايات الجيب ، أو من الأفلام المتسلسلة التي كانت دور السينما فيما مضى تتولى عرضها على الجماهير أسابيع وشهوراً مع فارق واحد هو أن الروايات والأفلام مسلية إن لم تكن مفيدة ، والمحاضر التي تنشر هذه الأيام ليس فيها ما يفيد أو يسلي ، على العكس ، فيها كل ما يؤلم ويعيب وينكس الرأس حياء وخجلا !

لم تعد قصة المحاضر كقصة عنتر أو سعد الزناتي خليفة . أو كقصة جساس قاتل كليب ، بل باتت ضرباً من طق الحنك ومضغ الكلام الفارغ الذي لا طائل تحته ولا جدوى وراءه ، وليس فيه ما يسلي ويفيد أو على الأقل ما يدفع السأم والملل عن النفوس . . .

والمحزن المؤسف أن يفتح العرب عيونهم على أمر الوحدة ، ليجدوها ملهاة ومضيعة للجهد ، وأداة لقتل الوقت ، وليجدوا أبطالها ورسلها ، وقد كانوا في مخيلة الناشئة العربية أنبياء وأنصاف آلهة ، فاذا بهم دون ما كانوا يحلمون به ، واذا بالوحدة العربية — هذا الحلم الكبير — يتحول بين أيدي الأنبياء وأنصاف الآلهة الى سلعة وهمية مزعومة تعرض في أسواق المزايدات والمناقصات كما تعرض السلع التي تخضع للبيع والشراء والمزايدة والمناقصة . . .

ولست أدري ، وما أحسب أن أحداً يدري ، كيف يمكن أن يأتي يوم ١٧ أيلول القادم ، وهو موعد الاستفتاء على شخص رئيس الدولة الاتحادية الثلاثية ، ولا كيف يمكن قيام الاستفتاء مع قيام هذه الحرب الضروس المستعرة بين دول الوحدة الثلاث : القاهرة ودمشق وبغداد ؟

قد يقول قائل «رب ضارة نافعة» فكشف الستائر عن مباحثات الوحدة ونشر محاضرها ، قد أتاح للرأي العام العربي أن يقف على مبلغ الركاكة والهزل وتدني مستوى المحادثات التي جرت في جو مشحون بالسخف ، مشحون بالخوف ، مشحون بالمهاترة ، مشحون بالحذر والريبة .

واذاعة المحاضر ونشرها في الصحف ، كان عملاً أفاد الشعوب العربية وبصّرها بالحقائق عارية ، عري المحاضر وبعدها عن الجديّة والرصانة والوضوح .

والحق أن الرأي العام العربي بات يتساءل أهي محادثات وحدوية تقوم بين دول ثلاث ، أم هي مهاترات ومشاحنات يقوم بها أفراد من الجيران المتخاصمين في أحد الاحياء الوطنية ؟

أهذا هو المستوى الرفيع العماد الذي ستبنى على سننه صرح الوحدة العربية وتشاد على

أسسه دعائم وحدة ثلاثية عربية اشتراكية ؟

ان أتفه محضر في أبوخ جلسة من جلسات الجامعة العربية التي كانت تعقد قبل عشر سنوات ، يعتبر آية في السمو والرقي إذا ما قيس بهذا الكلام البارد الغث الذي ينشر هذه الأيام والذي يسمى محاضر الجلسات التمهيدية لقيام الوحدة العربية !

أين اجتماعات الجامعة العربية ؟

أين مؤتمر الملوك والرؤساء ؟

أين اجتماع الاسكندرية وبروتوكول الجامعة العربية ؟

بل أين محاضر الطلاب العرب عام ١٩١٤ في باريس عندما قاموا يطالبون بالوحدة العربية منذ قرابة نصف قرن ؟

أين وأين ثم وأين من هذه المحاضر التي تنشر علينا ، على أنها نواة الوحدة العربية المرجوّة وصخرة الاساس لبنيانها العظيم ؟

حقاً لقد هزلت حتى بان من هزالها كلاها !

سُورِيا



لعل من أغرب القضايا التي تعرض على محكمة من المحاكم ، هي القضية التي تنظر فيها المحكمة العسكرية في دمشق بشأن الانقلابيين العسكريين الذين فصموا الوحدة السورية المصرية .

وليس أغرب من محاكمة هؤلاء الضباط الا سوق الرئيس ناظم القدسي ليحاكم بالتهمة نفسها ، وجميع السوريين يعلمون جيداً ان آخر من ينبغي أن توجه اليه التهم هو الدكتور ناظم القدسي ، الذي أعلن اعتزاله العمل السياسي مراراً وتكراراً وغادر دمشق الى حلب ليبتعد نهائياً وليكون بنجوة من أعاصير السياسة وتقلباتها . ولكن رجال الجيش أبوا على الرجل عزلته وذهبوا اليه يتوسلون أن يقبل منصب الرئاسة نزولاً عند مصلحة البلاد .

وتشهد سوريا ، بل تشهد مصر نفسها التي عفت عن طعن وتجريح الرئيس القدسي ، بأن هذا الرجل لم يكن له أي حظ في عمليات التخريب التي قامت على اسم الوحدة في سوريا لا قبلها ولا بعدها . فالقرف والاشمئزاز اللذان سيطرا على الدكتور القدسي ، جعلاه يبتعد تماماً عن المشاركة في أي عمل من الاعمال التي قادت سوريا نحو البلبلة والفوضى ، سواء في عهد الوحدة أم في عهد الانفصال . وما كان بقاء الرجل في كرسي الرئاسة الا استجابة لرغبة رجالات سوريا العسكريين والمدنيين على السواء ، الذين ألحوا عليه قبول المنصب فقبل على مضض كارهاً زاهداً .

وأدعى للغرابة من هذا ، التهمة الموجهة الى ناظم القدسي ، وهي التي توجهها القاهرة إلى حكومة البعث ، وأعني بها تهمة الانفصال ورفض الوحدة الثنائية الفاشلة مع مصر — سبب الازمة الحالية القائمة بين الفريقين .

إذا كان ثمة من أسباب وتهم أخرى يمكن أن توجه الى العسكريين ، ولا نقول الى الدكتور ناظم القدسي وحده — فعلى المحكمة أن تحددها وتجعلها قاعدة للاتهام والمحاكمة .

أما أن تكون تهمة الانفصال هي وحدها العدة والسلاح في تجريم المتهمين ، فذلك ما يأباه المنطق ولا تقره أبسط البديهيات . بل ان التهمة تبدو أقرب الى رجال الحكم الحاليين في سوريا وعلى رأسهم الضباط الذين يجلسون اليوم في كراسي القضاء . فالكل سواء في رفض الوحدة الثنائية ، والكل سواء في طلب الانفصال الذي أراده العسكريون والمدنيون ، وليس ناظم القدسي أو خالد العظم أو أكرم الحوراني أو حيدر الكزبري أو موفق عصاصه ، هم وحدهم الذين نادوا بالانفصال وعملوا على تحقيقه .

فما هي الحكمة الخافية اذن من وراء هذه التهمة وهذه المحاكمة ؟

إذا كان الأمر تأكيداً لطلب الوحدة وشجباً لعملية الانفصال ، فليس حزب البعث بحاجة إلى مزيد من التأكيد بايمانه بالوحدة وبعده عن الانفصال .

واذا كان الأمر عقدة خوف ما تزال تهوم فوق الرؤوس وتفرض سحرها وسلطانها على النفوس ، فلقد تجاوز البعث هذه العقدة – المرحلة وقطعها أشواطاً بعيدة بعد أن قطع الأذناب والأذيال ووضع يده على الجذور والرؤوس ليستأصلها وينتهي من شرورها مرة واحدة والى الأبد .

ولقد استتب الحكم للبعث وقويت شكيمته وهو في طريقه الى إرساء الحكم على قواعد ثابتة راسخة ، فأين هي عقدة الخوف ، بل مم الخوف اذن ؟

إذا كان طلب الانفصال الذي تم بانفصام الوحدة السورية المصرية يعتبر جريمة تعرض صاحبها للسجن وللسوق أمام المحاكم ، فما أحسب أن سوريا بل عربياً مخلصاً لبلده وعروبته الا مدعو اليوم للوقوف أمام محكمة دمشق جنباً الى جانب ناظم القدسي وحيدر الكزبري وغيرهما من المدنيين والعسكريين الذين عملوا على انهاء حكم الوحدة الفاشلة المخربة .

وأما إذا كان في الأمر خافية لا نعلمها فلتعلنها محكمة دمشق قبل أن تشرع في محاكمة المتهمين ، وإلا صح فيها القول :

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر أولاً » .

سرد من التاريخ !

بين الكتب القديمة التي تحمل في طياتها أبلغ العبر ، كتاب « حوادث دمشق اليومية » لصاحبه الشيخ أحمد البديري الحلاق .

ولقد نشرت في عدد مضى نموذجاً عن محتويات « حوادث دمشق » للمؤلف .

وأنشر اليوم جانباً مما جاء في مقدمة الكتاب بقلم منقحه وصاحب مقدمته الشيخ محمد سعيد القاسمي .

ولست أدري إذا كان ولاة دمشق وحكامها سواء السوريين أم غير السوريين ، ممن تقلبوا على كراسي الحكم فيها ، قد أطلعوا على هذا الكتاب ، ليأخذ الخلف منهم العبرة والدرس ممن سبقهم من السلف . . .

أكبر الظن أن الحاكم ، أي حاكم ، تمرس بحكم دمشق ، كان يعد المليون لا العشرة قبل أن يفكر بتولي مقادير الأمور في دمشق . . .

وتعالوا نقرأ فصلاً من فصول « الحاكمين والمحكومين » في عاصمة الأمويين !

يقول الشيخ محمد سعيد القاسمي في مقدمة كتاب « حوادث دمشق اليومية » عام ١٧٦٢ .

« وقد قام المجتمع في دمشق وفي غير دمشق من الولايات العربية ، على وجود هيأتين كبيرتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى : هيأة الحاكمين وهيأة المحكومين .

وقد حاولت الدولة منذ أصطنعت — أو أقرت — هذا النظام ، أن تجعل الخط بين هاتين الهيأتين حاداً . فالهيأة الأولى من العسكر ، يحملون لواء الجهاد والدفاع ، قامت الدولة على إعدادهم للاضطلاع بالمهمة الكبرى التي تنتظرهم ، فجعلت منهم أداة حرب ، ثم كانوا في الوقت نفسه أداة حكم معاً . والفصل بين الاداتين كان غير معروف وغير مفهوم . واستمر ذلك حتى القرن التاسع عشر حين بدأت الدولة تصطنع للحكم والادارة في المركز والولايات ادوات أعدت خصيصاً لهذه الغاية . عندئذ نشأ الانفصال بين أداة الحرب وأداة الحكم .

وقد ترتب على ذلك أن أضيفت على هذه الهيأة — هيأة العسكر — امتيازات جعلت من أفرادها طبقة ممتازة في المجتمع الذي يعيشون فيه

ولكن الخط الفاصل بين الهيأتين أو الطبقتين لم يعد — بعد اختلال أمر العسكر وبيع المناصب — حاداً . حقيقة ظل انفصال المجتمع الى هيأتين : حاكمين ومحكومين ممتازين وغير ممتازين — قائماً ، ولكن لم يعد من الممكن الفصل الحاد بين الهيأتين . . .

وما ان ينتقل أفراد من طبقة المحكومين الى طبقة الحاكمين ، حتى يصطنعوا عقليتها وأساليبها ويذهبوا في التشبث بامتيازات الطبقة الى أبعد مدى . ومن هنا استمرت الفكرة السائدة عند الطبقة الحاكمة ، فكرة الاستعلاء والسيطرة وعدم التحرج عن استغلال الرعية . بل كان استعلاؤهم وسيطرتهم أشد وأعنف . وكان لا بد أن يمضي زمن طويل تجد فيه عوامل أخرى على المجتمع حتى يمكن أن تقوم على هاتين الهيأتين هيأة واحدة ، فيتحول الرعايا جميعاً حاكمين ومحكومين الى مواطنين .

ولكن هذا الاستعلاء وهذه السيطرة لم يقابلهما كفاءة في الحكم ، ومرد ذلك الى ما قلناه من أن هذه الهيأة — هيأة العسكر — أعدت للحرب والجهاد ، ولم تنظم لتحمل مسؤوليات الحكم وأعبائه ، وظلت الصفة الحربية ملازمة لها ، أي ظلت أداة حرب أكثر منها أداة حكم . .

إن قوة الدولة كما تبدو في القرن الثامن عشر كانت قوة مصطنعة أكثر منها حقيقية استمدتها من أساليب الغدر والكيد والتأليب والاثارة ، لهذا لا عجب اذا شعر الجميع في مثل هذا المجتمع بفقدان ضمانات العمل والسعي للكسب ، بل ضمان الحياة نفسها ، وأكبر مثل صارخ لما نقول المصير الذي لقيه أكثر باشوات الشام ، فقد انتهت حياتهم بالنفي والقتل والمصادرة ،

رغم الخدمات التي أدوها للدولة وللولايات التي حكموا فيها ورغم ما جمعوا لانفسهم من أسباب الثروة والقوة ، والدولة ترخي لهم حبال الأمل وتدعهم يجمعون ما يجمعون ؛ وهي واثقة ان هذا سيؤول اليها .

قال باشا صيدا لاسعد باشا العظم عندما رآه يشن على الدروز حرب تخريب وإبادة . فنصحه بالكف عن ذلك قائلاً له : « هذا أمر يعود علينا وعليك بالخراب والتلف ولا ترضى الدولة به ، لأنهم يريدون العمار للبلاد ويكرهون الجور والفساد . قادرون على إرسال عشرة وزراء بيوم واحد ولا يقدرون أن يعمروا في عشر سنين قرية إذا خربت » .

ولكن أسعد باشا عاند واستمر في الحرب ضد الدروز ، وانتصر عليهم . وجمع الثروة الطائلة وبنى العمائر الشاهقة واستكثر من أسباب القوة وحج بالناس أربع عشرة حجة في أمن وسلام .

ولكن هذا كله لم يشفع له . فاذا بالنجم يهوي فينقل الباشا من دمشق فجأة ثم يقتل وتصادر أمواله وأملاكه . ولم تغن عنه شيئاً . ولم يكن حظ الذين سبقوه أو خلفوه في ولاية دمشق وغيرها من الولايات خيراً منه » .

سرد حكاية قاضٍ !

« حوادث دمشق اليومية » كتاب صدر عام ١٧٦٢ أي منذ مائتي سنة . وصاحبه رجل نصف أمي أسمه الشيخ أحمد البديري الحلاق ، من أهالي دمشق وقد سمي بالحلاق نسبة الى مهنة الحلاقة التي كان يتعاطاها المؤلف .

والكتاب عبارة عن يوميات أو مذكرات سجلها الحلاق عن الحياة اليومية في دمشق ، ومشاغل أهلها وهمومهم .

وقد ضم الكتاب مجموعة من الطرف والحكايات يخيل لمن يطالعها أن شيئاً ما لم يتغير في دمشق وطباع أهل دمشق ، حتى ليحسب السوري انه يعيش في هذا الزمن ، كما كان يعيش أجداده وأجداد أجداده من قبله منذ مائتي عام !

فأسلوب الولاة في الحكم وتصرف الرعية مع الولاة والحاكمين يكاد يكون صورة طبق الأصل عن تصرفهم ونظرتهم في هذه الأيام .

وكتاب « حوادث دمشق اليومية » يعتبر طرفة من الطرف بالرغم من ركاكة أسلوب مؤلفه وسذاجته ، وأمانته في ذكر التفاصيل وتسمية الأشياء بأسمائها . .

ولقد أحببت أن أنقل شيئاً من هذا الكتاب ، لا لأنه يعكس صورة صادقة عن « حوادث دمشق اليومية » منذ مائتي عام ومطابقتها لما يجري في هذه الأيام وحسب . بل لأخفف من غلواء الأعزاء الأحباء أهالي حمص . الذين أغضبتهم كتاباتي الأخيرة واعتبروها ماسة بهم وبما اشتهر عنهم من ذكاء وألمعية . . .

ويبدو أن أكثر ما أغاظ إخواننا أهالي حمص إنني نقلت حكايتهم يوم خرجوا لاستقبال المتصرف العثماني بالصرماية الحمراء والقبقاب الخشبي على نحو ما ذكرت الحكاية ، وناقل الكفر ليس بكافر !

ولقد ذكرت هذه الواقعة على أثر مقررات مؤتمر حمص التي أقاموا الدنيا من أجلها ثم قعدوا بعدها ، دون أن ندري أين هي مقررات حمص وماذا فعل الله بها . . . بل ما هي المقررات نفسها ؟

وتهدئة لخواطر الأعزاء أهالي حمص وتطميناً لهم . أسوق اليهم حكاية قاضي الشام الذي ذهب في ساعة غضب الى المحكمة « بيده طبنجة وفي رجله الواحدة بابوجة والثانية حافية ... »

ولأهالي حمص العزاء ولهم أسوة حسنة بالقاضي محمد أفندي بشمقجي زاده . . .

واذا كانت مقررات حمص قد أغضبت أهالي حمص . وهي المقررات التي لا يعرف حقيقتها حتى أهالي حمص أنفسهم . فأجدر بأهالي دمشق أن يغضبوا من أنفسهم على « عادتهم القديمة » التي أعتادوها ، وهي الانقلاب على الحكام وعدم تمكنهم من حكم أنفسهم وانفتهم من أن يحكمهم أحد .

وقديماً قالوا « عادة في البدن لا يغيرها الا الكفن » والله أعلم !

* * *

« وكانت هلة رمضان هذه السنة ، وقبل رمضان بيومين خرج قاضي الشام السيد محمد أفندي بشمقجي زاده . خرج الى الصالحية مع حريمه ، ثم رجع في وقت العصر من الصالحية وحريمه معه ، وهو شاهر السلاح بيده طبنجة ، وفي رجله الواحدة بابوجة والثانية حافية بلا بابوج ، وقد جرح من جماعته شخص ، ولم يزل على هذه الحالة حتى وصل الى المحكمة ثم تبين انه سكران . . .

قال المؤرخ : قد فحصت عن سبب نزول القاضي بهذه الكيفية فتبين الأمر بخلاف ما ذكرنا من كونه سكراناً ، وانما هو من حدة مزاج وقع منه ، والسبب في ذلك انه كانت له سرية (أي جارية) وكان مغرماً بها حتى طلق زوجته لأجلها ، فأرادت زوجته أن تنكد عيشه ، فيوماً من الأيام جاء بعض ضيوف لجاريته التي يحبها . فأرادت أن تضع أمام الضيوف طعاماً

ودجاجاً وغيره من الذي هيأه القاضي للغداء في الصالحية ، فمنعتها زوجة القاضي ، وكانت غير سخية ، فلما جاء القاضي عرفته جاريته بذلك ، وانها لم تضع أمام ضيوفي طعاماً ولا غيره ، ثم صارت تبكي وكان القاضي يحبها فوق العادة ، فقام على زوجته فطلقها . لما قيل أن ذلك سبب طلاقها ، وقام على خدامه فجرد عليهم السلاح وأمر الحريم بالنزول ، وطلب هو المركوب فأبطأوا ، ثم وجد فردة فنزل بها الى الجسر ، ثم ركب ونزل للمحكمة على تلك الحالة ، فأظهرت لأعدائه انه سكر والأمر بخلافه . ثم ما كفى زوجته التي طلقها هذا الفعل ، حتى اشتكت عليه إلى الدولة العلية ، فجاء الأمر بفرمان عزله وبنفيه الى جزيرة قبرص وبضبط ماله جميعه لزوجته فباعوا جميع متروكاته وأخذوا جميع ما عنده من مال فبلغ ثمانية أكياس . فأعطوهم الى زوجته المطلقة وكان ذلك بأمر من الدولة ، ثم تأسفت عليه غالب الناس غير الذين لهم أغراض لما كان عليه القاضي المذكور من الاستقامة والقناعة والتواضع والسخاء الكثير حتى انه في شهر رمضان كان يأكل قنطار من السمن ، ومن الأرز مثل ذلك ومن اللحم كذلك ، حتى انه على الأقل يوجد عنده في رمضان نحو ثلاثين ما عدا الفقراء والمساكين .

ولما كان لا يأخذ الرشوة ولا يميل في دعوى ، مالت أهل الشام عليه مع زوجته حتى سعوا بعزله كما هي عادتهم قديماً » .

من كتاب حوادث دمشق اليومية عام ١٧٦٢ صفحة ١٣١ .

روزنامة ساخرة !

بعد عمر طويل ، وبعد الانتهاء من سلسلة الانقلابات — هذا إذا قدر للانقلابات في دمشق أن تنتهي — سيباهي السوريون العالم بأنهم ضربوا الرقم القياسي بالانقلابات . وستكون مفخرة سوريا في عصرها الحديث ، روزنامة تحمل السجل الذهبي لتاريخ الانقلابات التي وقعت في أقل من ربع قرن . . .

روزنامة لا تختلف كثيراً عن الروزنامات التي نشاهدها في المكاتب وعلى الجدران تحمل صور الزعماء والقادة والرؤساء والوزراء والنواب ، بل والوجهاء وأصحاب نقابات الأفران والحرف المختلفة ، على نحو ما نشاهد من مختلف الروزنامات العصرية الزاهية الألوان المتعددة الرسوم والأشكال .

والروزنامة السورية التي أفترض صدورها بعد عمر طويل لن تحتاج الى تصريح او إجازة ، باعتبار أن أحداً لا يعرف متى يقوم انقلاب جديد ؛ وتقوم معه الضرورة بتبديل وتعديل الروزنامة . . .

والروزنامة السورية العتيدة ستكون طرفة من الطرف وبدعة من البدع ، لأنها سوف تحمل بالاضافة الى تاريخ كل انقلاب رسم صاحبه ببزته وشاراته وأوسمته وعبسته أيضاً . . .

ولسوف يذكر تحت صورة « البطل المنقذ » عبارة مناسبة كالعبارات التي كانت تنقش في الماضي على العملة القديمة . . . كأن يكتب مثلاً « عز نصره ضرب في دمشق » أو « ضرب في حلب » أو « ضرب في حمص » أو « ضرب في حماه » أو « ضرب في المزة » . . . أو « ضرب في ساحة المرجة » . . . مثلاً !

وسوف يلصق في قفا صورة كل بطل انقلاب صورة أخرى لمن كان وراءه — أعني وراء الانقلاب — وليس ضرورياً أن تكون الصورة الخلفية المستترة صورة شخص معين بل قد تكون رمزاً لدولة معينة . . . أو عملة معينة !

وتسهيلاً لمهمة من سيقوم على أمر هذه الروزنامة السورية العتيدة أحببت أن أقوم بتأريخ الانقلابات التي تمت في سوريا خلال الثلاثة عشر عاماً فقط . . . والانقلابات التي ستحدث بعد هذا التاريخ يمكن إضافتها بيسر وسهولة مع إضافة صورة شمسية أو غير شمسية لصاحب الانقلاب !

انقلاب حسني الزعيم :
في ٣٠ آذار عام ١٩٤٩
انقلاب سامي الحناوي على حسني الزعيم :
١٤ آب عام ١٩٤٩
انقلاب أديب الشيشكلي على الحناوي :
١٦ كانون الأول ١٩٤٩
إنقلاب آخر للشيشكلي على حزب الشعب والإطاحة بهاشم الأتاسي والدكتور القدسي في ٣-١٢-١٩٥١
انقلاب مصطفى حمدون على الشيشكلي وانشقاقه في حلب
في أوائل شباط عام ١٩٥٤
مقتل عدنان المالكي عام ١٩٥٥
تنحية شوكت شقير عن رئاسة الأركان .
مؤامرة عام ١٩٥٦
المؤامرة الشيشكلية الحسينية عام ١٩٥٧ وتسلم عفيف البزري رئاسة الأركان .
حكاية الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨

إبعاد عفيف البزري في بداية عهد الوحدة عام ١٩٥٨
تنحية الوزراء البعثيين في أواخر عام ١٩٥٩
تنحية النفوري وأحمد عبد الكريم عام ١٩٦٠
تنحية عبد الحميد السراج عام ١٩٦١
انقلاب ٢٨ أيلول ضد عبد الناصر
انقلاب ٢٨ آذار
عصيان حمص وحلب
مؤتمر حمص وسفر أهل انقلاب ٢٨ آذار الى جنيف
عصيان حلب على مقررات حمص
سيطرة موفق عصاصه ورفاقه على الأركان لمدة يومين
سيطرة أتباع مؤتمر حمص وإخراج موفق عصاصه .
. . . والبقية تأتي !

شيشكلي جديد !

الحلقة المفرغة التي وجد أهل الانقلاب في سوريا أنفسهم يدورون فيها غداة الانقلاب : ما تزال هي هي ، وما زالوا هم أنفسهم يدورون وسطها ولا قرار ولا استقرار .

فالسياسيون المدنيون الذين « خانوا الامانة » كما اتهمتهم وما تزال تتهمهم القيادة العسكرية ، والذين سيقدمون للمحاكمة على نحو ما صرح اللواء زهر الدين رئيس الأركان في مؤتمره الصحفي أمس .

هؤلاء السياسيون المدنيون سيكونون بمثابة « الفزيعة » التي توضع على شجرة التين لاخافة العصافير وطردها . . .

ذلك أن مصير « الطقم » الجديد من السياسيين الذين سيتولون الأحكام ، لن يكون خيراً من مصير أسلافهم . ولن يعدموا بياناً تصدره القيادة العسكرية في ٢٨ أي شهر قادم تعلن فيه تنحيتهم عن كراسي الحكم واحتجازهم في سجن و مستشفى المزة لأنهم « خانوا الأمانة . . » التهمة التي باتت « كليشيه » في كل انقلاب عسكري !

ثم يقف أهل الانقلاب من الضباط يؤكدون ويعلنون على رؤوس الأشهاد بأنهم « زاهدون في الحكم » « عائدون الى الثكنات » وانهم ما أقدموا على ما أقدموا عليه إلا حرصاً على الوطن

ومصلحته ودفعاً لأذى رجال السياسة الذين « خانوا الأمانة » . . .

وتعود حليمة إلى عادتها القديمة ، وتعود معها الحكاية التقليدية للانقلاب . بفصولها وحوادثها وديكورها واخراجها مع اختلاف المخرجين والممثلين الذين يتبادلون الأدوار كل حسب قدرته على التمثيل وقوته على الصمود ومواجهة الجماهير !

ولكن الى متى تدوم هذه التمثيلية ؟ كل الدلائل تشير الى أن الشعب في واد والذين يتناوبون على المسرح السياسي في واد آخر . فلقد ملت آذان السوريين العبارات التقليدية والشعارات الزائفة التي تبطن غير ما تعلن . وتعلن غير ما تبطن .

وليس يفيد الشعب السوري ولا الحكم في سوريا غير الصراحة والوضوح . وتنكب اللف والدوران الذي لف سوريا وما يزال بالظلام والغموض والابهام !

ماذا يريد أهل الانقلاب ؟

ما من أحد يستطيع أن يضع اصبعه على حقيقة واحدة بالرغم من انقضاء هذه الفترة على الانقلاب الأخير ؟ لسنا نعلم ونحن في لبنان على مرمى نداء من دمشق . ماذا يجري بدمشق ؟ بل ان دمشق نفسها ، وحتى أهل الانقلاب فيها لا يعرفون ماذا يريدون ولا أي مركب يركبون .

يريدون الوحدة . ولا يريدون الوحدة .

يحبون عبد الناصر ، ولا يحبون عبد الناصر .

يريدون البقاء في الحكم ويريدون العودة الى الثكنات . . .

يحبون الحرية ويكرهون الحرية .

يريدون عودة رجال السياسة « الذين خانوا الأمانة » ولا يريدون عودة السياسيين الذين خانوا الأمانة !

يحبون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ولكنهم لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم .

يريدون أن لا يحكمهم الغريب ويطالبون بأن يحكمهم الغريب !

يكرهون اليمين وأهل اليمين ولا يحبون اليسار وأهل اليسار .

مع أنفسهم وضد أنفسهم

مع الغريب وضد الغريب

وهلم جرا وسحبا الى آخر المفارقات والمتناقضات التي برعت فيها دمشق واختص بها الدمشقيون حتى أوشكوا أن يكونوا أساتذة العالم في جميع الأقطار في هذا « الكار » !

* * *

واذن ماذا ينقذ سوريا من هذه « اللخبطة » العجيبة ولو لفترة من الزمن ؟
ان ما تفتقر اليه سوريا في هذه اللحظات الحاسمة رأساً يبرز ليقود ، وسيداً يأمر ليطاع .
ما تفتقر اليه سوريا شيشكلي جديد ولا أقول حسني زعيم جديد ! !

هذا الظلام !

« رب يوم بكيت منه فلمــا
صرت في غيره بكيت عليــه »

* * *

عودة الدكتور ناظم القدسي الى الحكم ، تبدو النتيجة الحتمية للصراع الخفي المستتر القائم في سوريا بل هي الخروج من المأزق الكبير الذي وضعه أصحاب الانقلاب بأنفسهم ، ثم راحوا يبحثون في خضم خلافاتهم عن حل دون أن يهتدوا إلى ذلك سبيلا .

والظلام الذي يلف سوريا بالغموض والتكهنات والشائعات ، من شأنه أن يزيد في حدة الأزمة المستعصية الحل . فليست المشكلة التي تواجهها سوريا في هذه الأيام كالمشكلات التي واجهتها طوال الأعوام الثلاث عشرة الماضية التي تمرست بالانقلابات وتمرست الانقلابات فيها حتى تمترست ، وأصبحت وكأنها صفة لازمة للحكم في سوريا .

وليست سوريا جمعية سرية يصح أن تتستر على أعمالها ، أو هي جمعية خيرية يجوز لها أن تعمل بالحديث الشريف « واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

ذلك أن كل يوم يمضي وكل ستار يسدل على ما يجري وراء الحدود السورية ، من شأنه أن يهدد الحدود ذاتها ويهدد الوطن في صميم كيانه .

فالتيارات المتضاربة ، والأهواء المختلفة ، والمصالح المتشابكة ، وفوضى النزعات والميول ، وحدة الخصومة ومرارة الأحقاد . كل ذلك من شأنه أن يزيد في المضاعفات التي يواجهها السوريون والتي يقفون ازاءها حيارى لا يعلمون ماذا يصنعون .

صحيح أن سوريا قد أثبتت ومنذ عهد بعيد انها لا تستطيع أن تحكم نفسها ، وانها لا تطيق أن يحكمها غير أهلها . ولكن هذه الحيرة التي تواجهها اليوم تختلف عن أية حيرة واجهتها قبل اليوم . والقلق الذي استحوذ على أهلها فقسمها شيعاً وأحزاباً وطوائف ودولاً وشعوباً ورايات متعددة مختلفة ، يختلف عن أي قلق عرفته في الماضي .

وعودة الدكتور ناظم القدسي ، الذي جيء به رغم أنفه ، وأقصي عن الرئاسة ، رغم

أنفه أيضاً ، تبدو عودته وكأنها أسلم الحلول المبتغاة ولو مؤقتاً ، للخروج من الظلام الدامس الذي يخيم على سوريا والذي ينذر بشر مستطير هيهات لأي انقلاب من أي نوع كان ومن أي مصدر أتى ، أن يعوض على سوريا وعلى سائر البلدان العربية الخسارة الجسيمة ، بل الكارثة الرهيبة التي تقبع في الظلام !

* * *

انقلابات ؟

لتكن الانقلابات بل لتستمر وليطلع عليها العالم في وضح النهار .

أما هذا الظلام الذي يسود في هذه الأيام ، فانه أخطر وأدهى من جميع الانقلابات التي عرفتها سوريا ، ذلك لأنه سيسلب منها كل شيء حتى القدرة على القيام بانقلابات . . . خبزها اليومي ، وتسليتها في الحكم ، ووسيلتها للبقاء !

مقررات حمص !

« مقررات مؤتمر حمص » هي الراية البيضاء التي رفعت على ربوع الشام لوضع حد للفوضى الناشبة والتي تهددت سوريا بأوخم العواقب . و « مقررات مؤتمر حمص » هي بمثابة الترياق الذي قيل عنه في الأمثال بأنه يأتي من العراق . . .

ولست أدري إذا كان من حسن حظ سوريا أو سوئها أن يجيء الترياق في هذه المرة من حمص ولم يأت من العراق أو من مصر . ومع أن الدلائل كانت تشير في بادىء الاضطرابات ، ان مدينة خالد بن الوليد تنشد الترياق من مصر وليس من العراق او الأردن أو أية جهة أخرى ، بدليل الهتافات والمظاهرات والشعارات التي رفعت على أسم الوحدة وعلى اسم الجمهورية العربية المتحدة .

ولكن ما هي مقررات مؤتمر حمص ؟

ان مقررات مؤتمر حمص تطالب فيما تطالب بعودة الضباط المسرحين ، وباجراء استفتاء جديد على الوحدة .

ومن هم الضباط المسرحون ؟

إنهم الضباط الذين سرحتهم الجمهورية العربية المتحدة في « عز » أيام الوحدة !

الوحدة التي ثار ضدها رجال سوريا حكومة وجيشاً وشعباً ، والتي انتهت على الصورة المخزية التي عرفها القاصي والداني ، والتي لا تشرف أحداً لا من المسؤولين المصريين ولا من

الضباط المسرحين ولا من طلاب الوحدة مجتمعين ومتفرقين !

واذن فما معنى مقررات مؤتمر حمص ؟

وما هي الفائدة المرجوة التي عساها تجنيها سوريا من مقررات هذا المؤتمر ؟

بل ما عسى مصر وطلاب الوحدة أن يجنونه من هذه المقررات « الحبر على الورق » ؟

شقشقة لسان ، وكلام بكلام لا يسمن ولا يغني من جوع !

أو هو على الأصح الأغلب ، محاولة يائسة لستر السموات بالقبوات كما يقول العامة عندنا...

وما السموات غير اسطوانة « الوحدة » وما القبوات غير مقررات مؤتمر حمص أعزك الله !

* * *

وتذكرني مقررات مؤتمر حمص بهذه المناسبة والشيء بالشيء يذكر بغضبة أهالي حمص من أهالي حماه في الماضي كما يرويها الثقاة المخضرمون المطلعون .

فقد أختلف أهالي حمص مع أهالي حماه ، كما تقول الحكاية ، بسبب مياه نهر العاصي . وقرر الحماصنة أن يضعوا حداً لخلافهم مع الحمويين فاقتطعوا نهر العاصي بجبل يفصل مياه النهر . . !

وكان أهالي حمص يستغفلون جيرانهم في حماه فيركب بعضهم الزوارق ليفرغوا مياه نهر العاصي التي يفصلها الجبل – الحد الفاصل بين المدينتين – في حدود مدينتهم حمص !

ومقررات مؤتمر حمص لا تشبه الجبل الذي فصل به الحمصيون نهر العاصي عن مدينة حماه ، ولكن هذه المقررات تشبه أيضاً والى حد بعيد شجرة التوت التي حشاها أهل حمص بالديناميت وقطع الحديد ووجهوها نحو مدينة حماه انتقاماً وتشفياً من أهالي حمص . . .

قالوا وتجمع شباب حمص وأهل الرأي فيها وأشعلوا الفتيل داخل شجرة التوت التي جعلوا منها لغماً كبيراً مصوباً نحو مدينة حماه . . . وانفجرت شجرة التوت بينهم فقتلت من قتلت وجرحت من جرحت ، وانبسطت أسارير أهل حمص وراحوا يتيهون من نشوة الغبطة والانتصار وهم يلملمون قتلاهم وجرحاهم قائلين مغتبطين منتصرين : إذا كانت أوقعت بيننا نحن كل هذا العدد من القتلى والجرحى في حمص ، فما عسى يكون عدد القتلى والجرحى في حماه ؟ !

* * *

إذا كان لمقررات مؤتمر حمص حسنة ، فنرجو أن لا تكون حسنتها كشجرة التوت التي وجهها أهالي حمص نحو أهالي حماه . .

ومن حسن حظ حماه في هذه المرة إنها وقفت على الحياد فلم تبد ولم تعد ولم تعلن موقفاً عدائياً لا من حمص ولا من دمشق ولا من حلب نفسها . . !

* * *

وقى الله سوريا من مقررات مؤتمر حمص ، ومن شجرة التوت في حمص ، ومن حبل الحدود الفاصل نهر العاصي بين حماه وحمص . . .

إنه نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة الا بالله وانا لله وانا اليه راجعون !

مقررات حمص !

مرة ثانية وثالثة أعود إلى مقررات مؤتمر حمص ، وأتساءل بمثل براءة وسذاجة وطيبة أهالي حمص : لماذا كانت حمص هي صاحبة المؤتمر وصاحبة المقررات ؟

لماذا حمص بالذات وليست دمشق أو حماه أو حتى حلب التي انتفضت وشاركت حمص في غضبتها وتمردها ، حتى طلبت من صوت العرب أن يمدها بالطائرات على نحو ما ذكرت الأخبار والاذاعات والشائعات ؟ والحق أقول ، إنني لم أجد جواباً شافياً على تساؤلي ، بالرغم من فلسفة المتفلسفين واجتهاد المجتهدين ، غير الطيبة والبراءة والسذاجة التي دعت حمص وأهالي حمص لوقوفهم الموقف الأخير الذي شهدنا ، والذى ظهرت آثاره ونتائجه في المقررات « الخطيرة » مقررات مؤتمر حمص . . .

من حق حمص علي أن أصدقها القول ، وأن أعترف لها بمزيد حبي وإكباري وإعجابي بطيبتها وطيبة أهلها التي بلغت حد السذاجة والبراءة التي تعود الناس أن يجعلوا منها مجالاً للتندر والفكاهة .

من حق حمص وأهالي حمص أن أحيي فيها براءة الصدق وسذاجة الايمان التي دفعت بها وبأهلها لركوب هذا المركب الذي جعلها هدفاً للهزؤ والتنكيت . . فليست حمص ولا أهالي حمص هم وحدهم الذين آمنوا بمثل ما آمنوا به ، واندفعوا وراء ما اندفعوا اليه بحماسة المؤمن وسذاجة الصادق المخلص فلقد آمن جيل كامل من الشباب العربي بمثل ما آمن به أهالي حمص وتعبدوا في محرابه السنين الطوال وشهدوا الآمال العريضة والأحلام السعيدة تذوب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس ، وحرارة الواقع المرير الذي تتقلب فيه دنيا العرب نتيجة الكذب والتدليس والنفاق الذي أطعمهم إياه السادة الزعماء ممن وثق بهم الجيل العربي ووثقت بهم حمص وأهالي حمص .

ولست أجد شبيهاً لحمص وأهالي حمص غير دمياط وأهالي دمياط .

فلقد ركبهم المصريون بالنكت والتندر والقفش والتركيبات حتى أصبحت كلمة « دمياطي » تعني في بعض الوجوه ما تعنيه كلمة حمصي ، وان كنت لا أستطيع أن أنكر أن ثمة فارقاً كبيراً يبعد بين أهالي حمص وأهالي دمياط . . وان الصيت لدمياط في مصر والفعل لحمص وأهالي حمص في سوريا . فأهالي دمياط أذكى وأحرص وأشطر أبناء مصر على الإطلاق ، بل انهم في الواقع هم الذين يستغفلون ويضحكون على غيرهم في الوقت الذي يحسب غيرهم بأنهم مجالاً للتنكيت وعرضة للتندر والضحك !

ولكن سامح الله حمص وأهالي حمص ، فلقد وقعت ووقع أهلها بما لم يقع فيه أهالي دمياط ، وأصبحوا في هذه الأيام عرضة للهزوء والتندر والسخرية . ذلك أن مقررات مؤتمرهم كشفت الستار عن معدن السذاجة الاصيلة التي عرف بها أهالي حمص في الوقت الذي وقفت فيه حماه العدوة التقليدية لحمص موقفها الذكي المتربص ووقفت دمشق موقفها التاريخي التقليدي المعروف . . .

* * *

حكاية جديدة فاتني أن أذكرها لقرائي أمس في معرض الحديث عن حمص ومقررات مؤتمر حمص . . .

فلقد تحدثت عن « دك التوتة بالديناميت » وتحدثت عن الحبل الذي قطع به أهالي حمص نهر العاصي وجعلوه مناصفة بينهم وبير مدينة حماه . ولكنني نسيت أن أذكر حكاية أهل حمص عندما زارهم المتصرف العثماني وتنادوا فيما بينهم للخروج لاستقباله . . . قالوا كانت الشمس طالعة وتساءل الحماصنة فيما بينهم :

هل يلبسون الأحذية أم يلبسون القباقيب الخشبية . وقال بعضهم ان الجو صحو وانه من المستحسن أن ينتعلوا الأحذية (الصرماية الحمراء) وقال البعض الآخر :

واذا أمطرت الشتاء فماذا نعمل ؟

وقر الرأي أخيراً على أن ينتعلوا فردة حذاء وفردة قبقاب . . . وهكذا كان وذهب وجهاء حمص لاستقبال المتصرف العثماني بالقبقاب في الرجل اليمنى والصرماية الحمراء في الرجل اليسرى ! !

* * *

لست أشبه مقررات مؤتمر حمص الا بالاستقبال الذي استقبل به الحماصنة المتصرف العثماني في الماضي . . .

وزيادة في الشرح والايضاح ، ليراجع القارىء بنود المقررات ، وليلقي نظرة عامة على ما جرى ويجري حوله في خضم الأحداث التي دارت وتدور في سوريا وفي فلك لا يمت من قريب أو بعيد بفلك حمص وأهالي حمص ومقررات مؤتمر حمص . . !

حلٌ واحد لا حلاّن !

وجه المأساة السورية ، والخطورة البالغة كل حد وكل مدى وكل وصف ، لا تكمن في الانقلاب الأخير ، ولا في التمرد الذي قام في أعقاب الانقلاب ، بقيام مدن حلب وحمص واللاذقية وانتفاضها على انقلابيي دمشق ، حتى أوشكت المدن الثلاث أن تصبح دولا ثلاثاً . . .

فلقد سبق « الفصل » لسوريا وعرفت المزيد من الانقلابات طيلة ثلاثة عشر عاماً ، حتى باتت الانقلابات بالنسبة لها ولشعبها شيئاً مألوفاً كالسيران الذي يقوم به أهالي دمشق . . .

ولقد كان عمر الانقلاب يطول ويقصر نتيجة لطول أو لقصر باع صاحب الانقلاب نفسه . وكلما كان صاحبه قوياً كلما طال عمر الانقلاب والعكس بالعكس .

بل ان تجربة الوحدة التي طالت حوالي أربعة أعوام ، لم تكن في الواقع إلا انقلاباً ولكن من نوع جديد ، أضيف إلى سلسلة الانقلابات التي عرفتها سوريا منذ أن دشن حسني الزعيم عهد الانقلابات فيها .

ولكن هذه المرة غير كل مرة تماماً . . .

صحيح أن الهدف الأساسي المستتر لزوماً أو جوازاً من وراء كل انقلاب ، هو السيطرة والحكم ، أياً كانت الذرائع والوسائل والحجج ، غير أن الرياح الهوجاء التي عصفت أخيراً في سوريا تختلف عن سائر الرياح التي عرفتها دمشق في تاريخها الحديث . ذلك أن كل انقلاب كان يقع ، كانت أهدافه وغاياته ووسائله معروفة واضحة لا يلبث الشعب السوري طويلا حتى يتخذ منها ومن صاحبها موقفاً معيناً .

كانت الشعارات – جميع الشعارات سياسية أو شخصية أو محلية ، ترفع في أعقاب كل انقلاب .

وكانت الرؤوس التي تقود الانقلابات لا تلبث وراء الكواليس طويلاً ، بل تبرز على المسرح لتواجه الشعب وتتحمل المسؤولية كاملة في قيادة الانقلاب وتوجيهه .

ولكن الأمر ، في هذه الأيام يختلف عن غيره كل الاختلاف .

فالانقلاب السوري الأخير ، لا رأس له ، ولا وجه ولا لسان ، وليس له بالتالي أي شعار يرفعه ليتمكن من الحكم بواسطته أو من خلاله .

فالرؤوس — إن كان ثمة من رؤوس — مختبئة لا تقوى على مواجهة الجماهير .

والوجوه — إن كان ثمة من وجوه — مختلفة متباينة . والالسنة — إن صح ان هناك ألسنة — كثيرة متعددة اللهجات والاتجاهات . . .

وهنا ، هنا وجه المأساة . هنا الخطورة البالغة كل حد وكل مدى وكل وصف .

هنا مكمن الداء الذي استشرى في قلب سوريا ويوشك أن يمزقها شيعاً وأحزاباً لا تعرف أي سبيل تسلكه ، ولا أي شعار ترفعه ولا أية راية تستظل بها ، أو قيادة تسير وراءها !

وجه المأساة في سوريا ، أن شهوة الحكم التي عصفت ببعض النفوس ، لم تجد مرتكزاً واحداً تستند اليه ، ولا ستاراً واحداً تتستر به ، حتى فشل السياسيين القدامى ، وسلسلة الفضائح الطويلة التي عمر بها تاريخهم القديم والحديث ، حتى هذا لم يعد شيئاً مسوغاً بنظر الشعب السوري لقيام الضباط بحركتهم الأخيرة واستلامهم الحكم .

ذلك أن التعب قد تعود سماع الفضائح عن السياسيين المدنيين ، يكيلها بحساب ومن غير حساب كل صاحب إنقلاب .

ولكن من قال إن الحكم العسكري والطامعين بركوب الكراسي ، مبرأون من كل عيب منزهون عن كل فضيحة ؟

أجل لقد تعود الشعب في سوريا وفي كل بلد عرف طعم الانقلابات ، أن يسمع سيول التهم والمخازي تنهال على أم رأس السياسيين . وبالرغم من ذلك فان الشعب لا يستطيع أن « يبلع » حكم الضباط أصحاب الانقلاب ، لا لأنه يشك بنواياهم وحسب ، ولا لأنهم ليسوا فوق الشبهات وحسب ، بل لسبب أهم وأسمى من كل ذلك .

فالحرية التي كفلت للشعب مقاضاة السياسيين المدنيين وفضحهم بالقول والكتابة والخطابة .

هذه الحرية ، كبرى النعم التي يتمتع بها الشعب ، تصبح مشلولة مغلولة في ظل كل حكم عسكري ، ولا سيما في ظل حكم يقوم في أعقاب انقلاب شبيه بانقلاب الضباط في دمشق .

* * *

حل واحد لا ثاني له .

أن يتوارى أصحاب الانقلاب في دمشق عن خشبة المسرح السياسي .

وليس هذا بكثير على انقلاب لم يجرؤ فيه رأس واحد أن يرتفع ولا شعار واحد من الشعارات أن يبرز .

الانقلاب السوري
والشيخ الكبسي

المرحوم الشيخ عبدالله الكبسي مندوب اليمن السابق في الجامعة العربية ، عادت ذكراه في هذه الأيام حية عاطرة ، طيب الله ثراه . . .

فقد رثته الصحف المصرية بالتنكيت والتندر وشاركتها سائر الصحف العربية وجميع الأندية والمحافل السياسية ، حتى ضرب بمندوب اليمن المثل . فقد حضر المرحوم عبدالله الكبسي إحدى جلسات مجلس الجامعة العربية في القاهرة ، وأعلن عند افتتاح الجلسة أنه يحضر كمستمع . . .

ومنذ ذلك اليوم أصبح اسم مندوب اليمن المستمع مجال التنكيت والتسخيف .

ويبدو أن الحكمة البالغة التي تذرع بها مندوب اليمن الشيخ الكبسي ، إزاء منازعات الدول العربية ومناوشاتها واختلاف وجهات نظر أعضائها : هي التي أملت عليه أن يقف موقف المتفرج ويجلس بين صفوف الأعضاء جلسة المستمع .

فلقد عرف الشيخ الكبسي – قدس الله سره – أن الكلام وتوجيه النصائح مضيعة للوقت ولا فائدة ترجى من ورائه . وان تخلفه عن حضور جلسة الجامعة ، قد يؤول تفسيره تأويلا سيئاً . . . فآثر أن يحضر كمستمع ، وهذا أضعف الايمان وأقل الشرور !

ولقد أثبتت الأيام وأكدت التجارب التي مرت وتمر على البلاد العربية عموماً وعلى سوريا بصورة خاصة ، أن جانب الصمت والتريث – كيلا نقول الفرجة والاستماع – هي أولى وأجدى وأقوم سبيلا . وما أمر الانقلاب السوري الأخير – وليس الآخر – إلا آية صدق على صواب رأي الشيخ الكبسي مندوب اليمن المستمع قدس الله سره ونفع الزعماء العرب بثاقب رأيه وبصره !

لقد قامت القيامة على الحكومة اللبنانية لانها أبطأت في الاعتراف بالانقلاب السوري الذي وقع قبل ستة أشهر ، وكانت هدفاً لحملة قاسية لأنها تقاعست وتلكأت في إرسال وفدها الى دمشق للتهنئة والتبريك .

واليوم ، وما أشبه اليوم بالأمس ، من عساه يجرؤ على العتاب أو مقاضاة الحكومة الحساب ، إن هي تلكأت وأبطأت في الاعتراف بالانقلاب الجديد وتهنئة أصحابه ؟

بل من تراه يعلم ما يخبئه الغد ؛ والغد في دمشق غيره في أية عاصمة من عواصم العرب . . .

إنه أحجية عمرها ثلاثة عشر عاماً ولدت يوم قام باجي سقا دمشق « حسني الزعيم » بأول إنقلاب في سوريا ثم « كرت » المسبحة . . . وستظل الأحجية تكبر وتكبر وتزداد تعقيداً يوماً بعد يوم !

* * *

رحم الله الشيخ الكبسي مندوب اليمن المستمع وما أحرانا في لبنان أن نستفيد من حكمته وتجربته التي عاشها مع الجامعة العربية ، ونحن نعيش اليوم في تجربة الانقلاب السوري الأخير الذي لن يكون الأخير !

« المارش » الجديد ...
« والبدن » المحترم !

« البدن » المحتّرم الذي أكله حضرة النائب السوري المحتّرم الأستاذ راتب الحسامي ، وكيل مجلس الأمة سابقاً ، ونائب حمص فقط لا غير في الوقت الحاضر . . .

هذا « البدن » بلغة أهل لبنان و « العلقة السخنة » بلغة أهل مصر ، لا يضير النائب المعتدى عليه ، بقدر ما يضير المعتدين أنفسهم والبرلمان السوري نفسه .

نقول هذا لا لأن « البدن » كان بلا حيثيات ، إذ جاء قبل أن يدلي الحسامي برأيه ، بل لأن هذا العمل أياً كان سببه ومهما كانت الدوافع اليه ، هو عمل همجي ينتقص من حرمه الديمقراطية والبرلمان !

إننا نتساءل إذا كانت الحرية الجديدة في سوريا لا تتسع لكلمة حرة يقولها نائب محتّرم في مجلس النواب ، فماذا تكون إذن هذه الحرية ؟

وإذا لم يكن للعهد الجديد في سوريا حسنة الاستماع الى جميع الآراء فأية حسنة تكون له ؟

إن إذاعة دمشق التي تصر في المدة الأخيرة على أن لا تتخلى عن مكانها في مهرجان الشتم بين الدول العربية . إذاعة دمشق هذه ، لا تجد ما تديره من الأسطوانات غير اسطوانة الحرية والديمقراطية .

فما بال النواب السوريين يتصرفون وكأنهم لم يستمعوا إلى هذه الأسطوانة « المارش » الجديد للجمهورية العربية السورية الجديدة ؟

هل من الديمقراطية والحرية والبرلمانية أن لا يستطيع نائب محتّرم كالأستاذ راتب الحسامي أن يفتح فمه في وجه معروف الدواليبي ؟

إن راتب الحسامي ، كما نعلم ويعلم غيرنا ، هو من أبرز الوجوه البرلمانية في سوريا . هكذا كان أثناء الوحدة وقبل الوحدة ، بل هو كذلك اليوم ، وهو النائب الذي جاء الى المجلس بعدد من الأصوات يفوق غيره كما تشهد نتائج الانتخابات السورية الأخيرة !

فاذا كانت أيدي « بلطجية » المجلس ، لم تتورع عن تناوله ، — على جاهه وعلمه وفضله — بالصفع والدفع والركل والرفس ، فمن من ترى هذه الأيدي تتورع ؟

واذا « أخذت » هذه الأيدي على النواب منذ اليوم ، فما هو السبيل الى إيقافها عند حد في الغد ! ؟

* * *

على من يريد أن يدخل عن جدارة واستحقاق مهرجان الشتم العربي ، سواء أكان في دمشق أو في القاهرة أو في مكة أو تعز أو أو إلى آخر العواصم المتنابذة المتشاتمة . . . على من يريد أن يحظى بشرف الأولوية والسبق في الشتم ، أن يحرص على أن لا يدير اسطواناته إلا بما هو براء منه . والا جاء « البدن » المحترم تكذيباً محترماً لانغام الحرية والديمقراطية المنبعثة من دمشق !

المصالحة الوطنية !

حديث المصالحة الوطنية في سوريا الذي كتبنا حوله وسميناه بالحديث المشبوه ، لا بد من العودة اليه ، بعد أن عاد مجدداً ، فكثر اللغط حوله وتعددت الآراء والاجتهادات بأساليب مختلفة متنوعة ، مصدرها ومحركها واحد لا ثاني له .

فما أن فشلت المؤامرة الدموية الاجرامية في دمشق ، وتم إعدام الدفعة الأولى من المتآمرين ، وما إن ألقي القبض على رؤوس الفتنة في سوريا — بعد أن قرعت الطبول وأطلقت الصفارات تعلن انهم هربوا الى القاهرة وبيروت ! — حتى برز حديث الدعوة الى المصالحة الوطنية وتصاعدت الأنغام الرقيقة الحزينة المنكسرة ، بعد أن كان لا حديث إلا حديث قطع أعناق البعثيين ولا دعوة إلا دعوة الانتقاض عليهم وعلى حكمهم ، ولا نغمة إلا نغمة الضرب والطعن والثأر وتكشير الأنياب وصرير الأسنان . . .

فماذا عدا مما بدا كيما تتغير الأسطوانة فجأة ، وينقلب اللحن العنيف الثائر المدمر ، الى لحن شجي إنساني رقيق ، ينشد الرحمة والشفقة وتناسي الخصومات والأحقاد ، ويدعو إلى إجراء مصالحة وطنية ؟ ؟

الذي حدث ، كما عرف الناس ، أن « الأبطال المناضلين المجاهدين » الذين حملوا السلاح وقاموا بتنفيذ المؤامرة — المذبحة ، القي القبض عليهم جميعاً وأصبحوا في قبضة العدالة . ويبدو أن تسهيل فرارهم من السجن أمر غير وارد ، ونزول فرقة من السماء بالباراشوت الى ساحة المزة وخطف « الأبطال المناضلين المجاهدين » عمل غير ميسور . . .

وإذن ، فقد قضي الأمر ، وباتت الأعناق المهددة بالقطع ، ليست أعناق الحاكمين البعثيين ، ولكنها أعناق المتآمرين المجرمين ، المناضلين بالأجر ، المجاهدين بالمعاش !

لسنا ندري لو أن أصحاب الانقلاب في دمشق كتب لهم النجاح في تمردهم — لا سمح الله ولا قدر — وأصبحت رؤوس البعثيين بين أيديهم . هل كان حديث المصالحة الوطنية يدور على لسان واحد من هذه الالسنة الدعية المأجورة التي تستأهل القطع من البطن لا من الحلق وحسب ؟ !

أما كانت الدعوة إلى المصالحة تعتبر تجديفاً على العروبة والثورة والوحدة ؟

حديث المصالحة الوطنية ، ليس حديثاً مشبوهاً ، بل هو دسيسة مكشوفة لا تقوم إلا في ذهن تافه لعوق . ولا تستقر إلا في رأس فارغ أخرق ، وهو فضلاً عن ذلك لا يحمل إلا معنى واحد ، هو الإبقاء على رؤوس الفتنة وإعطاؤهم الفرصة للقيام بمؤامرة جديدة ومذبحة ثانية ، لعل وعسى تتحقق الاحلام والآمال . فينجحون حيث أخفقوا أول مرة . ويستتب الحكم لهم ولعملائهم وزبانيتهم ، ولتعود الى المزة أيام عزها ومجدها . بعد أن أصبحت عهد البعث سجناً رهيباً ، وكانت في عهودهم الزاهرة جنة عدن التي وعد بها المتقون !

ونحمد الله على أن هذه الدعوة الخبيثة لم تلاق في سوريا إلا كل ما تستحقه من زراية واعراض واستخفاف . فأقنعة الكذب والتدليس والتضليل قد انحسرت عن الوجوه والنوايا التي تستبطن كل غدر ومكر ووقيعة ، وكان خير رد على هذا الحديث كلمة اللواء أمين الحافظ إذ قال : « إن المصالحة الوطنية غير وطنية » !

حكومة الأقطاب !

لست أدري لماذا باتت تطن في أذني هاتان الكلمتان « حكومة أقطاب » منذ أن حملت أنباء دمشق إشاعة مؤداها أن الساسة السوريين التقليديين يفكرون بحكومة تقليدية تجمع في وزارة واحدة بكوات سوريا وأغواتها وافنديها ممن عرفتهم كراسي الحكم في سوريا حتى تعفنت من تحتهم !

« حكومة أقطاب » نغمة طالما سمعناها في الأقطار العربية وفي لبنان كلما ساءت الحال في البلاد حتى خيل لساستها أن الموسم هو الموسم الأنسب لقطاف المناصب والمغانم والسبايا .

إنهم « أكلة الجبن » كما سماهم الرئيس فؤاد شهاب : مصوراً النهم الذي يستولي على فئة الساسة التقليديين في بعض المناسبات فيعمدون الى تنظيم القسمة بين بعضهم البعض . فيأخذ كل منهم حصته من قطعة الجبن لا تزيد ولا تنقص . وما قطعة الجبن إلا مقدرات البلاد وحقوق العباد .

فأولئك الذين تعودوا هنا وهناك ، أن ينعتوا أنفسهم بالأقطاب . ليسوا أقطاباً إلا في شيء واحد ، هو طلب الحكم في كل وقت وبكل وسيلة وبلا أي شرط !

فليسوا هم بالأقطاب في العلم . ولا هم أقطاب بالفضل . ولا هم أقطاب في الرأي والعقيدة ؛ ولا هم أقطاب في الصبر والجهد والجهاد .

وكل ما في الأمر أن هؤلاء يستفيدون من فرصة غياب الشعب وضعف الوعي في صفوفه كيما يطلوا برؤوسهم لمناسبة ولغير مناسبة يطلبون الشيء نفسه لينفذوا الأشياء نفسها . لا يعدلون فيها ولا يغيرون !

هذه الفكرة المخضرمة هي قبيحة في كل آن . ولكنها أقبح ما تكون عندما تكون البلاد في ظرف خطير كالظرف الذي تعانيه سوريا اليوم .

فسوريا الخارجة من حكم عبد الناصر الذي يمثل تقدماً كبيراً على حكم الساسة التقليديين المخضرمين ، سوريا هذه لا تستطيع أن تعود إلى الوراء عشرين عاماً أو أكثر لتعيد إلى الحكم نفس الأشخاص ليحكموها نفس النوع من الحكم !

فالشعب في سوريا ، مهما يكن شعوره نحو مفاسد الحكم السابق : لا يمكن إلا أن يفضل الحكم السابق على حكم السادة الأماجد الأقطاب .

فألف صلاة وسلام على الخبراء والموظفين والمهندسين والأطباء الذين كانوا وزراء في عهد عبد الناصر ، بالنسبة لهؤلاء البكوات والأغوات والأفندية !

وألف صلاة وسلام على الاشتراكية مهما كان تطبيقها ناقصاً أو سيئاً ، وعلى الاصلاح الزراعي مهما يكن فظاً ، بالنسبة للمشاريع والمطامع والصفقات التي تعود الناس أن يجدوها تبرز الى الحكم بمجرد بروز السادة الأماجد الأقطاب !

وليس هذا بالشعور العجيب ، بل هو الشعور الطبيعي . وما عداه هو العيب وهو الغريب . . . إذ كيف يمكن أن نتصور أن حكماً مثل حكم هؤلاء السادة يمكن أن يملاء في قلوب الناس الفراغ الذي تركه حكم عبد الناصر ؟

إننا نعرف أن سوريا من أنضج الشعوب العربية فهماً سياسياً ووعياً وطنياً . ولذلك فنحن نستبعد جداً أن يكون حكم الأقطاب هو الحكم الذي تفكر فيه سوريا ليخلف الحكم السابق ، فهي إن فكرت تكون قد فكرت في يومها لا في غدها وفي حاضرها لا في مصيرها ومستقبلها .

* * *

إن أي مكسب تكسبه سوريا من وراء تجمع ساستها التقليديين في وزارة ائتلافية لا يوازي الخسارة التي تخسرها عندما تضع حكم هؤلاء في مقابل حكم عبد الناصر ، إذ عند ذلك يرجح بطبيعة الحال حكم الرجل الثائر !

فالمطلوب إذن ، أن تبرهن سوريا على أنها قادرة على أن تستبدل بالحكم الذاهب حكماً أفضل منه . والمطلوب أن تبقى في سوريا الحكومة التي عرفت أن تستقطب الشعب ، عوضاً عن حكومة أقطاب تستقطب المصالح وتنفر الشعب !

سوريا الامس
وسوريا اليوم!

لبنانان لا لبنان واحد . . . ولبنان الثاني ليس « الطائفة المسيحية الشقيقة » كما يقول صائب بك . . . ولا « الطائفة الاسلامية الشقيقة » كما يقول الشيخ بيار . . . بل هو سوريا الجديدة ، سوريا التي تتحدث عنها الصحف من لبنان وتروي للناس أخبارها كل طالع شمس .

لقد أصبحت سوريا ، أو كادت تصبح ، بمصطلحاتها السياسية ومخططاتها الرسمية ، وأفانين الحكم فيها ، أشبه ما تكون بهذا البلد الذي نعيش فيه ، لا تختلف عنه في شيء .

ففي الصحف السورية اليوم ، حديث دائم عن الكيان السوري والشخصية السورية والاشعاع السوري ، تماماً كما تتردد هذه الالفاظ في أوساط لبنان وعلى أقلام اللبنانيين .

وفي الصحف السورية نشيد دائم لا تنقطع أنغامه يحور ويدور على الوحدة الوطنية وتجميع الصفوف ، وائتلاف الاقطاب ، وتقارب الأضداد . . . على الطريقة اللبنانية ليس فيها كثير تغيير ولا تبديل !

وفي الصحف السورية ثناء عاطر على نعمة التجارة الحرة والاقتصاد الحر ، والرأسمال الأجنبي والوطني يرتع كما يشاء ، مما تردده عندنا الألسنة وتطرب له الأسماع صباح مساء .

وفي الصحف السورية هجوم على التطرف والمتطرفين ، ودعاة الوحدة والوحدويين ،

ومبادىء الاشتراكية والاشتراكيين . . .

وفي الصحف السورية شكوى من تدخل الدول العربية بعضها بشؤون بعض ، وعدوانها الواحدة على حدود الأخرى . . .

ومع أن اللبناني لا تنقصه فضيلة الغرور ، ولكنني أشهد أن الغرور اللبناني ، صاحب حق شرعي بالتضخم والانفلاش كلما وقعت عينه على صحيفة سورية .

ففي مثل هذه الحالة يشعر اللبناني ، ولعلها الأولى ، بأنه مثل يحتذى وقدوة تقتدى ، وصورة تقلد . .

ويشعر كذلك أن في بلدان العالم ، من يرى في الأوضاع اللبنانية غاية الكمال ومنتهى الآمال . فهو يسير بخطى سريعة ، ليصبح في كل ناحية من نواحي الحياة نسخة أخرى عن لبنان . . .

الله الله يا دنيا ، وسبحان مغير الأحوال !

سوريا التي كانت تأبى إلا أن تكون معلمة السياسة ، ورائدة الحركات الانقلابية ، وموئل العقائد الاجتماعية الثورية . . .

سوريا هذه باتت تنظر الينا اليوم ، لتأخذ عنا ، وتقتدي بنا ، وتقتبس منا . . .

أستغفر الله ثم أستغفر الله ، لقد أخجلت تواضعنا يا سوريا !

كنا نظن حتى الأمس القريب ، إن أمراضنا الوبيلة كالطائفية مثلاً هي التي تجعلنا نرضى بالنظم السياسية القائمة . وكنا نحسب ان القناعة بالواقع مصدرها أنه « ليس بالامكان أحسن مما كان » حتى جئت اليوم يا سوريا ترشدينا الى ما لم نكن نعلم ، وتعظينا بما لم نكن نعرف !

فشكراً لك ثم شكراً . . . بانتظار عبر الأيام وحكمة التجارب ، فلعلك تستيقظين في غد قريب أو بعيد لترددي قول الشاعر :

« رب يـــوم بكيت منـــه فلمـــا

صرت في غيره بكيت عليه » !

سوريا ولبنان !

حديث التسلل والمتسللين حديث قديم وإن بدا جديداً ، حديث له شجون وشؤون بلوناها وخبرناها وعرفناها هنا وهناك ، مما لا تزال ذكراها طرية في الأذهان ، ولكن حديث التسلل والمتسللين في هذه المرة يختلف بعض الشيء عما سبقه . وصحيح انه حديث لا يختلف كثيراً عن حديث الوحدة والوحدويين والانفصال والانفصاليين ، ولكنه بالفعل بدا في هذه الآونة غريباً او على الأصح الأدق غامضاً تنقصه الحجة والبرهان والدليل .

فلقد قامت الصرخة في الآونة الأخيرة وفي الإقليم الشمالي إياه — سابقاً — تنادي وتستصرخ وتستغيث « يا هوه الحقونا » .

المتسللون يتسللون عبر أراضينا . والمتسللون يخربون ويدمرون المتسللون يزرعون الرعب والارهاب . المتسللون المتسللون .

وتوجهت الاتهامات أول ما توجهت إلى لبنان .

وأنصب اللوم والتقريع والعتاب أول ما أنصب على رأس المسؤولين في لبنان . . . باعتبار ان العادة القديمة قد جعلت من لبنان منفذاً لتسلل المتسللين كما هو معروف ومشهور .

كان يمكن أن نصدق المسؤولين في الإقليم الشمالي سابقاً — للجمهورية العربية المتحدة اتهاماتهم للبنان بتسهيل أو إغضاء الطرف عن تسلل المتسللين ، لو اننا ما زلنا نعيش عام ١٩٥٨ ؛ أو لو ان دمشق ما تزال كما كانت في الماضي عاصمة ثانية أو ثالثة للجمهورية العربية المتحدة . . .

ولكن الأمر في هذه الأيام يختلف كثيراً عما مضى وفات من الأيام . . .

وإذن فما هو مبرر اتهام المسؤولين في دمشق للبنان ؟ ما هي حججهم في اتهامه ؟

يقولون في دمشق ان ثمة تسللا ومتسللين يفدون إلى بلادهم . ولكنهم بالرغم من احتجاجاتهم وصرخاتهم واتهاماتهم لم يتقدموا بدليل واحد يثبت صدق حكاية التسلل والمتسللين . وفي أيدي المسؤولين في دمشق كل أسباب الإذاعة والتلفنة والتلفزة والتصوير . . . فلماذا لم يذكروا أسماء المتسللين الذين ضبطوهم متلبسين بجرم التسلل ؟

لماذا لم ينشروا صورهم في الصحف والتلفزيون ؟

ترى هل ينتظرون منا أن نطلب من وزير الخارجية اللبنانية الأستاذ فيليب تقلا أن يعقد مؤتمراً صحفياً يؤكد فيه حكاية التسلل ويذكر أسماء المتسللين ويوزع صورهم على الصحف ؟

ولكن دمشق نفسها والمسؤولين في دمشق لم يتحركوا حتى الآن فعلام الاتهام ؟

إن لدى لبنان مستنداً يؤكد على أن المتسللين لا يذهبون من لبنان إلى الشام ، ولكنهم يأتون من الشام إلى حدود لبنان يخطفون المواطنين اللبنانيين .

وأصدق دليل على ما نقول اختطاف الأستاذ خزاعي العريان شقيق شبلي آغا العريان من الحدود اللبنانية واعتقاله وضربه وتعذيبه على النحو الذي جرى له أمس عندما كان يقوم الأستاذ خزاعي باحضار بعض الصحف السورية هناك قرب الحدود اللبنانية . فقد تعرض له رجال الجيش السوري واعتقلوه . وقد توجه الأستاذ خزاعي العريان فور الإفراج عنه بصحبة شقيقه الآغا العريان توجه الى وزير الداخلية اللبنانية السيد كمال جنبلاط يشكو له ما حصل عليه من إعتداء وضرب وامتهان .

بقي على السيد كمال جنبلاط أن يتصل بصديقه الحميم عبد الحميد السراج يؤكد له . بما له عليه من مونة وصداقة قديمة ، بأن الأستاذ خزاعي العريان شقيق الآغا شبلي العريان ليس متسللا وأن المسؤولين في دمشق قد أخطأوا . اللهم إلا إذا أصر المسؤولون في الشام على رأيهم واتهاماتهم الخاطئة . .

وعندئذ لا يبقى علينا في لبنان إلا أن نرسل اليهم على سبيل « العينة » أو المثال متسللين حقيقيين وعندنا منهم جاهز وحسب الطلب !

خطاب العظمة
و «الطريق الثالثة» !

خطاب الدكتور بشير العظمة الذي ودع فيه الحكم ، جدير بالاهتمام والتوقف أمامه ملياً ، لا لأنه بداية عهد جديد — قديم ، ترك فيها قيادة العربة للسيد خالد العظم ، بعد أن اجتازت « منعطفات الموت » على حد قول أحد السياسيين السوريين . كلا فلا جديد تحت سماء دمشق !

إنما الأمر الذي يثير الاهتمام في خطبة الوداع التي ألقاها الدكتور العظمة ، صراحته المعهودة والعبر القاسية الكامنة خلال تجربة الحكم التي عاشها الرجل .

أما صراحة الدكتور العظمة ، فلم تفارقه لحظة واحدة ، لا في تمرسه بمهنته الأولى ، وهو الطبيب الإنساني النبيل ، ولا في مشاركته الحكم أثناء الوحدة ومكاشفة عبد الناصر برأيه الشجاع وتقديم استقالته له في وقت كان الشجاع من يطأطيء الرأس لعبد الناصر ويتملق له . ولا في توليه الحكم بعد الإنفصال وبذل النصح الخالص لحكام القاهرة . ولا في خطابه الأخير ، الذي ودع فيه الحكم ليعود الى مهنته التي خلق لها .

ولعل هذه الصراحة التي تسلح بها الدكتور العظمة هي التي باعدت بينه وبين المسؤولين

في القاهرة أثناء الوحدة وبعد الوحدة ، في الحكم وخارج الحكم !

ذلك أن الرجل كان صادقاً مخلصاً أميناً في الإبانة عن عواطفه وآرائه حيال وطنه ، وحيال مفهوم الوحدة العربية التي يؤمن بها . فما لقيت صراحته إلا الإعراض ، ولا نصائحه إلا الجفاء ، ولا صدقه إلا الإطراح !

من هنا كان خطاب الرجل بمثابة تبرئة ذمة له ولامثاله القلائل الذين أخلصوا لسوريتهم إخلاصهم لعروبتهم وإيمانهم بأمنية عمرهم وأعز مطالبهم . . .

ومن هنا أيضاً ان المرارة كانت ملازمة للصراحة الى درجة اليأس والضياع .

فالطريق الثالثة التي تحدث عنها الدكتور العظمة بقوله :

إن طريق سوريا لتحقيق دورها الطليعي في معركة التحرر العربي ، يفرض عليها التزام طريق ثالثة لا رجعية ولا ديكتاتورية ، بل ديمقراطية اشتراكية . . . إلى آخره .

هذه الطريق تبدو ، بالرغم من وضوحها اللفظي ، غامضة مبهمة .

فالى أين تنوي عربة الحكم في سوريا أن تتجه ، إذا لم تشأ السير على طريق الديكتاتورية ولا على طريق الاقطاعية . . . بل أين هي طريق الديمقراطية الاشتراكية الموعودة ؟

هل هي في الحكومة السورية الجديدة التي شكلت أخيراً ؟

لسنا ندري إذا كان الدكتور بشير العظمة يقصد هذا أم ان له تفسيراً آخر وطريقه أخرى في فهم الطريق الثالثة !

أيا كان رأي الرجل في مفهوم « الطريق الثالثة » ، فثمة حقيقة لا مجال لنكرانها أو الشك فيها ، وهي ان طريقي الاقطاعية الفاسدة والديكتاتورية الباغية ، ينبغي أن تتنكبهما عربة الحكم في سوريا ، بعد ان ذاقت مفاسد الحكمين وشرورهما .

فما من أحد يبرر الاقطاعية أو يفهم حربها للديكتاتورية .

وما من أحد بالتالي يبرر حكم الديكتاتورية أو يفهم حربها للاقطاعية .

فليس أسوأ من هذه إلا تلك .

وليس أسوأ من تلك إلا هذه !

* * *

« الطريق الثالثة » لم تتضح ، للأسف ، في أذهان الناس ، إلا في هذه الطريق التي سلكها الدكتور بشير العظمة ، عقب إلقائه خطاب الوداع . . . من مقعد الحكم إلى منزله وعيادته ! !

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

سوريا ولبنان !

« الصراحة حلوة » فلم لا نجربها في علاقاتنا مع الدول العربية وخاصة مع سوريا ، لا سيما واننا قد شربنا كأس الحقائق المرة الجارحة حتى الثمالة ؟

شربنا نقطة نقطة وجرعة جرعة وعلى دفعات ومرة واحدة .

فماذا يمنعنا ، وقد اتخمنا منها ، من أن نجرب حديث الصراحة والكلام الصريح المفيد ، الذي لا لف فيه ولا تعمية ولا ابهام ؟

نحن لا نريد أن نقلل من حماس حكام دمشق في تهافتهم على كسب ود لبنان . ولا نريد أن نسكب الماء البارد على العواطف الحارة التي يغمرنا بها سادة دمشق ، وخاصة في هذه الأيام بالذات .

ولا نريد أن نعرض من حيث يقدم غيرنا ، ولا أن ندبر من حيث يقبل .

ولسنا نريد بالتالي أن نشك أو نشكك بصدق العواطف الرقيقة التي ما برح حكام دمشق يؤكدونها مراراً وتكراراً حيال لبنان الشقيق . أكثر من هذا ، نريد صادقين مخلصين ، أن ننسى أن صاحب هذه العواطف الرقيقة الجياشة ، هو نفسه أبو القطيعة مع لبنان !

فالحقد نوع من أنواع الغباء ، بل هو شر أنواعه ومعانيه . ولقد أبتلينا كما أبتليت البلاد العربية بشرور هذه الآفة الويبلة فمزقت وما تزال تمزق الصفوف العربية شر ممزق !

فالسيد خالد العظم رئيس الحكومة السورية والمتهافت الأول على بسط يد التعاون مع لبنان بكل افتخار واعتزاز ، كان في الماضي القريب أعز ما يباهي به ويفاخر ، انه أبو القطيعة الاقتصادية مع القطر الشقيق العزيز .

لا ، لسنا ننسى هذا ، ولكننا نريد مخلصين أن نتناساه لان ذكره لا يفيد أحداً لا في لبنان ولا في سوريا .

والتشديد على العلاقات الاقتصادية الذي ضمنه الرئيس رشيد كرامي في برقيته الى خالد بك العظم ، ليس كل شيء . فلقد كان الرئيس كرامي يضمر شيئاً ما أحسب أن الرئيس السوري فاته أو استعصى عليه فهمه !

صحيح ان عقلية خالد العظم عقلية حسابية إقتصادية ، لا تقيم كبير وزن لسواها من العلائق وخاصة بين الدول سواء أكانت شقيقة أم غير شقيقة .

وصحيح انه كان السوري الوحيد بين رجالات سوريا ، الذي عارض الوحدة بين سوريا ومصر بعد أن رفضها فكره الرياضي وعقله الاقتصادي .

ولكن ما حيلتنا وأكثر رجالنا في العالم العربي يخضعون لتياراتهم العاطفية وانفعالاتهم الوطنية ، فيولونها المكان الأرفع والحساب الأول ؟

قد يكون لـ « بغددة » الحكومة اللبنانية على حكومة العظم ، بعض العذر إذا هي عادت بالذاكرة إلى الماضي القريب .

وقد يكون لـ « فحطة » خالد بك وتهافته على كسب ود لبنان ، ما يجعل الفار يلعب بعبها فتستغرب — وهي تدري — مرد هذا الشوق المباغت وهذا الحب المفاجىء ، وهي التي تعلم جيداً قيمة العواطف ومكانتها في خانة حساب خالد بك العظم !

الشيء الراهن ، ان ثمة رغبة رسمية وشعبية في لبنان ، بوجوب وضع حد لحملات الشتائم والتجريح والاتهامات ، التي قامت في دمشق ولم تقعد حيال الجمهورية العربية المتحدة ، وحيال عبد الناصر بصورة خاصة .

إن الرأي العام العربي . إذا كان في الماضي يجد في حملات سادة دمشق بعض العذر ، باعتبار أنها حملات دفاعية . فانه اليوم لا يستسيغ بأي حال أية حملة جديدة أو اتهامات جديدة ضد عبد الناصر . لا لأنها تسيء الى عبد الناصر ، بل لأنها تسيء إلى سوريا نفسها والى المجموعة العربية ، وليست تخدم إلا الأعداء .

والواجب الوطني ، يفرض على حكام دمشق ، ولا سيما في هذه الفترة العصيبة أن تكف عن هذه الحرب بعد أن أصبحت غير ذات موضوع !

الحديث المشبوه !

ما عرفت حديثاً أثير في هذه الآونة الأخيرة ، أشد خطورة ، بعد حديث الأديان ، من حديث المصالحة الوطنية في سوريا . ذلك لأنه حديث مشبوه فيه كثير من الاختلاط والتمويه والمغالطة ، التي ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

فكلمة المصالحة ، ولا سيما المصالحة الوطنية ، تحمل في معناها كل ما تتمناه نفوس المواطنين الخيرة ، من تصفية القلوب وجمع الصفوف وتناسي الأحقاد والخصومات .

وليس بميسور أحد أن يتنكر لهذا المفهوم أو يعارضه ، والا أتهم بشرفه وأخلاقه ووطنيته .

ولكن المصالحة الوطنية العاقلة المرجوة شيء ، والمصالحة الشخصية شيء آخر .

فجميل ولطيف أن نسعى لمصالحة اثنين تناطحا وتشاتما وتضاربا من أجل سبب من الأسباب الشخصية العابرة التي لا تمت الى مصلحة الوطن والبلاد بصلة . جميل ولطيف أن

تجمعهما وتجعلهما يتباوسان ويتصافحان وعفى الله عما مضى وكان . . . فالصلح في المحاكم وبين الأشخاص هو سيد الأحكام .

ولكن المصالحة الوطنية في سوريا ، التي تناولتها الأقلام والألسنة ، شيء آخر وحكاية أخرى ، تنتهي عادة بالصلح العشائري . . . كلمة من هذا وكلمة من ذاك واعتذار من هنا واعتذار من هناك ثم قبلات حارة أو غير حارة ينتهي بعدها الخصام ويسود الوئام .

ولكم كنا نتمنى من صميم القلب لو ان « الخناقة » الحامية التي قامت في سوريا ، والتي سالت بسببها دماء الشعب السوري ، هي من هذا النوع من الخصومات ، اذن لامكن قيام صلح عشائري يتباوس فيه المتخاصمون باللحى ويتبادلون انخاب الشراب ليتناسوا من بعده كل شيء وليحل الوئام ويرفرف السلام . . .

بيد أن النزاع القائم في سوريا ، كما قلنا ، حكاية ثانية لا تمت من قريب أو من بعيد بأي سبب من هذه الأسباب التي يتنادى من أجلها أصحاب النوايا الطيبة والقلوب الصافية ، أولئك الأحباء النصحاء ، الذين يطالبون بقيام مصالحة وطنية .

ولسنا ندري كيف تكون هذه المصالحة ولا كيف تتم ؟ لا ولا نعلم بين من ومن ينبغي أن تتم الصلحة ؟

بل إننا نجهل تماماً مبرر الحديث عن قيام مثل هذه المصالحة . بعضهم اعتبر تصريح اللواء الحافظ الذي قال فيه : « إن ثورة الثامن من أذار هي للشعب كله وليست لفئة دون أخرى ولا هي لحزب معين ، وكل مخلص لها هو منا والينا » .

اعتبر بعضهم هذه الكلمة المجردة الواضحة دعوة « صريحة » لضرورة قيام مصالحة وطنية ، فأطلق لخياله الفسيح العنان وراح يستخرج ويستنبط ما شاء له الخيال . . .

لنبسط القضية أولاً ولنطرح هذا السؤال : من هم خصوم الحاكمين في سوريا ؟ فاذا عرفناهم طرحنا سؤالاً آخر : ما هي أسباب الخصومة ؟

وعندئذ وبعد أن نتبين الخصوم ومبرر خصوماتهم نستطيع القول بامكانية « الصلحة » أو بعدم إمكانيتها .

إن خصوم الحاكم في دمشق هم : الشيوعيون والاقطاعيون والرجعيون والانفصاليون والانتهازيون والعملاء .

ولقد أستطاع الحكم في دمشق أن يحجر على الانفصاليين والرجعيين ، وأن يكتم أنفاس الشيوعيين والانتهازيين والعملاء .

وحكام دمشق وحدويون اشتراكيون ثوريون تقدميون ، يضعون أيديهم وقلوبهم بين أيدي وقلوب كل ثوري وحدوي تقدمي اشتراكي . فاذا كان في سوريا ثمة من فئة تؤمن بهذه المبادىء إيماناً حقيقياً ، ولا تكتفي برفع شعاراتها فقط ، فما هو العائق الذي يقف في سبيلهم كيما ينضموا الى الصفوف ويشاركوا بهذا الواجب الوطني المقدس ؟

ومن هو الذي يمنعهم أو يرفض انضمامهم ؟

القوميون العرب ؟ الناصريون ؟

أليسوا طلاب وحدة من المحيط الى الخليج أليسوا رفاق فكرة واحدة ورسالة واحدة ؟

فيم الخلاف والخصام وعلام المصالحة الوطنية إذن ؟

إن حكام سوريا اليوم ، هم الذين يمثلونها أصدق وأوضح تمثيل ، ولعلها المرة الأولى ومنذ عهد طويل التي يقوم فيها حكم قوي راسخ يجسد الأهداف والآمال التي طالما حلم بها الشعب العربي في سوريا .

ولو أنه انقلاب عابر أو انتفاضة عسكرية موقوتة أوصلت حكام دمشق الى مقاعد الحكم ، شأن الانتفاضات والانقلابات الماضية ، لأمكن البحث والكلام باجراء مصالحة ومساومة على النحو العشائري المعروف . . . ولكن ، وللمرة الثالثة نعود ونكرر القول ان القضية في هذه المرة تختلف تماماً عن غيرها من المرات السابقة .

ثم ان الحزب الحاكم في سوريا ، هو نفسه الحزب الحاكم في العراق ، وانه ما وجد صدفة على مقاعد الحكم وما قام إلا ليبقى قائماً ما بقيت سوريا والعراق !

فلتهدأ خواطر أصحاب النوايا الطيبة والقلوب الرحيمة من أهل الدعوة لقيام مصالحة وطنية في سوريا .

ليضعوا أيديهم ورؤوسهم في ماء باردة ، وليكفوا عن حديث « المصالحة الوطنية » لأنه يبدو في هذا الظرف بالذات وكأنه حديث مشبوه ، يبطن غير ما يظهر ، ويسر غير ما يعلن ، حتى ليصح فيه قول الشاعر :

« هذا كلام لـــه خبـــيء   معناه ان ليست لنا عقول » !

الوجوه التي بدت صباح أمس ، فرحة جذلة ضاحكة مستبشرة ، علام فرحها واستبشارها ؟

هل هدأ الخصام وحل الوئام ، وبات حلم الوحدة وشيك التنفيذ ؟

هل كفت أجهزة الإعلام في القاهرة عن نكأ الجراح وشتم الأعراض وتفسيخ الصفوف ، واتاحة الفرصة للأعداء للمزيد من الشماتة والمزيد من الغبطة بضرب العرب بعضهم بعضاً ؟

كلا !

إنما الفرحة التي عمت الوجوه وأعمت القلوب ، لم تكن لشيء من هذا . إنما كانت نتيجة الأخبار التي تناقلتها الإذاعات صبيحة أمس ، معلنة قيام محاولة انقلاب ذيلية في دمشق ، تعرضت لها دار الأركان لقصف المدفعية وشوارع العاصمة السورية لشبه حرب أهلية سالت فيها الدماء هدراً . . .

أما كيف ولماذا ولأي سبب يقوم الانقلاب في سوريا ، فهذا آخر ما خطر على بال الفرحين الجذلين المغتبطين باغراق سوريا بالدماء والاضطرابات والفوضى .

وبين رؤية الوجوه الضاحكة الفرحة المستبشرة بمحاولة الانقلاب في دمشق ، وبين رؤيتها كالحة سوداء مربدة ، غاض فيها ماء الحياة والابتسام والجذل ، لم يدم الحال أكثر من ساعات معدودة تكاد لا تعد على أصابع اليد الواحدة !

ذلك أن المحاولة الانتحارية الفاشلة التي قام بها نفر من المأجورين والزبانية العملاء في دمشق ، والتي تهللت لها أسارير الأذناب من الذيليين وأنصاف الذيليين هنا وهناك ، كانت ناجحة بقدر ما كانت فاشلة .

لقد أرادوها انتحارية فنجحوا في ذلك نجاحاً لا يضارعه غير نجاح الفشل المبين الذي منيت به حركتهم الغادرة المغرورة التي تولت سحق نفسها بنفسها ، على طريقة الهاراكيري اليابانية ، مع فارق واحد ، هو أن الهاراكيري التي جرت في دمشق قد خلت من أي معنى من المعاني النبيلة التي يلجأ اليها اليابانيون في القضاء على أنفسهم !

* * *

وبعد ، بعد الدماء التي سالت ، والحرب الأهلية التي كانت معرضة لها سوريا ، إلى أين المصير ، وهل من مزيد ؟

منذ الثامن من آذار وسوريا تدفع الثمن منَ أمنها ودمائها واستقرارها كل ذلك بسبب كلمة واحدة لم يشأ الرئيس عبد الناصر أن يتفوه بها . . .

لو قال عبد الناصر غداة الثامن من آذار الذي قضى على عهد الانفصال والرجعية « أقبل الوحدة مع حزب البعث » لوفر على سوريا والعراق ومصر الكثير من المتاعب .

إن البلاد للعربية تنزف الجراح وتتعثر الخطى في بحر من الفوضى بسبب هذه الكلمة التي لم يشأ عبد الناصر أن يتلفظ بها !

ولسنا ندري والله ، كيف يسمح الرئيس عبد الناصر لنفسه أن يقيم وحدة عام ١٩٥٨ مع أقطاب الرجعية والانتهازية والعشائرية في دمشق ، ثم يأبى الوحدة مع حزب نذر نفسه لها منذ ربع قرن وبذل أقصى ما يبذله في سبيلها المؤمنون الصادقون الصابرون ؟

أجل . لسنا ندري كيف تقوم وحدة مع حزب الشعب والحزب الوطني وغيرهما من التشكيلات الرجعية التي وصمها عبد الناصر نفسه بالخيانة والعمالة والرشوة قبل وبعد قيام الوحدة . ثم يرفض الوحدة مع حزب البعث الذي حمل شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية منذ أمد بعيد ؟

إن طلاب الوحدة العربية ليحز في نفوسهم في كل مرة يرون فيها حلم الوحدة يتقلص أمامهم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة . وان القسوة والعنف في أخذ المارقين من هادمي هذا الحلم . سواء كانوا ذيليين أم غير ذيليين ، لهي من أوجب الواجبات والمبررات لضربهم واستئصال شأفتهم بلا رحمة ولا هوادة .

وليس لنا في هذا المقام ، إلا أن نتوجه الى حكام دمشق مرددين قول الشاعر العباسي :

« لا يغرنـك مـا ترى من ثياب
ان تحت الضلـوع داء دويـا
فضع السيف وارفـع السوط
حتى لا ترى فوق ظهرها « ذيليا »

. . . والعزة للعرب !

« انشقاق خطير في سوريا »

« انقسام الجيش في سوريا »

« اللواء الحريري يرفض مقررات البعث »

« البعث مهدد بالسقوط »

« الحريري وضباطه يعلنون تمردهم »

« غليان شديد في سوريا وتوقع انفجار »

« حكم البعث يتضعضع ويتدهور »

« زياد الحريري يهيء انقلاباً يطيح بحكم البعث »

« الانقلاب واقع حتماً في سوريا »

« ساعة الصفر دنت في سوريا ».

* * *

هذه طائفة غير مختارة من العناوين التي طلعت بها بعض الصحف في الأسبوعين الاخيرين ، منذ قيام ما سمي بأزمة الحريري ونقل الضباط الحريريين .

وعبثاً قلنا وأكدنا مراراً وتكراراً قبل وقوع هذه الأزمة وبعدها ، بأن الآمال والتمنيات شيء والواقع شيء آخر . وان على الفرحين الشامتين بسوريا أن لا يفرحوا كثيراً ويسرفوا في تأملاتهم وتفاؤلهم . . . وان الفتاة القرعة لا يصيبها شيء إذا هي فرحت بشعر بنت الجيران ، وان قضية الحريري قضية داخلية ثانوية لا تقدم أو تؤخر في شيء من الوضع الراهن في دمشق .

عبثاً كتبنا وأعدنا الكتابة في هذا الموضوع . فالغريق كما يقول المثل يتمسك بحبال الهواء . . . والغرقى هم من عرفنا وبلونا من الأذناب والدلاديل ، وأذناب الأذناب ودلاديل الدلاديل . وحبال الهواء بالنسبة اليهم هي الاشاعات والمفتريات والأكاذيب والأضاليل ، يتوسلون بها كما توسل بها جحا ذات يوم حين أراد أن يصرف الصبية عن منزله فأخبرهم أن عرساً يقام في آخر الحي .

وتراكض الصبية ليظفروا بحلوى العرس . وما أن شاهدهم جحا يتراكضون حتى نسي كذبته وانطلق يركض في أثرهم . . .

وهكذا كان شأن الأصدقاء الأوفياء ، لا العملاء الأجراء ، هكذا كان شأنهم مع أزمة الحريري في سوريا ومع كل أزمة أو شبه أزمة تتعرض لها سوريا أو العراق !

لم نكن أنبياء ، ولكننا على الأقل ما كنا أغبياء . ذلك أن الغرض يعمي ويصم ، يعمي البصر والبصيرة عن رؤية الحقائق ، ويصم الآذان عن سماعها ، ويغلف القلوب بجدار من الباطون المسلح والعياذ بالله !

ولقد كان شأن الأبواق من الهتافة والامعات في قصة الحريري مضحكاً ومسلياً في آن

واحد . ذلك انهم بدوا كما يبدو الذين يستأجرهم أصحاب المحلات في مواسم الاوكازيون والتصفية . . . يحملون اليافطات فوق رؤوسهم وعلى ظهورهم ويسرحون في الشوارع العامة . أو يقفون أمام أبواب المخازن وهم يقرعون الجرس ويرسلون الأصوات الجهورية :

« أوكازيون على عموم البضائع . . . »

« هلموا وشاهدوا تجدوا ما يسركم . . . »

« اليوم ولا كل يوم على أكبر أوكازيون »

ومضت الاوركسترا المعهودة تعزف الحان الأزمة التي قامت في دمشق . وفجأة ودون أن يخطر على بال أحدهم بأنها ستنتهي بسرعة ، قضي الأمر فعزل الحريري وأبعد عن دمشق في ساعات معدودات ، وضاعت الفرصة على الهتافة اللعوقين المطبلين المزمرين من الأذناب والامعات !

وكل أزمة على طراز الأزمة الحريرية ، برداً وحريراً وسلاماً على قلوب الحاكمين في سوريا والعراق ، وشوكاً وقتاداً وحصرماً في أعين الشامتين المتربصين الوالغين اللعوقين . . .

والله أكبر والعزة للعرب ! .

عرب - الجزائر - اليمن



واسرائيل !

من آيات الانسجام اليعربي والتنسيق العبقري في سياسة الحكومات العربية التي ظهرت حتى الأمس – والخير لقدام – حول قضية تحويل مجرى الأردن . ما حفلت به الصحف من بيانات وتصاريح عجيبة غريبة .

فقد كتبت الصحف تقول أن حكومة الأردن تقدمت الى الأمين العام للجامعة العربية بمشروع اقتراح يدعو الى تقديم شكوى عربية مشتركة إلى مجلس الأمن ضد محاولة اسرائيل تحويل مجرى نهر الأردن . وان « الدوائر العربية » أي القاهرة أعلنت معارضتها الشديدة للاقتراح الأردني . باعتبار أن تقديم مثل هذه الشكوى سيعطي اسرائيل فرصة لدعم دعاياتها في العالم عن قوتها العسكرية . كما أن بحث القضية في مجلس الأمن من شأنه إفساح المجال لاسرائيل لتقوية ما تدعيه من « حقوق تاريخية وقانونية » بالمياه العربية .

ومن حق الدوائر العربية في القاهرة أن ترى هذا الرأي إذا كانت لديها وسيلة أخرى ناجعة لردع اسرائيل عن محاولتها الآثمة ، فلقد بلونا تفاهة اسلوب الشكاوى ضد اسرائيل !

ومن آيات المفارقات أن الأستاذ صائب سلام قد أذاع بياناً حذر فيه الدول العربية من خطورة الأعمال التي تقوم بها اسرائيل على ضفاف بحيرة طبريا . . .

وختم الأستاذ سلام بيانه طالباً من الحكومات العربية رفع شكوى عاجلة للأمم المتحدة لتثبيت حق العرب القانوني بالمياه .

ولست أدري اذا كان صائب بك قد أطلع على رأي الدوائر العربية في القاهرة ووقف على رأيها بأمر تقديم الشكاوى ضد اسرائيل . فقد كان ينبغي على صائب بك وهو حميم الصلة والصداقة بالمسؤولين المصريين أو على الأقل بممثليهم . . . أن يكون على تماس برأيهم وخاصة في هذه الأيام التي تضاربت وتشابكت واختلفت وتناطحت فيها الآراء والاجتهادات !

موقف دمشق من هذه الأزمة بلغ الذروة في الانسجام والواقعية !

فلقد صرح رئيس الحكومة السورية منذ أيام قليلة أن سوريا لن تقف مكتوفة الأيدي أمام محاولة اسرائيل تحويل مجرى الأردن ، وانها – أي حكومة دمشق – ستلجأ الى القوة لردع اسرائيل وايقافها عند حدها !

وأمس ، نشرت الصحف إلى جانب بيان صائب سلام الذي يدعو فيه إلى رفع شكوى ضد اسرائيل ، والى جانب تحذير الدوائر العربية في القاهرة ، من الأخذ بالاقتراح الاردني ورفع الشكوى . . .

نشرت الصحف أمس تقول ان الأمين العام للجامعة العربية قد تباحث مع المسؤولين السوريين حول الاقتراح الاردني فوجد أنه قد لاقى قبولا من رئيس حكومة دمشق !

* * *

وبعد ، من قال ان الحكومات العربية لا تنهض بالأمر العظيم الذي أوكلته لها شعوبها ؟

ومن قال أنها لا تعمل على أحدث قواعد الانسجام العبقري العربي و « التكتيك » الجهنمي الذي سينقذ مياه الأردن من التحويل وينقذ بالتالي فلسطين ؟ !

خلافات عربية !

المشكلة التي تواجهها دول الجامعة العربية في هذه الآونة ، هي اختيار المكان الذي ترضى عنه الدول الأعضاء ، دون أن تغضب أو تحرد أو تمتنع إحداها عن الحضور وتقاطع الاجتماع . فليس سراً القول بأن التناحر والتشاحن بين سادة العواصم العربية ، قد بلغ الاوج . وليس ينفي أنباء الخصام أو يقلل من حدة الغضب والاغضاب القائم على قدم وساق بين معظم الحكومات العربية ، ليس ينفي هذا أو يكسر من حدته ، مجرد اتهامنا بتهمة « الطابور الخامس » إذا قلنا بأن مجلس الجامعة العربية قد ينعقد في بيروت ، نتيجة الخلافات والانقسامات التي ذرت قرونها بين السادة النجب ، اللهم الا ان تكون العاصمة اللبنانية مكاناً مشبوهاً ، تستأهل معه تهمة الطابور الخامس !

فلقد أثبتت بيروت ، وأثبت رئيس لبنان المترفع عن الخصومات والأحقاد والمكائد ، أن جو العاصمة اللبنانية أنقى الأجواء العربية وأصفاها وخاصة في هذه الأيام بالذات !

ويخطىء من يعتقد ، ان السادة النجب ، سادة العرفان والأدب ، تهمهم قضية تحويل مجرى مياه الاردن — التي تعمل اسرائيل جاهدة من أجلها — كما تهمهم « قضية » المكان الذي سوف تجتمع فيه الجامعة العربية !

فالقضية القضية ، والمشكلة المشكلة ، هي أين يكون الاجتماع ؟ في القاهرة أم في دمشق أم في الرياض أم في بغداد أم في عمان ؟

فالقاهرة كما هو معروف ، زعلانة من دمشق ومن عمان ومن الرياض ومن بغداد ومن تعز كمان !

والعراق زعلان من القاهرة ، وعاتب غضبان على الرياض وعلى عمان ، ودعونا من الكويت .

فجيش العراق ما يزال يهدد ويتوعد بالزحف واخضاع حاكم الكويت ، القائمقام المتمرد على إرادة السلطان عبد الكريم خان !

وعمان لا تقبل « والسما زرقا » بعقد مجلس الجامعة في القاهرة ، وتفضل أن يعقد الاجتماع في الرياض . . .

ودمشق تفضل أن يكون المكان في بيروت ، كحل وسط وليس حباً بلبنان !

وتقف الجامعة العربية — التي أصبحت كسمار جحا المشهور — تقف بين مختلف الاهواء والآراء المتشاكسة المتضاربة ، كما يقف حمار الشيخ في العقبة . . لا إلى الأمام ولا الى الوراء . لا الى اليمين ولا الى اليسار .

ولو ان اجتماع مجلس الجامعة العربية الذي يتخانق عليه السادة النجب « سيشيل الزير من البير » أو أنه سيفلق البعرة ، لكيلا نقول أنه سيعمل فعلاً لا قولاً على منع اسرائيل من تحويل مجرى مياه الأردن — لو ان هذا الاجتماع السعيد المنشود سيجدي أو سيؤتي ثمرة ما : لهان المصاب بالسادة النجب وبمشاحناتهم ومناكفاتهم ، التي أخذتنا منها ومنهم جشأة القيء « ولعيان » النفس !

ولكن ، أي خير سيصيب البلاد العربية من اجتماع يضم القادة المتنافرين المتخاصمين الحاقدين ، المتربصين بعضهم ببعض كألد الخصوم والأعداء ؟ !

خطب وبيانات ومقررات ، على أحسن الافتراضات ، هذا اذا لم يتحول الاجتماع الى سوق عكاظ تتبارى فيه القصائد والاراجيز بالشتم والهجو والتنديد . . . وليس عهدنا بأرجوزة إمام اليمن ببعيد !

وعلى ذكر اليمن وامام اليمن . . . ترى لماذا يفكر السادة النجب ، سادة العرفان والأدب باقامة الاجتماع هناك في صنعاء أو تعز ؟ !

صحيح أن اليمن السعيدة قد انسلخت عن الوحدة مع مصر ولكن الصحيح أيضاً ان أمير المؤمنين الامام ، يعمل على تمتين صلات الود مع القاهرة في هذه الايام ، ولا عبرة للارجوزة فهذه نقرة وهذه نقرة كما يقولون في مصر . . . ثم ان شيطان الشعر ، شيطان ماكر لئيم ، لقد غافل قريحة الامام وكان ما كان !

حقاً انه خير حل يرضي جميع الفرقاء من السادة القادة الزعماء . .

لقد جاء الترياق في هذه المرة من اليمن السعيدة وليس من العراق !

إن تعز هي المكان الملائم لاجتماع شمل الاحباب . وقصيدة ترحيبية من الإمام كافية لغسل الصدور وشفائها من الأحقاد .

وارجوزة واحدة من أمير المؤمنين كافية لأن تكلل اجتماع الجامعة بالنصر المؤزر المبين . وتقف بالتالي سداً منيعاً في وجه تحويل مجرى مياه الأردن . . . ومن يدري فلعلها تكون القاضية على اسرائيل وانقاذ فلسطين . . . قولوا آمين !

بمناسبة أزمة الكويت !

كنا في لبنان نلوم أنفسنا على سياسة حكومتنا الخارجية . كنا نجد في ديبلوماسية نفض اليد والابتعاد عن المشاكل التي تتميز بها أعمالنا على الصعيد العربي والعالمي عيباً نأخذه على المسؤولين عندنا . وكنا نلح بضرورة اتباع سياسة طموحة ذات حيوية وحركة ودور . وكثيرة كانت الاصوات التي تقول بوجوب التشبه بهذه أو تلك من الحكوما ت العربية الشقيقة التي تتصف ديبلوماسيتها بالاقدام وعدم التملص من مواجهة المشاكل والنهوض بالمسؤوليات .

لقد كنا نحسب انفسنا متخلفين عن غيرنا في هذا الميدان . وبالفعل كانت هناك شواهد عديدة تدعم مثل هذا الظن .

الى ان جاءت حوادث الكويت الأخيرة ، فاذا بالموقف الذي كدنا نحسبه خاصة لبنانية يصبح موقفاً عربياً عاماً . فأكثر الحكومات العربية اتبعت في معالجة موضوع الكويت نفس الاسلوب الذي يتبعه لبنان في العادة أمام أي مشكلة من المشاكل العربية أو العالمية .

لقد نفضت معظم هذه الحكومات يدها ، وابتعدت عن معالجة المشكلة القائمة ومواجهتها ، كأن الامر لا يعدو أن يكون أمراً طبيعياً لا مجال بل لا ضرورة للوقوف موقفاً ما منه .

فجأة أصبح الاستاذ فيليب تقلا موجوداً ان لم يكن بجسمه فبروحه في القاهرة وفي عمان وفي الخرطوم وفي الدار البيضاء وفي تونس الخضراء إلى آخره . . .

وفجأة تخلت الحكومات الثورية عن ثوريتها ، وطلقت السياسات الصريحة صراحتها ، ومالت الطباع العنيفة الى اللين والوداعة ، وأصبح المقياس هو البعد عن المشكلة لا مواجهتها .

ان أقل ما يقال في الموقف الذي وقفته وتقفه الحكومات العربية من قضية الكويت ، هو انه موقف لا يمكن قبوله من لبنان على الرغم من ظروفه واوضاعه . فكيف يمكن قبوله من غير لبنان من الدول العربية ، التي ليس لها ظروف لبنان ولا لها اوضاعه ؟ !

يقول مثل صيني : « مجنون من يركض حين يمكنه أن يمشي الهوينا . ومجنون من يمشي

حين يمكنه أن يجلس . ومجنون من يجلس حين يستطيع أن يستلقي . »

هذا المثل الصيني ما أجدره ان يكون رمزاً للديبلوماسية العربية ، كما أظهرتها حوادث الكويت الاخيرة !

كنا نحسبه مثلاً صينياً صيغ خصيصاً لنا في لبنان ليكون تصويراً لسياستنا الخارجية ، فاذا بالمثل الصيني شعار لمعظم الحكومات العربية في الازمة الحاضرة !

أزمة الكويت !

هذه النهاية الفاجعة التي انتهت اليها قضية الكويت بانزال جيش اجنبي على الارض الكويتية ، من هو المسؤول عنها ؟

هل المسؤول عبد الكريم قاسم أم المسؤول الحكام العرب الذين لم يبادروا الى وضع حل مشرف للمشكلة ، أم المسؤول شيوخ الكويت الذين جرؤوا على استدعاء الاجنبي ؟

من هو المسؤول عن هذه النهاية الفاجعة التي أصبحت هي لا عبد الكريم قاسم ولا احد غيره ، القضية التي ينبغي ان تعالج ؟

ليس المهم أن نحدد المسؤولية ، فقد تأتي الأيام بتحديد غير الذي قد يصل اليه الناس اليوم .

ولكن المهم أن نقيس بطريقة واضحة ضعف الجبهة العربية وتفكك القادة العرب وعجزهم عن مواجهة المشاكل .

حقاً انه لشعور مخزي ومؤلم ومخيف هذا الشعور الذي ملأ قلب كل مواطن في كل وطن عربي ، وهو يرى الفشل العربي الذي تمثل في النهاية الفاجعة في الكويت . . . اليوم ، عجز عن مواجهة مشكلة الكويت ! ترى من يدري ما هي القضية التي يفشل فيها العرب غداً او بعد غد ؟ كل الدلائل تدل على أن الحرب مع اسرائيل قد تقع في القريب .

ان اسرائيل من جهة ، والدول العربية من جهة أخرى وفي طليعتها الجمهورية العربية المتحدة متفقة على أن حرباً ستقع لا محالة بسبب اصرار تحويل اسرائيل لمجرى نهر الاردن .

فهل نحن فعلاً في مستوى هذا الحادث القادم ؟

وهل ان الجبهة العربية التي رأيناها تتصرف على الشكل الذي تصرفت فيه في الكويت ، قادرة على أن تتصرف في موضوع آخر ، بغير الشكل الذي تصرفت به ؟ ومن الذي قال ان مسألة فلسطين ستكون أقل صعوبة وأقل تعقيداً من قضية الكويت ؟

لا نؤمن بالتشاؤم . ولكننا مع ذلك مضطرون لان نسجل جزع المواطن العربي في كل وطن عربي ، أمام مظهر الخور والعجز الذي تبدى من خلال أزمة الكويت !

الدول العربية ، الحكومات العربية ، الملوك العرب ، الرؤساء العرب ، المسؤولون العرب ، القادة العرب . . . هذه الالفاظ التي كانت تعني التقصير والتخاذل والتفرقة ، وأحياناً الخيانة عام ١٩٤٨ ، كادت تعود لتعني الشيء نفسه عام ١٩٦١ على أثر الهزيمة الشنعاء التي منيت بها الكويت !

بعد ثلاثة عشر عاماً من الانقلابات والثورات ، وتبدل الاحكام والحكومات ، تبدو الجبهة العربية مفككة منحلة بشكل مخيف للغاية .

سؤالان ينبغي أن يكونا كل شيء في تفكير كل عربي ، في الوقت الحاضر : الاول – كيف نزيل الاحتلال القائم اليوم في الكويت . والثاني – وربما هو الأهم – كيف يمكن أن نكون في الغد ، وفي قضية فلسطين بوجه خاص ، غير ما كنا عليه في الكويت !

بين الجد والهزل !

من الاشياء الجميلة التي يفتخر بها لبنان ، كونه على حياد دائم في شتى المنازعات والخلافات التي تقوم بين البلدان العربية . . .

مركز ممتاز بل استثناء أختص به لبنان دون سائر الاقطار العربية ، لعل موقعه ووضعه الخاص المميز ، بالاضافة الى جو الحرية المفعم به أهله وأرضه وسماؤه ، قد أبعده وأفرده عن الدخول في المشاحنات وما تجره من ذيول ، وبالتالي أتاح له أن يكون وسيط خير بين أشقائه الدول العربية في كل مرة يحتدم فيها الخلاف .

ولقد برز وجه لبنان واضحاً منذ ان ذر قرن الخلاف بين العراق والكويت أثر التصريح المدوي الذي أطلقه عبد الكريم قاسم في ساعة مباغتة لم يكن يتوقعها أحد لا من الكويتيين ولا حتى من العراقيين .

فقد تريث لبنان ، وما كان ينبغي له الا أن يتريث ، وصمت المسؤولون فيه صمتاً جميلاً ، بينما ارتفعت الأصوات من كل جانب تنادي بالويل والثبور وعظائم الامور ، ولبست كل دولة لباس الميدان فجيشت الجيوش ، وتدفقت العساكر تتسابق لدخول الكويت او الاكتفاء بالوقوف على الحدود وهذا أضعف الايمان !

ومن المؤسف المحزن ، والمضحك المبكي في آن واحد ، أن تتدفق عساكر الدول العربية على حدود الكويت بينما توالي اسرائيل اعتداءاتها المتكررة المبيتة ، حتى بلغت السبعة في مدة عشرة أيام . . .

من المؤسف المخزي حقاً ، والمضحك المبكي فعلاً ، ان تنصرف الجيوش العربية عن واجبها الاول وما خلقت له . . . وواجبها وما خلقت له ، هو التأهب للقاء العدو المشترك الذي يهدد كل بلد عربي ويتحين الفرص للانقضاض والاعتداء .

ان الأزمة التي نشبت بين الكويت والعراق بغض النظر عن وجهات النظر مهما كانت وجاهتها وجديتها ، تبدو في هذا الظرف بالذات ، وكأنها أزمة مفتعلة ، سداها ولحمتها صرف الجهود — إذا كان ثمة من جهود — عن مواجهة الخطر الاسرائيلي الذي يتفاقم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة .

لا نعلم نوايا عبد الكريم قاسم الحقيقية تجاه الكويت ، هل هو يعني حقاً ما يقول ، أم ان الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من نكتة أطلقها ، حين خلع على حاكم الكويت لقب قائمقام ، وطلب منه قبول هذا المنصب الجديد . وقد كان بميسور عبد الكريم قاسم أن يعينه نائب حاكم أو نائب رئيس أو أي منصب آخر غير منصب القائمقام ، ولكن لامر ما لا يعلمه غير عبد الكريم قاسم استكثر على حاكم الكويت أن يكون أكثر من قائمقام .

يقول بعضهم أن المسألة جدية لا أثر للهزل فيها .

ويقول البعض الآخر بل هي هزلية لا أثر للجد فيها !

وبين الهزل والجد ، يقف لبنان من هذه القضية وقفته التاريخية . . . وقفة الوسيط ، وسيط الخير الذي يدعو الى الهدوء والروية وتغليب العقل والمصلحة العربية .

ولكن أين هو العقل ؟

أهو في العراق أم في الكويت أم في السعودية أم في حضرموت ؟

بل أين هي المصلحة العربية ؟

أهي في الحشودات التي تحشدها الجيوش العربية على حدود البلاد العربية ؟

أم تراها هناك تجثم على الحدود . . . الحدود المصطنعة التي أقامها شذاذ الآفاق بعد أن اقتطعوا منا فلسطين ويطلبون المزيد ؟ !

شكوى سوريا
من التسلل !

من المحزن لعائد من اوروبا وصور التقدم والحضارة وبناء الأوطان ملء مخيلته ، أن يواجه أول ما يواجه اجتماعاً يعقد في بلده للجامعة العربية !

فما من رمز عن الحالة التي يعيش فيها العرب في هذه المرحلة من حياتهم اصرح وأوضح وأصرخ من هذا الكيان المضحك المبكي العاجز التاعس الذي يسمى بالجامعة العربية !

العالم يعيش عصر القنبلة الذرية والسفن الفضائية ، ونحن نعيش عصر الجامعة العربية !

على أي موضوع ومن أجل أي شيء تنعقد الجامعة اليوم ؟

انها تنعقد على ما عرفنا وسمعنا وآمنا وصدقنا لبحث التدخل المصري في سوريا .

موضوع تافه الى أبعد حدود التفاهة .

من الذي ينكر هذا التدخل ؟

أليس عبد الناصر نفسه هو الذي خطب منذ أيام قليلة وأعلن بوضوح ما بعده وضوح وجرأة ما بعدها جرأة أنه سيتدخل في سوريا ؟

فهل يبقى مجال لقائل أن يقول : تدخل أو لم يتدخل ؟ مد يده الى سوريا أم لم يمد ؟

ثم لو فرضنا ان هذا الموضوع موضوع جدي ، وان المسألة تحتاج الاخذ والرد والبحث والنقاش والحجج والمستندات ، أمن المعقول أن ننتظر من الجامعة العربية – وهي من نعرف – نتيجة حاسمة ما ؟

هل يصح أن يتوقع عاقل من الجامعة العربية عملاً مجدياً أو قولاً جلياً ؟ أقسم لو ان الجامعة قد استطاعت للمرة الأولى في حياتها أن تتخذ قراراً بمناسبة الشكوى السورية لكنت أنا شخصياً من اللائمين العاتبين على الجامعة ورجال الجامعة !

عندئذ لا يمكن أن يخطر على بالي إلا طائفة من الاسئلة :

أفي هذه القضية وحدها طاب للجامعة أن تتوصل إلى قرار ؟

أين كانت الجامعة أيام فلسطين ؟

أين كانت الجامعة يوم العدوان على السويس ؟

أين كانت الجامعة يوم شكا لبنان من التدخل وكانت شكواه اصرح وأقوى وأوضح من الشكوى السورية اليوم ؟

أين كانت الجامعة يوم جاء الأسطول الاميركي إلى لبنان ويوم نزل الانكليز في الأردن ؟

إن الجامعة العربية تخرج عن تقاليدها وتتنكر لتاريخها الحافل وربما فتحت على نفسها

باباً جديداً للوم والتقريع إذا هي تمكنت من الوصول إلى حل واضح حاسم لما تجتمع من أجله اليوم !

لقد أصبح لي رأي واضح في هذه الجامعة وانه رأي قديم عريق في قدمه – وهو أن تسعى الجامعة لأن تختفي من الأخبار ومن عناوين الصحف ومن مسرح الاحداث أكثر ما يمكن ، لأنها إذا ظهرت في أي ميدان من هذه الميادين ، فانها لن تظهر إلا كصورة مكبرة للعيوب المخيفة التي تسلط اليوم على الاوضاع العربية !

حفلة سباب شتورا !

« وجع القلب » الذي صادفني طوال رحلتي إلى أوروبا لم يكن مفاجئاً لي ، فقد تنبأت به قبيل سفري وتنبأ لي به أصدقائي . . .

وجع القلب على الحالة التاعسة التي نعيش في أسرها ، والفوضى الممتازة التي نتخبط فيها في جميع المجالات .

وجع القلب هذا الذي لازمني شهراً كاملاً ، عاد اليوم يتجسد في الصورة الزرية التي طالعتنا بها أولى حفلات الشتم والردح الدائرة في شتورا على ألسنة الممثلين والمبعوثين في الجامعة العربية .

ومن نكد الدنيا على لبنان أن تتحول ربوعه ، وهي التي كانت حتى الأمس القريب محطة التقاء بين الأخوة والأشقاء ، إلى ساحة عراك وسوق عكاظ ، ولكن من نوع جديد لا عهد به للأدب العربي القديم والحديث . . .

ساحة عراك لم ينقصها غير المسدسات والخناجر والنبابيت . بل لقد استعاض عنها الفريقان المختلفان المتنابذان المتشاتمان ، بطائفة مختارة وغير مختارة من السباب والشتائم !

وسوق عكاظ كان المجلى فيه وصاحب القدح المعلى ، هو صاحب الكعب الأعلى في ميدان الردح والذم والتشهير .

ولست أقول أن البقر تشابه علينا فما استطعنا أن نميز بين أصحاب الكعوب العالية والواطية ، فكلهم والحمدلله الذي لا يحمد على مكروه سواه – ممن تتشرف بهم أمثال هذه الحفلات والميادين ، حفلات الشتم والتسفيه وميادين القدح والذم والتحقير .

ومن المؤسف المحزن أن أحداً من المتصارعين في شتورا لم يستشعر بصغار ومهانة العمل الذي يؤديه وكأنه واجب وطني يدعو للتباهي والفخار . بل ان كلا منهم يمضي في السوق القائمة

— السوق العربية المشتركة — مرفوع الرأس عالي الجبين مشرق الوجه ضاحك الثغر مستكملا أسباب الاناقة والوجاهة وكأنه في عرس عربي لا في مأتم عربي !

ولم لا ؟

ان الشتائم والسباب وصفائح الأقذار التي يهيلونها على بعضهم بعضاً ، لا تصيب — مع الأسف الشديد — رأساً واحداً ولا جبيناً واحداً ولا هامة واحدة من رؤوس وهامات السادة المحتفلين بمهرجانهم ، مهرجان الشم . . . فلقد دفعوا اليه دفعاً وكأنه ليس يعنيهم في قليل أو كثير !

أجل ، ما من أحد من السادة الانطاع استشعر لحظة واحدة بأنه مقصود بالذات بحملات السباب العلنية التي تقاذفوها . ذلك أنهم جميعاً انما كانوا في حقيقة الأمر يسددون سهامهم ويوجهون شتائمهم إلى كل بلد عربي وكل مواطن عربي .

ولم تكن مهمتهم في « السوق العربية المشتركة » أكثر من مهمة الكومبارس على خشبات المسارح الليلية !

إذا حق لاوروبا أن تتباهى بالسوق الاوروبية المشتركة فمن حق الدول العربية أن تخجل من هذه السوق العربية المشتركة التي تعرض اليوم في شتورا .

بيضة الشكوى السورية !

وأخيراً ، ولكن بعد خراب البصرة ، وبعد أن أشبعت شرشحة وبهدلة ، أنسحبت مصر من الجامعة العربية .

وقد كان يبدو انسحاب القاهرة قبل الشكوى السورية عملاً مشكوراً مبروراً . وكان يبدو قبل هذا التاريخ بالذات وعلى وجه التحديد منذ قيام الثورة المصرية ، مأثرة وطنية كبرى وخدمة عربية جلى ، لو ان قادة مصر التفتوا إلى حاجات الشعب في مصر أولاً بعد أن تخلصوا من الملكية وقضوا على الاقطاعية وقفزوا تلك القفزات السريعة نحو العلاء .

كان يبدو انسحاب مصر يومئذ أمراً طبيعياً ينسجم مع روح الثورة المصرية ومتطلباتها وغاياتها التي تتنافى وتتجافى مع فلسفة وغايات ومتطلبات الجامعة العربية .

ولكن ، لأمر بات معروفاً وسر لم يعد خافياً ، أبت « مصر الثورة » إلا أن تتنكر لروح الثورة وتنحرف عن أهدافها ، وتنغمس حتى آذانها في مستنقع السياسة التقليدية التي درجت عليها الجامعة العربية ، فأصبح الرجال العسكريون الثائرون يقتفون آثار السياسيين المخضرمين وينهجون على منوالهم ويدوبلون عليهم في الكذب والتدليس والنفاق !

أكثر من هذا ، استطاعوا من حيث يريدون أو لا يريدون أن يزرعوا في نفوس جيل كامل من الشباب القلق ويشيعوا التشاؤم ، ويزعزعوا الثقة بكل القيم والمثل التي تملّوها طويلا وبنوا عليها الآمال العذاب يوم انبثق فجر الثورة المصرية .

وانساقت « مصر الثورة » في تيار المزايدات والمناقصات في سوق الجامعة ، وغرقت في خضم الصداقات والعداوات ، وخيل اليها انها قد برعت وتفوقت في ميدان اللف والدوران ، ولكنها باءت بالخيبة والفشل والخسران . فلقد هادنت الرجعية ثم حاربتها ثم هادنتها ثم حاربتها .

مدت يدها الى الملوك والامراء والسيوف ، فصادقتهم وحالفتهم وانتصرت لهم ، ثم انقلبت عليهم وحاربتهم . ثم هادنتهم وأمطرتهم حمداً وثناء ، ثم خاصمتهم وأغرقتهم قدحاً وذماً وهجاء .

وجاءت الطامة الكبرى : فكانت تجربة الوحدة الفاشلة أساساً ونظاماً وأسلوباً ، والتي باضت فكانت آخر بيضتها الشكوى السورية ، وكان من نتائجها انسحاب القاهرة من جامعة الدول العربية .

وما من مواطن عربي إلا ويذكر أن هذه الجامعة هي ربيبة القاهرة ، رعتها ودللتها كما ترعى الأم وليدها وتدلله .

وما من مواطن عربي إلا ويذكر أيضاً : ان هذه الجامعة ، كانت منذ ولادتها جامعة مصائب وهموم للبلاد العربية . فلقد كانت غريبة عن عواطف وأحاسيس الشعوب ، لا تمثل إلا طبقة عفنة من السياسيين ، وأسلوباً هرماً متآكلاً من السياسة البالية . ومع ذلك فقد ظلت مصر — ولست أقول شعب مصر — أحرص الحريصين على بقاء الجامعة .

إن انسحاب مصر من الجامعة العربية مهما كانت مبرراته ليس يعني في أذهان الناس إلا أمراً واحداً ، هو التهرب من مواجهة الشكوى السورية ونتائجها ، وبالتالي تأكيد الاتهامات والوثائق التي وجهت اليها .

وليس يعذرها الناس احتجاجها على الشتائم ، فتلك بضاعتها ردت اليها وكما تدين تدان ، وبالكيل الذي تكيلون به يكال لكم وأزود !

* * *

إن خروج القاهرة من الجامعة العربية إنما يعني تأكيد الحكم على فسادها وفساد الركائز التي قامت عليها .

فلقد وضحت مبررات قيام الجامعة بوضوح المصالح الخصوصية والأهواء الشخصية التي عصفت بها ومزقتها شر ممزق !

لقد أرادتها الحكومات العربية مطية لمصالحها ومصالح رؤسائها لا لمصالح شعوبها ، فلا غرابة أن تنهار وقد كانت الغرابة كل الغرابة أن تبقى كما هي مصدر العلل والمصائب والمتاعب !

* * *

إن الحزن الذي يعصف بنفوس المواطنين العرب في كل بلد عربي ، ليس حزناً على هذا المصير الذي انتهت اليه الجامعة ، إنما الحزن والحسرات على أن يفتحوا أعينهم على بديل عن الجامعة يعوضهم عنها فلا يجدونه وتلك هي المأساة ، وتلك هي الكارثة !

حفلة سباب شتورا !

لم يكتف العرب الأشاوس والفرسان المغاوير في شتورا بأن يتبادلوا التهم ويتقاذفوا الشتائم ويصدعوا الصفوف وينهشوا لحوم بعضهم بعضاً ، بل تطرقوا إلى أشد من هذا وأخطر ، وترددوا في بؤرة هي أدهى وأمر .

فقد بدأوا بتمزيق الستائر والحجب الشفافة التي كانت حتى الأمس القريب تحجبهم عن اسرائيل وتحجب معها أسرار البلاد العربية والجيوش العربية والاسلحة العربية سواء في سوريا أو في مصر .

ذلك أن أبطال شتورا راحوا يمدون اسرائيل بكل أو ببعض ما خفي على اسرائيل من أسلحة الجيش المصري وأسلحة الجيش السوري من طائرات وقاذفات قنابل ومدفعية وغيرها من الأسلحة التي ينبغي أن تظل سراً حتى لو توصل العدو إلى معرفتها أو معرفة بعضها .

فأسرار الجيشين السوري والمصري بضباطه وصف ضباطه وأسلحته وذخيرته وأعتدته باتت بفضل البيانات والخطب والاتهامات في شتورا مفضوحة مكشوفة تذاع وتنشر على مسمع العالم في الاذاعات والصحف ، وكأنها « روزنامة » العمل العربي للمستقبل في سبيل نجدة فلسطين والوصول بالشعوب العربية إلى حياة أفضل . وأشد ما يذهل ويصعق أن السباق بين الفريقين على أشده ، سباق لا عهد للعرب به ولا نظير له في جميع ميادين السباق ، سداه ولحمته الشرشحة وكشف العورات وفضح الاسرار والابانة عن جميع المفاسد والأخطاء التي عششت وتعشش في ضمير الخطاة من المسؤولين سواء أكانوا في القاهرة أو دمشق .

وأعجب الأعاجيب في هذه الجنازة الحامية التي يحتفل الطرفان باقامتها ، أن الموضوع الاساسي ، موضوع النزاع الظاهري ، براء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

فالوحدة العربية — كلمة الحق التي يراد بها باطل — آخر ما يفكر به دعاتها اليوم في شتورا ومن هم وراءها خارج شتورا .

فما من بني آدم عاقل — ولا أقول زعيم أو كبير أو مسؤول — عرف وعاش تجربة الوحدة بين مصر وسوريا وشاهد آثارها العملية ونتائجها التي تمخضت عنها ، إلا واتعظ بنتائجها وتجنب خطر الوقوع في تجربتها مرة ثانية .

ومع ذلك وبالرغم مما شاهدنا وسمعنا وقرأنا من أخبار الأبطال في شتورا وفضائحهم ومخازيهم ، فان ثمة أناساً ما زالوا يفكرون ويطمحون ويعملون للوقوع في التجربة مجدداً ، وكأنها أكلة دسمة لذيذة . وهنا مكمن الداء وموضع العلة ومصدر المصاب والبلاء .

فالكاتب « الهلفوت » الذي كان يؤكد عقب حركة الانفصال في جريدة « الاهرام » بأن لا عودة إلى التفكير بأمر الوحدة ، عاد بعد أيام يؤكد ويطالب بضرورة العمل لاعادة الوحدة بين مصر وسوريا . حتى لكأن الوحدة العربية ما قامت في أذهان العرب إلا لتفكهة وتسلية وسمسرة التافهين من الجهلة والأذناب اللعوقين .

والجهاز العبقري بتفاهته ، الالمعي بجهله وغبائه : الذي خطط وعمل ونفذ حكاية الوحدة عاد من جديد بعد فك الوحدة يعمل وينشط بالجهاز ذاته والاساليب عينها والافراد أنفسهم ، وكأن شيئاً لم يحدث وتجربة لم تقع ، وكارثة لم تحل !

جهل موشى بأحدث أفانين الغباء . وغباء مطرز بأعجب أنواع العناد . وتلك هي قضيتنا ، وتلك هي كارثتنا . . .

وليست فضائح شتورا إلا بعض فصولها !

تياترو جديد !

للمرة الاولى منذ زمن بعيد كانت عاطفتنا إلى جانب الجمهورية العربية المتحدة في نزاع لها مع بلد عربي . فنحن يشهد الله لم يطربنا هذا التجني الذي تجنّاه بعض من كان في شتورا على شخص الرئيس عبد الناصر ، فلقد عمل هذا الرجل لمصر وعمل للعرب ما لا يستحق معه مثل هذا الهجوم العنيف .

وكنا ننتظر من جانب الرئيس عبد الناصر بادرة معقولة في السياسة العربية تجعلنا نستعيد ثقتنا الضائعة منذ فترة غير قصيرة بحكمة سياسة الجمهورية العربية المتحدة وسدادها وتفهمها للظروف التاريخية الدقيقة التي تمر بها البلاد العربية .

وقلنا لعلها العبرة تملي على الدولة العربية الكبرى البادرة المطلوبة ؟

ولكن ماذا حدث ؟

حدث العكس تماماً ، إذ لم تكن العبرة في نظر المسؤولين في مصر إلا اختراع بدعة جديدة تدل على الاستمرار في الشطط ، هي بدعة « جامعة الشعوب العربية » والعياذ بالله !

ألا بئست البشرى !

أفيكون الدواء أمعاناً في الداء ؟

ألم تفهم مصر حتى اليوم ان أصل البلاء في سياستها العربية انما هو اعتمادها على فئات من المطبلين والمزمرين والمهرجين ، زعموا وزعمت انهم يمثلون الشعوب العربية ، وهم في الحقيقة لا يمثلون إلا مصالحهم وعبقريتهم الفذة في النفاق والمتاجرة باسم عبد الناصر ؟

جامعة شعوب ؟

من هم هؤلاء الذين سيمثلون غداً في صفوف هذه الجامعة ؟

من الذي سيمثل شعب العراق ؟

ومن الذي سيمثل شعب الاردن ؟

ومن الذي سيمثل شعب السعودية ؟

ومن الذي سيمثل شعب اليمن السعيدة ؟

ومن سيمثل شعب لبنان ؟

ومن سيمثل شعب سوريا ؟

بل أين سيكون التمثيل وأين تكون الجامعة وفي أي بلد ؟

هل تكون جامعة الشعوب في القاهرة أم في بغداد أم في دمشق أم في بيروت أم في عمان أم في تعز أم في الطائف ؟

أم تراها تكون جامعة متجولة كالباعة « السريحة » الذين يسرحون ببضاعاتهم وينادون عليها ؟

قد يبدو هذا الأمر شيئاً ثانوياً ولكنه على العكس تماماً إنه أمر هام . فمن الواجب معرفة المركز أو التياترو الجديد الذي ستعرض عليه جامعة الشعوب العربية العتيدة رواياتها ومسرحياتها ...

أو لم يفطن مؤخراً « كاتب التاريخ » والطبري المصري الجديد في جريدة الأهرام ، بأن الجامعة العربية ليست إلا « تياترو » ؟

فأين يكون تياترو الجامعة الجديدة الذي يبشرنا به كاتب التاريخ ؟

لست أدري من عساه يكون صاحب فكرة جامعة الشعوب العربية .

هل هو دوقتور القومية العربية « م.ع.ق.ح. » ؟

أم الكاتب الجهبذ ، كاتب التاريخ في جريدة الأهرام وطبري آخر زمان « م.ح.ه. » ؟

قد يكون أحدهما أو كليهما والجمهورية العربية المتحدة معذورة على كل حال إذا هي استعانت بهاتين العبقريتين ، فلقد خلت الساحة في مصر وخلا الميدان لهذين الفارسين المغوارين ، بعد أن خفتت أصوات أدباء مصر وكتابها وأحرارها ومفكريها وفلاسفتها وأهل الرأي فيها ولم يعد في الميدان غير حديدان !

* * *

لقد شاهدنا روايات الجامعة العربية ومسرحياتها طوال سبعة عشر عاماً وكانت آخر فصولها في شتورا . ولقد تقلب على مسارحها وزراء ورؤساء وقادة وزعماء ومجاهدون منهم من قضى ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً !

فمن هم يا ترى الذين سيمثلون على خشبة مسرح جامعة الشعوب العربية ؟

من الذي سيختارهم ويتخيرهم ؟

من الذي سيدربهم على التمثيل ؟

من هو المخرج ؟

من هو الملقن ؟

هل ترانا بحاجة الى مزيد من الروايات والتمثيليات وقد اتخمنا منها ؟ بل هل قادتنا إلا إلى المزيد من التفكك والخزي والضياع ؟

« اللهم أنا لا نسألك رد القضاء ولكننا نسألك اللطف به » !

الصيحة الداوية !

ليس أعجب من الجامعة ولا أطرف منها غير الحريصين أو « المتحارصين » عليها .

فالذي يسمع يصدق . يصدق أن بقاءها فيه خير لدولها ، ولا نقول لشعوبها التي ابتليت بها زهاء سبعة عشر عاماً ، فما غنمت منها غير الخيبة تلو الخيبة والفضيحة تلو الفضيحة . وما ذاقت من خيراتها إلا ما ذاقه موظفوها الذين رتعوا في ظلالها كما يرتع تنابلة التكايا . بل ان تنابلة السلطان كانوا يكتفون بالأكل والجلوس في الشمس والنوم الهنيء الطويل . أما تنابلة جامعة هذا الزمان ، فلم يكفهم عملهم الروتيني المعهود بل أضافوا اليه عملاً جديداً ويا له من عمل ؛ هو الاجتماعات تارة على مستوى السفراء ، وتارة على مستوى وزراء ، وطوراً على مستوى آخر من عيار أجارك الله . . . ولقد آتت هذه الحفلات والاجتماعات أكلها ، وأينعت ثمارها ، وقطفناها

وما زلنا نجني القطاف ، ويا لها من ثمار ويا له منْ قطاف !

إن الدعوة النبيلة التي حمل لواءها الأمير اللواء فؤاد شهاب لجمع كلمة الدول العربية ، والتي ظهرت ببادرته الأخيرة حيال الجامعة العربية ، إنما نفهمها بل نريد أن نفهمها على وجهها التجريدي الخالص من كل شائبة ، الصافي من كل غرض أو هوى ، ألا وهو وضع حد للخرق الذي اتسع . والهوة التي فغرت فاها بين الدول العربية ، فنالت من سمعتها وكرامتها فرادى ومجتمعة .

فانطلاقاً من هذه الزاوية نحب أن نرى وساطة رئيس الجمهورية اللبنانية في محاولته الأخيرة حيال الجامعة العربية وما ألم بها ، أو على الأصح . ما ألم بشعوبها من ذل ومهانة تجاه شعوب العالم عامة واسرائيل خاصة !

لقد أثبتت اجتماعات شتورا المشؤومة . أن معظم حكام الجامعة العربية في واد والشعوب العربية في واد آخر . فما من مواطن عربي إلا ساءته وأوجعته حفلات الشتائم والتجريح التي قامت على قدم وساق .

فاللبناني والسوري والمصري والاردني والسعودي والعراقي واليمني والكويتي وكل مواطن عربي وكل قطر عربي ، تمنى من صميم قلبه وضع حد لفصول تلك الرواية المخزية ما عدا أبطال الرواية أنفسهم الذين مضوا وما زالوا يمضون في تهريجهم المخزي المعيب !

فأي خير عساه يصيب البلاد العربية والشعوب العربية من استمرار قيام الجامعة العربية ؟ هل ترانا بحاجة الى المزيد من اجتماعاتها وحفلاتها ؟ وهل فرغنا من سباب أعضائها وشتائمهم ، بل هل فرغت جعبهم من سيول الاتهامات والفضائح يتراشقونها وكأنها التحيات الطيبات المباركات ؟

جامعة عربية توحد كلمة العرب وتجمع شملهم ؟

أمنية ليس أغلى ولا أعز ولا أدعى لطلبها . ولكن أين هي ، وهي التي عرفنا وبلونا وذقنا ، فكانت سبة ومهانة في جبين كل عربي ؟ !

أم عسانا نجربها سبعة عشر عاماً أخرى ، ومثلنا العربي الفصيح يقول : « من جرب المجرب كان عقله مخرباً » ؟ !

* * *

مرة ثانية .

إن بادرة الرئيس فؤاد شهاب يجب أن تؤخذ وتفهم على وجهها النبيل الصافي ، وينبغي أن تكون بمثابة الصيحة الداوية التي تفتح آذان المسؤولين العرب وقلوبهم ، فتبصرهم بالواقع المرير الذي صارت اليه البلاد العربية . نتيجة هذه الملهاة المجرمة التي ألهتهم وتلهيهم عن عدوهم المشترك المتربص دائماً المتحفز أبداً ! !

العالم العربي في مهرجان كبير قائم قاعد . يكفي أن نستمع إلى اذاعاته حتى نتبين نوع المهرجان القائم في كل عاصمة من عواصمه .

فهنا الأفراح والليالي الملاح ، وهناك الأحزان والأتراح .

هنا التفاؤل والاستبشار ، وهناك صرير الأسنان والاكفهرار .

هنا الأمن والسلام : وهناك الكبت والضغط والاستسلام .

الحان مختلفة الاصداء والنغمات . بعضها متشابهات وأخرى غير متشابهات . منها الصبا والنهوند ومنها الحجار ومنها النشاز . وجميعها تصدح في آن واحد وبلغة واحدة مختلفة اللهجات متباينة الاتجاهات .

القاهرة في مهرجان تعلن فيه تسلم الرئيس عبد الناصر كل مقدرات ومرافق الجمهورية العربية المتحدة . من الرئاسة إلى القيادة إلى المجلس التنفيذي . إلى ابعاد الرفاق القدامى عن الوزارات ، إلى حق حل المجلس التنفيذي وإقامة الأعضاء والاطاحة بهم ساعة يشاء . . إلى إلى آخره ، كل ذلك وفقاً لاحدث النظم الديمقراطية وتمشياً مع روح الثورة الاشتراكية العربية التقدمية التحررية « ليمتد » !

ودمشق في مهرجان مستمر ، قام منذ عام ١٩٦١ في أعقاب ٢٨ أيلول ، وكنا نحسب أنه سيقعد أو على الأقل ستستبدل أنغامه والحانه بغير ما سمعنا ومللنا سماعه ، ولكن عبثاً فلقد تحولت أفراح دمشق إلى مهرجان للندب ولطم الخدود وشق الجيوب . واجترار للتهم والشتائم التي خيل لاذاعة دمشق أننا نسيناها ولم تصلنا أخبارها وأصداؤها . فعادت تكررها بل تقيم لها مهرجاناً خاصاً أطلق عليه اسم مهرجان الانفصال أو عاشوراء الوحدة ! واليمن ، حتى اليمن السعيدة ، قد أدركتها عدوى المهرجانات فانتفضت ، وكان من حقها أن تستيقظ قبل أن تنتفض ، لتقيم مهرجاناً على أشلاء الرؤوس والسيوف التي عاثت فيها فساداً واضمحلالاً وخنوعاً . وليس يدري أحد ماذا تكون نهاية هذا المهرجان !

وعمان في مهرجان ، مهرجان التشفي والنكاية بعبد الناصر . حتى لو كان ذلك في انتصارها لسيوف الاسلام وشجبها لثورة اليمن التي نجحت حتى الآن ، وماذا يضير إذا اعترفت روسيا بثورة اليمن ، يكفي أن عمان اعترفت بسيف الاسلام الحسن !

والسعودية في مهرجان كله حذر وكله تربص لما تحبل به الليالي وما قد يلده الزمان . . .

والليالي من الزمان حبالى يلدن كل عجيبة !

ترى أية عجيبة تنتظرها السعودية بعد ثورة اليمن . . ؟

والعراق الغارق في الصمت ، لا يتكلم ولا ينتصب مهرجانه إلا إذا ذكر الكويت السليب ، والقائمقامية المتمردة . . .

أما شعب العراق فانه ينتظر الترياق . وليس وحده بين الشعوب العربية التي تنتظر الترياق ، فطالما انتظرته طويلاً وعقدت عليه الاماني العذاب وخيل إلى بعضها أنها وجدته ، فاذا بها وقد أضلها السبيل اليه ، واذا بالترياق سراب في سراب ، يحسبه الظمآن ماء وما هو بماء !

ترى هل يأتي الترياق هذه المرة من اليمن بعد أن تعذر مجيئه من العراق ومن غير العراق ؟ سيأتي أم لن يأتي ، شيء واحد نرجوه مخلصين ، هو أن يحمي الله الجزائر من هذه المهرجانات القائمة في العواصم العربية ؛ وأن يقيها شر « العمل » العربي الذي ابتلانا به قادة الكلام وزعماء الانشقاق والخصام .

وحسبنا الله ونعم الوكيل وانا لله وانا اليه راجعون !

« انتصرنا انتصرنا » !

الانتصارات السلبية « تجرجر » ذيولها وتدق صنوجها في كل بلد عربي ، على أنغام اذاعاتها المتعددة اللهجات المختلفة الموجات . . . وكلها تحور وتدور لتصب في مصب واحد وعلى وتيرة واحدة ، وان اختلفت الغايات وتباينت الأهداف ، لقد جمعتها المصائب والنكبات في هذا المهرجان الكبير الذي ينتظم ألسنة أبواقها وصحفها واذاعاتها ، فقامت فرحة جذلة تصفق وترقص ، تغني وتطرب على أمجاد الأعياد الوطنية والمكاسب الاشتراكية الشعبية التحررية التقدمية التي حققتها سلسلة الانتصارات السلبية . . . ويا لها من أمجاد ويا لها من انتصارات !

كيف لا ترقص القاهرة عشرة بلدي وتغني على الارغول لتقول بأنها غنمت حتى تاريخه أربع طائرات سعودية هرب بها طياروها وآثروا الفوز بالبطولة والعيش الرغيد في فنادق القاهرة ؛ على المغامرة بأرواحهم والذهاب إلى جحيم اليمن ؟ كيف لا يطرب الاردن وقد طال انتظاره ، ليرد بعض ما لحكام القاهرة عليه من جميل وجمائل ؟

كيف لا تفرح سوريا وقد خيل اليها أن محاربة عبد الناصر ، إنما تعني محاربة الحرية الصحفية فأغلقت صحيفتين واستصدرت قراراً وزارياً بالغاء رخصتيهما ، ثم راحت تزغرد مع صوت العرب « انتصرنا انتصرنا » ! أي نصر هذا الذي يحتفلون به في كل عاصمة من هذه العواصم العدوة المتربص بعضها ببعض كما تتربص الوحوش الكاسرة ؟

« انتصرنا انتصرنا » ؟

على أي شيء انتصرتم ، وما هي المكاسب التي حققتم ، إلا في نهش اللحوم واشاعة الفرقة وترسيخ الاحقاد وتقطيع الاوشاج ، واضاعة الآمال في الهواء ؟

القاهرة انتصرت على السعودية . والسعودية انتصرت على القاهرة . وسوريا انتقمت من عبد الناصر . وعبد الناصر انتقم من سوريا . والضابط المصري هرب إلى دمشق . والضابط السوري هرب إلى القاهرة . وصوت العرب يشتم بالجملة السعودية والاردن والعراق وسوريا . واذاعة دمشق تشتم والاردن يرد الشتيمة وراديو مكة يشترك في موسم الشتائم فيرد الاتهامات ويصب اللعنات ، وتصدح اوركسترا الاذاعات العربية بصوت واحد ونفس واحد : « انتصرنا انتصرنا » !

نعم انتصرنا . . .

انتصرنا على اسرائيل فمنعناها من تحويل مجرى الاردن ، ورددنا الضربة ضربتين والصاع صاعين ، واعدنا اللاجئين إلى ديارهم آمنين مطمئنين . رافعي الرؤوس من الوحل والطين الذي مرغ جباههم بكل ما يذل ويشين . . .

فرغنا من هموم الشعوب العربية — استغفر الله الشعوب العربية — فوفرنا الغذاء والكساء للمصري وأنقذناه من الفقر والجهل والمرض ، وأتحنا له المزيد من الحرية والكرامة الانسانية .

وانتصرنا للعلم وللكفاءة وأشعنا الوفاق ومكارم الأخلاق ، وحاربنا باسم الوحدة في كل عاصمة عربية فلم ننصر باغياً ولا جاهلا ولا منافقاً ولا دجالاً ولا لعوقاً ، بل شددنا أواصر المحبة ووشائج القربى بين الشعوب لنمهد السبيل بذلك ، إلى قيام الوحدة العربية المنشودة التي نرقص على أنغامها اليوم ونغني فرحين جذلين :

« انتصرنا انتصرنا » !

نعم انتصرنا . . .
انتصرنا في فلسطين
وانتصرنا في لبنان
وانتصرنا في العراق
وانتصرنا في سوريا
وانتصرنا في الحجاز
وانتصرنا في اليمن
وانتصرنا في لحج وعدن
ومسقط وملقط وغانا وحانا ومانا والزنجبار

وبلاد تركب الأفيال . . .
هيا يا عرب هيا .
غنوا واطربوا وارقصوا وانشدوا :
« انتصرنا انتصرنا » !

الانتصارات السلبية !

حكاية الانتصارات السلبية التي يتباهى بها بعض الدول العربية ، حكاية غريبة حقاً عجيبة فعلا . لا لأنها دليل عجز وضعف وتخاذل وحسب . بل لأنها وسيلة خطرة من الوسائل التي يتذرع بها الحاكم لالهاء الجماهير وصرفهم عن الحقائق إلى الأوهام ، وعن اللباب إلى القشور . وليس أيسر من أكل عقول الدهماء والتسلط على شعورهم والهاب أحاسيسهم . يكفي أن تنطلق مظاهرة في شارع ؛ حتى يلحق في ركابها الكثيرون ، يهتفون ويصفقون وهم لا يدرون من أجل ماذا يهتفون ويصفقون ، ولا من أجل أي شيء يتظاهرون .

واذا انطلقت عبارة من العبارات تحمل معنى من الشعارات التي ألفتها أذواق الجماهير . تلقفتها ألسنتهم وضمائرهم ؛ وهتفت بها حناجرهم ؛ وصفقت لها أيديهم ، حتى لتكاد تنزل في قلوبهم وأرواحهم منزلة الايمان واليقين . وما من شيء أصعب ولا أشق من أن تنتزع الايمان من قلوب الجماهير التي يستخفها الطرب والحماس لسماع الشعارات وترديدها كالببغاوات . وآفة آفات الشرق عامة والبلاد العربية خاصة ، هي الخشوع والتسليم بما تردده حناجر المتأفة من العبارات المنمقة والشعارات المزيفة . فاذا تصدى لها عاقل بالنقد والفحص والتدقيق ، اتهم بعقله ومروءته ووطنيته ، واعتبر مارقاً زنديقاً خائناً ، لا يرد له عقله ولا اعتباره ولا وطنيته ، إلا إذا أسلم عنقه للقياد وانجرف في القطيع السائر ، سير الخراف . فالتسليم المطلق ، والجهل المطبق . والتسرع الاحمق ، هي البراءة التي باتت تمنح إثباتاً للوطنية ، والشهادة التي تمنح تزكية واقراراً لها .

فوعي الشعوب ، وتمييزها الصالح من الطالح ، هو في الحقيقة مقبرة الحاكم الفاسد ونهايته المحتومة . ومن أجل ذلك كانت التجارة الرائجة ، والورقة الرابحة في يد كل طاغية مضلل . وحاكم مفسد ، هي في هذه الشعارات المألوفة التي يطلقها على ألسنة زبانيته ، ليمسك بها أعناق الجماهير يتلهم كما تتل السائمة . فاذا كان الحاكم يحكم باسم الدين ألقم الأفواه الآيات المنزلات . واذا كان مدنياً أطلق الوعود المعسولة . واذا كان عسكرياً أدار الاسطوانات الحماسية يرددها في الآذان لترسخ في العقول والأذهان .

فاذا أخطأ الحاكم أو الزعيم أو الرئيس . كان خطأه صواباً . واذا أفسد كان إفساده إصلاحاً . وإذا أجرم كان إجرامه قانوناً . واذا بغى كان بغيه عدلاً .

والويل كل الويل لمن لا يرضخ لهذه القواعد التي تنزل في قلوب المعجبين منزلة الايمان واليقين .

الويل كل الويل ، لمن لا يرى في الانتصارات السلبية انتصارات حقيقية ايجابية واقعية .

الويل كل الويل لمن لا يرى في الانحراف ، مكاسب شعبية وطنية .

الويل كل الويل لمن لا يطأطىء الرأس للجاهل التافه اللعوق ، ولا يقول للغبي السمج السخيف ، أنت أذكى الأذكياء وأفهم الفهماء وأظرف الظرفاء .

الانتصارات السلبية ، باتت في هذه الإيام ، المقومات الأساسية للقواعد الوطنية ، التي استشرى داؤها في الصفوف العربية . فلنحاربها أو لنلعنها على الأقل . وهذا أضعف الايمان .

وليس يعفينا من هذا الواجب أن نحبس أنفسنا في بيوتنا ونردد قول الشاعر :

يقضى على المرء في أيسام محنتـــه
بأن يرى حسنا ما ليس بالحســـن !

السلاح الخطر

كما قال الملك سعود بالأمس عن جمال عبد الناصر انه « لا ديني » ، يقول عبد الناصر اليوم عن حزب البعث انه « لا ديني » !

سنة طبيعية وسلاح مألوف ، عرفته معظم المعارك السياسية التي جرت وتجري في البلاد العربية .

فما أن تصطدم مصلحتان وتتناقض فكرتان ، حتى يعلو صوت أحد الفريقين يرمي خصمه بالزندقة والمروق وتحدي الشرائع السماوية والتجديف على الأديان ، والدعوة الى الكفر والالحاد والعياذ بالله !

ولست أعتقد أن بلداً من البلدان يثار فيه حديث الأديان بمناسبة وبغير مناسبة ، كبلادنا العربية .

فكل مخاصم لنا في الرأي « كافر » ، وكل مجادل في وجهة نظرنا « ملحد » ، وكل داعية لغير عزنا وسلطاننا « زنديق » .

ويا له من سلاح سهل لا يحتاج صاحبه إلى أكثر من ذمة واسعة وضمير طيع ، فاذا البريء

متهم ، والصالح طالح ، والخير شرير ، والعالم جاهل . . .

ونحن في لبنان أكثر الناس معرفة واختباراً بهذا السلاح ، فطالما رأينا صولته وجولته في برلماننا ودواويننا وشوارعنا ، وطالما دفعنا الثمن غالياً من دمائنا وأموالنا . ولو لم يكن من شاهد على «مآثر» هذا السلاح إلا فتنة عام ١٩٥٨ المشؤمة ، التي ذبح فيها اللبنانيون بعضهم بعضاً لكفى به دليلا .

لقد تحولت الغيرة على الأديان تجارة عريضة ، هي للرؤساء والزعماء والوزراء والنواب والوجهاء والهيئات والحكومات ، المأدبة الكبيرة التي يأكلون منها ولا يشبعون ، والنبع الذي يغرفون منه ولا يرتوون .

تجارة قذرة كان ينبغي لها أن تكسد وتبور ، ونحن في القرن العشرين وفي عصر الاشعاع والنور !

والغريب العجيب في أمر هذه التجارة أنها ليست وقفاً على بلد عربي دون آخر ولا على زعيم دون زعيم ، بل الكل أمام اغرائها وسحرها سواء . فهي في اليمن كما في لبنان ، وهي في قطر كما في مصر ، وهي في المشرق كما في المغرب ؛ فحيثما هناك مصالح وخصومات وزعامة وزعامات ، فهناك الدفاع عن دين يزعمون أنه مهدد والغيرة على شريعة يدعون أنها مهاجمة ، والحقيقة أنه ليس ثمة ما يهدد ولا من يهدد . وكل ما في الأمر أغراض وغايات ومحاولة مؤذية لاثارة غرائز الناس والتلاعب بعواطفهم وعقولهم !

لقد جاءت الأديان لتعلم أول ما تعلم العدل والانصاف وعدم التجني والافتراء على الناس بغير الحق . وليس يساء إلى الدين شيء مثلما يسيء اليه استعماله كوسيلة للطعن بالخصوم والسعي وراء المصالح الخاصة .

إننا نستغرب أن يرتفع هذا السلاح في المعركة القائمة اليوم بين الدولة الاشتراكية الجمهورية العربية المتحدة والدولتين الاشتراكيتين العربيتين في سوريا والعراق .

إن من مصلحة الذين يلجأون اليوم إلى هذا السلاح فيتهمون ثورة ٨ آذار باللادينية ، أن يطرحوه جانباً ، فهو فضلا عن عدم فعاليته وتأثيره ، أصبح مؤذياً لصاحبه ، لأن الناس باتوا يؤمنون بأن شهر هذا السلاح لا يعني إلا أمرين ، الأول أن صاحبه في حرج وضيق ، والثاني أن هناك رجعية تريد أن تحارب تقدمية !

ترى ، هل يرضى مثل هذا التفسير من يلجأون إلى هذا السلاح في هذه الأيام ؟

لماذا نخاف عليه ؟

كنا بالامس القريب في خوف من عبد الناصر على ثورة العراق وثورة سوريا ، فقد علمتنا الأيام أن نخاف من الفشل الذي عقب أكثر من ثورة عربية . ولكننا اليوم أصبحنا في خوف على عبد الناصر من هذه الدنيا الجديدة التي تفتحت في البلاد العربية والتي أضحت تهدد كل من يقف في سبيلها .

إن الاحداث في البلاد العربية بدأت تجري في الآونة الأخيرة باتجاه ينبغي على الجمهورية العربية المتحدة أن تسايره وإلا تعرضت لما تعرضت له كل دولة عربية تجمدت وتخلفت عن مماشاة منطق التاريخ وسنة التطور .

إن الرئيس عبد الناصر تغلب على خصومه السابقين وخرج منتصراً عليهم في أكثر من معركة ، لأنه كان يمثل منطق التطور بينما كان خصومه يمثلون الجمود والتخلف . ويمثل سير التاريخ بينما يمثلون الوقوف في وجه الزمن .

أما اليوم وفي معركة عبد الناصر مع سوريا والعراق ، فالعكس هو الواقع .

إن هذه القوى الفتية الجديدة في سوريا والعراق تتكلم بلغة أغلب الظن أن المستقبل يفهمها أكثر مما يفهم اللغة التي يتكلم بها سواهم .

إن هذه القوى تتكلم بلغة المشاركة في القيادة وغيرها يتكلم بلغة التفرد والفردية .

إن هذه القوى تتكلم بلغة الحزب المنظم الذي يقود الشعب بسلطان العقل والتبشير والاقناع ، وغيرها يتكلم بلغة التكتلات والحشود التي لا سلطان للعقل والعقيدة عليها !

إن هذه القوى تتكلم بلغة الايمان والتضحية والعطاء والأثره ، وغيرها يتكلم بلغة الاتباع والازلام المنتفعين المستأجرين !

الوحدة التي تدعو لها سوريا والعراق هي وحدة المستقبل المبنية على حكم الجماعة النيرة العاقلة والشاملة لاقطار عربية متكافئة .

أما الوحدة التي يدعو سواهم اليها ، فهي وحدة الماضي التي كانت وزالت ، لأنها لم تكن متفقة لا مع المنطق ولا مع روح العصر .

اذن ، فالجمهورية العربية المتحدة هي اليوم في أزمة حقيقية لأنها مهددة بالهزيمة بنفس السلاح الذي انتصرت فيه في الماضي ، ألا وهو سلاح التفوق في معرفة سير التاريخ ومماشاته !

للمرة الأولى أشعر بالخوف على عبد الناصر .

أشعر بالخوف عليه كما سبق أن شعرت بالخوف منه على ثورة العراق وثورة سوريا .

نعم أنا خائف على عبد الناصر ، لأنني أرى أنه يقف اليوم في وجه التيار الذي كان سبب وجوده ومبعث انتصاراته وأمجاده .

أنا خائف عليه لأنني لا أريد أن تعود مصر إلى عهد الملكية والاقطاعية ، ولأنني لا أريد أن ينتصر رجعيو مصر وفراعنتها على رجل كعبد الناصر !

لقد بدأت البوادر الخطرة ، ونشأت في الجزائر قوى شعبية يقودها حزب منظم ، ونشأت في مراكش قوى شعبية تقدمية تقودها أحزاب ونشأت في العراق وسوريا وغيرهما ثورات لها هذا الطابع الحزبي التنظيمي الواعي .

وأصبح نظام عبد الناصر متخلفاً بالنسبة لأكثر من بلد عربي من هذه الناحية .

لمصلحة الجمهورية العربية المتحدة ، ولمصلحة القضية العربية ، كنا نريد لعبد الناصر أن يقبل قيام وحدة عربية مع سوريا والعراق ، يكون فيها شيء من الديمقراطية وشيء من الاحترام للثورات الحزبية ، فبذلك خيره وخير مصر وخير العروبة .

ولكنه اليوم وقد رفض قيام هذه الوحدة ، وضع نفسه ونظامه ، قبل أن يضع القضية العربية في موقف حرج يدعونا إلى الخوف عليه ومطالبته حرصاً عليه ، ان يعيد النظر في موقفه من سوريا والعراق ، ويعود قائداً عربياً في الصف الأول .

الوقت المناسب
للعمل المناسب !

حقاً إنه الوقت المناسب للعمل المناسب ، ذلك الذي أقدمت عليه اسرائيل بلسان بن غوريون ، عندما قذف بتهديداته الأخيرة وجوه الدول العربية رؤساء وحكاماً قادة وشعوباً . . .

فما تجرأت اسرائيل يوماً ، ومنذ عشرة أعوام خلت ، على أن توجه تهديداً صريحاً مباشراً ، كهذا الذي وجهته إلى سوريا بالأمس !

قد يكون — ولو ظاهرياً — مبرر التهديد الاسرائيلي مرده إلى صلابة الجيش السوري وعنف الرد السريع الذي يواجه به قوات اسرائيل على الحدود .

وقد تكون « عنفصة » اسرائيل نتيجة التطمينات الاميركية لها والتعهدات بحمايتها وتقويتها واضعاف خصومها العرب .

وقد تكون القضية الفلسطينية بلغت من الاهتراء في ضمير العرب والهزال في تصرف حكامهم ، مبلغاً دفع الدول الغربية وغير الغربية للفلفتها رسمياً ونهائياً بعد أن طمرتها ونفضت يدها منها

عملياً وواقعياً ، ولم يبق من أثارها غير الخيام التي تضم الأشلاء الممزقة والتي يسمونها « لاجئي فلسطين » !

وقد تكون الدهشة التي ظهرت على بعض الوجوه والأقلام من جراء تهديد اسرائيل السافر ، يعود إلى هول المفاجأة . فقد تعود العرب أن يكونوا — ولا سيما بعد الكارثة — السباقين المجلين في ميدان التهديد والوعيد . . .

فاسرائيل زالت من خريطة العالم . . .

وتل أبيب دكت على رؤوس أهلها دكاً . . .

واليهود ألقوا في البحر وذهبوا طعاماً للسمك . . .

وفلسطين حررت تماماً من شذاذ الآفاق . . .

واللاجئون أعيدوا إلى وطنهم معززين مكرمين . . .

وانطلقنا هكذا منذ ضياع فلسطين وقيام دولة اسرائيل ، نمحق دولة اسرائيل ، وهي تشتد يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة . ونهزم جيش اسرائيل ، وجيش اسرائيل يتقوى ويزدهر ويتكاثف. ونعيد اللاجئين إلى بلادهم ، واللاجئون يقيمون في خيام الذل تفتتهم الفاقة وتضيق بهم الأرض !

أجل لقد صحونا على تهديد اسرائيل فاذا بالتهديدات العربية الخنفشارية والانذارات المتوالية التي أطعمنا إياها قادة ورؤساء العرب ، إذا بها تبدو كأقبح ما يكون الكذب ، وأشنع ما يكون الدجل ، وأذل ما يكون الادعاء والتدليس !

لقد ذاب الثلج وظهر المرج ، وبدا التهديد الاسرائيلي كصفعة قوية في الأقفية العربية التي استكانت واستطابت حياة الذل والتبعية والعبودية !

لغيرنا أن يستنبط ويستخرج ويفلسف ويحقق في الأسباب والأحداث وما وراء الأحداث ، التي دعت اسرائيل لانذار سوريا وتهديدها ، هذا التهديد الصريح السافر المذل لا لسوريا — وسوريا تقف وقفة الشجاع الأبي — بل لكل بلد عربي .

ولكننا لسنا نجد سبباً صارخاً واضحاً للتحدي الاسرائيلي ، غير هذه الحالة الزرية التي وصلت اليها البلاد العربية .

فالجيوش العربية في شغل شاغل عن اسرائيل وتهديد اسرائيل . . .

إنها تحارب في اليمن !

لقد حنت إلى حروب داحس والغبراء وطسم وجديث ، فعادت إلى الوراء مائة الف عام !

يكاد المريب
يقول خذوني !

« ومهما يكن عند أمرىء من خليقــة
وان خالها تخفى على الناس تعلم »

« أول دخوله شمعه على طوله » !

لم يكد يستتب الأمر بعد في صنعاء ، حتى أنطلقت الاذاعة هناك تشن هجوماً قاسياً على الدكتور ناظم القدسي ، بحجة انه قدم عرضاً لحل مشكلة اليمن !

وبالرغم من أن العرض الذي سبق أن تقدم به رئيس الجمهورية السورية ابان الأزمة اليمنية . لم يكن أكثر من اقتراح على الدول العربية لتتدبر أمر المشكلة اليمنية .

وبالرغم من أن الدكتور القدسي قد اشترط مسبقاً ابعاد الحكومة السورية من الوساطة لعلاقاتها السيئة مع أحد أطراف المشكلة اليمنية . . .

بالرغم من كل ذلك ، فان شيئاً واحداً من التواضع والصدق وصفاء السريرة لم يشفع للدكتور ناظم القدسي لدى إذاعة صنعاء والذين يديرون إذاعة صنعاء .

لسنا ندري سر الغضبة على اقتراح قدمه رئيس دولة عربية . بل لسنا ندري ما الذي يسيء في مضمون الاقتراح ؟

هل دعا الدكتور ناظم القدسي إلى خذل الثورة اليمنية والوقوف إلى جانب الامامية ؟

هل انتصر لفئة على فئة أو أرسل جيش سوريا ليشترك في القتال إلى جانب قوات الامام ؟

الذي نعرفه أن سوريا كانت أسرع الدول العربية إلى الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية .

ولكن الاعتراف شيء والدعوة الى التذابح بين الشعوب العربية شيء آخر .

وقد يكون راديو صنعاء على حق إذا أعتبر أن دعوة رئيس دولة عربية إلى حقن دماء العرب ، عملاً منكراً يستحق الذم والتقريع ، بعد أن أصبحت الدعوة إلى الهدم والتخريب وزرع الأحقاد والفتن بين الصفوف العربية ، جهاداً ووطنية يكافأ عليه الدعاة ويثاب عليه السماسرة والأذناب !

وقد يكون لراديو صنعاء عذره ونحن نلوم ، إذا أصبحت الوساطة الاميركية بنظره أمراً مشكوراً وعملاً مبروراً ، ليس فيها شبهة ولا مؤاخذة . . .

ولكن متى كانت الوساطة العربية عمالة وخيانة وطنية ، ومتى أصبح التدخل الاجنبي عملا وطنياً ؟

بل متى يكون هذا التدخل معقولاً مقبولاً ، مرغوباً غير مشبوه .

ومتى لا يكون معقولاً ولا مقبولاً ؟

لقد بتنا في أمس الحاجة إلى من يفصل ويشرح لنا مفهوم الوطنية ومفهوم العمالة والخيانة . . . متى تكون ومتى لا تكون ؟ كيف تجوز وكيف لا تجوز ؟ وبلسان من ينبغي أن تقال وبأية لهجة وأية لغة وأي أسلوب يجب أن تصاغ وتقال ؟

لقد طوي أمر العرض الذي سبق أن تقدم به الدكتور القدسي وأصبح غير ذي موضوع ، بعد أن أخذت الوساطة الاميركية المبادرة وفرضت رأيها المطاع وكلمتها المهابة على أهل السمع والطاعة . . . فما بالهم ينبشون اقتراحاً قديماً لم يقدر له أن يرى النور ولم يلامس شغاف القلوب المغلقة ؟ .

هل هي تغطية ؟

هل هو تمويه لواقع الحال ؟

لسنا ندري ، فالمريب يكاد يقول خذوني !

والريب والظنون التي حامت وتحوم فوق الرؤوس التي اشتركت في « طبخة » اليمن ، والتي أسلست القياد للوساطة الأميركية تلعب لعبتها وتفرض كلمتها . . .

نقول ان هذه الريب والظنون ، هي التي أنطقت راديو صنعاء ومن هم وراء راديو صنعاء . . . وهي التي ستنطقهم في القريب عما اسروه ودبروه في الخفاء . . .

« ومهما يكن عند أمرىء من خليقـــة
وان خالها تخفى على الناس تعلم »

ماذا بعد فلسطين !

في الوقت الذي تسرع فيه اسرائيل للعمل على تحقيق مشروعها الخاص بتحويل مياه الاردن لاستخدامها في ري المناطق الجنوبية .

وفي الوقت الذي تقوم شركة فرنسية اسرائيلية مشتركة ببناء محطة الضخ الرئيسية على شواطىء بحيرة طبريا .

وبينما تنفق اسرائيل ١٠٠ مليون جنيه اسرائيلي لاتمام المرحلة الأولى من مشروع تحويل مجرى المياه . .

في هذا الوقت تدور المشاورات ، بعد المشاحنات والمهاترات ، بين الرؤساء العرب للاجتماع ومواجهة الموقف الطارىء . . .

ولقد تمخضت المداولات والاستشارات ، التي لم يكن ينقصها غير « استخارة النجوم »

و « قراءة الكف » و « ضرب المندل » .

تمخضت عن اقتراح قدمه الأمين العام للجامعة العربية إلى الدول الأعضاء ، بعقد اجتماع لمجلس الدفاع العربي في القاهرة في منتصف شهر آذار .

لسنا نرجم بالغيب فكل شيء أصبح معقولاً وجائزاً ، في نفس حكام الأردن ، أو ان اقتراحاً معاكساً سوف تتقدم به حكومة الرياض ، أو ان لدمشق رأياً خاصاً ، ولبغداد رأيها الآخر ، ناهيك عن اليمن السعيدة التي قد تعارض الاقتراح بأرجوزة طنانة رنانة تعلن فيها فساده ومخالفته للأصول مثلاً . . .

لسنا نرجم بالغيب فكل شيء أصبح معقولاً وجائزاً ، لا سيما في هذه الفترة العصيبة التي ابتليت بها الشعوب العربية كما لم تبل بفترة مثلها !

ولكن . ما لنا وللتشاؤم ؟ أليس يكفينا من الجامعة العربية جهدها المبرور وسعيها المشكور . في أنها استطاعت أن تهتدي إلى اقتراح بعقد مجلس الدفاع العربي في القاهرة وفي منتصف الشهر الحالي ؟

وهل نسينا الاجتماع العتيد ، اجتماع الجامعة العربية في دورتها القادمة الذي تقرر عقده بعد حمدالله وشكره في الرياض ، والذي سيكون على مستوى وزراء الخارجية ؟

وماذا يضيرنا سواء نجح اقتراح عبد الخالق حسونة أم لم ينجح ، وافقت عليه الدول الأعضاء أم لم توافق ، ما دام الاجتماع العتيد ، حيث الرأي السديد ، سيتم في أواخر هذا الشهر وفي الرياض ؟

وهل قليل أن ينتظم عقد الوزراء العرب في اجتماع يتفتلون فيه خفافاً لطافاً ، يستعرضون قاماتهم السمهرية وطلعاتهم البهية ، ومآدبهم السخية ، يتبارون باقامة الحفلات ويتلمظون بما لذ وطاب من المآكل الشهية والعبارات الحماسية والخطب النارية ، يصبونها على رأس اسرائيل فتنزل عليها ناراً حامية كاوية ، وتكون بلسماً وشفاء ، وبرداً وسلاماً على القضية الفلسطينية والشعوب العربية !

• • •

لقد بدأت العبارات أياها — التي صمخت آذاننا قبل وبعد ضياع فلسطين — بدأت لتعود مجدداً فتذكرنا بما حل بنا من ذل وهوان !

العبارات هي هي ، بألفاظها وأنفاسها وأنغامها ، لم تتغير ولم تتحور ولم تطالها يد البلى بأي تبديل أو تعديل . . .

« لن نقف مكتوفي الأيدي »

« الدول العربية مصممة على الوقوف في وجه اسرائيل » .

« سنرد الصاع صاعين والضربة ضربتين »

« سنؤدب اسرائيل وسنلقي عليها درساً لا ينسى »

« سنتخذ الخطوات اللازمة »

« سنعلن عن مقرراتنا في الوقت المناسب »

« مهما كلف الأمر »

يا إلهي !

أليست هذه هي العبارات عينها التي سمعناها تتردد في أعقاب مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي عقد في أنشاص عام ١٩٤٨ ؟

أو ليست هي الألفاظ ذاتها التي قرقعت آذاننا بعد مقررات بلودان السرية ؟

ثم ماذا كانت النتيجة ؟ ؟

بل ماذا بعد فلسطين ؟ !

ثلاثين عاماً الى الوراء

قرأت أمس أمراً عجباً في إحدى المجلات الأسبوعية المصرية . . .

حديث أدلى به رئيس بلدية غزة ورئيس الاتحاد القومي هناك . والحديث يدور كله حول فلسطين واللاجئين واسرائيل .

ان رئيس بلدية غزة يسمي قضية فلسطين « معركة » ، معركة دفاع عن وطن وشعب وأمجاد وتاريخ وكيان وحقوق . معركة ضد الاستعمار والصهيونية .

وهذا أمر لا عجب ولا غرابة فيه .

ويقول أيضاً : لكي ندرك أهمية هذه المرحلة التي نمر بها الآن في معركة فلسطين ، يجب أن نتذكر بسرعة نضال الفلسطينيين الذي دام ثلاثين عاماً طيلة الانتداب البريطاني ، وكان بداية الجلاء المصطنع عن فلسطين ، وكان في ذاته خطوة كبرى في سبيل تنفيذ مؤامرة خلق اسرائيل ، فترك المستعمرون قواعدهم لعصابات الصهيونية المدربة ، وسلحوهم بسلاحهم . . . إلى آخر القصة المعروفة .

ويستعرض رئيس بلدية غزة حكاية حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وكيف دخل ملوك العرب المعركة كما هو معروف ومشهور وانتهت المعركة باستتباب الأمر للصهيونية في فلسطين .

ويتابع حديثه فيقول انه من الواجب أن نخوض معركة تحرير فلسطين المغتصبة بجولات فدائية منظمة مهما كانت التضحيات وينبغي أن ننظم عرب فلسطين أولاً ، لأنهم هم يجب أن يكونوا وقود المعركة . فعليهم ، على عرب فلسطين ، أن ينظموا أنفسهم بسرعة ، عند التعبئة العامة التي يجند لها كل فلسطيني وفلسطينية أينما كانوا .

وعلى الفلسطينيين أن يسارعوا إلى التدريب العسكري ، وخصوصاً شباب هذا الجيل . وعليهم جميعاً أن يعلموا أن فلسطين لن تعود إلا إذا أصبح ابن فلسطين فدائياً يبذل الروح والمال .

ويجب أن تتغير النظرة إلى الفلسطيني بأنه الجريح والبائس والمشرد . يجب أن تكون النظرة الجديدة للفلسطيني أنه مجاهد ومناضل وفدائي .

وكل هذا الكلام لا غرابة فيه . فهو ينبع من صدر كل عربي ولا أقول فلسطيني وحسب . ولكن الغرابة أن يصدر هذا الحديث عن رجل مسؤول وكلام المسؤولين عادة يختلف عن كلام المواطنين العاديين الذين يحسون بغير الاحساس الذي يحس به المسؤولون .

ترى ، هل يفهم من كلام رئيس بلدية غزة ، ان الأمر بات متروكاً للفلسطينيين يدبرون أنفسهم بأنفسهم من أجل تحرير بلادهم والعودة اليها ؟

وهل هذا هو منطق الرجال المسؤولين في البلاد العربية ؟

نحن نعلم جيداً أن قسماً كبيراً من مسؤولية ضياع فلسطين إنما تقع في الدرجة الأولى على عاتق الفلسطينيين أنفسهم ، الذين باعوا أراضيهم شيئاً فشيئاً للصهيونيين .

نعلم هذا جيداً . ونعلم أيضاً ان ملوك ورؤساء البلاد العربية قد اشتركوا في تحمل مسؤولية ضياع فلسطين أيضاً عندما قاموا بالحرب – المهزلة التي كانت طعنة مسمومة موجهة إلى صدر وكرامة كل عربي لا في فلسطين وحدها ، بل في كل قطر عربي !

ونعلم أيضاً وأيضاً ان حفنة من الأبطال الفلسطينيين قد استطاعوا منذ ثلاثين عاماً أن يقضوا مضاجع اليهود وحماة اليهود يوم كان الاستعمار البريطاني في فلسطين يؤازر ويساند اليهود ويعمل على خلق دولة لهم . . . وما من أحد ينسى صفحات البطولة والفداء التي سجلها شباب فلسطين أمثال حسن سلامة وعبد الرحيم وغيرهما من الأبطال الذين أبلوا أحسن البلاء يوم كانوا يواجهون الجيوش المنظمة بحرب العصابات التي كانت بمثابة الشوكة الدامية في صدر الانتداب البريطاني ومن ورائهم الصهيونية . . .

كل هذا نعلمه حق العلم ، فما من عربي إلا ويترحم في هذه الأيام التي صارت اليها فلسطين ، على تلك الأيام الغر الماضية التي كانت صفحة فخار ليس للفلسطينيين وحدهم ، بل لكل عربي أبي يأبى الضيم .

ولكن ، هل ترانا وصلنا إلى هذا الدرك الخطير حتى نسمح لأنفسنا بالتفكير في العودة إلى حرب العصابات في فلسطين وبعد مرور ثلاثة عشر عاماً على انقضاء حرب العصابات في فلسطين ، وبعد أن استتب الأمر لدولة اسرائيل وزودت بالافران الذرية والصواريخ الموجهة والجيوش النظامية والأسلحة والأعتدة الحديثة التي ترسل اليها من كل مكان من دول العالم ؟ !

أإلى هذا الدرك وصل بنا الأمر . . . أن نفكر بعقلية الناقة والجمل في عصر الكاديلاك والطائرة ، بل في عصر إنسان الفضاء ؟ !

أبحرب العصابات نحاول استرجاع فلسطين . . . بالخنجر والمسدس والهراوة . . ؟ !

« اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكننا نسألك اللطف به » ! !

العطف الخاص . . .
وقضية فلسطين !

كنت أستمع إلى احدى محطات الإذاعة العربية عندما قرعت أذناي هذه العبارة « . . . وقد أبدى الوفد الأندونيسي عطفه على القضية الفلسطينية » ولم أتمالك نفسي من الضحك بل والقهقهة عالياً وأنا أهتف قائلاً « خلاص قضي الأمر فالقضية الفلسطينية قد انحلت أو هي في طريق الحل ، بعد العطف الخاص الذي أبداه نحوها الوفد الأندونيسي ! »

والحق ، لست أدري إلى متى تظل القضية الفلسطينية تتمتع بهذا العطف الخاص يغدقه عليها ملوك وأمراء ورؤساء البلاد العربية وخاصة الوفود التي تؤم العواصم العربية ولا تجد شيئاً تتسلى به أو تمريناً آخر يفيدها ، غير تمرين الفكين بارسال الكلمات والصيحات ، تأييداً لفلسطين وقضية فلسطين .

ولا أدري أيضاً إلى متى تظل القضية الفلسطينية وهي أشبه ما تكون بذكرى عاشوراء ، لا نخرج منها إلا بالتأوهات والحسرات والتفجعات — هذا إذا صدقت التأوهات والتحسرات — ولا نعمد إلى أسلوب جديد نترجم به عن عواطفنا غير ما اعتمدناه في الماضي وما نعتمده في الوقت الحاضر . . أسلوب يتلاءم وروح العصر الذي نعيش فيه والذي لا يقيم وزناً للعواطف والنظريات العاطفية .

إن « العطف على القضية الفلسطينية » أصبح يوحي بأنها قضية يتيمة لطيمة ليس لها من يقيلها من عثارها ولا يرعى مصالحها .

طالما سمعنا في الماضي ، وما نزال نسمع في هذه الأيام العبارات الطنانة الرنانة . والوعود

المعسولة الخلابة ، بفداء فلسطين بالعين واليد والأبناء والمهج والأرواح . . . وضاعت فلسطين وسلمت وما تزال تسلم الأعين والأيدي والمهج والأرواح !

لقد وضح لابناء البلاد العربية : ان افتداء فلسطين والتغني بالذود عن حياض فلسطين : ليس إلا كلاماً براقاً ، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ! ظاهره خداع الشعوب العربية والتظاهر بالحرص على قضاياهم ، وباطنها الهزؤ والسخرية بل وأد القضية الفلسطينية . وعدم ذكرها واثارتها إلا بمقدار ما تدر عليهم من منافع آنية موقوتة !

أما آن لنا أن نفهم أننا بحاجة إلى عقلية أخرى غير عقلية العواطف ؟

عقلية تحريك واحياء القضية الفلسطينية بالعمل الجدي المثمر وليس بارسال التأوهات والتفجعات الكاذبة !

إننا نتصدى للدفاع عن القضية الفلسطينية بالسيف والخنجر في عصر الصاروخ والذرة ، وليت السيوف والخناجر التي نهدد بها مسلولة ، ولكنها ما تزال في أغمادها وقد علاها الصدأ !

إننا نفكر بفلسطين كما تفكر النسوة العجائز في المآتم . نلطم الخدود ونشق الجيوب . ثم نطالب بالأجر . أجر الدموع الزائفة التي نذرفها على حائط المبكى العربي، حائط فلسطين !

لو سئلت ما هي أبرز الأسباب التي أدت إلى ضياع فلسطين ، بل إلى تكريس ضياعها ؟ لما ترددت في القول انها فيض العواطف التي خصها بها ملوك وأمراء ورؤساء البلاد العربية . . . ويوم تخف حدة العواطف الخاصة التي يتطوع المتطوعون باغداقها على فلسطين ، يوم نستعيض عن هذه العواطف الزائفة بالعمل الجدي المثمر البناء . . . يومها يصح لنا أن نتفاءل بايجاد حل للقضية الفلسطينية !

هذا المنطق . .
الى متى يدوم ؟ !

لم تكد صيحات الابتهاج ترتفع من القاهرة على أثر امداد الولايات المتحدة للجمهورية العربية المتحدة بالصواريخ ، بعد أن أطلقت اسرائيل صاروخها في الفضاء . . .

أقول ما كاد الحبر يجف على صفحات الجرائد القاهرية والعربية ، حتى طلعت صباح أمس جريدة « قبرص » الانكليزية بنبأ مؤامرة : أن الولايات المتحدة تقدم معونة لاتحاد القوة الذرية الدولية تقدر بحوالي ٨٠ الف دولار للمساعدة في تدعيم استعمال القوة الذرية لصالح السلام في اسرائيل والارجنتين والبرازيل .

وقد أعلن عن هذا الموضوع مستر « غلين سيبرج » رئيس اللجنة النووية في الولايات المتحدة :

وذكر أن التكاليف ونقل المعدات اللازمة ستقوم بها إحدى الشركات الاميركية . كما ذكر أن إسرائيل ستتسلم المعدات الخاصة بالمحطات الذرية واللازمة لتغطية المساحات التي سيقام عليها المشروع بالقرب من « ريهوفوت » في اسرائيل .

هذا ما ذكرته أمس صحيفة « قبرص ميل » الانكليزية . ولسنا ندري ما عسى يكون رد الفعل غداً إذا صح هذا النبأ وهو صحيح على ما يبدو .

إن إمداد الولايات المتحدة للجمهورية العربية المتحدة بالصواريخ . ليس يعني شيئاً إذا قيس بامدادها اسرائيل بالمعدات اللازمة لانشاء محطات ذرية ، اللهم إذا كان في النية إمداد القاهرة بمعدات مماثلة لانشاء محطة ذرية أسوة باسرائيل !

ولن تعدم أميركا حجة تتوسل بها . وهي الحجة التي تذرعت بها ساعة أقدمت على امداد القاهرة بالصواريخ ، وأعني بها « توازن القوى » .

فتوازن القوى الذي أملى على الولايات المتحدة أن تمد القاهرة بالصواريخ . هو الذي ينبغي أن يملي عليها إمدادها الجمهورية العربية المتحدة بالمحطة الذرية . أسوة باسرائيل .

أليس هذا هو المنطق البديهي لحفظ التوازن بين القوى ؟ !

نعم . هو كذلك . ولكن الى متى يدوم هذا المنطق ؟

هذا هو السؤال الذي يضج في أذهان الناس الذين أرقتهم وتؤرقهم المشكلة الفلسطينية . مشكلة حق أغتصب ، وبلاد سلبت ، ولاجئين شردوا ، و . . . صواريخ ترسل ومحطات ذرية تقام في أرض مسروقة دفاعاً عن ماذا ؟ ؟

ضمانة لاسرائيل !

من الواضح الذي أدركه الغرب كما أدركه العرب ، أن السبب الرئيسي لنقمة الشعوب العربية على الدول الغربية ، هو موقف هذه الدول من اسرائيل ، منذ الوقت الذي كانت فيه هذه الدولة المسخ جنيناً ينمو في بطن الانتداب البريطاني إلى اليوم الذي أصبحت فيه اسرائيل طفل الغرب المدلل في الشرق الأوسط ، مروراً بتلك الحرب – المهزلة التي تدخل الغرب لفرض نتائجها عام ١٩٤٨ .

ولا أعرف سياسياً غربياً شريفاً ، ولا مفكراً حراً إلا وعزا النقمة العربية إلى هذا الدور المشين الذي لعبته الدول الغربية في قضية فلسطين .

الدور الذي يزيد في نقمتنا عليه أنه كان الوحيد الذي شارك فيه الغرب الديمقراطي عدوه

الشرق الشيوعي !

غير ان الغرب وأميركا بوجه خاص كان يدفع عن نفسه هذه النقمة بحجتين واهيتين تؤديان بعض الفائدة للغرب وهاتان الحجتان هما : ان اسرائيل قد بنتها الصهيونية ولم يبنها الاستعمار الغربي .

والثانية أن أميركا إذا كانت قد أسهمت في خلق اسرائيل فانها اليوم نادمة على ما جنت يداها في السابق ، وانها تقاسي آلام الندم عن فعلة ليست هي بقادرة على العودة عنها .

كان مجمل الحديث الاميركي عن موضوع فلسطين :

قدروا ظروفنا أيها العرب . لقد قمنا بعمل نحن اليوم نادمون عليه ؛ ولكن ماذا تريدوننا أن نفعل ؟

إلى أن جاء خبر الضمانة الدولية لحدود اسرائيل ؛ وهو الخبر الذي احتل أبرز مكان في الصحف العربية أمس ، فاذا بالسياسة الغربية في موضوع فلسطين تخسر في ساعة واحدة وفي تصريح واحد ورقة التين !

ماذا يستطيع الغرب أن يقول بعد مجاهرته بضرورة الضمانة الدولية لاسرائيل ؟

هل يستطيع أن يزعم أنه يعيش حالة مفروضة عليه ، من غير أن يسعى إلى حالة يفرضها على سواه ؟

هل يستطيع أن ينكر أنه بهذا العمل في سبيل اسرائيل واكراماً لعيني اسرائيل ، يضرب عرض الحائط بمقررات دولية تلزم اسرائيل بأن تتراجع إلى غير الحدود الحالية وان تستقبل مليونا من النازحين الفلسطينيين المشردين ظلماً وعدواناً عن ديارهم وأرزاقهم ؟

هل يستطيع أن يكابر في أن هذه الضمانة لا تعني إلا نقضاً صريحاً وقحاً لقرار التقسيم ، وقرار عودة الفلسطينيين إلى ديارهم ، على ما في هذين القرارين من افتئات على الحق العربي الأصلي الصريح ؟

إذا كانت أميركا قد تمكنت عام ١٩٤٨ أن تسهم في الجريمة الكبرى مختبئة وراء أشباه أعذار . . . فكيف يبرر لأميركا عقلها ، وكيف تبرر لها مصالحها الحقيقية أن تستعد لتكرار المأساة ، وليس في الأفق ما يتصل بالعذر لا من قريب ولا من بعيد .

هذا مع فارق كبير بين الأمس واليوم ، وهو أن عرب ١٩٦١ غير عرب ١٩٤٨ والشعوب العربية اليوم لا يمكن أن تسلم مع حكامها بتآمر على سلامتها أو سكوت عن حقوقها ، فكيف

يريد حكام اليوم من ليس على استعداد للتفريط بما فرط به حكام الأمس أمثال « فاروق » ذي اللحية المزيفة والمسبحة الكاذبة !

فما صح بالأمس لا يمكن بأي حال أن يصح اليوم ، وعلى الأخص بعد أن اتضحت حقيقة اسرائيل لا بأنظار العرب فقط بل بأنظار آسيا وأفريقيا وجزء كبير من بقية العالم فظهرت في صورتها الواقعية رمزاً قبيحاً للباطل وخطراً مدلهماً على مصالح الشعوب وأمانيها !

ومن يتمعن في قضية اسرائيل مقارناً بين وضعها اليوم ووضعها عام ١٩٤٨ سرعان ما يلحظ أن العداء لها قد سار ويسير في توسع مستمر حتى تصبح اسرائيل في نظر العالم كله لا عدو العرب فقط بل عدو العالم أجمع !

إحلفوا له بالطلاق !

« جاؤوا بخيل السلطان ليحدوها فمدت الخنفسة رجلها » !

كنا نود لو أن هذا المثل المشهور ينطبق على الابن الاميركي الشاطر « جيمس روزفلت » ولكن للأسف لم يصدق هذا المثل عليه ، لأن ما يقوله نائب الحزب الديمقراطي عن ولاية كاليفورنيا والابن الأكبر للرئيس الراحل روزفلت ، هو رأي الولايات المتحدة الاميركية ضمناً وفعلا ، وهو بالتالي من تحصيل الحاصل ، الذي لا يقدم أو يؤخر كثيراً في سياسة أميركا ونواياها الظاهرة والمستترة حيال اسرائيل . . .

لقد اقترح مستر روزفلت على أميركا وروسيا القيام ببادرة ترمي إلى ضمان أميركي سوفياتي لكيان بلدان الشرق الأوسط وأمنها .

وقال لا فض فوه :

« أعتقد انه إذا كان لاسرائيل أن تبقى فان على الولايات المتحدة أن تقنع البلدان الشيوعية والعالم العربي بأن القوة الكاملة لمواردنا العسكرية والاقتصادية تقف وراء تحقيق السلم بين اسرائيل وجيرانها . . .

وان هذه الموارد مكرسة بكاملها من أجل ضمان كيان اسرائيل وأمنها ، واننا سنرحب بمساعدة تأتي من جانب البلدان الشيوعية وتستهدف تحقيق ذلك على أساس انه سيضمن كيان وأمن جميع البلدان الحرة في الشرق الأوسط . . »

ولم يكتف مستر روزفلت بهذا القدر من الكلام بل أكد على الولايات المتحدة أن توضح عزمها على اتخاذ الخطوات الضرورية عسكرية كانت أم اقتصادية للحيلولة دون وصول قوة أعداء إسرائيل إلى درجة يصبح معها الاغراء بالعدوان قوياً لا يقاوم . . .

وخلص مستر روزفلت من دعوة أميركا لضمان دولة اسرائيل . إلى دعوة روسيا والدول غير الشيوعية إلى تقديم الضمانات نفسها . . .

* * *

كنا نفهم لو ان مستر روزفلت أكتفى بتمنياته ونصحه وارشاداته للحكومة الأميركية باعتباره نائباً أميركياً يمثل ولاية كاليفورنيا . أما أن لا يكتفي بهذا المقدار من الحرص على كيان اسرائيل . فيطالب روسيا وغير روسيا من البلدان غير الشيوعية بتقديم الضمانات للحفاظ على اسرائيل وضمان وجودها ، فهذا هو موضوع العجب .

ولسنا ندري من قال للمستر روزفلت بأن الولايات المتحدة لا ترى رأيه وتعمل بنصحه وارشاده اللهم إلا أن يكون تصريحه هذا من قبيل المزايدة في إظهار الحب والولاء لاسرائيل .

ولا نعلم مبرر هذا الفيض الانساني الأميركي الذي غمر قلب روزفلت ففاض بآماله وتمنياته حتى وصل إلى ما وراء الحدود .

ثم من قال لهذا الابن الشاطر ، الذي يزايد في إظهار العطف والحماية لاسرائيل الأم ، بأن الدول العربية والجيوش العربية والأساطيل العربية – كلها أو بعضها – عازمة على استعمال القوة ضد اسرائيل ؟

ماذا يريد مستر روزفلت أن يظفر أكثر مما ظفرت به اسرائيل من ضمانات لحمايتها وحماية كيانها وتأكيد بقائها ؟

هل ثمة زيادة لمستزيد . . ؟ أم هل تراه يريد منا أن نحلف له بالطلاق بأننا غير عازمين على محاربة اسرائيل ، واننا طلقنا فلسطين وقضية فلسطين وحقوق شعب فلسطين ؟

إذا كان هذا ما يريد حقاً فليتفضل رؤساء الدول العربية وزعماء العروبة مجتمعين لا متفرقين ، وليقسموا للمستر روزفلت يمين الطلاق . . . كيما يهدأ باله وتقر عينه وعين اسرائيل ومن هم وراء اسرائيل . . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! !

صوت فرنسا . . .
هل تسمعه فرنسا ؟

تبرز من آن لآخر في سجل الثورة الجزائرية — أشرف ثورة عرفها تاريخ الشعوب الحرة — ومضات تمزق بنورها حجب الظلام ، لتكشف لا عن عظمة الثورة وقوة زخمها في نفوس الجزائريين وحسب . بل وفي نفوس الاحرار من الفرنسيين أنفسهم . الذين دفعتهم اصالتهم لحب الحرية وتقديسها . الى الدفاع عن الجزائريين ومساعدتهم والانضمام اليهم في معركتهم . معركة الحرية .

وليست انتفاضة احرار الكتاب والادباء والمفكرين والفنانين من الفرنسيين . إلا آية الآيات على روعة الانتصار الذي لا مفر منه . والذي سيكتب للحرية في الجزائر .

* * *

وآخر الومضات التي التمعت في جبين الثورة الجزائرية . هذا النصر المبين الذي احرزته اول من أمس ؛ عندما وقف الكاهن الكاثوليكي الفرنسي الاب « روبير دافيزيه » امام المحكمة العسكرية في باريس ، ليتلقى الحكم بسجنه ثلاث سنوات وبغرامة مالية قدرها ٣ آلاف فرنك بتهمة « مساعدة جبهة التحرير الوطني الجزائرية » .

لقد اعترف في المحكمة بأنه ساعد ١٥ جزائرياً على اجتياز الحدود بصورة سرية من فرنسا الى اسبانيا . واعترف أيضاً بأنه كان يعطف على الجزائريين منذ سنة ١٩٥٦ عندما تلقى رسائل من كاهن في الجيش الفرنسي في الجزائر تضمنت وصفاً لما يلقاه الجزائريون من الوان الظلم والتعذيب على ايدي الفرنسيين .

لم يتراجع ولم ينف التهمة . بل وقف أمام قضاته يعلن انه مع الجزائريين في طلب الحرية ، وقال :

« إنني لا أكره أحداً ولكنني أمقت الحرب . وقد تأثرت بالمأساة الجزائرية وأعتقد اليوم أن المستقبل بات في أيدينا ، وهو مستقبل سلام وأخوة . وإنني أدرك بأنني لم أخفق سواء في ميدان الشرف أو ميدان حب الوطن » !

* * *

حب فرنسا الحرة ، أملى على الأب روبير الكاهن الفرنسي أن يقف في صف الجزائريين الأحرار الذين تحاربهم وتضطهدهم الدولة الفرنسية !

ميدان الشرف ، هو الذي فرض عليه أن يساعد وينتصر للثوار الجزائريين الأشراف !

ميدان الشرف ، ميدان واحد سواء أكان في فرنسا أم في الجزائر أم في أي بلد آخر .

والحرية واحدة لا تتجزأ .

إنها ليست مونوبول ، ليست شركة ذات إمتياز محدودة الأسهم . وحرية الفرنسي عار عليه إذا هي جعلته يقعد عن نصرة الحرية في الجزائر أو في أي وطن نكب بحريته !

* * *

هذا الدرس الكبير .

هذه الأمثولة البالغة الأثر .

هذه الشعلة المباركة التي رفعتها يمين الكاهن الفرنسي أمام المحكمة العسكرية وهو يتلقى الحكم بسجنه . . .

ما أجدرنا في البلاد العربية وخاصة في لبنان — ولا سيما في هذه الأيام — لأن نتدبر عظتها ونعمل بوحيها وهديها . . !

درسان من الجزائر !

أحمد بن بيللا ، زعيم الثورة الجزائرية ، ورفاقه الأربعة في الاعتقال ، يعيشون منذ فترة من الزمن في قصر من أفخم قصور فرنسا . بل ان القصر الذين ينزلون فيه هو ثاني اثنين من قصور « اللوار » التاريخية .

ولم يسبق لفرنسا أن عاملت سجيناً من سجنائها أو مبعدا من مبعديها بمثل المعاملة الكريمة المترفة التي تعامل بها بن بيللا ورفاقه .

فعلت فرنسا ذلك لا تهيباً من النفوذ المعنوي الكبير الذي يتمتع به القادة الجزائريون فقط . بل تقديراً منها أن مثل هذه المعاملة من شأنها أن تضع حاجزاً بين نزلاء القصر الفخم وأبطال جبال الاوراس ومشردي الغابات من مناضلي الجزائر .

فاذا هؤلاء النزلاء بعد طول الضيافة ومزيد العناية يحرجون فرنسا كما لم تحرج في أي وقت مضى ، باعلان الصيام حتى الموت ، إحتجاجاً على الظلم والتعذيب اللذين يعانيهما أبناء وطنهما .

انه درس جديد يقدمه قادة الجزائر عن أسمى معاني القيادة ، القيادة التي تعيش دائماً مع الشعوب وتحس دائماً باحساس الشعوب .

لقد سجلت هذا الدرس وأنا أشارك بالعاطفة ألوف بل مئات الألوف من البشر ، الذين

تظاهروا بالأمس وصاموا وأضربوا تضامناً وتأييداً لقضية الزعماء الصائمين .

سجلته الى جانب ذلك الدرس الاكبر الذي لا يمكن أن أغفله من دروس الثورة الجزائرية ، وأعني به الطريقة التي نظم بها هؤلاء القادة الثورة ، بحيث لم يؤثر فيها اعتقالهم وبعدهم عنها .

لقد علموا الجزائريين أن الثورة نار مقدسة يجب أن لا تنطفىء ، سواء أكان القادة في السجون أو كانوا في ساحات الموت .

وعلى هذا استمرت الثورة خمسة أعوام تسير أكثر فأكثر نحو النصر بينما بن بيللا ورفاقه يعيشون في معتقلهم المذهب في فرنسا .

لو آمنت الثورة الجزائرية بأن القائد لا الشعب هو الأصل، لكان سجن بن بيللا مقبرة للثورة الجزائرية كما قال أحد الخطباء في أحد الاحتفالات من أجل الجزائر .

ولعل السبب الرئيسي في عدم تراجع الثورة الجزائرية عن أي مكسب من المكاسب التي غنمتها هو أن الثورة لم تقم على أساس قيادة رجل فرد ترتفع بارتفاعه وتنتهي بانتهائه .

* * *

درسان من قادة الجزائر ، واحد في الاحساس مع الشعب إحساساً كلياً يصل إلى حد الصيام حتى الموت ، والثاني في احترام الشعب احتراماً قدسياً يمكنه من قيادة نفسه بنفسه عندما يغيب القائد .

* * *

درسان لو أخذ بهما قادة المشرق العربي لكانت فلسطين في هذا الجزء من البلاد العربية ، معجزة للبطولة لا تقل عن معجزة الجزائر !

ثورة الجزائر خير أمثولة !

وراء الانتصار العظيم الذي انتصرته ثورة الجزائر بحصولها على الاتفاق الذي كرس استقلالها ، تكمن انتصارات أخرى من النوع الذي لا يمكن أن يتقلص ، ولا يمكن أن يخسر ، ولا يمكن أن يزول .

إن هذه الانتصارات التي حققها الجزائريون في عقولهم وفي مفاهيمهم ، وفي منطقهم العلمي ، وفي كفاءتهم التنظيمية .

هذه الانتصارات هي التي يجب أن نلتفت صوبها اليوم لندرك أي صنف من الشعوب هو الشعب الخارج من أتون النار ، وأي طراز من الدول هي الدولة التي حبلت بها ثورة الجزائر !

واذا كان اتفاق ١٨ آذار قد أعطى الجزائر استقلالها ، فان هذه الانتصارات قد أعطت الجزائر ما هو أهم من الاستقلال وأبقى ، ونعني به ، نسيج مجتمعها وتركيب مؤسساتها ، ونظرة المواطن الجزائري إلى دولته ومجتمعه .

خلال ثماني سنوات ، أخضع الجزائريون أنفسهم لفكرة العمل المنظم كما لم يسبق لأي شعب من شعوب الشرق أن أخضع نفسه لها ، فأدرك كل جزائري معنى هذه الألفاظ التي نرددها نحن ولا نعيها : المسؤولية ، الحق ، الواجب ، الوطنية ، التضحية ، الصدق ، وغيرها من الكلمات التي درجنا شفهياً على ترديدها وعملياً على التنكر لها !

خلال ثماني سنوات ، أخضع الجزائريون أنفسهم للمنطق العلمي الدقيق ، يحاسبون به ذواتهم ، ويواجهون به العالم ، سلاحاً ماضياً لا وهن فيه ولا عجز . . . فاذا بطريقتهم في التشاور والنقاش واختيار الوسائل ، آية من آيات الديمقراطية الحقة ، لكل ما تعني به هذه الكلمة من احترام للعقل وتقدير للمنطق وللتجربة .

خلال ثماني سنوات ، عاش الجزائريون لهدف واحد يتفيأون رايته ويحجون الى كعبته . ويقدمون القرابين في هيكله ، فاذا بهم ، بقوة الهدف الواحد وسلطانه وسطوته ، يتحولون الى شعب موحد متراص البنيان ، متلاحم الصفوف . شعب نادر المثال بين شعوب الارض التي قل بينها من هو غير ممزق وغير مشتت ، وغير مبعثر الرأي !

خلال ثماني سنوات ، نما العقل الجزائري في ظل ثورته ، ونما الضمير الجزائري ، ونما الحس المدني ، ونمت فكرة الدولة على قواعد راسية من المسؤولية والصدق والواجب واحترام الحق .

فالثورة الجزائرية ، حتى بنظر الصحف الأجنبية هي أول ثورة في التاريخ تصل الى السلطة ومعها كامل أجهزة الدولة واطاراتها ، وجميع ما تحتاج اليه من نظم وقواعد للحكم الصحيح الواضح الواعي هدفه ووسائله .

* * *

إن اتفاق ١٨ آذار لا يعتبر شيئاً مذكوراً بالقياس الى هذه التجربة العميقة الجذور التي عاشتها الجزائر ثماني سنوات . فهذه التجربة هي التي أقامت صرح الوجود الجزائري على أرض صلبة لا تؤثر فيه الرياح والعواصف !

* * *

يومان في تاريخ العرب الحديث ، ولدت فيهما دولتان عربيتان من نوع جديد مختلف :

الاول ٢٢ يوليو الذي ولدت فيه على أنقاض فاروق دولة مصر الجديدة والثاني ١٨ آذار ، اليوم الذي ولدت فيه دولة الجزائر الجديدة ، تلك التي لم يعرف التاريخ ولن يعرف شبهاً لها في ولادتها وفي الأماني العظام التي علقت عليها !

وإذا كانت الثورة الجزائرية ، وهي الثورة الحمراء التي دامت ثماني سنوات ، ودفعت مليوناً ونصف المليون ، من الشهداء ، قد أخضعت نفسها للنقد وأخذ المشورة ، فأولى بالثورة المصرية « البيضاء » وبأصحابها أن يخضعوا أنفسهم للنقد وأن يتحسسوا جوانب النقص والتقصير والاخطاء .

أولى بهم أن يحاسبوا أنفسهم . ولهم في ثورة الجزائر خير عبرة وخير أمثولة .

العاقل من اتعظ بغيره

لست أدري أي شيطان وسوس لأحمد بن بيللا ، فجعله ينخرط في سلك « العاملين » والمؤاجرين في سياسة البلدان العربية .

ولست أدري ما هي المغانم التي عساه يكسبها في هذا الميدان ، وقد رأى بأم عينه سلسلة المغارم والهزائم التي فاز ويفوز بها كل متدخل في شؤون البلاد العربية ولا سيما الداخلية منها .

أين هي المكاسب وأين هي مجالات النجاح التي حققها كل من دس أنفه ومد يده للعبث والتدخل في ما لا يعنيه ولا ينفعه ويغنيه في قضايا البلدان العربية ؟

والاحداث القريبة والبعيدة ، كانت وما تزال أصدق شاهد على أن البلاء والمصائب والمتاعب والمصاعب ، التي عانتها وتعانيها معظم بلدان العالم العربي . إنما كانت نتيجة المداخلات الخارجية التي فرضت عليها طوعاً أو كرهاً تحت ستار شعارات مختلفة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

فتصدع الجبهات العربية وتفسخ الصفوف في كل بلد منها وتعهد الاحقاد والضغائن بالسقيا والرعاية ، كان الفضل الأكبر فيه إنما يعود الى « الوساطات » والمداخلات التي كانت تفرض فرضاً بعد أن ترتدي مسوح الرهبان وتحمل ما تيسر من يافطات الشعارات تهول بها على عقول البسطاء والسذج من الناس !

ماذا دهى أحمد بن بيللا ، وأي خير رآه يعم أي بلد عربي نتيجة الاعمال العربية التي يقوم بتمثيلها على مسارح السياسة أبطال وزعماء وقادة البلاد العربية ؟

إن أحمد بن بيللا يعلم جيداً أن فلسطين ما أضاعها غير رجال السياسة العرب الذين انتدبوا أنفسهم لانقاذها فكانوا السبب في ضياعها .

ويعلم أيضاً ان الثورة الجزائرية ما كان يقدر لها أن تنجح لو سمحت لتدخل أهل الزعامات في شؤون القيادة الجزائرية .

ويعلم أيضاً وأيضاً ان أية نكسة ستصيب الثورة اليمنية ستكون بسبب التدخل المباشر في شؤون اليمن الداخلية واتباع سياسة التفرقة بين أبناء البلد الواحد وزرع بذور الشقاق بينهم .

واذن ، واذا لم يكن أحمد بن بيللا ، صاحب الثورة المظفرة ، جاهلا الاسباب الحقيقية التي أدت وتؤدي ببعض البلاد العربية إلى التفرقة والتصدع . فما باله يدلي بدلوه بين الدلاوي ؟

ما باله يدخل هذه السوق العربية التي أبينا عليه أن يدخلها اعزازاً واحتراماً وتقديراً لثورته وما مثل من معاني البطولة والرفعة والتضحية والفداء ؟

هل انتهى أحمد بن بيللا من العمل في سبيل الجزائر ليتلهى بسفاسف وترهات السياسات العربية ؟

لقد ترك الفرنسيون الجزائر قاعاً صفصفاً بعد ان اتبعوا فيها قبيل مغادرتهم لها ، سياسة الأرض المحروقة . . .

لقد أحرقوا كل شيء ، لم يدعوا فلساً واحداً في الخزينة ، وتركوا فراغاً هائلاً في أجهزة الدولة ومرافقها ومصانعها وبنوكها ومنشآتها ومدارسها .

والجزائر اليوم بحاجة ماسة الى مزيد من العمل المضني ومزيد من الجهد المتواصل لسد الفراغ الذي تركته فرنسا في كل مرفق من مرافق الجزائر .

فما بال أحمد بن بيللا ينصرف الى التسلي باللغو من الكلام بدلاً من أن ينصرف بكليته الى اعمار وبناء الجزائر الخارجة من أتون نار لاهبة استمرت سنوات طويلة ؟

* * *

أجدى على الجزائر وعلى القضية العربية الف مرة ، بناء دولة قوية من أن توزع الجهود لاضعاف وتفسيخ عدة دول ضعيفة !

الشعب المعلم !

لم يشأ الشعب الجزائري أن يقف موقف المتفرج أمام الأزمة الحادة الناشبة بين أبنائه ، أصدقاء الأمس ورفاق السلاح . بل تدخل تدخلاً عملياً لوضع حد للأزمة أو تجميدها على الاقل ، كيلا تسيل الدماء على أرض الوطن الذي اكتسب حقه بالحرية من دماء أبنائه وأرواح شهدائه .

فلقد خرجت جماهير الشعب الجزائري في مظاهرات صاخبة داعية إلى توحيد الصفوف وحقن الدماء ، وراحوا يرددون الهتافات ويرفعون اللافتات وقد كتب عليها :

« سبع سنوات تكفي »

و « لا نريد اراقة الدماء »

و « الكلمة للشعب »

و « لا نقتل اخواننا »

و « نريد السلام »

ولم يكتف الشعب الجزائري بالهتافات ورفع اللافتات ، بل نامت الجماهير في الشوارع وأقاموا من أجسادهم متاريس بشرية ليمنعوا تقدم قوات الفريقين واصطدامهم .

وقد تمكنت الجماهير بهذه الوسيلة من منع قوات بومدين من التقدم وامتداد االقتال الى المنطقة ، وكذلك منعوا مرور التعزيزات للولاية الرابعة .

وقد أصر الشعب الجزائري في هذه المظاهرة العملية الرائعة على وجوب وقف اراقة الدماء بأي ثمن ، دون أن يحسبوا حساباً لأي أمر حتى مرور السيارات التي تحمل الجنود فوق أجسامهم وهم راقدون في الشوارع !

* * *

إن مشاركة الشعب الجزائري وتحسس أبنائه بالواجب الملقى على عاتقه حيال الوطن في الأزمة العصيبة الناشبة ، إنما يثبت جدارة هذا الشعب بالحياة الديمقراطية الحرة التي تأبى الظلم وتجارب الديكتاتورية ولا تقبل بغير الحياة الحرة الكريمة بديلا .

فلن يكون بعد اليوم ، بعد هذه الانتفاضة وهذه المشاركة الايجابية للشعب الجزائري ، أي رأي غير رأيه وأية ارادة غير إرادته وأي هدف غير أهدافه .

لقد أثبت الشعب الجزائري انه أهل لأن يحيا الحياة التي يريدها هو لا التي تفرض عليه فرضاً .

أثبت انه جدير بالحرية جدير بالعزة جدير بالكرامة ، ولا خوف بعد اليوم على الجزائر ما دام شعب الجزائر يفرض رأيه ويقول كلمته ولا يقف إزاء قادته ورؤسائه مثلما تقف بعض الشعوب العربية ، موقف المتفرج المتواكل الذليل .

* * *

سيان ، بعد هذه الظاهرة الرائعة التي أشرقت على أرض الجزائر ، سواء أختلف القادة أم لم يختلفوا ، فثمة ضمانة كبرى هي أعظم وأهم من أية ضمانة أخرى . ألا وهي إرادة الشعب وتصميمه : وتلك بالنسبة لبناء الأوطان بمثابة حجر الأساس !

حكاية ضم اليمن . لا تقل في غرابتها ولا أقول طرافتها . عن حكاية خروجها . ولقد تطوعت جريدة « الأهرام » أمس فنشرت تفاصيل الحكاية التي تكاد العقول لا تصدقها ، والتي يحسب معها القارىء أن الغاية من نشرها ليست إلا شرشحة الجمهورية العربية المتحدة والقائمين على أمرها وهركلة الوحدة العربية والداعين اليها !

ولست أدري كيف سمح المسؤولون في القاهرة بنشر هذا الغسيل القذر على حبال « الاهرام ».

فأنا أفهم إنفصال سوريا عن مصر . وأفهم الأخطاء التي أرتكبت .

أفهم الجهل الألمعي . والحقائق المشوهة . والتقارير الكاذبة ، والأحكام المقلوبة ، على أقدار الرجال وأوزانهم في البلاد العربية .

هذا الجهل المكعب الذي سيطر عقلية ونهجاً وأسلوباً . فأدى إلى مختلف الكوارث والنكبات .

بل أفهم أيضاً أن تنتهي عملية الجمع بين الدول العربية إلى عملية طرح وضرب وقسمة . كل هذا يمكن عقل البني آدم أن يحتمله ويصدقه .

أما تفاصيل « الأهرام » التي نشرت أمس عن كيفية إنضمام اليمن إلى مصر ، فحكاية تفوقت على جميع الحكايات والأساطير التي قرأناها وسمعنا عنها في قصص الأطفال !

لقد بعث إمام اليمن ببرقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر يطلب فيها « أن تضمونا اليكم بالله عليكم . . »

وكان « المواطن العربي الأول » شكري القوتلي يومئذ في القاهرة . بوقع ميثاق الوحدة مع مصر . واستلم عبد الناصر البرقية وناولها إلى القوتلي الذي أيد على الفور طلب الإمام وقال بوجوب « ضمه الينا » ولكن عبد الناصر صاح ضاحكاً :

« نضم إمام اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة ؟ هل هذا معقول ؟ ! »

وقر الرأي على إرسال برقية استفهامية عن مقصد إمام اليمن . فجاء الرد التالي : « لقد استخرت النجوم : وبعد الحساب الطويل تبين لنا أن نجمكم يكسف نجم الآخرين ويغطي عليه ، ولهذا نريد أن ننضم اليكم والولد البدر في طريقه لعندكم لبحث الأمور ونقل رأينا » .

وتبين فعلاً أن إمام اليمن قد كلف عراف القصر وحاسب النجوم ، أن يستطلع له امر المستقبل لكي يحدد موقفه من الصراع العربي في ذلك الحين . وجاء العراف يقول لأمير المؤمنين الامام أحمد حميد الدين « أن نجم عبد الناصر يعلو وانه حين يقترب من نجوم الآخرين يزداد لمعاناً بينما تصاب باقي النجوم بالكسوف » . وقال له الامام « احسب مرة أخرى ، فكانت النتيجة

هي نفسها وعلى أساسها أرسل الامام برقيته الأولى ثم الثانية ، ثم بعث بولي عهده « الولد » البدر إلى القاهرة ودمشق يحمل بقية التفاصيل ويحمل تفويض الامام » !

هذه هي تفاصيل حكاية إنضمام اليمن التي تطوعت « الأهرام » بنشرها على الناس ، وكأنها حكاية لذيذة ممتعة ليس فيها ما يعيب ويبعث على التقزز والقرف !

بالأمس قالوا إن مصر ما أرادت الوحدة مع سوريا ، بل ان سوريا نفسها هي التي طالبت بها وأصرت عليها . قلنا آمنا وصدقنا !

واليوم يقولون أن عبد الناصر كان يستنكر إنضمام اليمن .

وتبين فيما بعد أن اليمن دخلت الوحدة وكان هذا معقولاً ومقبولاً .

وخرجت من الوحدة وبدا خروجها أيضاً وهو أمر معقول ومقبول .

حقاً لقد هزلت . . . هزلت حتى بدا من هزالها كلاها !

رحم الله المراعي !

لسوانا أن يطرب ويبتهج ، ويتسلى ويتندر بقصيدة إمام اليمن التي كانت . على حد قول الرسميين ، السبب المباشر لفك الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة .

ولسوانا أن يستكشف ويستنبط ويحقق ويدقق في الخفايا — غير الخافية عن كل عين — التي أدت إلى هذه الذروة من المأساة — المهزلة .

ولسوانا أيضاً أن ينبري اليوم ليتهم اليمن السعيدة بالرجعية والتأخر ، وكأنها كانت قبل فك الوحدة مهد الحضارة ومنارة المدنية ودعامة كبرى من دعامات الاشتراكية !

واذا صح القول بأن شر البلية ما يضحك . فان بلية الوحدة في اليمن أكثر الأضاحيك التي لا تحمل أي معنى من معاني الفكاهة على الرغم من أرجوزة إمام اليمن الطافحة بكل ما يبعث على الضحك والتنكيت ، والتي كانت برأي « الثقاة » السبب في فصم عرى الوحدة بين القاهرة وبين تعز !

وهل أدعى للسخرية من أن تكون نهاية الاتحاد بين دولتين نتيجة أرجوزة سخيفة يأنف طلاب الكتايب أن ينظموا مثلها ؟

وهل أدعى للمرارة من أن ينتصب إمام اليمن مدافعاً عن العروبة والاسلام بمثل ما دافع به ؟

لقد أعاد إمام اليمن إلى ذاكرتنا في مجال تصديه للدفاع عن الاسلام ، حكاية المرحوم الشيخ المراغي الذي كان يجلس في الجامع الأزهر وهو يبدي إعجابه بتقدم الغربيين واقبالهم على العلوم والاختراعات ؛ وكان الطيار الأميركي لندبرغ يومئذ قد قطع المحيط بطائرة صغيرة ذات محرك واحد .

وراح المراغي يندب حظ الشرقيين وتخلفهم في مضمار العلوم والاختراعات . وانتصب أحد الطلبة من مشايخ الأزهر — كما ينتصب اليوم إمام اليمن — يسأل المراغي بكل رصانة ووقار :

هل من المستحسن للمسلم أن يضع إبريق بيت الخلاء عن اليمين أم عن اليسار ؟

وصرخ الإمام المراغي رحمه الله في وجه السائل قائلاً : (« يخرب بيتك . . . طا روا طاروا وانت لسه قاعد في الكنيف بتفكر في الشمال واليمين » ؟ !

* * *

أشد ما يؤسف في هذه المأساة — المهزلة التي صارت اليها الوحدة . أن ينبري دعاة الحرص والغيرة على الدين فيشرعون أسلحتهم التي أكلها الصدأ ليقارعوا بها فيصولوا ويجولوا في عصر الذرة والفضاء !

بعد تسعة أعوام طويلة مريرة شاقة مضنية . تسعة أعوام هدرت فيها الجهود والدموع . وغصت بالحلوق الآهات والتفجعات . وتبددت في الخواطر والأذهان الآمال العريضة والأحلام السعيدة ، أحلام اليقظة . . .

بعد تسعة أعوام من ثورة جمال عبد الناصر ودعوته للوحدة العربية يقف إمام اليمن ليكفر جمال عبد الناصر ويتهمه بالخروج على تعاليم الإسلام !

ما أشبه وقفة إمام اليمن اليوم ، بوقفة الشيخ الأزهري منذ ثلاثين عاماً ، عندما وقف في صحن الجامع الأزهر يسأل الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي : « هل من السنة أن يضع المسلم . . . » إلى آخره !

* * *

وبعد ، أعجب الأعاجيب ليست في النهاية — الفاجعة للتي أنتهت اليها الوحدة في دمشق . ولا هي في النهاية — المهزلة التي صارت اليها في تعز . فالبداية منذ بدأت ؛ كانت نذيراً حتمياً لهذه النهاية التي نشهد !

أعجب الأعاجيب . من يبدي اليوم عجبه ودهشته لما وقع . وما وقع لم يكن عجيباً ولا غريباً

ولكنه كان أمراً مقرراً محتوماً منذ أمد بعيد . منذ اللحظة التي تحولت فيها الثورة القومية المصرية الاجتماعية عن قاعدة ثورتها الاصيلة وما خلقت له ، إذ توجهت من حيث تريد أو لا تريد صوب دمشق وتعز . لتجني ما جنت اليوم ، وما سوف تجني غداً إذا ظلت تعتمد الانحراف عن القاعدة الأساسية التي قامت عليها ركائز ثورتها ، وأعني بها قاعدة الثورة القومية المصرية الاجتماعية !

الترامواي في اليمن ...
من اشتراه ؟!

حكاية الصعيدي الذي أشترى الترامواي في القاهرة : حكاية قديمة معروفة يتندر بها جميع المصريين . . .

فقد هبط القاهرة رجل من الصعيد لأول مرة ، فتلقفه أحد المحتالين بعد أن أستأنس فيه الصيد الثمين . ولم يلبث أن أقنعه بشراء الترامواي بعد أن أوهمه بأنه صاحبه . وصدق الصعيدي ونقده كل ما يملك من الدراهم التي قدم بها من الصعيد إعتقاداً منه بأن شراء الترامواي صفقة رابحة . وان المال الذي دفعه سيسترده أضعافاً مضاعفة بأيام معدودة .

وقبض المصري الثمن وترك الصعيدي في الترامواي ، ولم يلبث أن أكتشف الرجل الخديعة التي وقع فيها ، ولم يشفع به صراخه وتأكيده بأنه هو صاحب الترامواي . وانه دفع ثمنه نقداً وعداً . . .

وحكاية اليمن لا تختلف كثيراً عن هذه الحكاية ، حكاية الصعيدي الذي أشترى ترامواي القاهرة .

ولكن من هو الذي اشترى الترامواي في اليمن ؟

هل هي الجمهورية العربية المتحدة ؟

أم هي أميركا . أم انكلترا أم هو عبدالله السلال ؟

إن أميركا تحرص أمام أنظار العالم على أن لا تتهم بأنها هي التي أشترت الترامواي في اليمن . . .

وبريطانيا لا تقل حرصاً عن خليفتها في هذا المجال : بدليل أن الدولتين تحرصان على التزام الحياد وعدم الاعتراف بالجمهورية اليمنية ، بانتظار ما سينجلي عنه الموقف في اليمن .

ولقد صرحت بالأمس ، تأكيداً لهذا الموقف . مصادر مأذونة في وزارة الخارجية الاميركية بأن الولايات المتحدة لن تفعل شيئاً بالنسبة إلى الاعتراف بالعهد الجديد في اليمن قبل أن

يصبح الوضع هناك أكثر وضوحاً . وان ذلك قد يستغرق بعض الوقت . وقالت هذه المصادر أن السياسة الاميركية والبريطانية تميل إلى عدم الالتزام تجاه اليمن . . .

و مما يؤكد هذا الموقف ، أن العرض الذي قامت به الطائرات الاميركية في سماء الرياض . وقيل بأنه تهديد مبطن للدفاع عن السعودية ، لن تلبث أميركا أن تنفيه مداورة وصراحة . . .

ومعنى هذا أن أميركا تحاول أن تتبرأ من عملية شراء الترامواي في اليمن !

يبقى في الميدان الجمهورية المتحدة . وعبدالله السلال .

أما السلال فيقولون انه أصبح في الآونة الأخيرة وبعد المد الثوري والشلال الناصري الذي تدفق على اليمن : أصبح غير ذي موضوع . . .

وان عملية شراء الترامواي ، إذا تمت فستكون بلا مشورته . ولن يكون بالتالي إلا شاهد زور !

واذن . تبقى الجمهورية العربية المتحدة في هذا « البزار » . . . فهل تراها عقدت العزم و وطدت النية نهائياً على شراء الترامواي في اليمن أسوة بالصعيدي الذي أشترى ترامواي القاهرة ؟

الأيام القليلة القادمة سوف تميط اللثام عن هده الصفقة التي أقدم عليها من سمسر واشترى وقبض عملية شراء الترامواي في اليمن !

من وحي اليمن !

لا جدال أن القرون العشرة التي لفت بل كفنت اليمن بالظلام والذل والعبودية ، لا نظير لها بين سائر الشعوب التي أبتليت بالظلام وعرفت الذل وذاقت العبودية .

ولقد كان إميل البستاني صادقاً كل الصدق عندما تحدث عن اليمن في كتابه « شكوك وديناميت » قائلاً : « إنها تسير بخطى سريعة نحو القرن الرابع عشر » !

فما عرف العلم في القرن العشرين وما أحسب أنه سيعرف ، شعباً حبس نفسه في قوقعة وأقام فيها ألف سنة ، كشعب اليمن السعيدة !

ورحم الله الفضيل الورتلاني ، فهو صاحب البذرة الأولى التي زرعها في أرض اليمن عندما قام بمحاولة الانقلاب الأولى ضد الإمام يحي حميد الدين ، وفشل الانقلاب بالرغم من مقتل الامام كما هو معروف . ولكن البذرة أثمرت ، وتكررت محاولات الانقلاب : فأطاحت برؤوس كثيرة وسيوف كثيرة ، حتى كان الانقلاب الأخير الذي ذهب ضحيته الامام الشاب سيف الاسلام محمد البدر !

ومن طبيعة الانقلابات انها تذهب بالصالح والطالح ، بل هي في أغلب الأحيان تأخذ

الصالحين وتذر الطالحين . ولا عجب فهي الضريبة العظمى المحتمة الاداء لكل انقلاب وكل ثورة .

ولقد كان الامام البدر واحداً من هذه الضحايا التي ذهبت قبل أن يعرف الناس خيرها من شرها ، بل إن الدلائل كانت تشير – على الرغم من الأيام القليلة التي أمضاها في الحكم – انه كان ينوي الاصلاح ويرغب رغبة صادقة في الخروج بشعبه من وهدة الجهل المخيفة التي يعيش في أحضانها . لا سيما وأنه كان منفتحاً على العالم الخارجي يسافر ويتصل ويشترك بالمؤتمرات .

ولسنا ندري أي السبيلين كان أقوم وأجدى لشعب كالشعب اليمني . أن يسلك الطريق التي كان ينوي أن يسير عليها الامام البدر . أو تلك التي سلكها أصحاب الانقلاب الأخير .

ولكن الثابت الذي لا جدال فيه . ان بقاء اليمن واستمرارها على النحو الذي كانت تعيش فيه . أنما يعتبر سبة في جبين كل بشري متحضر أو متخلف على السواء .

وكل حركة . أياً كانت الحركة . تمرداً أو عصياناً ، ثورة أو إنقلاباً . هي خير ألف مرة من الموت المذل المعيب الذي يحياه أربعة ملايين يمني !

لا غرابة إذن بأن يحدث إنقلاب في اليمن . بل الغرابة أن يستمر الموت المذل المعيب : الذي كفن شعب اليمن زهاء الف سنة وهم أحياء !

بقيت الأضاحيك التي برزت من خلال الاذاعات والبلاغات عن الانقلاب . وهي أضاحيك تغري بالابتسام لما تحويه من مفارقات . وتغري بالهزء وهز الأكتاف : لما تبطنه من أستغفال لعقول الناس والاستخفاف بذاكرتهم .

فالأمير البدر تلقى برقيات التهنئة والتأييد قبل ساعات معدودات من وقوع الانقلاب والإطاحة به . ولقد سارع المهنئون المؤيدون أنفسهم إلى تهنئة وتأييد الجيفي صاحب الانقلاب ، بل أن بعضهم لم يتورع من أن يتبنى الثورة وكأنها ثورته فعلاً ومن صنع يديه . وان الجيفي لم يكن الا منفذاً لفكرة الانقلاب . . .

أما البلاغات التي توالت فقد أعلنت ولادة الجمهورية اليمنية العربية . جمهورية اشتراكية تقدمية تحررية . . إلى آخر الموال !

وهكذا برزت اليمن في انقلابها الأخير . وكأنها القمقم السحري أو فانوس علاء الدين . . .

من الظلام المطبق إلى النور الساطع !

من الجهالة والعبودية ، إلى النورانية والحرية !

من القبلية والطوطمية إلى التقدمية والاشتراكية !

هكذا وبدقائق معدودات ، قفزت اليمن من خلال الاذاعات التي صمّخت آذاننا اليوم . من دولة عشائرية بدائية موغلة في بدائيتها وجهالتها ، قفزت ألف سنة إلى الأمام ، وأصبحت دولة متحررة واعية تقدمية اشتراكية وطنية ديمقراطية . تقول لأرقى الدول « قومي وأنا أقعد مطرحك » !

فتباركت الاشتراكية وتباركت الثورية كيف تصنع العجائب ! بل تبارك الدجّل كيف يسخر من العقل ، والنفاق كيف يهزأ بالصدق !

ترى لو رفعت أنقاض القصر الذي تهدم في اليمن . وتبين أن الامام البدر ما زال حياً . وأن الانقلاب قد فشل ، وأن أصحاب الانقلاب هربوا أو أعدموا . . .

أما كان يسرع المهنئون الذين هنأوه ، ثم هنأوا قتلته من بعده . . . أما كانوا يتسابقون إلى تهنئته من جديد وتأييده والدعاء له بالعمر المديد ؟ !

مع الثورة فقط !

ليس لأحد أن يناقش الأمير الحسن والسيف المرتجى . سعيه لاستلام الحكم في اليمن واسترداد الإمامية والقضاء على الثورة اليمنية التقدمية .

وليس لاحد أن يجادل أي سفير أجنبي إذا شاء له هواه ومزاجه أن تعود اليمن إلى حكم السيوف والخناجر والشفرات ، فقد يستسيغ الأجنبي تلك الحالة الزرية التي يحياها شعب اليمن البائس ، وقد يستطيب استمرار الموت البطيء المعيب الذي يحياه أربعة أو خمسة ملايين بشري .

وليس لأحد أن يعجب لانتصار الرجعية للرجعية ، والملكية للملكية ، والفساد للفساد ، والعفن للعفن ، والاضمحلال للاضمحلال ، والظلم للظلم ، فتلك سنة الله في ملكه وخلقه . . . الظالم ينتصر للظالم ، والرقيع يؤازر الرقيع ، والكاذب الفاسد الحقير الضال المضلل ، يجد له من يؤيده ويناصره ويذود عنه ، دونما حاجة إلى نداء استغاثة أو نجدة . يكفي أن تلم ملمة أو تنزل مصيبة بواحد من هؤلاء حتى يجد له أنصاراً وأعواناً ، من حيث يحتسب ولا يحتسب . يتطوعون له مأجورين أو غير مأجورين ، فالعرق دساس والدم يحن ولا يصير ماء . . وتلك أبسط البديهيات في أبسط القواعد المرعية الاجراء لأمثال هذه الجمعيات المنتشرة في أصقاع الأرض ، والتي تشبه أكثر ما تشبه الجمعيات السرية أو الماسونية ، إذا اشتكى عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر !

أجل ، ليس لاحد أن يتساءل لماذا انتصرت بعض الحكومات العربية لعودة الامامية في

في اليمن وعودة حكم السيوف في رقاب أهلها .

بل ليس لنا أن نتساءل عن معنى ومغزى انتصار بعضها للثورة اليمنية والثوار الأحرار . فنحن نعلم بالنوايا الخبيثة في الصدور . ونعلم الأحقاد الدفينة في القلوب . وما انتصارهم للثورة في اليمن ولا تأييدهم لها إلا تنفيساً لتلك الأحقاد التي تغور وتغلي . وليست بالتالي مصلحة اليمن وشعب اليمن تدخل في حسابهم بمقدار ذرة واحدة !

فانتصار الرجعية للامامية في اليمن . لا يوازيه غير انتصار بعض المسؤولين من أدعياء التقدمية للثورة اليمنية . . . فكلاهما « فولة وانقسمت » أو كما يقولون بالعربية الفصحى « حذوك النعل بالنعل » !

حقيقة خبرناها طويلا . خبزناها وعجناها ، فما عادت تنطلي على القول والأذهان !

شيء واحد يبدو غريباً حقاً . ولو من الناحية الشكلية الظاهرية . هو أن نجد في القرن العشرين بشراً — ولا أقول ملوكاً ورؤساء وحكاماً — يقولون بعودة حكم السيوف والخناجر . وبضرورة استمرارها في رقاب أربعة أو خمسة ملايين بشري !

لسنا مع زبانية ومرتزقة دعاة العودة باليمن إلى حكم الامامية في اليمن .

لسنا مع أنصار ومأجوري أعداء الملكية الرجعية والامامية .

ولكننا في كل حال مع ثورة اليمن وثورة أحرار اليمن . . .

معهم في ثورتهم على العبيد والمرتزقة والمتاجرين بالحريات والثورات أينما كانوا . في اليمن وخارج اليمن .

إن الرجعية المتأصلة الجذور في اليمن والموغلة في قدمها على مر الأجيال لم تطأطيء الرأس للاستعمار ولم تتحالف معه يوماً واحداً . وأحرى بثورة اليمن أن تحرص على ذلك فلاتسمح لدعاة الثورية الكاذبة وأنصارها المزيفين بأن يدسوا أنوفهم في ثورتهم .

الثورة اليمنية . . .
بين اصدقائها واعدائها !

ليس يعادل اللهفة الكبرى والفرحة العظمى التي أحسسناها مع إطلالة الثورة المصرية منذ عشر سنوات ، غير لهفتنا وفرحتنا باشراق الثورة اليمنية في هذه الأيام . بل ان هذه أحق من تلك وأدعى للمباهاة والاعتزاز . فقد طالت نومة اليمن واستطالت قروناً غابرة سحيقة كالحة . حتى فاقت نومة أهل الكهف . وجاءت يقظتها من سباتها العميق . بمثابة معجزة ضخمة لا تقوم في الاذهان ولا يصدقها عقل إنسان !

فغبار الزمن بذله وكلكله الذي ناء على صدر اليمن . بدا وكأن لا قدرة لبشري على إزالته وزحزحته . . .

فقر مدقع ، وجهالة عريضة عريقة موغلة في قدمها . وتسليم أبدي سرمدي للامر المفعول وللظلم الأسود الغبي الذي أحاق باليمن وشعب اليمن .

من أجل ذلك كان لانتفاضة اليمن ولثورة جيشها . هزة الفرح في نفوس الأحرار في كل بلد عربي .

ومن أجل ذلك أيضاً وجب على كل حر في كل أرض عربية أن ينتصر لثورة اليمن . وأن يباركها ويرعاها ، ويحرص عليها من أن تمتد اليها أيدي السوء .

وليس صحيحاً ما يدعيه البعض بقولهم سيان أنجحت الثورة أم لم تنجح ؛ فان البذرة التي زرعت في أرضها لا بد أن تثمر وأن تؤتي أكلها في يوم من الأيام !

فما من يوم أصلح ، وما من فترة مناسبة كهذا اليوم وكهذه الفترة التي تمر . إنها فرصة العمر بالنسبة لليمن ولشعب اليمن . وهيهات أن يجود الزمن بفرصة مؤاتية وظرف مناسب كهذه الفرصة .

والنكسة التي قد تتعرض لها الثورة اليمنية – لا سمح الله وقدر – ستكون كارثة لا نظير لها بين الكوارث التي شهدها شعب اليمن في تاريخه الطويل .

فالانتقام سيكون رهيباً والظلم مضاعفاً .

وأخشى ما نخشاه على ثورة اليمن وأحرار اليمن ؛ ليست محاولة الامامية في أن تعود على صورة الأمير الحسن أو غيره من الأمراء والأئمة .

أخشى ما نخشاه على ثورة اليمن ، ليست في تحركات السعودية وانتصارها للامامية المخلوعة المهزومة وأشخاصها المخلوعين المهزومين .

أخشى ما نخشاه على اليمن وثورة اليمن . ليست الجيوش بالغاً ما بلغت في عددها . ولا المدافع ولا الطائرات ، من أي دولة جاءت وإلى أي مصدر انتمت . فلقد عجزت جيوش الامبراطورية العثمانية عن احتلال اليمن . كما عجزت من بعدها بريطانيا ، وليس بميسور أي جيش نظامي أو أية قوة أن تسيطر على الجبال والصخور فطرق اليمن غير معبدة ومسالكها وعرة ، لا تستطيع الجيوش أن تسلكها لتخضع أهلها ؟

أخشى ما نخشاه على ثورة اليمن ، هذه الأصابع الطويلة التي تمتد إلى اليمن تحت ستار نجدتها ونصرتها ، وليست هي في الحقيقة إلا الذرائع التي سيتوسل بسببها أعداء الثورة اليمنية للتألب ضدها وتحطيم شوكتها !

فمهرجانات التهليل والتكبير ، وزعيق التمجيد والتأييد : التي تكال اليوم للثورة اليمنية من خلال الاذاعات والتلفزيونات ونشرات الأخبار ، لن تكون في صالح الثورة اليمنية في قليل أو كثير ، بل ستكون — وقد بدأت — أداة شغب وتخريب للثورة اليمنية نفسها ، لسمعتها وصفائها وبراءتها من كل مأخذ ومطعن !

فالأحقاد التي كشرت عن أنيابها ، قد برزت ووضحت لكل ذي عينين ، من خلال الانقسامات القائمة في كل عاصمة عربية تحمل الضغائن والأحقاد نحو الأخرى ، وفي كل تكتل ظاهر ومستتر يبدو من خلال أحداث اليمن الأخيرة .

الجيش اليمني وحده قادر أن يحمي ثورته بمعزل عن أية قوة أو نجدة تأتيه من الخارج . وليس في العالم قوة ، لا السعودية ولا القبائل الزيدية : قادرة أن تسلب الحرية من جيش آمن بحريته وصمم أن يحتفظ بها ويحميها ويذود عنها .

* * *

وقى الله الثورة اليمنية من أصدقائها . أما أعداءها فهي وحدها كفيلة بهم ! !

العصر اليمني !

إذا حق للعالم أن يتباهى بأن عصره هو عصر الذرة والفضاء . فمن حق العالم العربي بدوره أن يتباهى ويفتخر بأن العصر الذي يحياه هو العصر اليمني !

لقد أستطاع المد التحرري والدفع الثوري أن يبلغ ذرى جبال صنعاء وتعز ، بعد أن انحسر عن ضفاف بردى وعاصمة الأمويين .

واستطاع أن يصرف الأنظار عن كل ما يشغل خواطر الشعوب العربية وهمومها كبيرها وصغيرها . . .

واستطاع أكثر وأكثر ، إذ أتاح المجال للجمعية الماسونية الحديثة في مصر ولسائر فروعها الممتدة المتناثرة في بلدان العالم العربي ، أن تتولى القيادة والتوجيه وتفلسف الحوادث والأوضاع : وتصنف العواصم والمخلوقات . . . وليس هذا بالقليل !

ليس بالقليل أن يفتح العرب في هذا العصر اليمني أعينهم وآذانهم وقلوبهم ، ليروا ويسمعوا ويشاهدوا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر !

فالدعوة إلى التقتيل والتخريب ودك القرى على رؤوس أهلها العرب ، يعتبر جهاداً على إسم الله واسم القضية العربية !

واقتتال الجيوش العربية ، تعزيز وتقوية وتطهير لها !

والقول بوجوب إدخار القوى وجمع الصفوف وتوحيدها لمواجهة اسرائيل : أصبح تجديفاً على العروبة وعلى الوطنية ، وبالتالي انتقاصاً من قدر المد التحرري والدفع الثوري . . .

أصبح اسم البيضاني والزبيري في أفواه الجمعية الماسونية الحديثة وأفرادها أعز وأغلى من فلسطين وأعز وأغلى من دمشق ومن بغداد ومن عمان ومن كل عاصمة عربية لا تدين بدين الجمعية ومبادئها وشعاراتها . . .

ماذا يريدون وأي حانوت جديد يبتغون فتحه بعد أن فتح حانوت اليمن على مصراعيه ، يجاهد فيه من يجاهد ويصفق من يصفق ويستثمر من يستثمر ويرقص من يرقص على أشلاء الاجساد المتناثرة والرؤوس المقطوعة ؟

مزيداً من الدماء يا عربان ، مزيداً من الحديد والنار ، مزيداً من الفتك والابادة . . . ثم ماذا ؟

ماذا بعد حرب اليمن ؟

قالوا : مباركة الثورة .

قلنا الف الف مرة مباركة .

قالوا : لا يجوز أن يستمر حكم الامامة .

قلنا : إنه وصمة في جبين الانسانية جمعاء لا وصمة في جبين العرب وحدهم !

قالوا : هيا إلى الجهاد يا عربان . . . إلى الحرب إلى ساحة الوغى . . .

قلنا رويدكم ليست اليمن اسرائيل ، ولا ينبغي أن نستنزف قوى جيوشنا لتقتيل بعضنا بعضاً . . .

وقلنا أن مئات الملايين من الجنيهات التي أنفقت وتنفق على صخور اليمن ، أجدى لنا ولليمن أن تصرف على الشعوب العربية وشعب مصر أولاها وأحقها بالمساعدة والعون !

ولكن الدفع الثوري له منطقه الخاص وعقليته الخاصة ومزاجه الخاص يعرفه جيداً المصريون كما عرفه اللبنانيون ومن قبلهم السوريون ومن بعدهم العراقيون والاردنيون وغيرهم ممن ابتلوا بالمد والدفع على اسم الوطنية والعروبة والتيارات التحررية !

واليوم ، يقولون أن في القاهرة ما يشبه الهدوء أو « بلاك أوت » على أخبار اليمن . . .

فالصحافة المصرية في شغل شاغل . . . الطبري الجديد في الأهرام أصابته وعكة فلزم « بيته الريفي » .

ولم يملأ الصفحة السابعة من الأهرام كعادته كل يوم جمعة . . .

ومحمد التابعي يكتب عن سرقات محمد عبد الوهاب الموسيقية صفحة كاملة !

و « الجمهورية » تهاجم الطبري وتغمز من قناته تصريحاً وتلميحاً . . .

و « صباح الخير » تدخل من الباب الواسع في هذا الموضوع ، موضوع النقد الفني والنقد الذاتي فتغير على رئيس تحرير « الأهرام » الطبري الجديد « م.ح.ه » غارة موفقة !

نعم ان الأحاديث الفنية قد غطت أخبار الحرب في اليمن وجعلت اليمن في شبه « بلاك أوت » !

أما ماذا يبيت في الخفاء ؟

فليس لنا أن نسأل ، كي لا نتهم بالمروق والتشكك والانحراف . . . لن نحاول أن نستنبط ولا أن نستخرج ونخمن . . .

لنترك أهل التشكك والشيكات والانحراف والمنحرفين . . . لندعهم يفلسفون لنا غداً ــ وان غداً لناظره قريب ــ عما سيقوم الموقف ، وعما ستؤول اليه الحرب في اليمن !

نهاية الزحف !

ليس يوازي حماس المتحمسين للثورة اليمنية وانتصارهم لها . غير حماس وموالاة البعض للامامية ولحكم السيوف في اليمن .

فبينما يتزايد كل يوم عدد الدول التي تعترف بالجمهورية العربية اليمنية ، وبينما يتوطد حكم الثورة فيها ويسير قدماً نحو الاستقرار ، ينصرف بعضهم إلى تأييد الامام الحسن وتنشيطه بنشر الأنباء عن الزحف المستمر نحو صنعاء . . .

فمنذ قيام الثورة والدعوة لنصرة الأئمة والسيوف قائمة قاعدة لا تهدأ ولا تريد أن تهدأ ، والزحف نحو صنعاء مستمر لا يكل ولا يمل . . . ولو صحت أنباء « الزحوفات » الموهومة والتحركات التي تنشط بعض الصحف والأقلام لتنشيطها وتحريكها ، لو صحت لانتهى أمر الثورة من زمان بعيد ولكان الامام الحسن أو الامام البدر هو اليوم الحاكم السعيد في اليمن السعيدة . والاهتمام البالغ الذي يوليه بعضهم لموت أو حياة الامام البدر ، إهتمام مضحك لأنه يكشف عن سر المأساة الحقيقية التي عاشتها اليمن قروناً بعيدة .

فالامام البدر أو أي إمام سواه من الذين سبقوه ، هو بنظر أهل الامامية والداعين المنتصرين لها ، كل شيء في اليمن وما عداه ليس شيئاً !

فالملايين الخمسة التي ذاقت أعجب وأغرب صنوف الظلم والعبودية في عهد كل إمام عرفته اليمن ، هذه الملايين ليست شيئاً مذكوراً في حساب الداعين الموالين للامامية وهي من

،جل ذلك تشتد وتنشط لنصرة الامام الجديد . سواء أكان الحسن أم البدر ، وسواء أكان البدر حاضراً أم غائباً حياً أم ميتاً !

صورة كاريكاتورية مضحكة ولا شك تلك التي تبدو لبعض المتهالكين الزاحفين لنصرة العهد البائد في اليمن . وأشد ما يبعث على الضحك تهافتهم المستمر وتأكيدهم الذكي للزحف نحو صنعاء والقضاء على الثورة في اليمن وقطع رؤوس أبطالها !

ولو ان قطع بضعة رؤوس فيه خلاص اليمن من عبوديتها وفيه الضمان لحرية شعبها . لكانت أول الرؤوس التي ينبغي أن تقطع ، هي رؤوس الأئمة الفاسدين الظالمين وألسنة الداعين لنصرتهم وعودة حكمهم !

ولكن حكم الثورة هو الحكم الأقوى وهو الحكم الذي سينتصر في النهاية .

وسواء زحفت قوات الامام الحسن أم توقفت في زحفها ، فثمة حقيقة راهنة لا ريب فيها . وهي أن هذا الزحف سيكون في قعر الهاوية . . . مكانه الطبيعي ونهايته المحتومة !

الكلام المفيد !

«لا شك أن التأييد الذي نمنحه لشعب اليمن بحيث تظهر إلى حيز الوجود جمهورية قوية حرة ، سيخدم القضية العربية أكثر من أي وحدة أو اتحاد » .

هذا هو الكلام المفيد والرأي السديد في قضية الثورة اليمنية ، الذي لا يستطيع أحد أن ينقضه وأن لا يباركه .

وصاحب هذا الرأي ليس مؤرخ الثورة والطبري الجديد في جريدة « الأهرام » ولا هو دوقتور القومية العربية « أبو عيون جريئة » . . .

صاحب هذا الكلام المفيد هو أنور السادات . وأنور السادات ــ أعتق الثائرين المصريين وأرسخهم قدماً ــ كدنا أن ننساه لولا زيارته الأخيرة لليمن واعطائه هذا التصريح بضرورة تأييد الثورة اليمنية « بحيث تظهر إلى الوجود جمهورية قوية حرة » . .

ولست أدري إلى أي مدى سيطبق هذا الكلام الواضح والرأي الصريح في قضية ثورة اليمن . فلقد سبق لأنور السادات أن صرح لي منذ أكثر من ثمانية أعوام ، وكانت الثورة المصرية في بدايتها ، برأيه حول الدعوة إلى الوحدة العربية ، فقال :

« لا يحسن ايماني بالعروبة ما لم يحسن إيماني بمصر فمصر أولاً » !

ولقد جاءت الأحداث تؤكد صواب هذا الرأي ، ولا سيما بعد تجربة الوحدة في دمشق

والذيول المؤسفة التي ما زلنا نعاني آثارها ليس في دمشق والقاهرة وحسب بل في كل عاصمة عربية ابتلت بالانحراف العاطفي وانساقت في تيار الديماغوجية الرعناء التي لا تقيم أي وزن للعقل السليم والرأي الصحيح .

ولسنا بصدد العودة إلى ما مضى والى نكأ الجراح التي ما تزال طرية . ولكن رأي السادات بوجوب تأييد شعب اليمن في ثورته ليتمكن من إقامة جمهورية حرة قوية ، وان هذا أكثر فعالية وأجدى لخدمة القضية العربية من أي إتحاد أو وحدة . . .

نقول إن هذا الرأي لو وضع اليوم موضع التنفيذ بالنسبة للثورة اليمنية لخدمها وخدم العروبة والقضية العربية أجل خدمة .

ولو ان هذا الرأي طبق في مصر لأصبحت مصر غيرها اليوم .

بل لو ان الحرص على تقوية سوريا ومساعدتها وبنائها بناء قوياً لتتمكن من تأدية واجبها في خدمة العروبة والقضايا العربية ، لو ان هذا كان رائد السياسة العربية التي انتهجتها مصر منذ البداية لما كانت الوحدة العاطفية الاعتباطية التي ظهر زيفها وبانت مواطن ضعفها وعللها ، وبالتالي لما أصيبت العروبة والقضية العربية بمثل ما أصيبت به من نكبات ونكسات .

الجرأة في قول الحقيقة وابداء النصح الخالص لا تجديان إذا لم تواكبهما جرأة في العمل وجرأة في الاقدام . ..

فهل تقدم الجمهورية العربية المتحدة على ما لم تقدم عليه في الماضي ؟

هل تنهج نهجاً جديداً وتقدم على تقوية كل بلد عربي فتسانده وتؤيده ليكون دعامة قوية لخدمة القضية العربية ؟ !

هل تراها تفعل ؟

أشخاص

المناصب الكبيرة تظل كبيرة حتى تصطدم بمبدأ من المبادىء ، فاذا هي تصبح صغيرة في عين صاحب المبدأ بل أصغر من صغيرة !

والنعم الوفيرة تبقى نعماً وفيرة ، حتى تواجهها وخزة من ضمير فتغدو أعباء تنوء بها كواهل الأحرار .

إن استقالة الدكتور كمال الشاعر ، نائب رئيس مجلس الاعمار الاردني ، إحتجاجاً على موقف حكومة الأردن من ثورة اليمن ، لهي أكبر شهادة على أن المؤمنين بهذه المبادىء وهذه

القواعد ما زالوا موجودين ولله الحمد في غير صفوف المرتزقة والمأجورين وطوابير المهرجين والراقصين في كل عرس .

إن كمال الشاعر لم يستقل لأنه يريد كسب بطولة سهلة ، وهو الشاب المثقف البعيد عن ضجيج الهوبرة الرخيصة والبهورة الفارغة .

وكمال الشاعر لم يستقل لأنه يريد أن يقفز إلى منصب نيابي أو وزاري ، كما جرت العادة أن يفعل الكثيرون من تجار السياسة والوطنية .

ولكن كمال الشاعر استقال لأنه ، على ما روت الأنباء ، يفهم الاعمار انفتاحاً على أنوار المدنية ، وانتصاراً لمبادىء التقدم . ولا يستطيع أن يعمل في حكومة عربية تعمل لإعادة بلد عربي آخر إلى ظلمات الجهالة والتأخر !

استقال كمال الشاعر . لأنه لم يقبل أن يكون جزءاً من نظام يحارب المدنية والاعمار .

استقال لأن العلم الذي تلقنه يأبى عليه أن يكون نصيراً للجهل والعبودية .

استقال ، لأن الثقافة تعني في نظره أكثر من مجرد الشهادة ، ولأن الخدمة العامة تعني أكثر من التقيد بواجبات الوظيفة !

لقد أثرت بي هذه الانتفاضة ينتفضها شاب عربي ، وتساءلت أحقاً ما يزال في البلاد العربية من يقدم على مثل هذه المواقف وليس له من مأرب سياسي ولا طمع شخصي ولا غاية انتهازية ؟

أحقاً هناك من يضحي بمصالحه بمثل هذه البساطة ، ولسبب بعيد ، بعد اليمن عن الأردن ، كما ضحى هذا الشاب ؟

* * *

هذا الاحترام الكبير لحق الأمة في الصراع والتقدم والمدنية .

هذا الايمان الصحيح بأنوار العلم والثقافة .

هذا الولاء لفكرة البناء والاعمار ، والتحرر من ربقة الجهالة .

هذه القيم السامية المرتجاة ، نلتفت اليها في بلادنا العربية ، فنجدها مع الأسف الشديد بعيدة جداً عن سياسة الحكومات ومواقفها المختلفة ، تكاد تكون محصورة في عدد ضئيل من المواطنين ، الذين ما زالوا حتى اليوم ، ثواراً على أوضاع حكوماتهم .

وليست استقالة كمال الشاعر إلا واحدة من هذه الثورات ، تكشف على أن الحكومات العربية ما تزال في واد ، وضمائر شبابها في واد آخر !

* * *

كل ما نتمناه لهذه الوقفة الأبية الشجاعة . أن لا تتلقفها أيدي المرتزقة وحناجر المهرجين المنافقين ، تسمسر بها وتتاجر ، في السوق الكبير ، سوق المزايدات والمناقصات الوطنية : المشرعة أبوابها في كل عاصمة عربية .

ذلك لأن استقالة كمال الشاعر ، أسمى وأبقى من سوقهم وأبواقهم وتجارتهم .

فهي وحدها وبأمثالها يكون الانتصار وتكون المكاسب الحقيقية للثورة والثوار وللحرية والأحرار !

حتمية الوحدة
أم حتمية الانفصال ؟

في غمرة التسابق بين الجمهورية العربية المتحدة والسعودية ، على مضاعفة عدد القتلى لدى كل من الفريقين ، والتهافت على المباهاة بذكر الانتصارات المزعومة في اليمن الحزينة ، الميدان الجديد الذي ظهر أخيراً لتفتيل العضلات وتبريم الشنبات على حساب شعب اليمن والقضية العربية . . .

في هذه الغمرة التي نشبت فيها الحرب المستترة والظاهرة بين ثلاث دول عربية . نادى المنادي بحتمية الوحدة بين مصر واليمن !

وبدت الصيحة وكأنها صيحة البشير يزف البشرى السارة السعيدة لشعب اليمن أو كأنها خشبة الخلاص له مما يقاسيه من متاعب ومصاعب وحروب . . .

و « حتمية الوحدة » واحدة من الألفاظ الحديثة ، التي عمر بها القاموس الوطني الحديث . والذي أصدره دكاترة ومؤرخو وصبية وهتافة القومية العربية والوحدة العربية في آخر زمان !

والمضحك والمحزن — وشر البلية ما يضحك — أن تأييد الثورة اليمنية ونصرتها كان على حد قول المسؤولين في الجمهورية العربية لأيام قليلة — هدفاً خالصاً مبرأ من كل وحدة أو اتحاد . و « ان قيام جمهورية عربية يمنية حرة مستقلة : أجدى وأنفع للعروبة وللقضية العربية من أي وحدة أو اتحاد » !

بهذا صرح الثائر الحر أنور السادات غداة سفره من اليمن وقبل زيارة المشير عامر لها على النحو الذي عرف القراء .

ومن يدري ، فقد يكون الرأي القائل بحتمية الوحدة بين مصر واليمن ، إحدى الضرورات الحربية بين مصر واليمن ، إحدى الضرورات الحربية الستراتيجية التي تكشفت للمشير عامر في زيارته الأخيرة للمواقع الحربية وللحصون والقلاع اليمنية !

جائز . وجائز أيضاً أن تكون « حتمية الوحدة بين مصر واليمن » من نتاج عبقرية الدكاترة والفلاسفة والمؤرخين ، الذين عينوا بمرسوم لتخطيط وتنمية القضية العربية ، وتصنيع واستصلاح الأراضي الصالحة للوحدة العربية . . .

كل شيء جائز ، وكل شيء معقول ، ما دمنا نعيش في هذا الزمن الذي أصبحت فيه الرؤوس أذنابا والأذناب رؤوساً . . .

ولكن للخداع حداً وللتضليل حداً وللكذب حداً . فما بالهم قد جاوزوا كل حد ، وامتهنوا كل عقل ؟

ما بالهم يستهينون بعقول الناس وذاكرتهم وأسماعهم وأبصارهم ؟

إن أوركسترا الإنفصال بين سوريا ومصر ، ما زالت أنغامها تصدح في القاهرة ودمشق ، بكل ما يخدش الآذان ويغم النفوس ويؤلم القلوب .

وان الجراح التي أصابت القضية العربية من جراء تجربة الوحدة المبتسرة الجاهلة الدعية ، ما تزال طرية تنزف دماً .

فهل ترانا نسيناها ؟ أم هل اندملت الجراح في دمشق لنفتح جراحاً أخرى في اليمن ؟

ام ان المسؤولين في القاهرة يفكرون بأرجوزة يمنية جديدة تعلن الانفصال عن مصر ، أسوة بأرجوزة الامام أحمد رحمه الله وعفا عنه ؟ !

لسنا ندري والله . ولكن الذي ندريه أن هذا اللعب بمصائر الشعوب العربية والعقول العربية ينبغي أن يقف إلى حد بعد أن تجاوز كل حد !

ان اخشى ما نخشاه بأن تكون « حتمية الانفصال » هي الدعوة الحقيقية التي يدعو اليها دعاة « حتمية الوحدة » .

ولنا على سوء أساليبهم وتصرفاتهم الف دليل ودليل !

الدرس من الجزائر
والعبرة من اليمن !

لماذا أيدت الجمهورية العربية المتحدة الثورة اليمنية هذا التأييد الضاري ، الذي دفع بها لأن ترسل أبناءها يقاتلون ويقتلون في أرض اليمن ؟

لماذا تسفح الدم المصري ، وتستنزف أموال الخزينة المصرية على الطائرات والدبابات والقنابل والاعتدة ، ترسلها وترسل معها شباب مصر يريقون دماءهم ويزهقون أرواحهم على أرض اليمن ؟

لماذا ومن أجل أي هدف وأية عقيدة ؟

أمن أجل التحرر والتقدم والخلاص من نير العبودية والطغيان وحياة الظلام ؟

أم من أجل سواد عيون البيضاني والسلال ؟

أم هي الروح الثورية التقدمية و « حتمية الوحدة العربية » هي التي فرضت الانتصار للثورة اليمنية ؟

الرد البديهي والجواب الطبيعي . هو أن الجمهورية العربية لم تنتصر لثورة اليمن إكراماً للحية البيضاني ولا لسواد عيون السلال ، فثمة لحى كانت أطول من لحية البيضاني . وعيوناً دعجاء أشد سواداً من عيون السلال . . . ومع ذلك فانها لم تنتصر لهم ولم ترسل أبناءها للقتال في أرضهم ، بل هي لم تتحرك إلا للقضاء عليهم وعلى حركاتهم الثورية . وبالتالي الانتصار والوقوف إلى جانب الأئمة والسيوف !

والتاريخ القريب ، لا البعيد ، شاهد صدق على ما نقول . فقد أرسلت الجمهورية العربية المتحدة وفداً برئاسة السيد حسين الشافعي ليؤيد ويبارك ويهنيء وينتصر للامام أحمد عندما ثار عليه أخوه سيف الاسلام عبدالله وجز عنقه ثم شرب من دمائه ، دماء أخيه . كما هو معروف ومشهور . ولسنا ندري إذا كان مندوب الرئيس عبد الناصر حاضراً هذا المشهد وقتئذ أم لا . .

ولكن الثابت أن الجمهورية العربية المتحدة كانت تنتصر لحكم الأئمة والسيوف تجاه كل حركة معادية لهم ، وصداقاتها واتصالاتها مع آخر الأئمة الامام محمد البدر . ما يزال أمرها معروفاً ومشهوراً أيضاً وأيضاً . . .

ترى لو ان الثورة اليمنية التي قامت بقيادة عبدالله السلال كانت تؤيدها وتؤازرها الجمهورية العراقية مثلا منذ البداية ، هل كانت الجمهورية العربية المتحدة تسرع بدورها إلى تأييدها ونصرتها وارسال الطائرات والاسلحة اليها كما تفعل اليوم ؟

هل تراها ترسل وفداً إلى رجال الثورة اليمنية تباركهم وتؤيدهم وتهنئهم ؟

أم انها كانت تنقض عليهم و « تصف » إلى جانب الأئمة والسيوف ، وتدعو إلى الالتفاف حولهم وتركيز حكمهم وسيوفهم في رقاب الشعب اليمني الف الف سنة أخرى ؟ !

كنا نحب أن نجيب على هذا السؤال بقولنا « لسنا ندري » وان لا نجزم ، رحمة بالعيون البلقاء المفتوحة على وسعها والتي لا تستحي ولا يرف لها جفن !

وكنا نود أن لا نؤكد ، إشفاقاً على العاطفين المحبين العابدين المتبتلين في محراب الوطنية والتصوف ، أولئك الذين تدمي أناملهم لمسات الحرير وتجرح وجناتهم لفحات النسيم .

ولكن الحقائق العارية أقوى من كل مراوغة وأقوى من كل محاولة يحاولها محاول لطمسها أو تلفيقها أو قلبها .

ولقد أثبتت الحقائق أن الثورة الجزائرية ما كانت لتنتصر لو انها سمحت للجمهورية العربية المتحدة بالتدخل في قيادتها وشؤونها الداخلية ، كما كانت تسعى وتطمح إلى ذلك . ولكن الثورة الجزائرية اليقظة الجريئة ، اشترطت لقبول المعونة والتأييد من الجمهورية العربية بأن لا تشركها في شؤونها الداخلية .

وما استطاعته ثورة الجزائر ووفقت اليه ، لم تستطعه ثورة اليمن ولم توفق اليه !

الثورة اليمنية . . .
و « الدفع الثوري »

أخطر ما تعانيه البلاد العربية من « الدفع الثوري » والشلال التحرري الصاعد والنازل ، ليس في النكبات والمصائب التي تنهمر عليها من جراء الفتن والأحقاد التي زرعها « الدفع » ورعاها الشلال . . .

أخطر من الانقسامات وتصديع الصفوف ، وأخطر من المعارك ومن الضحايا التي تلطخ الأرض العربية بدماء العرب وبأيدي العرب أنفسهم .

أخطر من هذا كله ، المفهوم الجديد والفلسفة الحديثة لمعاني : « الوطنية والتحررية ، والقومية العربية » التي زرعها في عقول البسطاء من الناس ، أدعياء الوطنية والذود عن حياض القومية العربية ، والتي تولى بالنيابة عن الأسياد ، والأذناب من العملاء والاجراء ، الترويج لهذه المفاهيم والنظريات بمراسيم سرية وعلنية ، أوكلت اليهم أمر الشرح والتعليق والدعوة إلى ترسيخ مفاهيمهم في أذهان الدهماء . . .

وكما تروج كل بضاعة بفعل سماسرة الدعايات والاعلانات ، راجت مع الأسف الشديد ، هذه البضاعة ، بضاعة الشارحين الداعين لتأييد « الدفع الثوري » من المنافقين المتزلفين الذين يفلسفون المعاني والشعارات والأحداث والوقائع ، وفاقاً للمرسوم وللدرجة التي عينوا بموجبها والدفع . .. الثوري طبعاً الذي خصص لهم !

فاذا قام رجل مثل الرئيس الدكتور ناظم القدسي ، يقول بوجوب حقن الدم العربي ويدعو الملوك والرؤساء العرب للعمل على وقف المجازر في اليمن ، تمهيداً لايجاد حل عادل يضمن تأييد الثورة اليمنية . . . قامت الزعانف تسفه هذه الدعوة الصادقة النبيلة ، زاعمة أن

وراء الأكمة ما وراءها ، وان « الدفع الثوري » قد يصبح مهدداً إذا ما توقفت المعارك وحقنت الدماء . . .

واذا قال قائل بأن الثورة اليمنية ينبغي أن تظل كلمة حق لا يراد بها باطل .

وان الدعوة إلى قيام جمهورية عربية يمنية حرة يجب أن تتنزه عن الغايات والأغراض وارواء الأحقاد وان لا تكون وسيلة جديدة لاشعال نيران فتنة جديدة بين العرب . . .

إذا قال قائل هذا القول ، تناولته ألسنة الأجراء بالطعن والتسفيه ، وبرزت من خلال ذلك الفلسفة الحديثة والمفهوم الحديث لقاموس : الوطنية والتحررية والوحدة العربية وأخيراً بل أولا وليس أخيراً « الدفع الثوري » بيت القصيد وحجر الأساس من كل ما يدعون ويزعمون ويضللون ويأفكون !

واذن وما دام الأمر كذلك . فما هي الدعوة التي ينبغي أن توجه إلى الدول العربية التي تخوض المعارك في اليمن ؟

هل نقول لها تابعي سفك الدماء وازهاق الارواح إكراماً للدفع الثوري . . ؟

هل نقول لها أعيدي إلى الاذهان حروب الجاهلية الأولى كحرب داحس والغبراء وطسم وجديث التي استمرت مئات الأعوام . . ؟

ما عسانا نقول إذا كانت دعوة مخلصة كدعوة الرئيس القدسي تقابل بالازدراء والاعراض ؟

بل ما عسى أصحاب الضمائر الحية والعقول النيرة والايدي النظيفة أن يفعلوا إزاء هذا الشلال التقدمي الصاعد الزاحف ، وازاء الدفوعات الثورية القائمة على قدم وساق في كل بلد نكب بها وبسماسرتها ودعاتها ؟ !

الأسلحة الفاسدة
بين الأمس واليوم !

أين ينبغي أن يقف أحرار العالم العربي في المعركة الدائرة رحاها ؟

في أي صف من الصفوف وفي أية جبهة من الجبهات يتحتم أن ينضم ، كل من لم يشأ أن يضع الطوق في عنقه ويسير مع القطيع السائر ؟

هل ينبغي أن ينتظم في صفوف السلال والبيضاني ومن أمامهم عساكر الجمهورية العربية المتحدة ؟

أم يسير في ركاب الامام البدر ومن ورائه رجال القبائل الامامية « التقدمية » الزاحفة نحو صنعاء ؟

وهل صحيح أن لا خيار للاحرار . إلا في اتباع أحد الفريقين المتناطحين المتحاربين على أرض اليمن . وان الوطنية والتحررية والحتمية التاريخية والثورية ، تفرض أن ينضم المرء إلى هؤلاء أو هؤلاء ؟

وان لا موقف وسط ولا توسط في الحرب اليمنية القائمة ؟

واذا سلمنا جدلاً بان الانتصار للامام البدر يعني الانتصار للرجعية ؛ وان الانتصار لجيش الجمهورية العربية في اليمن . هو انتصار للثورية والتقدمية « والتحررية » كما يقولون ويؤكدون . . . فهل معنى هذا أن نبارك الحرب الدائرة رحاها بين أبناء البلاد العربية . وان نتطوع في صفوف المجاهدين التقدميين لنقاتل ونسفك الدماء ونزهق الأرواح . ؟

ولكن من أجل من وفي سبيل أي هدف ؟

أمن أجل القضاء على الامام البدر والقبائل اليمنية التي ما تزال تؤمن بالامامية ؟

أم من أجل احتلال اليمن — التي أصبحت محتلة فعلاً — والانقضاض على السعودية بالتالي ، ومن ثم الأردن ، ووضع حد نهائي لحكم الملكية فيهما بعد الاجهاز على الامامية والاماميين في اليمن ؟

أي دين وأي مذهب ، بل أية عقيدة وطنية تسمح باعلان هذا النوع من « الجهاد » ؟

وأية رسالة مدنية أو عسكرية تجيز هذه الحرب الطويلة الأمد بين أبناء البلاد العربية ؟

أمن أجل القضية العربية والقومية العربية والوحدة العربية ؟

أم من أجل خلاص الشعب اليمني وتمدينه وتثقيفه وفتح الطرقات والمدارس والمستشفيات له بدلا من فتح الميادين والثغرات بين صفوف أبنائه ؟

* * *

هذه الملايين من الجنيهات التي تهدر كل يوم هدراً على أرض اليمن للقتل والتدمير وسفك الدماء . . .

أو ليس الشعب العربي في مصر بحاجة إلى كل قرش منها ؟

أو ليس الشعب العربي في اليمن بحاجة ماسة إلى كل فلس منها . . ؟

أو ليس الشعب العربي في الحجاز وفي عمان وفي كل بلد يعيش على فتات المساعدات الاجنبية أحوج ما يكون اليها . ؟

وفلسطين . . . يا أهل الغيرة والحمية والغضبة المضرية ؛ أو لا تستحق منكم بعض هذه الأموال وبعض هذه الجهود ، من أجل خلاصها أو العمل على الأقل ، لتخفيف آلام الذل عن لاجئيها الذين باتوا في دياركم وهم أضيع من الأيتام . . ؟

أم ان الساعة لم تحن بعد وانه « ماكو أوامر » . . . كما كنتم تقولون وتعيبون على غيركم ؟
إننا بحاجة إلى كل نقطة دم ، إلى كل قنبلة وكل طائرة وكل عسكري بل كل سكينة مطبخ ندخرها لنرفع عار الذل عن الجباه التي لطخت بضياع فلسطين وتشريد اللاجئين .
أين هذا الحماس وأين هذه الغيرة وأين هذه الطائرات وهذه القنابل وأين مئات من الجنيهات التي تهدر اليوم هدراً . . .
أين كانت يوم ضاعت فلسطين وأين كانت في حربكم الأخيرة مع اسرائيل ؟
ما عساكم فاعلون غداً إذا كنتم حقيقة تعدون العدة لمقاتلة جيش اسرائيل ، وأنتم اليوم تسفكون دماء بعضكم بعضاً وتستنزفون قوات جيوشكم في حربكم على أرض اليمن ؟

* * *

الله الله يا دنيا . . .
بالأمس كنا نعيب على أصحاب الاسلحة الفاسدة التي كانوا يسلحون بها الجيوش العربية التي ذهبت للقتال في فلسطين ، والتي قامت الثورات من أجلها والانتقاض على أصحابها . . .
واليوم عشنا لنرى الأسلحة يوجهها العرب إلى صدور بعضهم بعضاً ، بعد أن أصبحت أسلحة غير فاسدة !
ومن يدري لعلها كانت فاسدة أيضاً لو انها جعلت لتوجه إلى غير الصدور العربية ! !

« مَبروك مَبروك » !

لعل أطرف ما حفلت به أخبار الحرب اليمنية ، بالاضافة إلى التصريحات والبلاغات والتهديدات التي انتهت بالوساطة الاميركية . . . أطرف ما تمخضت عنه حوادث اليمن ، ان الجمهورية العربية المتحدة ، أرسلت الى صنعاء فرقة عسكرية موسيقية ، لتدريب وتعليم عساكر اليمن الاناشيد والأغاني . . .

وجميل من العربية المتحدة أن تفطن إلى هذا النقص الفني الذي يعانيه الجيش اليمني : فتزوده بفرقة موسيقية تلقن اليمنيين أحدث الأصول في الضرب على الطبول والغناء على الأرغول واذكاء روح الحماس بترديد الأغاني وترجيع الالحان . . .

ولسنا ندري أكان المسؤولون في القاهرة على علم مسبق بالوساطة الاميركية قبل أن يبعثوا إلى اليمن بفرقة موسيقية عسكرية ، أم أن الصدفة وحدها هي التي لعبت دورها ، فكان وصول

الفرقة الموسيقية بشيراً بحل الأزمة اليمنية على يدي الوساطة الاميركية .

ولقد اصبحت مهمة الفرقة الموسيقية ، مواكبة أفراد الجيش الذي سينسحب من اليمن ، نزولاً عند إرادة من لا ترد ارادته ؛ وليس نزولاً عند مشيئة أحد من العرب ؛ الذين طالبوا منذ البدء بحقن الدماء العربية في اليمن . . .

وإذن ، فنحن على أعتاب دفعة جديدة من الأغاني والأناشيد : سوف تتردد في القريب من إذاعات القاهرة وصنعاء تشنف اذاننا وتعدد المآثر والبطولات والفتوحات والانتصارات التي حققها الجيش اليمني بقيادة السلال والبيضاني والزبيري والايرياني وغيرهم من أبطال الثورة اليمنية المظفرة . . .

ولسوف تذكرنا بما حفلت به إذاعة القاهرة ودمشق أيام الوحدة من أناشيد وطقاطيق ومونولوجات ما تزال عالقة بالأذهان والآذان . . .

« أنا واقف فوق الأهرام وقدامي بساتين الشام »

« حموي يا مشمش بلدي يا مشمش . . . »

« عيد وحدتنا ملا سكتنا . . . »

« من الموسكي لسوق الحميدية أنا عارفة السكة لوحديا . . .

« حلو يا فستان العيد . . . حلو يا فستان جديد . . . »

« وحده ما يغلبها غلاب . . .

« مرحب مرحب مرحبتين بمصر وسوريا نور العين . . .

« على الأحباب سلام الله وعلى الوحدة ما شاء الله . . . »

* * *

وبانتظار القرائح السخية التي ستتمخض عنها الفرقة الموسيقية من أغاني وأناشيد وأهازيج وطنية على اسم الفتوحات والانتصارات العربية ، تعالوا نهيء أنفسنا بانتهاء الحرب اليمنية الذي حققتها الوساطة الاميركية . . .

ولنردد مع « الثلاثي المرح »

مبروك مبروك عالامة العربية ! !

لست أجد مبرراً واحداً للعجب والذهول الذي استولى على المراقبين . لدى اطلاعهم على التقرير المختصر ، الذي نشرته « النهار » أمس . والذي يؤكد أن خسائر القوات المصرية في اليمن مرتفعة جداً ، وانها لا تتناسب مع اية أرقام أوردتها مصادر الأنباء حتى الآن . . .

وليست الأنباء المحزنة المبكية عن ظروف نقل ضحايا المعارك من المصريين من أعالي الجبال إلى المدن ثم إلى المطارات . وما رافق ويرافق هذه العمليات من شحن الجثث إلى القاهرة وتسليمها إلى ذويها أو عدم تسليمها . وتشييعها أو عدم تشييعها ، واقامة سرادق . أو عدم إقامة سرادق . . .

ليس كل هذا بالامر العجيب الغريب الذي يستحق تساؤلاً أو يثير دهشة .

إنما الغريب العجيب أن لا تتم مثل هذه الأمور وان لا يلجأ المسؤولون عن حرب اليمن : إلى مثل هذه التصرفات ، والى لفلفة « الطابق » الذي افتضح أمره وانكشفت اسراره !

ولو انه « طابق » سياسي لامكن لفلفته بمناورة بارعة أو حذلقة ماهرة . . . خطاب حماسي ، وتصريح طنان رنان من هنا ، ومقالات ممهورة بأسماء أو غير أسماء من هناك . تشرح وتفند ، تفلسف وتعلق ، تمدح وتطنب ، ثم تصفيق حاد وهتافات يعقبها بضعة تعليقات من عدة إذاعات . . . وشوية أغاني وطقاطيق ومونولوجات . وينتهي الإشكال وتحل المعضلة على أيسر وأهون حال !

ولكن حكاية اليمن حكاية أخرى . . . فهناك قتلى وجرحى ومشوهون بالمئات إن لم نقل بالآلاف .

والمعارك التي وقعت بين القوات المصرية وبين القبائل اليمنية شبه الهمجية . لم تكن معارك رياضية أستعمل فيها الفريقان القفازات الحريرية وتبادلا التراشق بالورود والرياحين . . . بل كانت شيئاً مرعباً فعلاً مذهلاً حقاً . . .

كانت حرباً حقيقية ولم تكن مجرد « سيران » أو « ويك أند » أمضاه الجنود المصريون في جبال اليمن وصخورها الجرداء !

حرباً تاعسة مخزية ، بداية ونهاية . جملة وتفصيلاً : وسيلة وأسلوباً ، منطلقاً وغاية . . .

حرباً مسعورة ليس فيها من مبررات الحروب المدنية والعسكرية والسياسية أدنى مبرر . . .

كان اقتتالاً وتذابحاً وتقطيع رؤوس وآذان وأنوف وبقر بطون وتشويه جثث رمة لا حياة فيها . . .

حتى شرعة الحرب وسننه وأساليبه كانت غائبة تماماً في معارك اليمن . وأية شرعة يمكن أن يرعاها أو يعترف بها من يسكن المغاور والكهوف ، ولا سلاح يحسن استعماله غير الخناجر اليمنية والسيوف ؟

أفيعجب المراقبون ويدهش المندهشون ويتساءل المتسائلون إذا كانت الخسائر المصرية مرتفعة جداً ؟

ما عسى سيارات الجيب والدبابات والمصفحات والتنكات تفعل في الجبال الوعرة . حيث لا مسالك ولا طرق ، وحيث الكهوف والمغاور في رؤوس الجبال وبين الصخور ؟

* * *

بالأمس كنا نقول « اللهم إننا لا نسألك رد القضاء ولكننا نسألك اللطف به »

واليوم وقد حم القضاء ووقع ما كنا نحذره ونخشاه .

اليوم لسنا نملك إلا الحسرات الدموع نذرفها على الضحايا للذين قتلوا في اليمن . . . ضحايا بريئة سيقت إلى الذبح ، فكانت بحق خرفاناً بلا عيد !



المسؤولون



المسؤولون !

ليس أسهل عند بعض مخاليق الله من توجيه اللوم والعتاب ، والقاء التهم جزافاً بحساب وبلا حساب .

وليس أيسر عندهم من اعتمار عمامة الوعظ والقاء دروس النصح والارشاد .

وليس في الدنيا شيئاً أثقل على النفس من الاستماع الى كلمات الوعظ والنصح والارشاد . انها في الغالب ثقيلة بغيضة منفّرة ؛ وجالبة لصاحبها كل مقت وكل كراهية وكل عداوة . . . ألم يقولوا « كانت النصيحة بجمل واصبحت بعداوة » ؟

ولقد وهب الله بعض الناس فضيلة الصمت ، وخص بعضهم بمزية النفاق والرياء ، ورزأ قسماً منهم بمصيبة قول الحق . وقول الحق هو الدرة اليتيمة التي تنتظم العقد النضيد ، عقد النصح والوعظ والارشاد . . . فلا حول ولا قوة الا بالله !

واعلى مراتب الثقالة في هذا المجال ، ان ينبري الناصح ، صاحب قولة الحق ، يعيد الدرس فيلقيه في الآذان بعد فوات الآوان . . . أي طعم لها وأي معنى لها ، بل ما الفائدة الذي ترتجى منها ؟

لا شيء ، الا الالم والمرارة وعض الاصابع ندماً ، وهيهات أن ينفع أو يجدي الالم !

* * *

تذكرت الوعظ والوعاظ والناصحين المرشدين ، والعاتبين الآسفين ، والغاضبين الحانقين ، والشامتين الحاقدين ، تذكرتهم جميعاً في هذه النهاية التي آلت اليها الوحدة بين مصر وسوريا ، وانجلت عنها في صورة الانقلاب الذي وقع في دمشق .

هل كان ينبغي أن تقوم الوحدة بين مصر وسوريا ؟

هل كان ينبغي أن تستمر هكذا طوال اربعة أعوام ؟

هل أخطأ زعماء سوريا بطلب انضمامهم الى مصر ؟

هل أخطأ عبد الناصر بقبول الضم واعلان الوحدة ؟

هل وهل وهل . . . الى آخر الهلهلات التي انتهت « بهلهلة » الوحدة على النحو الذي عرفناه وسمعناه وشاهدناه ؟ !

لقد تولى عبد الناصر بنفسه وفي خطابه الثاني الذي ألقاه في القاهرة الاجابة على كل هذه الاسئلة ، فكان واضحاً كل الوضوح صادقاً كل الصدق .

بقي سؤال واحد ما جرؤ أحد أن يثيره إبان الوحدة ، ولا أن يطرحه أمام عبد الناصر .

هذا السؤال هو هل كان أعوان عبد الناصر وممثلوه يصدقونه الرأي في الحكم على الاحداث وعلى الرجال ؟ أم تراهم كانوا صادقين مع متطلبات وظيفتهم التي تفرض عليهم النفاق والمداجاة ؟

هل أخلص أعوان عبد الناصر في إعطائه الصور الحقيقية لا الكاذبة أو المشوهة والمموهة عن حقيقة الاوضاع في سوريا أو في لبنان ؟

هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يطرح اليوم . ففي ثناياه ، في ثنايا الاجابة عليه ، يكمن سر الانقلاب في دمشق وسر الهزيمة الشنعاء التي منيت بها الوحدة في سوريا !

لو كان جهلا بالحقائق ، لانقضى الامر بتصحيح الاوضاع . فما كان عبد الناصر غازياً ولا متسلطاً فرض الوحدة فرضاً على سوريا . ولكنه كان امراً أبشع وأشنع وأشد خطراً من الجهل بحقيقة الاوضاع في سوريا . . .

كان مؤامرة دنيئة لطغمة لئيمة من حاشية السوء وأعوان السوء ، قلبوا الحقائق لعبد الناصر قلباً وشوهوها تشويهاً .

يوم يتساءل الناس عن المسؤولين ، سوف تمتد الاصابع لتشير الى زمرة المنافقين من المتافة المصفقين ، الذين لهم في كل عرس قرص . . .

انهم حاشية السوء وبطانة السوء وأعوان السوء ، اولئك الفجرة الكفرة الذين لم يصدقوا في عملهم مع عبد الناصر ، والذين أساؤوا وما زالوا يسيئون اليه ! !

٢ — المسؤولون

لم يكن غريباً ولا عجيباً أن تنبري أقلام الكتاب وتتبارى ألسنتهم في هذه الأيام للحديث عن « الاغلاط » التي ارتكبت والتي أدت الى الكارثة وذيولها المفجعة .

فلقد كان مجرد التلميح ، لا التصريح ، بهذه الاغلاط قبيل النكسة ، يعتبر مروقاً وتجديفاً ان لم نقل كفراً وخيانة . كما كان ذكر أسماء المسيئين والتأشير عليهم ، جرأة غير مأمونة العقاب ، أيسر قصاصها الابعاد والاطراح ، والاتهام بشتى أنواع الاكاذيب والمفتريات ، حتى أصبح أصدق أصدقاء عبد الناصر ، وأوفى الأوفياء له ، وهم أبعد المبعدين ، وبات أشد أعدائه عداوة ، وهم أقرب المقربين المدللين المنعمين .

حقيقة لم تعد بحاجة الى مزيد من الاثبات ، بعد أن وضحت الحقائق لعيني عبد الناصر من خلال الكارثة ، وبعد أن جهر بها أول من أمس في خطابه واعترف بقوله « لقد أخطأنا . . غلطنا غلطنا . . وركب رأسنا الغرور . . . » !

قالوا ان عبد الناصر لم يفهم أخلاق السوريين وطباعهم .

وقالوا ان عبد الناصر قد أخطأ بالتخلص من رجال سوريا واقصائهم واحداً بعد واحد .

وقالوا ان عبد الناصر قد استعجل في قرار التأميم ، ولم يعلم أن السوري قد يتسامح في كل شيء الا في ماله .

وقالوا أشياء كثيرة غداة الانقلاب وقد يكون كل ما قالوه صحيحاً . ولكن الصحيح أيضاً ان الاستقبال الشعبي الذي استقبل به عبد الناصر في دمشق في زيارته الاولى لها ، كان من الصدق والروعة والحفاوة المنقطعة النظير ، بحيث لا يمكن لا لعبد الناصر ولا لغيره من البشر ، أن يخطر بباله ، ان بالامكان وقوع ما وقع بعد الانقلاب مما سمعناه ونسمعه في اذاعة الشام وعلى السنتهم !

ويقولون ان السوابق العديدة لاهل الشام مع الحكام والزعماء ورؤساء الجمهوريات ، معروفة مشهورة ، وهي تبرر انتفاضتهم وانقلابهم على عبد الناصر .

يقولون أن الدنيا مع الواقف وان الناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل .

فحكايات الغزاة الفاتحين في دمشق ، وحكايات الشيخ تاج الدين الحسيني ، وهاشم الاتاسي ، وشكري القوتلي ، وحسني الزعيم ، وأديب الشيشكلي ، ومحسن البرازي ، وسامي الحناوي ، وغيرهم وغيرهم ممن تعاقبوا على كراسي الحكم في دمشق ، حكايات يعرفها من عاصرها أو من قرأ شيئاً عنها .

فليست أول مرة يقف فيها العلماء على منابر الجوامع يرفعون أيديهم الى السماء ضارعين الى الله أن يؤيد بنصر من عنده « عبدك وابن عبدك المؤمن المخلص في طاعتك فلان الفلاني . . . » ويرد المؤمنون آمين آمين .

وفي اليوم التالي مباشرة وبعد أن ينتهي حكم « المؤمن المخلص في طاعتك » تنهال الشتائم على أم رأسه من نفس المنابر التي لم تكد كلمات الاعظام والتبجيل تتبخر بعد من سلالم المنابر !

هل نسينا السلسلة الطويلة من حكايات أهل الشام مع رؤسائهم ؟

كلا ما من أحد نسيها ، انها ما تزال عالقة بالاذهان . ولكن هذه المرة فاقت جميع المرات .

وهذه الحكاية الاخيرة التي نشاهد اليوم فصولها ، ضربت جميع الحكايات السابقة .

من المسؤول ؟

نعم من المسؤول ، مرة ثانية اردها وسأرددها ثالثة ورابعة وخامسة . . حتى تصل كلماتي هذه الى أذن عبد الناصر نفسه ، لا الى أذن غيره ، وحتى تلامس قلب عبد الناصر ذاته ، لا لا قلب غيره !

لقد كان عبد الناصر يسمع بأذنيه هو ؛ ويرى بعينيه هو ، ويحكم بقلبه هو وبضميره هو . وهذا هو السر في الزعامة التي اكتسبها والاعظام الذي ظفر به .

ولو كان عبد الناصر في بداية عهده ، يرى بعيني غيره ويسمع بأذني غيره . ويحكم بضمير غيره . لانتهى أمره وحكمه منذ زمن بعيد .

كان عبد الناصر يقرأ بنفسه ، يقرأ ما يكتب عنه . لا ما يكتبه له المأجورون من كتاب التقارير .

وكان يحكم على الناس من خلال قلبه المؤمن وسريرته الصافية . وضميره النقي .

لم يكن يعتمد وشوشات أعوان السوء ، وتقارير بطانة السوء ، هؤلاء الذين كانوا وما زالوا وسيظلون اول المتاجرين باسم عبد الناصر ، وآخر المحبين المؤيدين !

أول المستفيدين من عبد الناصر وأول المنفضين من حول عبد الناصر !

* * *

من المسؤول ؟

نعم من المسؤول ؟ سأرددها اليوم وغداً وبعد غد ؛ حتى يسمعها عبد الناصر ؛ حقيقة ناصعة مجردة من كل غرض ؛ خالصة من كل شائبة .

بالامس وفي الصباح الباكر ، شاهدت قرب سجن الرمل ، مهرجان الذل القادم من دمشق . . . فلول اللاجئين المصريين يفترشون الرمال في العراء وتحت الشمس اللاهبة ، ينتظرون ساعة الرحيل والعودة الى مصر . . .

وتلفتت أسأل عن قنصل مصر ، عن يد مصرية رحيمة تمسح دموع الذل المنهمرة . . . فلم أجده ، لقد نسيت أن قنصل مصر « حفني محمدين » قد نقل من بيروت . . . نقلوه جزاء نبله واخلاصه وتفانيه في عمله !

ولم أسأل طبعاً عن سيادة السفير . . . فقد كنت أعلم سلفاً انه لن يحضر . . . إنه معذور لعله قد تأخر في سهرته في « الكاف دي روا » ! !

٣ – المسؤولون !

هذه الطغمة الشريرة المنبثة في مصر وفي كل بلد من البلدان العربية وغير العربية ، والتي تدعي النطق باسم عبد الناصر وتمثيل عبد الناصر ، أمرها عجيب غريب . . . ووجه العجب والغرابة ، انها فريدة من نوعها بين أهل البطانات ممن عرفنا وخبرنا . فالبطانة عادة عند الملوك والرؤساء والقادة تكون على صورة القادة والرؤساء والملوك . فاذا كان الملك داعراً فاسقاً كانت البطانة داعرة فاسقة .

واذا كان الملك صالحاً تقياً يخشى الله في وطنه ومواطنيه ، كانت البطانة كذلك .

واذا كان الرئيس أو القائد نزيهاً عادلاً ، عفيف النفس واليد واللسان ، ما جرؤت البطانة الا أن تكون على صورته وشاكلته ؛ والعكس بالعكس .

فما بال بطانة عبد الناصر وممثلي عبد الناصر يعكسون الآية ويخالفون القاعدة المتبعة في مفهوم البطانة ؟

حقاً انني ما عرفت بطانة مثلها ، إنها تكاد تكون حزباً سرياً له اشاراته وعلاماته وإيماآته بل ولغته الخاصة التي يتفاهمون بها دون سواهم . فاذا غضب أحدهم وكان يسكن القطب المتجمد الشمالي ، أحس به رفاقه في القطب المتجمد الجنوبي ، فهرعوا اليه يساندونه ويؤازرونه .

واذا سرت كلمة السر بينهم تعلن الغضبة على أحد من عباد الله ، تكاتفوا جميعاً وأعلنوا الحرب في السر والعلن لهلاك خصمهم ، سواء بالتقارير أو الوشايات أو بمختلف الاضاليل والمفتريات . فليس يقر قرارهم ولا يهدأ بالهم إلا ساعة يتيقنون من أن هلاكه محقق ، وان الوشايات والمفتريات قد أدت عملها في الخلاص منه .

هل هي جمعية سرية ؟ حزب سري ؟

إنها أكثر من جمعية وأكثر من حزب ؛ لأنها تفوقت على جميع الأحزاب والجمعيات وبزتها في سلطانها ونفوذها . فلا الفاشستية ولا النازية ولا الماسونية تعتبر شيئاً أمام رهافة الحس عند أعضائها ومريديها . فليس يحتاج الواحد منها لمن يدله أو يرشده على خصمه ، إنه يتمتع

بخاسة تمكنه من معرفة خصومه وأعدائه ومحبيه وأصدقائه . ترى « الملفوت » الجهول الذي لا يساوي نصف فرنك مصري وقد اشمخر بأنفه تيهاً وعجباً وخيلاء ، لأنه أصبح في غفله من العين الساهرة ، وهو القيم على الناس يصنفهم ويعربهم كما يعرب بائع الفجل بضاعته . . . فهذا وطني وهذا خائن ، وهذا شريف وذاك غير شريف ، وهذا معنا وآخر ضدنا . . . ولم لا ؟ ألم تمكنه وظيفته التي أدرجته في جمعية « تحسين الخطوط » من تدبيج التقارير وتحرير المفتريات والأضاليل ؟

وما عساه يصنع وأي عمل يؤديه إذا لم يفتر على عباد الله ؟ بل كيف يمكنه أن يقبض راتبه إذا لم يطرز التقارير اليومية الكاذبة الضالة المضللة ؟ وأي شر وأي بلاء أعظم وأفدح من شرور هذه الطغمة النجسة التي تسيء مرتين وتضرب حجراً لتصيب عصفورين ؟

إنها تضلل سادتها وتوقع الأذى بمواطنيها . ولو ان الضرر يصيب الابرياء المساكين لهان المصاب ، ولكن الأذى الأكبر إنما يلحق بالرؤساء الذين يصدقون المفتريات والأضاليل . ويبنون عليها ومن وحيها الحكم على الناس ، وعلى الاحداث . . . فالأسود أبيض ، والأبيض أسود ، والمخلص غادر ، والغادر مخلص ، والوطني خائن ، والخائن وطني . والبريء متهم . والمتهم بريء . . وهلم جرا وسحبا في سلسلة المفارقات والمتناقضات التي توقع البلبلة في حكم الحاكم وتزعزع الثقة به وبأحكامه !

وثمة « ميزة » أخرى تفردت بها هذه البطانة إلى جانب ميزات الحقارة والصغار والقذارة ، وأعني بها « ميزة » الجهل الألمعي وثقالة الدم التي لا توصف . فالمعروف السائد أن البطانة لدى الحكام ينبغي لها أن تتحلى بالعلم والظرف وخفة الدم ، ليسهل على الملك أو الحاكم بلع أكاذيبها ووشايتها . وأشهد انني ما عرفت بطانة ولا ممثلين ، بزوا في جلافتهم وجهالتهم وثقالة ارواحهم ودمائهم ، كبطانة السوء التي استبطنت عهد الرجل الصادق الزاهد جمال عبد الناصر ، حتى لتمسك برأسك من فرط الدوار الذي يصيبك ، والذهول الذي يعتريك في كل مرة تشاهد فيها هذه النماذج العجيبة من مخلوقات الله المشوهة . . !

* * *

يا الهي . . هل كان هذا ممكناً ؟

هل كان ينبغي أن يكون لعبد الناصر ملايين الأعين وملايين الأيدي وملايين العقول ، ليرى ويفكر ويدير الأمر بنفسه ولنفسه ، كيما يتقي الأعين الغادرة ، والأيدي القذرة . والضمائر العفنة ، والعقول الخربة : عدة الكارثة ومعاول النكسة التي فتحت في جبهة كل عربي

جرحاً ثخيناً عميقاً .

يا إلهي . . . أما كان يمكن ؟ !

٤ – المسؤولون !

الآن وقد هدأت العاصفة ، يبدو الحديث عن المسؤولين ضرورة ملحة . يحتمها منطق النكسة : ويفرضها واقع الجمهورية العربية المتحدة ، طوال أربعة أعوام – إن لم نقل طوال حكم عبد الناصر – من جراء الاخطاء المقصودة والمعلومات الخاطئة التي تراكمت بعضها على بعض سواء في مصر أو في سوريا أو في لبنان أو في كل بلد عربي نكب فيه عبد الناصر بممثليه أو أعوانه .

اليوم . أكثر من أي يوم مضى ، يطيب الكشف عن الوجوه المقنعة ، والضمائر الملوثة . والايدي القذرة . والنفوس الحقيرة التي ما صدقت في تمثيلها لعبد الناصر ، وما رعت حرمة ولا ذمة له ولعهد الله والوطن في أعمالها وتصرفاتها ومعلوماتها الكاذبة المضللة التي كانت تمده بها ؛ حتى ليخيل للمرء بأن طابوراً سادساً كان يكمن وراء عبد الناصر . همه التخريب والفساد والامعان في الاساءة وتشويه السمعة التي لم تشبها شائبة ؛ سمعة عبد الناصر في مصر وفي البلاد العربية بل وفي سائر بلاد العالم .

لقد كشفت مأساة الوحدة في دمشق ، عن التناقض المذهل في المعلومات التي كانت الدوائر المسؤولة في دمشق وفي بيروت تتولى شحنها الى القاهرة . كانت تهدف الى كل شيء ما عدا شيئاً واحداً ، هو اعطاء عبد الناصر المعلومات الصادقة عن حقيقة الاوضاع .

ومن أجل ذلك ظل الخطأ يولد الخطأ ويتبعه بخطأ آخر حتى اتسع الخرق على الراتق ، وحتى تدهورت الاحوال بين القاهرة ودمشق ، ووقعت في النهاية الكارثة التي ما ارادها أحد غير أعوان الشر وبطانة السوء .

وقد تساءل الناس وهم محقون في تساؤلهم ترى اذا كان الحال هكذا في دمشق . فكيف تكون الاحوال في سائر العواصم العربية بل والاجنبية ؟

لقد دفعت القاهرة في دمشق ثمن المعلومات المضللة ، جهود اربعة أعوام طوال . ودفعت معها القضية العربية أفدح ثمن يمكن أن تدفعه في تاريخها الحديث .

ودفع لبنان وحده في فتنة ١٩٥٨ من الارواح البريئة ما لم يدفعه في جميع حروبه مع الاستعمار والمستعمرين . ونكب وما يزال منكوباً بشر ما ينكب به وطن مثل لبنان . فمن هم المسؤولون إن لم يكونوا ادعياء تمثيل عبد الناصر : وعبد الناصر براء منهم ومما يأفكون ويضللون !

هل تراني أعدد الأمثلة وأذكر الاسماء والشواهد ؟ وهل ثمة من مثال يقحم العين بل يفقأها . أ صدق وأعجب من حكاية دمشق ؟ وهل هناك مثل صارخ أسطع وأوضح من فتنة ١٩٥٨ في لبنان ؟

* * *

ماذا أقول وما عساي أكتب . وقد كتبت مراراً وتكراراً منذ بضعة أعوام أدل على هؤلاء الفاسدين المضللين الذين أساؤا الى عبد الناصر شخصياً كما أساؤا الى كل بلد عربي نكب بتمثيلهم وتهريجهم وجهلهم وضلالهم ؟

ولكن الى متى يدوم التهريج والتدليس ؟

الى متى يطول حبل الكذب والاساءة أكثر مما طال واستطال ؟

ثمانية أعوام . لا عاماً ولا عامين ولا ثلاثة . ونحن نستصرخ ضمائر المسؤولين في القاهرة أن يفتحوا أعينهم وأن يحفظوا كرامة تمثيل بلادهم ، فما ظفرنا بغير الامعان في التغاضي والتراخي والسكوت المطبق . بلى لقد ظفرنا بشيء آخر هو الاتهام والطعن والنكران . لقد كانت تتحرك « الماسونية » هنا وفي القاهرة لدى أول انذار . وحتى من غير انذار . فتجند لنصرة من لا تجوز نصرته .

مثل لا مثيل له . أود أن أذكره على سبيل المثال والدلالة على الجهل العبقري الذي مني به التمثيل المصري في عهد الثورة المصرية .

لقد جيء بنصف مدرس أزهري (فقى مذني) ليشغل منصب « الملحق الصحفي لسفارة الجمهورية المصرية » . وقيل له كن فكان ممثلاً لجمال عبد الناصر . . . وأين في بيروت ! ويا لطرافة التناقض الذي لم يخلق الله تناقضاً مثيله . . !

نصف مدرس أزهري ، درويش غلبان ، لا يحسن من اللغات غير اللغة العربية ؛ ولا يحسن من اللغة العربية غير الفيه ابن مالك . يصبح فجأة ملحقاً صحفياً !

ودعونا من الجهل ، دعونا من أن صاحبنا لا يتقن أمراً واحداً مما ينبغي أن يتقنه عادة الملحقون الصحفيون في السفارات .

ودعونا أيضاً من « البهدلة » العمومية التي تصيب ثورة فتية علمانية تقدمية متحررة ، عندما تمثل بسيد من أسياد أهل الجهل والنفاق .

دعونا من كل هذا ، فأمره يهون . ولكن الرجل : أعني (الفقى المدني) أعني سيد أهل الجهل ، أعني الملحق الصحفي لسفارة عبد الناصر ، كان على دين أحد الاحزاب الهرمة التي حاربها عبد الناصر وقضى عليها في جملة من قضي عليه من الاحزاب والفئات الرجعية البالية .

وأذهلتنا المفاجأة وتساءلنا كيف ولماذا ؟ وقيل لنا أن صاحبنا قد نظم قصيدة يمدح فيها أحد الضباط المصريين وكان برتبة صاغ فكافأه بأن نقله من مهنة التدريس الى مهنة التمثيل الديبلوماسي أعزك الله . وكان الملحق الصحفي آنذاك أميناً وفياً فما من مرة يشاهد فيها حضرة الصاغ الا ويخر على قدميه صائحاً ضارعاً « أنا خدام جزمتك يا سعادة الصاغ بيه » ! !

واكتشف رئيسه فيه بعض الكفاآت ... فتمسك ببقائه، بل واضطر ذات يوم لأن يسافر بنفسه الى القاهرة ويقيم وزارة الخارجية ويقعدها ، عندما علم بأن ملحقه الصحفي سوف ينقل من بيروت . ولم يرجع الى لبنان إلا بعد أن رقي الملحق الصحفي وعين ملحقاً ثقافياً في السفارة . كل ذلك ليبقى صاحبنا في بيروت وكيلا يحرم الثورة المصرية من كفاآته وخدماته ! !

وعندما وقع الاعتداء الثلاثي على مصر . وفي الوقت الذي كان فيه اللبنانيون يبكون حزناً على ما حل بالقاهرة وبور سعيد . في ذلك الوقت . كان الملحق الصحفي يقول لكل من يلقاه « الانكليز مش ممكن يتركوا مصر . . . الانكليز مش عايزين حاجة إلا جمال عبد الناصر » ! !

٥ – المسؤولون !

يوم بدأت الكتابة عن المسؤولين من حاشية السوء ، الذين جعلوا من تمثيل عبد الناصر وادعاء التعلق باسمه ، متجراً كبيراً ، بل متاجر متعددة الالوان والمهن ، وموزعة بالعدل والقسطاس بين القاهرة والعواصم العربية .

أقول يوم بدأت هذه السلسلة ، قلت إن أبغض الأشياء على النفس سماع كلمات الوعظ والنصح ، بعد وقوع المحظور .

وقلت سوف تنبري الأقلام والألسنة ، تعدد المآخذ والأخطاء التي وقع فيها عبد الناصر ،

والتي أدت الى النكسة — الكارثة . فيقول أحدهم « كان على عبد الناصر أن يفعل كذا » ويقول الآخر « بل لم يكن ينبغي أن يفعل كذا . . . » الى آخره .

وأحمد الله على انني لم أدخل في زمرة الوعاظ وأهل النصح والارشاد ، الذين ينبرون لالقاء مواعظهم وحكمهم وتفلسفهم بعد « خراب البصرة » .

فآرائي الشخصية التي نشرتها وأنشرها تباعاً ، ليست بنت الساعة ولا هي بنت الكارثة . فلقد كتبت منذ شهور قليلة رأيي الصريح في عددين متتالين وفي هذه الزاوية تحت عنوان « الخبر المدسوس » تناولت فيه سفير الجمهورية العربية المتحدة بما هو أهل له . ولم أكن أعلم — عفاالله عني — مبلغ السلطان الذي تتمتع به الجمعية الماسونية الحديثة المتفعة باسم عبد الناصر وتمثيله . لم أكن أعلم نفوذها الكبير وسرها الباتع ، فما ان نوهت بخبر قرب نقل السفير الى البرازيل — وقد نشرت الخبر الصحف المصرية وقتئذ — حتى عادت الصحف المصرية نفسها وأكدت إنه باق في منصبه في بيروت .

وكتبت منذ خمسة أعوام مقالاً في جريدة « الجريدة » بعنوان « أهل النفاق » حملت فيه حملة شعواء على أدعياء تمثيل عبد الناصر والمتاجرين باسمه ، وأشرت اليهم تلميحاً وتصريحاً ، فلم تجد اشارتي ولا كلماتي شيئاً ، بلى أجدت . . . لقد استطاعت الجمعية الماسونية أياها أن تصورني على انني العدو المبين لمصر والعروبة ولجمال عبد الناصر . وذلك بفضل تقاريرها وتقارير أذنابها المتفعين بفتات موائدها .

ويوم وقفت في بداية الثورة المصرية أؤيدها بقلبي وقلمي وروحي ، كان الأنصار والمطبلون . من الهتافة المصفقين الراقصين في كل عرس ، النائحين الباكين في كل مأتم — كانوا يشتمونني ويشتمون الثورة ورجال الثورة ويسمونهم بحكومة الصاغة والبكباشية . . . ولقد أصبحوا بقدرة الجمعية الماسونية المنتفعة بأسم عبد الناصر وهم دعاة عبد الناصر وأنصاره . . . فتبارك الخلاق العظيم !

ويوم قامت قيامة الاحزاب والهيئات في مصر تطالب ضباط الثورة بعودتهم وعودة الجيش الى الثكنات ، وتظاهر مجلس قيادة الثورة بالرضوخ والاذعان لمطالب الاحزاب نشرت مقالا في « الجريدة » تحت عنوان « ماذا يراد بمصر ؟ » قلت فيه ان عودة الأحزاب السياسية القديمة الى العمل معناه العودة بمصر الى الحكم الفاسد . واتهمت عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة بالخيانة ، اذا هم أفسحوا المجال مجدداً لعودة مصر الى ما كانت عليه . وقد تولى أنور السادات — وكان يومئذ المدير العام لجريدة الجمهورية — نشر مقالي في المكان المخصص للافتتاحية

وعلق عليه .

وقد انطلت الخدعة الكبرى على الاحزاب وعلى بعض الصحفيين فأطلقوا لالسنتهم العنان . ولكن الامر لم يدم أكثر من أيام قليلة ثم ضرب عبد الناصر ضربته القاضية على الفئات والاحزاب المناوئة لحكم رجال الثورة. وأذكر ان صائب سلام – لم يكن وقتئذ رئيساً ولا قائداً – التقيت به في منزل المرحوم عبدالله بيهم ، وابتدرني صائب بك بقوله « شو هالافتتاحية العظيمة بجريدة الجمهورية » ؟ ولم أكن في صباح ذلك اليوم قد اطلعت على الصحف لا اللبنانية ولا المصرية .

وتشاء الصدف أن أعثر أمس بين أوراقي القديمة على قصاصة من جريدة « الجريدة » وكنت أكتب فيها مفكرة الأسبوع . ورحت أقرأها وأعيد قراءتها مثنى وثلاث ورباع . . . ولم أجد بداً من اعادة نشرها ففيها اختصار الحكم على بطانة السوء وعلى ارائي التي ما تغيرت يوماً ولا تبدلت .

وتاريخ المقال يعود الى سبعة أعوام مضت .

أما الموضوع فهو بطانة السوء وحاشية المنافقين .

وأما المناسبة فقد كانت الانقلاب الذي أطاح بالشيشكلي .

والذي دفعني لكتابة هذا الموضوع رؤية أحد كبار معاوني الشيشكلي وكاتم اسراره بعد أن لجأ الى بيروت غداة الانقلاب ، ثم نشره مقالاً عنيفاً يهاجم فيه أديب الشيشكلي الذي كان قبل مرور ٤٨ ساعة سكرتيره الوفي وكاتم سره الأمين !

والى القارىء ما كتبته منذ سبعة أعوام محذراً ومنبهاً جمال عبد الناصر ، من بطانة السوء وحاشية المنافقين .

* * *

اسألوا الشيشكلي !

شاهدته يمشي في الشارع كما يمشي الوباء تماماً . . . ولو ان للوباء قدمين لاختلط عليك الامر ، ولما أمكنك أن تفرق بينه وبين ذاك الذي شاهدته يمشي بحذر وقلق وهلع . . .

كان الساعد الأيمن ، والعضد الاول ، والمستشار الاول لاديب الشيشكلي ، كلمته لا ترد ورأيه لا ينزل الأرض ، وكان الذين يأملون خيراً من الشيشكلي يحذرونه منه ، ويحاولون جهدهم أن يفتحوا عينيه على حقيقة مستشاره وكاتم اسراره ؛ ولكن الشيشكلي كان في واد

اخر حشد فيه قطعان المنافقين المتزلفين ، وهو يعلم انهم منافقون متزلفون . ولكن الغشاوة رانت على بصره فما عاد يرى غيرهم . . . وانفض الرجال من حول الشيشكلي ، وبقي وحيداً فريداً حتى سقط ! وكان أول الشامتين فلول المنافقين الذين اصطفاهم وقربهم اليه أديب الشيشكلي . وأول فم ارتفعت الشتائم منه تلعن « سنسفيل » الشيشكلي كان الفم الذي أطعمه الشيشكلي من بعد جوع وآمن صاحبه من خوف !

ومصر الثورة اليوم ، تجتاز امتحاناً رهيباً . ومن الخيانة لمبادىء الثورة بل من الاجرام بحقها . أن لا يرتفع الصوت منبهاً ومحذراً مغبة السير — عن غير قصد ولا علم — بالطريق المعروف . الطريق الممهد القصير الذي سار عليه اديب الشيشكلي في دمشق فانتهى الى ما انتهى اليه . .

إن الثورة المصرية لم تقم لتهدم الأكواخ والعشش ولتشيد الابنية . أو لتزيل سور حديقة الأزبكية ؛ وترفع قضبان الترامواي من شارع فؤاد . . .

الثورة المصرية قامت لتعيد الى الشعب ثقته بالفضائل الانسانية والقيم الانسانية التي مسخها طواغيت مصر . . .

الثورة المصرية ما قامت ، وما كان ينبغي لها أن تقوم . لو لم يؤمن شاب مصري اسمه جمال عبد الناصر بحاجة أمته الى الشعور الذي افتقدته آجالا طويلة .

من أجل ذلك وقف عبد الناصر يقول للمصري العبد الذليل « أخي ارفع رأسك لقد مضى عهد الاستعباد » !

وجمال عبد الناصر يعلم جيداً أن طريق الاستعباد ، كان وسيظل وقفاً على المنافقين من حاشية السوء الذين يدبون في جسد الثورة دبيب المرض في الجسد السليم . إنهم وحدهم موكلون بتمهيد الطريق و « تزفيته » ليسهل على الرجعية أن تعود . وعلى العبودية أن تتمكن من جديد . . .

ويومئذ سلام على مشاريع البغدادي وعلى حزم جمال سالم وصلابته وصوفية السادات وشجاعته ؛ وتقوى حسين الشافعي ونزاهته . وذكاء زكريا محي الدين وعبقريته .

يومئذ سلام على حلم جمال عبد الناصر وسلام على مصر !

" " "

يا قائد الثورة وبطلها ، لو ان حياتك وحياة ضباطك الأبطال الذين استشعروا معك بعزة مصر وكرامتها وشرفها . لو ان حياتكم تقدم ثمناً للحرية والعزة والكرامة . لما وجدت حرجاً اذا

طالبتكم ان تزهقوها من أجل مصر : أما أن تذهبوا ضحايا غبية رخيصة لبطانة السوء وحاشية المنافقين التي تتبطنكم . فهذا ما لا أرضاه لكم ولثورتكم . . .

بين يدي رسالة من أديب الشيشكلي بعث بها الى صديق له ببيروت يعض فيها أصابع الندم على أخطائه التي ارتكبها وأولها « حاشية المنافقين » .

لست متشائماً ولا مبالغاً ولكنني :

اری خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام !

١٩٥٤ أحمد شومان

٦ – المسؤولون !

كيف لا أفهم نكبة عبد الناصر في سوريا وأنا الذي أعيش في لبنان ؟ أتأمــل في حال عبدالناصر هنا ثم انظر بعين القياس الى حاله هناك . فأفهم كل شيء .

قصة عبد الناصر في لبنان . هل من لا يعرف كيف بدأت وكيف انتهت ؟ بدأت صورة عبد الناصر في أذهان اللبنانيين ، كل اللبنانيين ، هكذا :

بطل من الابطال الافذاذ . بعثت به العناية الى أرض الكنانة ، يمثل فيها كل جديد من معاني السياسة واسرار القيادة .

أمام طبقة الساسة المنتفعين بمغانم الحكم . كان عبد الناصر في أذهاننا إمام الزاهدين .

أمام طبقة المتاجرين بالديانات والطوائف ، كان عبد الناصر ، الرجل الذي أنقذ بلده من رجعية الاخوان المسلمين .

أمام مفاهيم المناورة والمداورة والغش والخداع والنفاق ، المتفشية في أوساط السياسة والسياسيين هنا وهناك ، كان عبد الناصر رمز مفاهيم الجرأة والوضوح والصدق والاخلاص .

أمام ذلك الفريق من الناس الذين يجرون أذيال الماضي والتقاليد العفنة والاحساب والانساب المنحلة المتآكلة ، كان عبد الناصر سيد الحكام الذين يعيشون في الحاضر وللمستقبل .

هكذا بدأت صورة عبد الناصر في أذهان اللبنانيين ، جميع اللبنانيين . لم يكن يومئذ من يكره عبد الناصر ، أو من يتحفظ في حبه له . فالمسيحي اللبناني وجد فيه صورة الحاكم

الذي يتطلع اليه من بلده . كالمسلم تماماً سواء بسواء . واللبناني المثقف أحبه كاللبناني غير المثقف . لا يفرقهما في درجة الحب فارق ما .

كم دامت هذه الصورة في لبنان ؟ وكم عمرت ؟

مدة قصيرة من الزمن . سرعان ما أصبح عبد الناصر بعدها موضوع خلاف وشقاق من اللبنانيين .

ما الذي حدث ؟

هل تغير عبد الناصر ؟ كلا . فعبد الناصر على العكس تماماً ، كان يسير صعداً في طريق المجد وقدماً في طريق الاصلاح . ومع ذلك كانت صورته تخبو في خواطر الكثيرين من اللبنانيين .

أما السبب فهو ان عبد الناصر لم يعد يظهر على اللبنانيين من خلال حقيقته وأعماله . بل أصبح يظهر من خلال سفرائه وأعوانه وعملائه في لبنان .

فاذا بصورتهم تجني على صورته . واذا بحقيقتهم تشوه حقيقته . واذا بأفعالهم تغطي على افعاله !

إن عبد الناصر رجل علماني لا طائفي . ولكن سفراءه واجراءه وأعوانه طائفيون غير علمانيين .

وان عبد الناصر رجل عمل ونزاهة ، ولكن اجراءه وسفراءه قوم متبذلون غير منتجين .

وان عبد الناصر رجل عفة وزهد ، لا يتاجر ولا يسمسر ، ولكن مرآته هنا لم تكن على صورته ومثاله .

وهكذا ذهب عبد الناصر في لبنان ضحية المتعيشين من عبد الناصر ، مصريين ولبنانيين !

وكنا نحاول عبثاً أن نفهم الناس أن عبد الناصر شيء ، وهؤلاء شيء آخر . فكان الناس يسخرون منا ولا يصدقون .

وكنا نقول لهم ان « الكوكتلجي السهرجي » شيء ، وعبد الناصر البطل البناء شيء . فكان الناس يتهموننا بالسذاجة .

وكنا نقول لهم ان عبد الناصر ليس نصراً من أنصار هؤلاء المتزعمين ، كارهي عبد الناصر في قلوبهم ، المتاجرين بألسنتهم بأسمه ، فما كان أحد يصدق قولنا هذا .

وتبدل وضع عبد الناصر في لبنان من حال الى حال .

ولو كان لبنان في وحدة سياسية مع عبد الناصر لانفكت عرى هذه الوحدة ولقام في لبنان كزابرة ونحاولة وزهريون ، ولانطلقت من إذاعة لبنان أصوات الانفصالية ، بل الهجوم السافر على مصر وعلى عبد الناصر .

أجل لقد فهمنا ما حصل في سوريا ، لاننا فهمنا ما حصل في لبنان !

هنا وهناك ، كان عبد الناصر الضحية . أما الذين جنوا عليه وما زالوا يجنون هنا وهناك ، فالناس تعرفهم وان لم يعرفهم عبد الناصر بعد على ما يبدو !

كلمة واحدة سأقولها لعبد الناصر إذا قابلته يوماً .

إن هؤلاء الذين يتصدون بالاسم للعمل من أجله ، يعملون بالفعل ضده .

إنهم لا يطبقون ما لا يريد فقط ؛ بل يطبقون عكس ما يريد . العكس تماماً .

إذا قال لهم أبيض ، فعلوا اسود .

واذا قال لهم أسود فعلوا أبيض .

واذا قال سلاماً قالوا فتنة .

واذا قال زهداً قالوا تبذلاً .

واذا قال عفة قالوا استهتاراً !

هؤلاء الذين يعملون بأسمك عكس ما تريد ، هم أخصامك أيها الرجل الكبير ، الذي لا أخصام له خارج أصدقائه المزيفين !



الزّمن الرّديء



١ — الزمن الرديء !

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

(قرآن كريم)

الزمن الرديء ، الذي تحدثت عنه في مقال سابق ، وقلت فيه أن المقاييس قد انقلبت رأساً على عقب حتى أصبحت القاعدة شواذاً والشواذ قاعدة .

هذا الزمن الرديء الذي نحيا فيه والذي أصبحت فيه الامعات شخصيات بارزة ، وأشباه الرجال رجالا ، وأضحت الأذناب رؤوساً واستنسر البغاث ، واستأسدت الهررة . . .

هذا الزمن لم تقتصر رداءته على السياسة والزعامة والاجتماع والفن والموض ، بل انه قد تعدى الى أكثر من هذا ، اذ أصبحت تلاوة القرآن الكريم تخضع — والعياذ بالله — الى بدع وأساليب ينفر منها كل ذوق ويأباها الله ورسوله .

ان بعض المشايخ — وخاصة في مصر — يتلون آيات الله وكأنها أغاني تلقى على المسارح لا في المعابد .

وتحول الشيخ المقرىء — بفضل هذا الزمن الرديء — الى عبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو شادية . . . بل إن المطربين أنفسهم لم يصلوا في خفتهم وميوعتهم الى ما وصل اليه بعض مشايخ هذا الزمن !

يسوقني الى هذا الكلام ما شاهدت بعيني رأسي ، فلقد ذهبت لحضور ذكرى الاسبوع لفقيد كريم ، وراعني ان المقرىء قد تحول الى مطرب كسائر المطربين الذين نشاهدهم في المسارح أو نستمع اليهم في الاذاعات .

لقد تحولت ذكرى الفقيد وتلاوة آي الذكر الحكيم الى صراخ وهتافات تحمل الاعجاب والتهليل والتكبير للشيخ المقرىء ، دون أن تحمل معنى واحداً من المعاني السامية التي تفترض لدى سماع آيات الله ، فالصمت والخشوع ، والانصات التام ، والرهبة والانكسار وواجب الوقار ، كل هذا ينبغي أن يراعيه كل من يستمع الى تلاوة القرآن الكريم ، فيخشع ويتأمل ويطيل التأمل بكلمات الله . ولكنني شاهدت أمراً عجباً فلقد ظل سيدنا الشيخ يغني — والعياذ بالله العظيم ولا أقول يتلو — من الساعة السابعة حتى الساعة التاسعة دون توقف ، بل دون أن يأخذ نفساً ليستريح أو على الأقل ليريح الحضور .

مع العلم أن التلاوة في مثل هذا المجال لا ينبغي أن تطول أكثر من عشر دقائق يتوقف المقرىء على أثرها لينفض المعزون ، ثم يعاود التلاوة اذا شاء هو أو شاء أهل الفقيد . أما أن يواصل الشيخ التلاوة — وليتها كانت تلاوة — مدة ساعتين من الزمن وبلا انقطاع ، فهذا ما لم أسمع به وما أحسب ان أحداً غيري قد سمع به ، بل انه أمر لا يقره شرع ولا ذوق ويأباه الله والرسول .

رحم الله الشيخ محمد رفعت سيد المقرئين : كانت تلاوته تشيع في النفس الخشوع والطمأنينة ، وتبعث الرهبة والخوف في أقسى القلوب .

كانت تلاوته تنساب وكأنها منبعثة من السماء لترسل النور والأمن والهداية .

كان مقرئاً مثالياً لا ميوعة ولا تصنع ولا رقاعة ولا تخنث في صوته ولا في طريقة تلاوته . حتى ليحسب المسلم وهو يستمع اليه حين يقرأ القرآن . وكأنه يستمع الى صوت سماوي . صوت فيه عمق وحنان ورهبة وخشوع . وأسلوب في التلاوة والاداء ليس له نظير بين من سمعنا ونسمع من شيوخ هذا الزمان هؤلاء الذين تحول بعضهم الى منافسين للمطربين الحديثين أمثال عبد العزيز محمود وفريد الأطرش واضرابهما .

لقد نسي هؤلاء قول الله تعالى في كتابه .

« واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون »

ونسوا قوله تعالى :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

فما بال بعض المشايخ قد نسوا او تناسوا العظة الكبرى والحكمة البالغة من تلاوة آي الذكر الحكيم ؟

بل ما بال المسلمين يتصرفون لدى سماع آيات الله كما يتصرفون في مجالس السمر واللهو ؟ !

٢ — الزمن الرديء !

أقبح ما تقع عليه العين : عجوز يتصابى ؛ وثقيل « يتظارف » وغبي « يتذاكى » وقصير يتطاول ، وجهول يتصدر أهل العلم ، وصعلوك يتعاظم ، وخائن يتمصق بالوطنية : وحقير يرتدي ثياب الشرفاء . . .

وأشد ما يحز في النفس أن يحيا المرء في زمن لا يستطيع أن يقول فيه للحمار أنت حمار ،

وللجاهل أنت جاهل . وللافاق الدجال ، أنت أفاق ودجال ، وللصغير الحقير ، أنت صغير حقير ، وللذنب الامعة أنت ذنب وامعة .

بل يرى المرء نفسه مضطراً لأن يسمي الأشياء بغير أسمائها فيحور ويدور ، ويغمغم ويتمتم ، ويداري ويحابي ، ويداهن ويجامل ، فيقول للتيس أنت غزال ، وللجاهل اللفوق ، أنت أعلم العلماء ، وللغبي العيي أنت أفصح الفصحاء .

وآية آيات هذا الزمن الرديء ، انك لا تستطيع أن تمتدح شريفاً فتقوم قيامة الخونة عليك . أو تثني على رجل كرامة وانفة ، فيتناولك أهل الحقارة والصغارة بكل تهمة وكل نقيصة ، او تشير ولو بطرف خفي الى صفة نبيلة يتصف بها انسان ، فتتناولك الألسنة بالسباب والشتائم ويتنادى أعضاء الجمعية إياها — الجمعية الماسونية التعاونية الحديثة — ليشنوا عليك حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة . . .

ومن نعم الله التي أنعم بها علي . انني استطعت على الرغم من هذا الزمن الرديء أن لا أقول للحمار أنت غزال ، وللنصاب الافاك ، أنت شريف نبيل . ولسمسار السياسة والوطنية أنت رب السياسة والوطنية .

ولست أنكر انني لاقيت وألاقي من ضروب العنت والاضطهاد الشيء الكثير من مفتريات وأضاليل وأكاذيب ، ولكنني كنت وما أزال لا أنظر اليها إلا كما ينظر المرء الى ما يعلق بحذائه . . . يمسحه ثم يمضي غير عابىء .

وأذكر والشيء بالشيء يذكر انني ما مدحت رجلاً كريماً أو موظفاً أميناً أو سياسياً مخلصاً ، إلا وتألبت عليه جموع الصعاليك والامعات ، تنهشه بأنيابها وأظافرها فان هي لم تتمكن ، أطلقت حوله شتى التهم والشائعات ، فاذا كان موظفاً أقصي عن وظيفته واذا كان مسؤولاً أبعد عما يحمله من مسؤوليات وهكذا . . .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، أذكر انني كتبت يوماً أمتدح قنصل مصر الأسبق البكباشي سعيد الغمراوي وكان الرجل مثلاً من أمثلة الصدق والتفاني في عمله ، فما من لبناني عرفه إلا ولهج لسانه بامتداحه والثناء عليه . ولم يلبث الرجل طويلاً حتى تحركت الجمعية الماسونية وعملت عملها فتم لها ما أرادت وأقصي سعيد الغمراوي ابن الناس الاوادم والمصري المخلص لبلده ووظيفته ، أبعد عن مقر منصبه ببيروت وجيء بالاستاذ حفني محمدين قنصلاً عاماً للجمهورية العربية ، ويبدو أن حفني — سامحه الله — لم يتعظ بما حصل لسلفه الغمراوي . فكان صورة مماثلة في النبل والسمعة العاطرة والتفاني في خدمة اللبنانيين ، خدمة شريفة نظيفة . . .

وحفني محمدين معذور إذا هو لم يتمكن أن يكون إلا نبيلاً فكل اناء بما فيه ينضح . .

وأخطأت يوماً فكتبت أعبر عن شعور اللبنانيين نحو قنصل مصر وما يتمتع به من مزايا وصفات ، جعلته محبوباً مقرباً الى قلوب الجميع . ولم يلبث حفني محمدين طويلا ، فقد تحركت الجمعية الماسونية مرة ثانية ونصبت المكائد كما سبق لها أن نصبتها حول سعيد الغمراوي ، وكان صباح وكان مساء وأقصي حفني محمدين عن وظيفته في بيروت ونقل الى القاهرة . . .

وأعترف بأن حفني محمدين قد عمر طويلاً ، وصحيح انه لم يمكث تسعة أعوام ، ولكنه على الأقل بقي مدة أطول من المدة التي أمضاها سلفه البكباشي سعيد الغمراوي !

* * *

ذكرت هذا عندما حدثني صديق قدم من القاهرة وحدثني كيف أن احسان عبد القدوس ضرب رأسه بيده وهو يصيح « يا خبر اسود يا خراب بيتي » ! وذلك عندما قرأ ما كتبت كتبت عنه أمدحه وأثني عليه في عدد مضى . . .

وكنت على وشك أن أكتب عن صديق آخر أصيب بأقسى وأعنف ما يصاب به المصري العصامي ، ثم لطفت به الاقدار وزالت الغمة عنه بعض الشيء ، اذ استرد اليسير من المعنويات التي فقدها زمناً طويلاً . . .

وجاءني من يقول : ان فلاناً يهديك اشواقه وتحياته ويرجوك أن لا تذكره بكلمة خير . . !

* * *

وبعد ، كل ما أتمناه أن لا يصاب احسان عبد القدوس بسوء ، وأن لا يدرك أهل الفطنة والنباهة هناك من عنيته بكتابتي . . . والله من وراء القصد وحسبنا الله ونعم الوكيل !

٣ – الزمن الرديء !

ربي ان من وهبته العقل فماذا حرمته وان من حرمته العقل فماذا وهبته ؟

« الامام علي »

من آيات الفساد الذي استشرى في هذا الزمن ، أن الغوغائية التي كانت في الماضي مبتذلة مرذولة ، أصبحت اليوم مبجلة محمودة . بل أصبح التجديف عليها أو محاولة نقدها وتبيان

أخطائها ، أمر خطير لا يقل عن التجديف على الرسل والانبياء والقديسين .

فالعراضة ، والهوبرة ، وتمرين الاشداق بعلك الالفاظ الفارغة ، ومحاولة أكل عقول الدهماء بالخطب الطنانة الرنانة التي لا تسمن ولا تغني من جوع سامعيها ، بقدر ما تسمن وتغني أصحابها . . .

هذه العدة القديمة ، عدة السياسيين الفارغين ، التي تشبه أكثر ما تشبه جراب الحاوي . . . ما تزال ويا للأسف ، عدة الكثير من رجال السياسة والزعامة في مختلف البلدان العربية . وأكثرها حظاً من الشهرة وذيوع الصيت ، أكثرها حظاً من اقتناء هذه العدة ، عدة النفاق والتدليس . . .

وأبعد البلاد العربية عن « الهوبرة » و « العراضة » و « المهرجانات » وقرقعة الاذاعات أصدقها في حسن البلاء والجهاد ، واسرعها الى اقتناص ثمراته . وليست الجزائر إلا مثلاً رائعاً حياً ينبض بصدق ما نقول !

فما كان يدور بالاذهان ان الجزائر التي نكبت بأشد وأفظع وأرسخ استعمار ، سيأتي يوم تتخلص فيه من هذا الاستعمار وتنزع عن رقبتها طوق عبوديته ، ولكن أبناء الجزائر مضوا في سبيلهم الذي ارتضوه ، سبيل الجهاد والحق الصادق المنزه عن كل برقع خلاب ، وكل طبل فارغ وكل قرقعة جوفاء حتى جاءهم النصر المؤزر المبين يدوي في أذن الدنيا بطبول هيهات ثم هيهات للطبول المجوفة والقرقعة الفارغة أن تبلغ شأوها ومداها !

والغوغائية ، مرض هذا العصر ، وخبز الزعامات العربية وزادها ، بل اوكسيجينها وماء حياتها ، لم يستفحل أمرها ويتعاظم خطرها كهذا الزمن وكهذه الأيام . فلقد بلغ من عظم شأنها وعلو كعبها وطول نابها وظفرها ، انها أصبحت بمنجى عن كل نقد . وليس أيسر من أن يطلق غوغائي كلمة السر في صفوف الجهلة من الدهماء الغوغائيين ، تتهم ناقداً صادقاً مبصراً ، كيما تسري كلمة السر سريان النار في الهشيم ، وتنصب التهم جزافا وأقلها « الخيانة » و « العمالة » والذين يرسلون هذه التهم هم أنفسهم أكثر المتمرغين في مستنقع الخيانة والعمالة !

فاذا قلت بأن الوحدة المبتسرة المرتجلة الجاهلة ، التي قامت بين سوريا ومصر وبين مصر واليمن ، ما كان ينبغي لها أن تقوم في الأصل ، برزت لك زواحف الامعات وعباقرة أهل الجهل ، تتهمك بشرفك وعقلك ووطنيتك .

واذا قلت بان الاتحاد هو الخطوة الأقرب الى الواقع نحو الوحدة المرجوة ، قيل بأنك انفصالي غير وحدوي !

واذا اشرت الى الضربة القاسية التي أصابت عبد الناصر نتيجة تجربة الوحدة . قيل أنك ضد عبد الناصر . . .

ومن عجب أن يكون أشد الناس عداوة وأذى لعبد الناصر ، هم الصق الناس بعبد الناصر . . !

واذا قلت بأن العودة مجدداً لتجربة الوحدة ، عمل لا يقدم عليه الا كل معتوه أخرق العقل . قيل لك بل « الوحدة على اسس جديدة » !

ولكن ما هي هذه الأسس ؟

ما هي بنودها ؟ ما هي مقوماتها ؟ ما هي ركائزها ؟

وكيف السبيل لعدم الوقوع مرة ثانية في التجربة الكبرى ؟

ويأتيك الجواب — أعزك الله — من حمص ومقررات حمص ، ومن الفوضى العاقلة المركزة التي تمترست في سوريا ، فزرعت فيها هذا القلق الرهيب التي تعيش في ظلامه الدامس ولا تعرف السبيل للخلاص منه !

اوليست الأزمة الناشبة اليوم في قلب سوريا هي من ثمار الوحدة الجاهلة الدعية المغرورة ؟

اوليست الغوغائية وتملق عواطف الدهماء هي السبب الحقيقي والأصيل لمعظم الكوارث التي ألمت بالفكرة العربية الصافية والوحدة العربية الحقيقية المنشودة ؟

سبيل الوحدة علم ومنطق وأخلاق وكفاءة وتجرد . فأين هي هذه الوحدة وأين هي السبيل التي سارت عليه ؟

سبيل الوحدة اتحاد بين الدول العربية بادىء ذي بدء . فأين هو هذا الاتحاد ؟

سبيل الوحدة ، في المادة التاسعة من ميثاق الجامعة العربية التي قام بها لبنان . . .

فأين هي الوحدة ؟ وأين هو الاتحاد ، بل أين هي الجامعة العربية ؟

بالامس ، استطاعت الغوغائية أن تضيع منا فلسطين . واليوم توشك أن تسلب منا أكثر من فلسطين !

كانت الغوغائية تقتعد على استحياء وخجل كرسياً خشبياً على الرصيف . . . أما اليوم وفي هذا الزمن الرديء ، فلقد أصبحت تجلس على مقعد وثير ولها الصدارة . . . ولها الامر الخطير !

٤ – الزمن الرديء . . .
كيف خسرت الرهان !

عندما كتبت أقول بعودة الدكتور القدسي ، كنت أراهن بيني وبين نفسي انه لن يعود ! واعترف بانني خسرت الرهان ، على الرغم من تنبؤي بعودته الى الميدان .

ذلك انني كنت أفترض في الدكتور ناظم القدسي ، الرجل القانوني ، الرقيق البدن الضئيل الحجم ، الصامت المتزمت ، الكاره لكل جعجعة وبهرجة ، أن يكون منسجماً مع طبعه وخلقه ومزاجه . فلا يعود الى الرئاسة الا منتصراً على كل ما ينافي خلقه وطبعه ومزاجه . . .

ومن أجل هذا راهنت نفسي على انه لن يعود ، وخسرت الرهان !

وقد يكون لسياسي سوري آخر في غير تزمت وطباع الدكتور القدسي ، بعض العذر في أن يعود على النحو الذي خرج منه ناظم القدسي ، وان يطأطىء الرأس مرغماً لا بطلا نزولاً عند أحكام هذا الزمن الذي تضاربت فيه المقاييس واختلط الحابل بالنابل ، فما عاد المرء يفرق بين الغث والسمين ، ولا بين الزؤان والقمح .

قد يكون لغير الدكتور ناظم القدسي أن يرضخ ويذعن ويطأطىء الرأس نزولاً عند حكم القوي . ولكنني لست أدري لماذا استنكرت على هذا الرجل القليل الحجم الرقيق البدن ، الخفيض الصوت ، أن يخضع ويلين ، وبالتالي أن يتنكر لحقيقة نفسه وما جبلت عليه ، من حفاظ على القانون وحرمته ، ورعاية للحق وقدسيته ، وإيثار للشرعية وامانتها . فيقبل بما قبل به غيره من الساسة المحترفين المخضرمين ، ويغمض العين ويسد الأذن ، ويغلف القلب ، على ما تأباه العين ، وتأباه الأذن ، ويأباه القلب !

قد أكون مخطئاً وقد يكون الدكتور القدسي مصيباً . وقد تكون المصلحة في توفر شيء من الاستقرار الآني لسوريا هي التي أملت على الرجل رضوخه واذعانه وقبوله بالأمر المفعول . ولكنني لا أستطيع أن أنسخ من ذهني صورة حية ماثلة في الخواطر . . . انها صورة الرجل السوري المترفع سعدالله الجابري . فقد تناوله أحد النواب في المجلس النيابي يوماً بكلمة تسيئه ، وكان الجابري رئيساً للحكومة ، فقامت القيامة على النائب واضطره المجلس لان يعتذر ، واعتذر النائب لرئيس الحكومة . . . ولكن سعدالله الجابري أبى الا أن يستقيل من الحكم واستقال بالفعل بعد أن طرح الثقة بنفسه ونالها بما يشبه الاجماع . ثم غادر المجلس وذهب الى منزله رافع الرأس شامخ الأنف !

* * *

من تراه انتصر بعد عودة الدكتور القدسي ؟

لا أعتقد ان أحداً يستطيع القول بأنه انتصر أو ربح شيئاً ، باستثناء الذين جيء بهم الى الحكم مؤقتاً ، والذين سيمضون كما أتوا ويعودون كما جاؤوا . . .

فلا أهل اليمين ولا أهل اليسار .

لا أهل للوحدة ولا أهل الانفصال .

بل أهل العسكر أنفسهم لا يستطيعون أن يقولوا بأنهم انتصروا !

جميع هؤلاء لم ينتصروا ولم يخسروا . . .

رجل واحد لم ينتصر ولكنه خسر . انه الدكتور ناظم القدسي ، الرجل الخفيض الصوت ، الرقيق البدن ، الكاره لكل جعجعة وبهرجة ! !

٥ — الزمن الرديء !

فضيلة التواضع ، كيف أدركته . . لست أدري ؟

لقد تواضع الطبري الحديث وكاتب التاريخ في جريدة الاهرام « م. ح. ه » — اعني محمد حسنين هيكل — فسمح وأذن بالكتابة عن أنور السادات ، في الصفحة الثامنة ، أي في قفا الصفحة التي يحررها سيادة الطبري الحديث مرة كل اسبوع . . .

وقفا الصفحة التي يحررها « كاتب التاريخ » ليس يعيبها انها الصفحة الأخيرة من صفحات « الاهرام » — وكل صفحاتها في هذا الزمن الأخير أصبحت أخيرة — انما يكفي « م. ح. ه » فضلا وتواضعاً انه أذن وسمح بالكتابة عن أنور السادات في قفا صفحته التي خصصت للكتابة عن « فتحية الزنبلك » و « نعيمة القرعة » و « شريفة مليم » وامثالهن من راقصات وفنانات هذا الزمن الأخير !

ولست أدري كيف هبطت نعمة التواضع فجأة وبلا انذار على رأس رئيس تحرير جريدة الاهرام ، طبري الزمان وكاتب العصر والاوان ، فتنازل وأذن بالكتابة ، وبعد طول انقطاع ، عن رئيس مجلس الأمة السابق ، والأمين العام للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية اللاحق أنور السادات ؟

هل هو تكريم وتقدير من الطبري الجديد والكاتب القدير أن يخص وجهاً من أعرق واعتق وجوه الثورة المصرية ، فلا يجد متسعاً في جريدته الواسعة الانتشار ، الا زاوية الفنانين والفنانات والراقصين والراقصات من أهل الصالات والخمارات ؟

أم هي ترضية عن اشاعة باتت وهي أشبه ما تكون بكلمة السر ، تطلقها ألسنة الحاشية من الهلافيت و « الدلاديل » في كل مرة يحاولون فيها الانتقاص من قدر الرجال الشرفاء ، فيتولون نشر الهمسات والوشوشات من أن فلاناً « ركنوه » أي أبعدوه . . ؟

وسواء اكان التكريم والتقدير وارداً أم غير وارد . او كانت الشائعات واردة أم غير واردة . فان الكتابة عن أنور السادات وبالشكل والمكان الذي تطوع « كاتب التاريخ » أن يبرزه في جريدة الاهرام ، عمل يعتبر منافياً للذوق واللياقة ، التي ينبغي أن يحرص عليها « كاتب التاريخ » حرصاً على سمعة الثورة وكرامة الثورة !

فأنور السادات ليس اسماعيل ياسين ولا محمود شكوكو ، بل ليس هو راقصة من الراقصات أو ممثلة من الممثلات التي يتطوع « كاتب التاريخ » وصاحب « البيت الريفي » بنشر صورهن وأخبارهن في قفا صفحته . . .

ان أنور السادات كما لا يجهل « م. ح. ه » ومن هم وراء « م. ح. ه » هو الذي يمثل روح الثورة المصرية ومضاءها وعنادها وصدقها وتجردها .

فيوم كان انور السادات نزيل السجون والمعتقلات وطريد التشرد والواحات سنوات طويلة ، كان المتشدقون الفارغون يتقلبون في أحضان نعيم الملك المخلوع . . .

ويوم كان أنور السادات يبيت على الطوى ويشكو الفاقة والتشرد والحرمان ، كانت « أمعات » هذا الزمن ترحف على بطونها ارضاء وتقرباً من ذوي الجاه والسلطان .

ويوم كان أنور السادات يحارب بيده لا بلسانه الاستعمار البريطاني في السويس والاسماعيلية ، والاستعمار الملكي في القاهرة والاسكندرية وفي كل مكان . . .

يومها كانت « الامعات » تبصبص بذنبها ارضاء للمستعمر وزلفى وتقرباً للملك المخلوع !

* * *

آية آيات الزمن الرديء في القاهرة ، ليست في أن يصبح من كان يربط شريط حذاء الملك فاروق شخصية مرموقة لها وزنها ورأيها وأمرها ونهيها في هذه الأيام . . .

آية آيات الزمن الرديء في القاهرة وفي هذا الزمن الأخير ، أن يتواضع « كاتب التاريخ » و « الطبري الجديد » فيأذن ويسمح بالكتابة عن أنور السادات في قفا صفحته . . . حيث ينشر أخبار وحركات الراقصات أمثال « نعيمة الزنبلك » و « فتحية ولعة » و « سعدية القرعة » . . .

ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم ! !

٦ — الزمن الرديء !

ما من فرجة تشيع في النفس متعة الطرب ونشوة البهجة ، كالفرجة على الأبله الأخرق العقل الواغل في بلهه وجهله ، عندما يلبس قناع العالم الذكي الفطن ، ويرسل ابتسامته الذكية لتسيل على جوانب فمه ، شهادة صدق ممهورة بخاتم شيخ الحارة أو ببصمة ابهامه ، تشهد وتؤكد أن صاحبنا فهيم فهيم ، عليم عليم ، لا تفوته شاردة ولا واردة الا « ويلقطها على الطاير » كما يقولون بالعربي العامي الفصيح !

وليس يعدل متعة الفرجة على أمثال هؤلاء من مخاليق الله ، الا مشقة مناقشتهم والدخول معهم في جدل عقيم فارغ وجهد ضائع ، سداه ولحمته الكلام في البديهيات . . .

وما من أمر أقسى ولا أشق على النفس ، كالمناقشة في البديهيات العامة . . . اذ كيف تستطيع أن تثبت لمفتوح العينين ، بان الشمس طالعة ، وان النهار نهار ، والليل ليل ، وان الحق حق ، والخير خير ، والشر شر ، والجهل جهل ، والباطل باطل ، وهلم جرا من البديهيات العامة ؟

إنها محنة ولا شك ، محنة عبر عنها ابو الطيب المتنبي — طيب الله ثراه — بكلمتين عندما قال « وداني قلة الفهم » واستراح بعدها دون أن يجهد نفسه بالدخول في مناقشة أهل « الفهم والفطنة والفصاحة » من ذوي العقول الموشاة بأغلى وأندر « دانتيلا » الغباء والعياذ بالله تعالى !

* * *

أنا أعلم ان كلمة الحق كانت منذ القدم ثقيلة الوطأة على النفوس ، وأعلم انها أصبحت في هذا الزمن تهمة بل جريمة ، يعاقب عليها صاحبها بالافتراء والدس والوشاية والوقيعة ، وبأشد من كل هذا في بعض الأحيان . . . وبالسجن او بالاغتيال مثلا ، أو بضرب العصي او الموسى . . . وهذا أضعف الايمان !

أعلم هذا جيداً ، وأعلم أن السكوت والرضوخ ومسح الجوخ ، أيسر سبيل وأهون طريق الى كسب ود الحكام والزعماء . وان بصبصة الكلب بذنبه ، تتيح له الظفر برضاء وعطف صاحبه . . .

وأعرف أيضاً وأيضاً ، كيف ومن أين تؤكل الكتف ، فليس في الامر علم ولا معرفة . اذ يكفي أن يتسلح المخلوق بخرطوم — ولا أقول أنف — لا يفرق ولا يميز الروائح ، حتى لو كانت روائح الجيف والنتن كيما يصبح فارساً مغواراً بأكل الكتف !

ولبعض هؤلاء المخاليق ولع — ولله في خلقه شؤون — بنهش اللحوم ونتش الاكتاف ، حتى قيل عنهم القول المشهور « يعرفون من أين تؤكل الكتف » !

وليس الخرطوم — أعني الانف — هو وحده السلاح والعدة . فهناك الأنياب والأظافر ، وهناك قبل هذا وذاك ، العيون البلقاء المفتوحة على وسعها . والجلود السميكة الفاخرة التي تضاهي أفخر النعال الانكليزية والفرنسية ، ثم الرؤوس النحاسية التي يصح فيها المثل المصري القائل « اعطيك كلام زي الرصاص تعطيني صدغ زي النحاس » !

* * *

لقد آذت كلمتي عن أنور السادات — وهي أبسط كلمة وفاء تقال — آذت بعض الزواحف والخنافس البشرية ، فسارعت الى ارسال الشائعات والافتراءات تتهمني بالمزيد منها وليس فيها جديد . فلقد بلوت منها ومن تقاريرها طوال عشرة أعوام الشيء الكثير ، حتى بات جديدها قديماً ليس فيه شيء من الجدة ! وكان بميسوري في معرض رد التهم عن نفسي ، أن أردد ما قاله لي الرئيس عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة منذ بداية الثورة وبحضور عبد القادر حاتم — قبل أن يصبح وزيراً — اذ قال لي « أنت الوحيد الذي وقف الى جانبنا بصدق واخلاص » !

واليوم لا أريد أن أذكر سيادته بقوله هذا ، ولكنني أحب أن أذكره بشيء آخر . . . بأنور السادات ، الابن الروحي لعزيز المصري .

وعزيز المصري هو « الاب الروحي للضباط الأحرار في مصر » كما كان يسميه جمال عبد الناصر . . .

وعزيز المصري ما يزال على قيد الحياة !

٧ – الزمن الرديء !
شهيد الموسيقى الشرقية

« وشيمة أهل الفن سوء الخلق »

الجاحظ

وأهل الفن الذين وصفهم الجاحظ ، منذ القدم ، بسوء الخلق ، لا يمتون الى الفن وأهله بصلة ولا حتّى بقشرة بصلة !

إنما الذين عناهم كبير كتاب العرب ، فليسوا الا الطفيليات التي تطفو على صفحة الفن الأصيل الجميل وتعيش على الفتات . . .

ذكرت كلمة الجاحظ هذه عندما قرأت في الصحف نبأ وفاة صالح عبد الحي وكيف ان أحداً من « الفنانين » لم يشترك في تشييع جنازته . . .

وصحيح أن وزير الثقافة السيد ثروت عكاشة قد أناب عنه من يمثله . ولكن الصحيح أيضاً ان حياة الضنك والعوز التي عاشها كبير مطربي الشرق في آخر أيام مرضه الذي طال ، كانت من الشدة والقسوة بمكان كبير .

ومما زاد في آلام الرجل انه كان عزيز النفس مترفعاً ، يرفض باستمرار المعونة من « الفنانين » أنفسهم الذين لم يشتركوا في تشييع جثمانه . ولقد جاء رفض صالح عبد الحي في حياته لمعونات هؤلاء « الفنانين » آية صدق على صحة رأيه بهم بعد مماته . . .

وصالح عبد الحي ، يعتبر بحق شهيد الموسيقى الشرقية فلقد غنى زهاء خمسين عاماً ، وظل محافظاً على أسلوبه في الغناء وطريقته في الاداء ، كما بقي محافظاً أيضاً ، وحتى آخر أنفاسه ، على رأيه بالمطربين المحدثين الذين كان يسميهم « صراصير الفن » !

والشهرة التي حظي بها هذا المطرب الكبير ، لم يحظ بها مطرب من قبله ولا من بعده .

والعز والمجد والمال والجاه الذي تقلب بين أحضانه زمناً طويلاً ، ما عرفه وما أحسب أن أحداً من المغنين العرب سيعرفه !

والنهاية المؤسفة التي انتهت بها حياة صالح عبد الحي ، لا تسيء الى صالح عبد الحي ولا تخجله ، بقدر ما تسيء وتخجل كل من ينتسب الى الفن وأهله في مصر ، ابتداء من أم كلثوم ونزولاً حتى محمد عبد الوهاب . . . أما « صراصير الفن » الذين كان يسميهم صالح عبد الحي ، فليس يطلب منهم شيئاً ، وهم الذين أصبحوا كل شيء في غفلة الزمن ، بعد أن أصبح التهريج فناً ، والعواء غناء ، والميوعة والتخنث سلم المجد والثروة والجاه والسلطان . . .

واذا ما تخلف كبار الفنانين أو من اصطلح الناس على تسميتهم كذلك ـ عن القيام بأبسط الواجبات حيال استاذهم وكبيرهم صالح عبد الحي فأولى بصراصير الفن وطفيلياته أن لا يطلب منها شيئاً !

* * *

نهاية شهيد الموسيقى الشرقية صالح عبد الحي ، تبدو من أسطع آيات الزمن الرديء ، الذي انقلبت فيه المقاييس رأساً على عقب ، واختلت فيه الموازين ايما اختلال .

وليس الأمر وقفاً على ناحية واحدة من نواحي الحياة ، بل أصبح كل وجه من وجوهها سواء في السياسة أو الأدب أو الصحافة مماثلاً ومطابقاً لما آلت اليه نهاية الفن بنهاية صالح عبد الحي ! !

٨ ـ الزمن الرديء وفن التصوير ... !

عندما ذهبت أمس لمشاهدة معرض الفنانين السوريين ، كانت تراودني الفكرة البائسة التي انطبعت في ذهني عن المصير الذي صار اليه فن الرسم ، بعد أن أصبح أمره بيد الصبية والتافهين الذين ابتدعوا مدارس تحمل اسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، سداها ولحمتها البواخة والتهديم لكل ما هو جميل ونبيل وأصيل .

ولست أنكر أن فريقاً من الفنانين المعاصرين المجيدين هم حرب على هذا النوع من الرسم الذي ابتدعوا له المدارس والاسماء ، ولكنهم أصبحوا قلة بعد أن شاعت الموض المتعددة في الرسم ، تماماً كما تروج الالحان المائعة والأغاني العصرية الخليعة .

لست مصوراً ولا نحاتاً ولا ناقداً فنياً ، ولكن ليس يعني هذا انني أحشر نفسي في أمور الفن اذا ما استنكرت هذا النوع من الدجل والتدليس والمسخ والتهديم ، الذي تطفح به مدارس الرسم الحديث والذي يقدمه أصحابه على انه آية الآيات للفن العصري !

فلقد شاهدت في معرض الفنانين السوريين بضعة لوحات تجعل المرء يتحسس عقله قبل أن يتحسس عينيه ، ويدير النظر فيمن حوله ليسألهم « ما هذا الذي ترونه » ؟

لوحة ـ أو هكذا يسمونها ـ أفرغ صاحبها من حيث يدري أو لا يدري كل ما بجوفه أثر سكرة غير موفقة في خمارة « تيرسو » !

ولوحة ثانية — هي أخت الاولى — انقلبت عليها بضعة زجاجات من الحبر الأحمر والاخضر والأزرق والأصفر والأسود والبني والليلكي وغيرها من الألوان الأخرى . ويبدو أن صاحبها قد ترك للحبر عمله في سيلانه ليرسم الخطوط والتعاريج والطراطيش قبل أن يقدمها صاحب اللوحة في المعرض داخل اطار أو من غير اطار . . .

وتتساءل ما هذا وما هو المقصود بهذا الذي يعلقونه في المعرض تحت اسم فن التصوير ؟ وتذوب في ثيابك حياء وخجلاً ً لجهلك . . .

ان هذا الفن الجديد هو ما يسمونه بالفن « الفوضوي » الذي لا يخضع لخط أو شكل أو لون ولا يتقيد بقاعدة أو نظرية أو مبدأ . . . ويسمونه بالفرنسية Informelle ونسميه بالعربية غير الفصحى « خربش بربش » !

وتغوص حتّى أعماق قدميك عندما تعرف ان أحد زعماء هذا الفن واسمه « فوتربيه » قد نال الجائزة الأولى في معرض « فينيس » وان إحدى لوحاته قد بيعت بمبلغ ٢٠ الف ليرة وانّها تستريح على حائط في احد القصور اللبنانية !

لقد استطاع اليهود أن « يبندقوا » السياسة . . .

وامتدت أنوفهم وأيديهم صوب الفنون الجميلة فبندقوها ، وكان نصيب الرسم والتصوير حصة لا بأس بها من « البندقة » اليهودية .

فالحرب على الاصالة والنبل والجمال والوضوح ، هي التي شنتها وتشنها الصهيونية على فن التصوير والرسم ، كما شنتها وما تزال تشنها في ميدان السياسة والاجتماع .

ومن عجب أن تنطلي الأساليب اليهودية على الفنانين العرب فتجعلهم « ينصرعون» بها ويهيمون بتقليدها وتزويرها مع انها نفسها كلها تزوير وتشويه ومسخ ، تزوير للحق ، وتشويه للصدق ، ومسخ للجمال . . .

هل هذا كل ما شاهدته في معرض الفنانين السوريين أمس ؟

كلا فهناك محاولات جدية عاقلة للسير في طريق واضحة واعية ، وعلى رأس هذه القلة من الفنانين السوريين الفنان « محمود حماد » رسام عاقل متئد يعرف ماذا يرسم ، ويعرف السبيل الذي يسير عليه بلا ادعاء ولا غرور . . .

لقد استفاد من محاسن الفن العصري الذي يعيش فيه وتخير منه ما ينسجم ويتوافق مع أسلوبه الكلاسيكي الأصيل في الرسم .

* * *

ما لي أتحدث عن فن الرسم والتصوير وما آل اليه من مسخ وتزوير . . . وأمامي السياسة وأفانين أهل السياسة . . .

كيف كانوا في الماضي ، وكيف أصبحوا اليوم ؟

من هم بطانة الرؤساء والحكام فيما مضى . . .

من هم الكتاب والادباء والصحفيون وأهل الرأي والتوجيه الذي كان زعماء زمان يستقدمونهم ويستشيرونهم ويمثلونهم .

ومن هي حاشية رؤساء وزعماء و « أدباء » وكتاب آخر زمان . . .

حقاً انه زمن رديء . . . هذا الزمن الذي أصبح فيه المقلد التافه فناناً ، والصحيفي الكويتب موجهاً ومرشداً ، والمنافق اللعوق سيداً وكبيراً ، ألم أقل انه زمن ردي ؟ !

إميـــل البستـــاني
ينتصر للزمن الردي !

لم أكن أعلم أن اميل البستاني ، الذي زاده الله بسطة في الجسم والمال والاعمال ، بات يشكو قلة الشغل في هذه الأيام ، مع انه رجل « مسبع الكارات » وليست شركة « الكات » إلا أقل المهن والادوات !

ولكن اميل البستاني مع ذلك لم يجد غير مهنة الكتابة يتعاطاها ويلج بابها .

كان الله في عون البستاني من هذا الباب الجديد وهذه المهنة الجديدة . . . والف مبروك عليه وعلى القراء !

« أ. ش »

لو عن على بال أحد من الناس ، أي واحد من الناس ، أن يبحث عن الإبداع في البشاعة ، او الرداءة في الحسن والحلاوة ، لما وجد غير ريشة الأخ أحمد شومان ، سنداً يتكيء عليه ، وملاذاً يلجأ اليه ونوراً يفتح عينيه فيبص ليجد الرديء جيداً جواداً ، والحسن رديئاً تتقزز منه العين ، وينفر منه الذوق ، وتجيش منه النفس تقيؤاً . فمن حسنات هذا الزمن وطيباته ومكارم أخلاقه انه جاد على الدنيا كلها بريشة هذا لونها وطرازها وبتعها ، ترص للحسن اردأ النعت والوصف فتمسخه ، وتهندس للقبح أروع الاطار والصورة فتجمله وتبدعه فما كان للاشياء الحلوة الطيبة إلا أن تبكي ايام زمان ، حيث كان مقدروها وعابدوها يجعلونها عرائس شعرهم ،

وما كان للبشاعة إلا أن تتحسر على زمن أفلاطون الذي قدر وراعى شعورها وأنصف مكانتها فوضعها في مكان بارز جعله بمتناول عيون جميع الناس ليروا شكلها ولينفروا منها ومن قبحها ، دون أن يخطر في بالها أن زمننا هذا لن يطل عليها الا وقد نكبها بمن جعل منها قسراً وظلما وعدواناً ، عروساً لنثره ، ومفتاحاً لقريحته وزيتاً لفانوسه ، وشعاعاً لبؤبؤ عينه الساهرة ، ورفيقاً ليقظته السامرة ، فجعل كل همه طحنها وعجنها والامعان في زيادة مسخها ، فاذا بها تخرج على الناس من فرنه خبزاً مقولباً شهياً رنخاً طرياً يعلك ويلاك ويزدرد حتى عند ذوي الاحناك المفتقرة الى نعمة النتش والعلك والبلع .

هذا الزاد الذي يقدمه جراب الأخ أحمد كلما صاح الديك وتعنق ، وكلما طلع « نهار » ، هو على حلاوة طعمه وجميل اطاره لم يتبدل أو يتغير ، فكأن الناس بجرابه روزنامة مشاريع وأفكار أخذ متعهدها على نفسه اظهار كل محتوياتها ، وابانة جميع صورها ، حتى ينتفي للشك بأن الزمن الرديء رديء فعلاً وبأن التشاؤم لذيذ قولاً وتصوراً وتعمقاً واستبحاراً ، مع انه لولا التفاؤل لما كان التشاؤم ، ولولا الجمال لما كان القبح ، ولولا الحلو والطيب لما كان الرديء ، ولولا السعد لما كان النحس .

انتقل من هذا الى التعليق على ما كان في « نهار » اليوم موضوع الاخ أحمد في الفصل الرابع من « زمنه الرديء » وهو يدور حول خسارته الرهان ، لأن فخامة الدكتور ناظم القدسي عاد الى الرئاسة بالرغم من « الزمن الرديء » . لقد عاد الرجل الذي يصفه الأخ أحمد ، بالقانوني الرقيق البدن ، الضئيل الحجم ، الصامت المتزمت ، الكاره لكل جعجعة وبهرجة . . . « لقد عاد وهو في رأيي منسجم مع طبعه وخلقه ومزاجه . ولربما كان الدكتور ناظم القدسي قد تعذب نفسانياً واجتاز مراحل من الألم الصبور ولكنه عاد منتصراً على عذابه وألمه . وكانت عودته منحة فاقت كل محنة . ولرب محنة حملت في طيها منحة . أما المحنة فقد كانت تلك التي نكبت بها سوريا العزيزة والتي كادت تعرضها لاوخم العواقب . واما المنحة فهي ذلك الانتصار الذي سجله الدكتور ناظم القدسي في وضعه شعوره الشخصي جانباً ، وفي اقباله من جديد على محاولة مسح الجروح العميقة التي طالما تألمت منها سوريا الشقيقة . وفي رأيي أن على كل مخلص أن يزداد عنده الوعي ليقدر موقف الدكتور القدسي ويعترف له بحكمة القرار الذي ساعد سوريا على ايجاد منفذ الى السبيل النير وجعلها تأخذ في كسب المزيد من القوة . لقد عاد الى سدة الرئاسة وهو أكبر منها ، وعاد ليكون ضمانة أكيدة لعودة سوريا الى السلامة والعافية والازدهار . وهذه حقيقة ينبغي أن تكون في منزلة اليقين الذي تسكن اليه النفوس وتطمئن اليه الضمائر .

الرئيس القدسي كان مدركاً ولا شك انه إذا لم يعد لربما حلت الكارثة التي لا قيام بعدها ، ولا عودة الى الشرعية والنظام والدستور . وليس المهم في محنة هذا شأنها أن ينتصر الانسان لشخصه لنفسه ، لارضاء شعوره ، وجميع أحاسيسه الشخصية ، فالتضحية بكل هذا وقد وجدها الرئيس القدسي ضرورية لم يتهرب منها بل أقبل عليها وهو على أكثر من يقين أن تضحيته بشعوره الشخصي هي نصر لوطنه : لقد ضحى بنفسه من أجل غيره . وهذه حقيقة باتت معروفة عند معظم الناس . ولن أحاول هنا البحث مع غيري ، عن المنتصرين والمهزومين في سوريا ، عن الغالبين والمغلوبين . ولا أريد أن أضع في اعتباري ان محنة سوريا أوجدت غالباً على مغلوب . فهذه التسمية غير واردة . وانما الظاهر والساطع سطوع الشمس هو انتصار سجله الرئيس القدسي . ولعله انتصار على نفسه ، ولكنه انتصار لسوريا . ولم يكن من الضروري أن ينتصر على غيره حتى ينقذ بلده ، فتضحيته كما قلت انتصار . وهذا أشبه شيء بانتصار الناصري على الموت .

« اميل البستاني »

الفهرس

لبنان

مصر

مصر وسوريا

سوريا

عرب ـ الجزائر ـ اليمن

المسؤولون

الزمن الرديء



القلم الحرّ، والخطوط الحمراء

لو سئلت من هو أشجع صحافي في لبنان، لما ترددت في القول إنه أحمد شومان. فهو ليس أشجع وأجرأ صحافي في لبنان، بل في العالم العربي.

فما عرفت الصحافة العربية صحافياً تجاوز الخطوط الحمر في سائر الأنظمة العربية، وتجاوز الشجاعة والصراحة والجرأة، إلى درجة التهور والفداء؛ فكان بحق فدائياً من طراز نادر.

عرف لبنان والعالم العربي عهوداً وعهود، تعلبت في جنباته رجالات وسياسات، هانت فيها الكرامات وأمسكت الأقلام عن قول الحق الصراح والرأي الحرّ الخالص من كل قيد والتزام، إلا إلتزام الصدق والصراحة المنزّهة عن الغايات والمصالح الخصوصية، فكان قلم أحمد شومان مثالاً لحرية الصحافي وشجاعته عزّ نظيرها بين من عرفت الصحافة العربية من أقلام.

زهير عسيران

أحمد شومان صحافي فريد من نوعه في العالم العربي. نفته فرنسا إلى مصر في الأربعينات وكان في أوائل العشرينات من عمره.

في الزمن الرديء كتب بإخلاص وعن قناعة في الشأن العام. كان يقول كلمته ويمشي غير عابىء بالترغيبات ولا بالتهديدات والوعيد ومحاولات الاغتيال.

كان باستطاعته أن يصبح صاحب أكبر مؤسسة صحافية لو عرف التملّق ومسايرة عرب البترول، لكنه أبى تلك العروض كي لا يؤجّر قلمه للتبخير والتبجيل.

أما في زمن التدجيل والتبجيل وعبادة الأشخاص فقد قرّر الانسحاب إلى صومعته تاركاً المهنة التي أحب وفي قلبه مرارة من الصحافة وأصحابها الراقصين في كل عرس والنائحين في كل مأتم.

عرفته في الخمسينات صحافياً شاباً، وأصبحت صديقاً له في السبعينات لأن آراءه في الناس والسياسيين كانت تدهشني ولا تخطىء.

فؤاد عوض

الزمن الرتيب، للزمن الرديء

«الزمن الرديء» مجموعة رسائل وليس مقالات صوّر فيها الأديب الكاتب أحمد شومان صورة ما كان يحدث على أرض الوطن العربي في فترات انتقالنا من عهود مثقلة بالتبعية إلى تقليد تجارب سوانا بشكل غير مدروس غير آخذين بعين الاعتبار واقع حالنا.

بقلمه الجارح غرس مبضعه عن طريق جريدة «النهار» في الجرح لإخراج الرواسب المتراكمة في نفوسنا لعهود طويلة.

وفي ظلمة الليل العربي أُخرِجَ من «النهار» لأن العتمة قد أعمت العيون ولم يَعد للنهار في «النهار» مكان...

أحمد شومان الإنسان رأى وصوّر ما كان يراه الآخرون وأقدم حين أحجم الآخرون خوفاً من السلطة والسلطان.

دفع ثمن ما كتب وما يزال، وربحنا نحن صوراً صادقة لما كان يحدث أيام «السفير البرجوازي للدولة الإشتراكية».

أحمد شومان علّك تنبري مرة أخرى وتصوّر هذه الحقبة التي تعيش تحت عنوان «الزمن الرتيب».

أحمد طبارة